«رابطة اللغة» لعبد الرحمن شهبندر

بقلم سعيد ابو الحسن

* * *

تقديم : عام ١٩٤٦ كنت اسهم في تحرير جريدة « الحضارة » الدمشقية التي اصدرها المرحوم الاستاذ فهمي المحائري لتكون الناطقة بلسان عصبة العمل القومي ، بخاصة ، وجبهة المعارضة آنذاك بعامة . وكان المرحوم الاستاذ المحائري قد لاحظ اهتمامي باللغة والادب وعنايتي الزائدة بالجريدة من هاتين الناحيتين ، فقدم الي هديتين اعتز بهما واحتفظ بهما في المكان الحرز الجدير بهما : الهدية الاولى نسخة من القرآن الكريم ـ والثانية هذه الوثيقة التي اقدمها للنشر ، على صفحات مجلة الاديب الغراء ، لتكون في متناول من يريد من الباحثين .

وهذه الوثيقة مؤلفة من خمس ورقات من القطع الكبير مطبوعة على الالة الكاتبة ومسحوبة على الجستنر، والصفحات الاربع الاولى مطبوعة كاملة اما الخامسة فمطبوعة حتى منتصفها وهي تحمل تحت القسم المطبوع خاتما مستديرا يحمل في الوسط عبارة « مكتب الاستعلامات السوري بالقاهرة » ، وعلى الاطار بين دائرتين هذه العبارة بالذات باللغة الفرنسية :

Bureau d'informations Syrien - le Caire

وحملت الوثيقة عنوان : « رابطة اللغة ـ حصن منيع في الجبهة العربية » ثم اربعة اسطر تضمنت التعريف بالخطاب والمناسبة التي القي فيها ، ثم نص الخطاب ، وقد طبعته على الالة الكاتبة كما ورد بالحرف ـ وقال لي المرحوم الاستاذ المحائري عندما اعطاني هذه الوثيقة : « انها لم تنشر من قبل » ـ ولعلمي بصلة الصداقة المتينة التي كانت تربط بين الزعيمين السياسيين فقد اعتبرت ما قاله الاستاذ المحائري من عدم نشر الوثيقة سابقا حجة ، وعلى هذا الاساس اقدمها لقراء الاديب بعد ان مر على اغتيال مؤلفها ست وثلاثون سنة (اغتيل الدكتور شهبندر عام ١٩٤١) ، ومر على وفاة مهديها بضع سنوات ، رحمهما الله .

* * *

رابطة اللغة

حصن منيع في الجبهة العربية

نص الخطاب الممتع الذي القاه معالي الاستاذ الزميم الدكتور عبد الرحمن شهبندر في الحفلة الادبية التي اقامها بمنزله مساء ١٢ ابريل سنة ١٩٢٩ تكريما للاستاذ جميل بك بيهم عضو المجمع العلمي في بيروت . وقد حضرها صفوة مختارة من فضلاء العرب واقطاب الادب وقرروا في اثنائها تمهيد السبل الناجعة ووضع الخطط اللازمة لعقد مؤتمر دوري يتناول البحث في انهاض اللغة العربية وتقوية الاواصر بين ابنائها :

من الخطل ان يتوهم المرء ان الصراع بين الاقوام يقتصر على النزال في ميادين الطعن والضرب ، بل ان هذا الطعان يتناول العادات والتقاليد والمعتقدات والاوضاع وسائر الميزات التي تميز الجماعة الواحدة عن الاخرى .

ليست صدورنا وحدها عرضة لبنادق الفاتحين، ولا رؤوسنا لقنابل الطيارين ، بل ان الاطعمة التي ناكلها في بيوتنا والطرابيش التي نضعها على رؤوسنا والحفلات التي نقيمها في اعراسنا والادعية التي نتلوها في صلواتنا والعلوم التي نتلقاها عن آبائنا والالفاظ التي نلقنها ابناءنا كل ذلك عرضة لصراع اشد وطعان انفذ . وربما كان الموت في الميادين الادبية اشد فتكا منه في الميادين النارية ـ ذلك لان الامة مجموعة افراد خلقوا ليعملوا بالاشتراك على تحقيق غاية معنوية. فكل خسارة تخسرها الامة في معنوياتها تفقدها شطرا من هذه الغاية الجوهرية .

ان معظم المساعي الغامة التي نصرفها في هذا الشرق العربي ، سواء في مصر ام في الشام ام في العراق ، هي موجهة لتاييد كياننا السياسي والاحتفاظ بحريتنا الحكومية ، لاعتقادنا ان من كان سيدا في بلده هو حاكم على الميراث المادي والمعنوي الذي يرثه من الاباء والجدود . واما من كان عبدا فهو غريب حتى عن الدار التي يسكنها ، والاهل الذين يعيش بينهم ، والاوضاع التي ينشا عليها . مع كل ما اشتملت عليه هذه العقيدة من الحقائق الناصعة ، التي اهتدى اليها الشرق بعد المحن والالام ، فعلى من عاش مثلنا في بلاد كتب عليها موقتا الا تتمتع باستقلالها التام ، ان يتذكر ان الدفاع عن الكيان لا يقتصر دائما على ميادين الطعن والضرب . بل هنالك ميادين معنوية لا تقل في شرفها عن ميادين الحديد والنار .

ان مدنية الناطقين بالضاد مهددة بالاكتساح كما اكتسحت اشرف بقاعهم واثمن اراضيهم . لان الاوضاع التي ليست لها مدرعات تحميها ودبابات تذود عنها وطيارات ترفرف عليها ، مهما كانت عزيزة على اصحابها مقدسة في اعينهم ، لا تستطيع الثبات كثيرا على المقاومة والحرم الذي لا تحميه القوة بابه مفتوح للاقوياء .

ان كل هجوم طارىء يتطلب جبهة مستحدثة للمقاومة : فهجوم البهرجة في النساء مثلا الف وحدة جديدة في الرجال باسم جيش الحشمة للرجوع بالمراة

الى الالبـــة المـــدولة الاولى . وكذلك فعل تيار الافكار الفلسفية الحرة المطلقة من القيود فاقام في الماضي . كما اقام في الحاضر ، سدودا من اهل الدين وحملة التقاليـــد تمنع فيضانه . وما المفـرون والمجتهدون ودعاة الاصلاح في الاسلام الا عمال في اقامة هذه الســدود . وكل تاويـــل جديد يهتدون اليه انما هو حجر في البناء .

ورأينا في ايامنا الحاضرة ان تقدم المانيا الاقتصادي وتفوقها في وسائل الحرب ادى الى محالفات دولية باسم انقاذ المدنية وتاييد الديمقراطية او غير ذلك من الجمل الخلابة في وجه التيار الجرماني الجارف مما انتج الحرب العالمية وذيولها التي تئن منها الشعوب .

وما استعرضنا مثل هذه الحوادث الا لنبين كيف تتالف الجبهات المتماسكة لرد الهجوم المستجد العنيف.

ولا مراء ان المناهضين في هذا الشرق المتوســـط يعالجون طارئا جديدا هو الخطر الذي يهدد الثقافـــة العربية وعلى قدر عزائمهم ومضي السلاح الذي يحملونه ستكون صلابة الجبهة المعنوية التي يقيمونها . ومـــن العبث ان يتقدموا بالسيوف والرماح والابل والهـوادج والشيح والقيـــوم لمصارعة البنادق والمدافع والسيارات والطيارات وما يدفعها من الزيوت . فاللغة لا تستوعب هذه المصطلحات الحديثة هي مثل الامة التي تحمـــل السلاح البالي محكوم عليها بالفشل .

وليس مثل التجانس الادبي اللغوي الراقي اساسا لمثل هذه الجبهة الصلبة ولا يكفي ان ينطق الناس لغـــة واحدة ليتجانسوا في آدابهم بل لا بد من وضعهم في بوتقة التثقيف حتى يذوبوا في ادب واحد ولغة واحدة .

ان بين الناطقين باللغة العربية من اهل الشرق من هم في ثقافتهم ابعد عنا من الناطقين بالعجمة من اهـل الغرب فعلينا اذا اردنا توحيد الصفوف حتى في القطـر الواحد ان نعطي الثقافة حقها لان الاختلاط في اللغة مع التشابه في الثقافة اقرب الى التمازج من اتحاد اللغة مع التنافر في الثقافة وهذا ما حمل العلماء على القول بان التشابه المعنوي في اعضاء المجتمع هـو اساس جوهري للحضارة .

ولما كان الدين في القرون الوسطى مدار الثقافـة وقطب الدائرة في الحركات الاجتماعية كان جمع الاقوام (حتى المتنافرة في لغتها) حول العقائد المنزلة سهـلا لا جرم ان الالمان والانكليز والفرنسويين اتحدوا يومئذ تحت راية الصليب لاخراج الكرد والترك والعرب من الاراضي المقدسة . ويرى كثير من اهل السياسة في اتحاد الحلفاء عقيب الحرب العالمية على احداث وطن قومي لليهود اثرا من هذه الجامعة الدينية وتحقيقا لنبوءة الكتاب المقدس بعودة المسبيين الى اورشليم بعد ظهور السيد المسيح . على ان حاجة بريطانيـــا الى مال الاسرائيليين في ابـــان اشتداد الحرب العالمية كانت ولا شك من الاسبـــاب الرئيسية لنزول بريطانيا على ارادة الصهيونية .

واني وانا الفت الانظار الى شان التجانس الادبي في جمع الاقوام لا اريد ان ابخس اللغة حقها في المقـــام الرفيع الذي تبواته في توحيد الناس بل انها هي رمز المجتمع والى نورها المتلالىء تعشو الاقوام المتخبطـــة في الديجور لتستنير .

وما اصدق ما قاله عنها بلاكمار وجيلين :

« لقد ادت اللغة دائما وظيفـــة مهمة في التنظيم الاجتماعي . فقد تولدت بواسطتها من حيث هي اداة التفاهم الجماعات الصغرى واعتزت وكذلك اتحدت جماعات اخرى . وتتجاذب الشعوب ذات اللغات المتماثلة واما ذات اللغات المتباينة ففيها ميل الى التنـــافر . والصعوبة في اقرار النظام الاجتمـــاعي بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة هي صعوبة كبيرة جدا حتى انها تلاحظ اليوم في المدن الاميركية الكبرى وما فيها من اهلين غير متجانسين. ومع ان اللغة في مثل هذه الاحوال تدعو الى الانقسام فهي في الاصل كانت مدعاة الى الوئام . واللغة هي وليـــدة السعي للافصاح عما يخالج النفس من الافكار وكل من ينقب عن منشأ المجتمع البشري يجد في فعل اللغة وفي رد فعلها سببا من الاسباب الداعية الى حدوثه ونتيجة من النتائج المتولدة عنه » .

والان يهمنا ان نرى هل في استطاعتنا يا ترى ان نستانس بشيء من قواعد العلم الثابتة في تشيد هـذا الحصن الادبي المنيع القائم على رابطة اللغة والثقافـــة في الاقطار العربية الراقية ؟.

ولم اقتصر في مقالي هذا على هذه الاقاليم الراقية الا لسبب التفاهم الحادث بينها فالوزير والنبيل والفقيه والاديب والعالم والتاجر من ابناء مصر اذا حل ضيفـــا في سورية او في العراق مثلا اوجد لنفسه فيهما في مدة اربع وعشرين ساعة حلقة من الاهلين لا يحصر عـــدد افرادها تفهم منه لغته وتدرك اشارته وتقدر شكواه وتحيط بمعانيه احاطة الشقيق فهل يجوز ان نترك هذه القـوة العظيمة تذهب عبثا كما ترك العلماء حتى الان حـرارة الشمس تضيع في الصحارى وقـوة الامواج تتكسر على الشطوط !

لقد اثبت العلم ان في مقدمة الاهداف التي يسعى المجتمع للوصول اليها الحصول على القوة وعلينـــا الا نغالط انفسنا بالحقائق فننقاد الى اولئك الكتاب النظريين الذين ملأوا الدنيا صياحا في اوائل الحرب العامة بالطعن في القوة للنيل من الاقوياء فمثل هذا الطعن تزويج للدعاية التي اثارتها المصلحة السياسية . قال تانبرج « اننـا حاصلون على القوة فلا حاجة بنا الى البحث عن برهان اخر » وقال الاستاذ جدنجس « ان معظم الناس يعجبون

بالقوة خاصة ويقدرونها قدرها في تكوينهم المثل العليا التي يضعونها نصب عيونهم جدية كانت هذه القوة ام عقلية أم اخلاقية . والبطل الذي يعشقه الرجل المتوسط هو شخص ذو قوة جدية او حذاقة او شجاعة وهو يتلذذ بمعرفة هذا البطل وبصحبته ويرجو ان يرى نفسه شبيها به ويتمنى ان يكون المجتمع الذي ينتمي اليه موصوفا بالقوة ومظهرا لها « ... ذلك لان الحياة في حد ذاتها هي حركة وصراع وان اعمق الغرائز المغروسة في النفس هي غرائز الحركة والنشاط ثم هنالك نفعا كبيرا يجلبه السعي الجدي في الدرجات الابتدائية من النشوء العضوي والنشوء الاجتماعي فالفرد الذي يطلب النجاح في تنازع البقاء عليه ان يكون قويا وسريع الحركة وهذا هو حال الجماعة ايضا . والحياة محفوفة بانواع الخطر والصراع حال دائم . وكل ما كان مظهرا للقوة يرهب المخيلة ويأخذ بمجامع القلوب وما يتم الحصول عليه بالقوة وحدها طمع الناس فيه والقوة التي تنيل المرء غايته هي موضع الاعجاب والاستحسان » .

وقال صاحب « المجمل في علم الاجتماع » اما القول بان الراي العام يغلي قدر القوة فوق سائر الاقدار فهو قول يبدو لاول وهلة خطا لكن نظرة واحدة في الاحكام التي يصدرها المجتمع تقنع المرء رغم انفه ان هذا هو الواقع » .

فهل نحن والحالة هذه على خطا اذا ما طلبنا لمجتمعنا قوة نعتز بها وذلك بتوحيد جهودنا لجعل لغة التفاهم فيما بيننا على مستوى واحد من الرقي الادبي والعلمي واهلا للأقاة المقتضيات الحاضرة ؟ واذا كان اشراك عظامنا وعضلاتنا واعصابنا في الوقت الحاضر متعذرا فلنشرك عقولنا وارواحنا ولنوحد صفوفنا توحيدا ادبيا يسير بنا نحو القوة المنشودة .

والدساتير الاجتماعية الاتية متى طبقت على اللغة وتاثير اللغة في الجماعات تطبيقا نزيها دقيقا تنير الموقف وتفتق الذهن الى العمل الواجب تحقيقه :

(اولا) دستور العطف وهو « تزداد درجة الاشتراك في العواطف بازدياد الشبه » بين الافراد والجماعات . فالبيض في بلاد السود مثل السود في بلاد البيض يتداعون ابناء العمومة والخؤولة . ولو كانوا من بلاد على طرفي نقيض من سطح الارض . والغربيون في الشرق كالشرقيين في الغرب اشد التحاما واقرب تفاهما ولهم جمعياتهم المعينة وانديتهم الخاصة . « والمصالح العامة والمشاعر المشتركة » كما قال المجمع في علم الاجتماع « تقرب الناس بعضهم من بعض وتزيد في عطف الواحد منهم على الاخر . والشعوب التي هي على درجة واحدة من الثقافة تتولد فيما بينهما مصلحة عامة فعواطف مشتركة وروابط العطف بين الافراد المجتمعين على مستوى واحد والمشغولين باعمال واحدة هي اقوى بكثير منها بين اناس تبدو فيهم الاختلافات الواضحة في الاخلاق والثقافة والحرفة » .

(ثانيا) دستور التقليد وهو « اذا لم تقم الموانع فالتقليد ينتشر بنسبة هندسية » يعني على معدل اثنين فاربعة فثمانية وهلم جرا بمضاعفة العدد اللاحق للسابق . وهذا الدستور على اعظم جانب من الخطورة في تدرج الاقوام والجماعات . وكما ان الطفل يكتسب في سنيه الاولى جميع عاداته تقريبا وجزءا كبيرا من معرفته ايضا بواسطة التقليد فكذلك الجماعات ولا سيما في ادوارها الاولى . واللغة واسطة من اقوى الوسائط لنقل الاوضاع والمدنيات من جماعة الى اخرى بالسرعة العجيبة . ولا شك ان الصلابة القومية او مقاومة الاندفاع في التقليد هي صفة جوهرية لحفظ الميزات الخاصة في الجماعات ورمز للقوة الكنية المستترة في النفوس ولكنها متى افرطت فصارت يبوسة بحيث يقف القوم في وجه كل تغيير مستمر باعتباره « بدعة » ولو كان ركوب السيارات بدلا من الجمير فالجمود او الانكسار امر لا مفر منه . وقد رأينا في هذا الشرق اما اندفعت في تيار التقليد كما جمد غيرها على جلاميد المحافظة وكلاهما لا يدل على جهاز عصبي صحيح لان الحياة الاجتماعية المتدرجة لا يتحلى بها الا من كانت له عقلية ذات كيان مستقر من جهة وذات مرونة متكيفة من جهة اخرى .

والدليل على انتشار التقليد بنسبة هندسية هو مسالة رياضية مضبوطة فلو فرضنا ان زيدا من الناس احدث طرازا جديدا في الطعام او في اللباس او في الراي فقلده فيه عمروا ـ لا زيدا وحده ـ يصبحان مصدرين مستقلين للتقليد سيقلد بكر زيدا ويقلد خالد عمروا وهكذا يصبح لدينا اربعة مناهل للتقليد يردها اربعة اخرون فيكون مجموع المناهل المستجدة ثمانية وهلم جرا طبقا لمتوالية هندسية .

وهذا الدستور يفسر السرعة العجيبة في انتشار الازياء الحديثة والافكار الحاضرة . ولو لم يتغير التقليد بتغير الامم التي يمر عليها كما يتكسر النور بحسب المادة الشفافة التي يخترقها لكان التدرج في الاقوام بطيئا لذلك رأينا الدين الواحد في بعض الاحيان مختلفا باختلاف الاقوام التي آمنت به .

والشيء العملي في هذا الدستور هو ان توحيد الثقافة في اقطارنا العربية ليس من الصعوبة بالمكان الذي يتراءى فيه بل كلما اكثرنا من مناهل التقليد قربنا اليوم الذي تتشابه فيه المشاعر والافكار وتتحد المثل العليا .

(ثالثا) دستور العمل الاجتماعي الاندفاعي : يشبه هذا الدستور دستور التقليد من حيث انه ينتشر ويشتد على نسبة هندسية والمثال البارز عليه هو الفزع الاكبر

الذي يستولي على الجماعات في الحروب والمجتمعات والطرقات فيختلط فيها الحابل بالنابل ويدوس القوي من تزل قدماه من كثرة الرعب او من شدة الازدحام . وغني عن البيان ان للتقليد شانا كبيرا في مثل هذه الاندفاعات وللغة القدح المعلى في صوغ الجمل التي تلعب بالعقول ونظم الافكار التي تحرك الجامد . ولا يدري احدبالضبط قيمة الدور الذي مثلته الجمل الاتية في الانقلابات « لا ضرائب من غير تمثيل » « الحقوق الطبيعية » « اعلاء كلمة الله » « فلتحي فرنسا » «المانيا فوق الكل» وربما لعبت دورا مثلها كلمة الدكتور ويلسون « تقرير المصير » .

(رابعا) دستور الشعور بالنوع : وخلاصته ان الافراد او الجماعات متى اضافوا الى وجود الشبه القائم بينهم الشعور بهذا الشبه والاحاطة به وبالعطف المتولد منه ازدادوا تقاربا وتلاحما . ويدل هذا الدستور على خطورة المساعي التي تولدت من بث الدعايات بواسطة الصحف والمنابر والجمعيات لاظهار الشبه النوعي في الاقوام المنتشرة والعطف المتبادل بينها كما فعلت « الجامعة الاسلامية » في بلاد الصرب مثلا . وكلكم تذكرون الدور الخطير الذي مثلته في حمل الروسيا على اعلان الحرب على النمسا بعد مقتل فرديناند ولي العهد لانه كان المعقبة الكاداء في سبيل الاتحاد السلافي .

(خامسا) دستور البقاء وهو « تزدهر الاوضاع او تذبل بحسب تكيفها لمقتضيات الحياة المحيطة بالشعوب» فالعربية التي تعيش في وسط العلم المادي والانقلابات الاجتماعية ولم يتفق ابناؤها وهي سجل ثقافتهم على المصطلحات البسيطة الدالة على موازين الحرارة والرطوبة والهواء والكهرباء ولم تنبس معاجمها ببنت شفة عن اجزاء القطرات وادوات المراجل والمحركات ولم تشر لا بالتصريح ولا بالتلميح الى مذهب النشوء والارتقاء وناموس الجاذبية ودستور التحام الاجزاء المفردة ناهيك بالجراثيم ونظاراتها والطعوم ومناعاتها وما نشأ عن ذلك من الانقلابات الخطيرة في العلوم البيولوجية — ان هذه اللغة التي تعيش على هذا النمط من العزلة في هذه الاوساط الجذابة من غير ان تدون خصائصها ولا تسجل في صحائفها اسماء الانقلابات الاجتماعية الخطيرة المحيطة بها من رأس مال واشتراكية وشيوعية وفوضوية وغير ذلك من المذاهب الاجتماعية الصالحة او الطالحة — لهي لغة يحاول ابناؤها بكل ما اوتوا من قوة وعزم ان يخنقوها ولكن من خنق لغته فقد خنق نفسه لان هذه اللغة هي اداة التنفس الوحيدة للادمغة .

لقد حوت اللغة العربية في الاعصر الخالية ادق حالات النفس واوصاف الطبيعة وما عليها من المخلوقات الكبيرة والصغيرة كما عرفها الجاهليون واستوعبت وهي لا تزال على بداوتها في اوائل الاسلام حكمة الهند وفارس ويونان فمن المستبعد ان تعجز بعد مرور هذه القرون الطويلة في العقل والتهذيب عن استيعاب التطورات العصرية الحاضرة الا اذا اصر ابناؤها على الاستخفاف بخصائصها وما تمتاز به من صيغ عجيبة في البناء والتركيب .

ان في الفاظنا وفي كتبنا وفي معاجمنا الفاظا بالية مثل الاعضاء الاثرية في المخلوقات الحية تكاد تتلعثم بها السنتنا وتنوء بها صحفنا ومطابعنا ونحن احوج الناس في يومنا هذا المزدحم بالمتسابقين الى من يسرع خطانا واننا نقر في الختام ونعترف بان عبء المدنية ثقيل وان الذي يتتبع قافلة الحضارة وهي في سيرها المديد من ابواب الكهوف التي سكنها الانسان الاول حتى رتج القصور التي يسكنها الانسان الحاضر يجد وراءها اكواما من احمال مبعثرة على الطريق كانت تحملها لتوصلها الى انواقها فلما اصبحت هذه الاحمال بضاعة مهجورة مزجاة القتها عن عاتقها تخلصا منها لان وعثاء السفر شديدة والطريق طويلة معوجة مظلمة قد حار فيها الادلاء . والرجل كل الرجل هو الذي لا يترك من الماضي الا ما اثقله ولا يحمل من الحاضر الا ما سهل له سبيل السفر .

بعض ملاحظات عملية تستنتج من الكلام المتقدم لاجل تقوية اللغة العربية والاخذ بيد ابنائها :

(١) عقد مؤتمر دوري عربي في الاقطار العربية لاقرار المصطلحات وسن الخطط اللازمة .

(٢) تكاتف المجامع العلمية العربية بالمراسلة وانتخاب من يمثل المجمع الواحد منها في المجمع الاخر .

(٣) تبادل المعلمين وتزاور التلاميذ كما هو الحال في اوربا واميركا .

(٤) الاعتماد على مؤسسة صحفية لتأييد التعاون ونشر المباحث المشتركة .

(٥) اعطاء جوائز للمبرزين في اعمال التقريب والتعاون .

(٦) السعي الجدي في توحيد برامج التعليم .

(٧) تسهيل الاسفار بين هذه الاقطار في ايام المؤتمرات وسائر المواسم المؤدية الى توثيق الروابط الادبية .

(٨) تأسيس مكاتب عامة في عواصم هذه الاقطار تقتصر على الكتب والصحف المتعلقة بهذا الموضوع .

« خاتم مكتب الاستعلامات السوري بالقاهرة »

دمشق

سعيد ابو الحسن

الجبل الخالد

من ديوان « ألوان وألحان » الذي يصدر قريبا

زكي قنصل

*

حام قلبي عليك يا لبنان ... اسها عنه أم لها رضوان
لا تحول عينيك عني ، فاني ... بمغانيك هائم ولهان
هزني في رباك للحسن عرس ... دائم ، واستفزني مهرجان
فامتطيت الخيال يدفعني الشوق ، والشوق مقلة ولسان
يشهد الحب لم أغب عنك يوما ... كيف يناى عن أيكه الكروان
انا بالروح حاضر ، فاعيدي ... يا عصافير ، وارقصي يا قيان
كل حد ينهار مهما تعالى ... حين تدعو غيابها الاوطان
من وراء البحار صوتك دوى ... فانتشى الورد وازدهى الريحان
وطن الشعر والهوى لا تلمني ... ان عصاني فيمن أحب بيان
عقدت غربة اللسان لساني ... واهواني اذا درى عدنان

يا ابا الصيد يا مليك الجبال ... ما سلاك النزاح ، هل انت سال
لم تزل في قلوبهم أملا يزهو ... ونورا يجلو عبوس الليالي
كل شيء الى الزوال ، وتبقى ... شامخ الانف رغم أنف الزوال
تتحدى الرياح هوجاء غضبى ... وترد النبال تلو النبال
انت بكر الزمان .. لا تزه شمس ... بسناها ، ولا يطاولك عال
قد ملات الوجود عزا ومجدا ... ووصلت الاجيال بالاجيال
كلما مات في النفوس رجاء ... بعثته يداك غض الجمال
خصك الله بالنضارة ، فالبس ... بردة الشمس واعتصب بالهلال
انت اعلى شانا واغلى مقاما ... في ضميري من كل عال وغال
حسد الدر رمل شطك فاعجب ... للآلىء يحسدن قدر الرمال

فتية الارز بارك الله دارا ... ولدتكم غطارفا احرارا
زودتكم منذ الطفولة بالعزم ... فكنتم جناحها الطيارا
ماؤها من منابع الخلد يجري ... في دم الشاربيه نورا ونارا
فتحت صدرها لكل شريد ... لم يجد عند غيرها مستجارا
واباحت للطارقين مجانيها ... فاغرت بها بعيدا وجارا
غزت الارض ، لا بحد حسام ... يحسن القتل او يجيد الدمارا
بل غزتها بالحب فانتشر الامن ... يمينا وسار فيها يسارا
واتتها بالحرف في حلك الليل ... فماجت آفاقها انوارا
يا عقولا تطير شرقا وغربا ... وتروض الشموس والاقمارا
انت لولا قدموس كنت ظلاما ... فاخشعي دونه وغضي وقارا

فتية الارز ، قدسوا الارز رايه ... واجعلوه للحب والحق آيه
غرسته يد العناية قدما ... فاحرسوه وسبحوا للعنايه
لا تناموا عن ماكر او دخيل ... يظهر الود وهو يخفي النكايه
رب شر مستفحل مستطير ... فجرته وشاية او سعايه
خسىء الطامعون فيه ، وخابت ... دعوة ترتدي قناع الوصايه
هيكل الرب شيد منه وشدت ... سفن وزعت دروس الهدايه
رافق الدهر منذ كان غلاما ... وسيبقى رفيقه للنهايه

لا يته كابر عليكم بماض ... ان لبنان في الحضارة غايه
من شواطيه ابحر العلم آسا ... لم يكن في الوجود غير العمايه
وعلى ارضه الزكية اعلت ... .. الشعر الف الف بنايه

حدثيني يا حلوتي ، حدثيني ... فلقد ينقع الحديث حنيني
حدثيني عن عهد حيرام حينا ... ثم ثني بعهد فخر الدين
لا تقولي لكل عصر رجال ... بسمة الشمس حلوة كل حين
انقليني على جناحك ، اني ... اشتهي ان اطير ثم انقليني
كان لبنان للسلام رسولا ... وسيبقى على ممر السنين
كان اهزوجة على شفة الحب ... وطيبا يهب من صنين
تتلاقى الاضداد فيه وتمشي ... دغوة الشك تحت ظل اليقين
ليس فيه لابن الامير امتياز ... يتعالى به على ابن الهجين
جنحته فينيقيا واصطفته ... بنت عنان للبيان المبين
فهو بين السماء والارض جسر ... ورباط ما بين عرب وصين

ايه لبنان ، يا سياج الحضاره ... كل ربح لهاجريك خساره
ما اعتزازي باتجاه وهو سراب ... يخدع الاقلب ، بل يزيد اواره
ما انتفاعي بالمال ان هو افضى ... لهواني ، ولفتي بالمراره
ان موتي بوابل من جمان ... مثل موتي بوابل من حجاره
راحة البال فوق كل ثراء ... وصفاء الضمير خير تجاره
هب بنينا القصور قورا شما ... ورفعنا لكل قصر مناره
ومرجنا جدرانها باللآلي ... وفرشنا دروبها بالنضاره
اي جدوى منهن يرجو غريب ... حرمته غوائل الدهر داره
قد حسبنا على سفوحك كوخا ... واشتهينا الى ثراك زياره
افيروى غليلنا ام سنقضي ... في مهاوي آمالنا المنهاره

من لقلب مجرح ليس يهدا ... ذاب شوقا الى الربوع ووجدا
لم يخيب لسقط الراس ظنا ... او يضيع لرفقة الدرب عهدا
عاش عن مهده شريدا طريدا ... فتمنى في سفح صنين لحدا
يا مليك الجبال حياك ناء ... ليس يرضى بغير ودك ودا
يشكر الله .. ، ثم يزجي ... لك ـ .... ـ شكرا وحمدا
غمرته يداك بالرفد لما ... لم يجد في خزائن الارض رفدا
قلت اهلا فردد النجم اهلا ... وترامى على طريقي وردا
انكرتني الربى ، فطيبت نفسي ... وجفاني الكرى فوطات مهدا
يا مليك الجبال تاه قريضي ... باسمك الحلو واكتسى منه بردا
لست عني ، وان نايت ، بعيدا ... يصل الحب ما التباعد قدا

حان يا قلب ان نعود اليه ... حان ان نرتمي على شاطئيه
عبثا ننشد السعادة ان لم ... يتفجر عطاؤها من يديه
عبثا نرقب الصباح اذا لم ... يتلألأ سناه من عينيه
قم بنا أيها المشوق المعنى ... نتوكل بعد الاله عليه
اونخشى عليه عبثا خفيفا ... وهموم الدنيا على كتفيه
ما لصنين في الشوامخ ند ... عانقته السهى ونامت لديه
بش وجها لقاصديه وطابت ... نغمات الهوى على شفتيه
ليس هذا البياض ثلجا ولكن ... هو تاج العلى على مفرقيه
لا يفاخره بانضخامة عملاق ... ان قدر الانسان في اصغريه
سوف تفنى الجبال يوما ويبقى ... وحده واقفا على قدميه

بوانس ايرس ـ الارجنتين

زكي قنصل



نقولا يوسف

امسية مع نقولا يوسف

بقلم ايليا حليم حنا

* * *

رحل الاديب الصديق الودود « نقولا يوسف » عن عالمنا في ابريل ١٩٧٦ . وقد عاش زاهدا متصوفا في محراب الادب ، متواضعا بعيدا عن الغرور .. عاش مخلصا لقلمه حتى آخر انفاسه . بدأ حياته مدرسا وتقلد عدة وظائف تربوية تركها لان نزعته الادبية التي لم تتخل عنه بالرغم من مشاغل الوظيفة ، كانت تزداد وتطغى بمرور الايام ... استقال ليتفرغ للدرس والبحث والكتابة .

كان نقولا يوسف اديبا اصيلا متعدد الجوانب ، جرى قلمه في كل فنون الادب باستثناء الشعر المنظوم.. كتب الرواية الطويلة والقصة القصيرة والتراجم وكان ناقدا ممتازا ومؤرخا محققا مدققا . كتب الابحاث والمقالات والقصص في عديد من الصحف والمجلات منها: السياسة . والاهرام . والمجلة الجديدة ، والقاهرة . والمساء ، والعالم العربي ، والاديب ، والمصور : والادب. والبصير ، والادب الحي : والاهداف ، والطالبة . ودمياط . واخبار دمياط ، والفربال ... جاهد بقلمه في سبيل الخير والحب والانسانية والوفاء ، والصداقة .. كتب في التجديد والاصلاح والتخطيط والسلام العالمي والنقد والادب والتاريخ والتراجم والقصة ، وتميز في كل كتاباته بالاصالة والاخلاص والدقة ، وكان يرى ان السياحة لا تقل اهمية عن الاطلاع الكثير لنضج الاديب وتفتحه فطاف بعدة دول منها : سويسرا وفرنسا وايطاليا واليونان وتركيا ولبنان وفلسطين بالاضافة الى تجواله في معظم المدن المصرية .

شغل النشاط الادبي كل وقته وملأ حياته .. الف وترجم العديد من الكتب والقى المحاضرات وشارك في نشاط عدد كبير من الجماعات الثقافية ، وله العديد من الكتب والابحاث والدراسات التي نشرت في الصحف والمجلات ولم تجمع .. وهو بالاضافة الى هذا كله صديق قديم لعدد كبير من الادباء العرب والاوروبيين ، فكان يتراسل مع الكثيرين منهم حتى وفاته . وكم كانت رسائله الي مصدر سعادة كبيرة لي ، كنت اترقب وصولها واجلس اليها استمتع بما فيها من ود صاف ، وادب عال وفكر ثاقب ، ولمحات وضاءة ودعابة حلوة ، وتواضع جم . وسأفرد لهذه الرسائل القيمة الثمينة ـ التي اعتز بها ـ مقالا اتحدث فيه عن نقولا يوسف الانسان والاديب من خلال رسائله .

عرفت اديبنا الكبير نقولا يوسف قبل ان نتراسل باكثر من ثلث قرن وكنت اذ ذاك طالبا في نهاية المرحلة الثانوية ، قرات له « الفردوس » وكنت وقتها مفتونا باسلوب جبران والمنفلوطي .. وتابعته في مقالاته العديدة وقصصه بالمجلة الجديدة التي كان يصدرها سلامه موسى .. واعجبني في كتاباته الناحية الانسانية التي جند لها قلمه بقوة في ذلك الوقت .. وقرات له « من الاعماق » الذي ترجمه عن « اوسكار وايلد » ثم التقيت به في قصته الطويلة « الهام » قراتها عام ١٩٦٥ وعاودت قراءتها هذه الايام .. وامضيت معها امسية ممتعة وكانني اتجول في خديقة غناء بها كل ما تشتهي النفس ويبهج العين .. كلها ورود وزهور من جميع الالوان والانواع : لها عطر تنشقه النفوس والافئدة . كتبها اديبنا وهو شاب في عشرينات القرن الحالي ونشرها عام ١٩٣٧ . والقصة بها سمات السيرة الذاتية وهي تقف في صف « ابراهيم الكاتب » للمازني و « سارة » للعقاد ، تحكي الكثير عن تجارب وذكريات وخطرات وخلجات صاحبها .. انها صفحات من تاريخ انسان عاش للادب والفن والقيم الانسانية ، تدل ابلغ الدلالة على ثقافة المؤلف الغزيرة وعلى ما وهبه الله من دقة في الملاحظة والتعبير ، يلقي فيها النظرات الصائبة العميقة على كل ما شاهده واحس به وتعلمه وفكر فيه ؛ وجربه

... كشف لنا فيها عن حقيقة الاديب الفنان بريشة الفنان المفكر ، وابرزها في لوحات حية ناطقة . ترسم بصدق شاعري ما يعتمل في النفس من حب واخلاص وحقد ، ورقة وعنف ، وصدق وصراع ، وشراسة ولين، وقبح وجمال ، ومادية مسرفة وروحانية سامية وملء وضحالة ، وما يحرك الانسان من معتقدات وقيم .

عشت مع بطلي القصة (فريد) و(سمير) ومع بطلاتها (الهام) و (ايزيس) و (سعاد) .. وكنت اعيش بحق مع نقولا يوسف الاديب الشاعر الفنان في شبابه ؛ اعيش في فكره ووجدانه . واعتقد انه ظل يؤمن بالكثير مما كتبه في هذه الرواية ، فان التكوين النفسي للاديب يبدأ في شبابه ، ولا انكر ان للسنين فعلها ولا بد انها عدلت الكثير من تحليقاته على ضوء تجاربه وخبراته ، وقد بدا هذا واضحا في مؤلفات ادبنا الاخيرة التي اتسمت بالرصانة والواقعية والبحث والتدقيق .

لست في هذه الامسية اتحدث عن (الهام) كقصة وانما اردت ان نعيش في شباب ادبنا الكبير ، مع تجاربه وذكرياته وافكاره ونظراته الى الحياة والناس .

والهام عمل فني متكامل يتناسق فيه جو الخواطر الشعورية مع موسيقا العبارة مع الظلال التي يلقيها التعبير .. وهي معايشة كاملة لاديبنا في نظراته ومثله وصراعات نفسه ورايه في المرأة والبيت كما يريدهما ، والحب كما يراه . فيها يفصح عن اعماق الاديب وصراعاته على لسان شخصين هما (فريد) الاديب الفنان المثالي الذي يهيم في عالم القيم العالية ، وصديقه (سمير) الذي يعيش مع الناس على الارض ، يفكر فيما يفكرون ويريد ما يريدون .

« كان فريد منقطعا للدرس والتحصيل يقرأ بنهم ويدمن المطالعة . كان لا يشفق على عينيه ولا بدنه . كان ينهل من آراء القدماء والمحدثين ، يقطع الليل ساهرا مع كتبه ، وكان يجد في التفكير عبادة ، وفي الملاحظة لذة متجددة .. كان يحمل هموم الانسانية على راسه . وهذه الهموم تزيده اصوفا بالمجتمع . فيتحمل من اجله الهوان والعذاب .. في اعماق روحه صراخ هائل محبوس . كان يخرج احيانا كاللهب الرائع .. كانت الليالي توحي اليه انه اتى الى العالم برسالة عليه ان يؤديها ويتألم بل يموت من اجلها » .

« اما صديقه (سمير) فقد شغل بحاله ومتعه ولم يعد يفكر الا في لذات جديدة تثمر حاضره وتنسيه ماضيه . وانطلق يعيش عابثا مستهترا قانعا بذلك القدر من التعليم السطحي والاطلاع الخاطف ؛ ولكنه بذلك التفكير المحدود وبذلك الجانب من الذكاء الطبيعي فيه كان يعرف كيف يتأنق وكيف يلهو وكيف يتمتع بمباهج الدنيا ولذاتها » .

ويضايق سمير صاحبه فريدا بالسخرية الدائمة من اهل الشعر والاحلام .. ويقول له ان المادة هي كل شيء ، وينصحه الا يسخر منها كما يفعل الخياليون . ويظهر كاتبنا صراع الاديب بين متطلبات النفس المادية وقيمها الروحية في حوار يجريه على لسان بطليه :

سمير : اريد ان تهبط الى ارض الحقيقة وتستمتع معي بالحياة هازئا بها بدلا من ان تنفق ايامك في هذه الكآبة وهذا الضجر .. اسارير وجهك وشحوب لونك وانقباضك عن الناس كل ذلك ينم عن نمط شاذ تحياه .. آراك تعيش في حانوت كتب بل في قفص حجري صنعته لنفسك .. وانا ارى لك ان تنطلق مثلي في الفضاء الوسيع فتزيد تجاربك لا من سطور الكتب العابسة ولا من افكار المؤلفين المتناقضة بل من صميم الحياة . اريد ان اريك صور الوجود خارج صومعتك ضاحكة مشرقة لا تبالي بك ولا بكتبك .

فريد : تريدني ان انبذ هؤلاء الاحياء بافكارهم ، الخالدين بمبادئهم ، الذين يعيش العالم عالة على ثمار عقولهم وتتطور الحياة بفضل جهودهم لاسرح وامرح مع فارغي العقول ممتلئي البطون ممن يطفون كالزبد على وجه المحيط ! ومع ذلك لا تستطيع انت الثري العابث ان تعوضني عن هذه اللذة البريئة التي اجدها في ساعاتي بين كتبي ، فهي خير لي من لياليك التي تنفقها في البطالة والعبث والتنقيب عن لذات جديدة لجبل غال ارى فيه الناس اقزاما واراك انت وامثالك تنفقون ايامكم فيما لا ينفعكم ولا ينفع غيركم من الناس ، فانتم لا تعملون على تطوير نفوسكم وتوسيع مداركم ولا تسهمون في خدمة الانسانية وارتقائها ، بل انتم تسخرون العالم في سبيل اثرتكم وشهواتكم ..

لقد قلت لك غير مرة اني اؤمن بالحياة وبالجمال وبنتاج الحضارة واتتبع بشغف تطور البشرية ؛ وما عزلتي وانقباضي عن الناس الا فترة لا بد منها للتحصيل والدرس لاني مزمع ان اخرج الى العالم عن قريب حاملا رسالتي ونتاجي .

في هذا الحوار يتضح ان كاتبنا يريد ان يقول ان قيم الاديب ومثله لا تحول دون التفكير في نفسه وماديانه، وان الانسان كائن عضوي بقدر ما هو كائن معنوي . ويريد ان يقول ايضا انه بالثقافة والتراث المعنوي يستطيع ان يسيطر على كيانه العضوي ولكن لا يمكن ان يلغيه .

ويقدم لنا كاتبنا المحتوى الفكري للاديب وموقفه

الخاص من العالم وطبيعة رؤياه . ولا اشك في انه كان يصور ذاته واعماقه ويعبر عنهما وهو يحدثنا عن رسالة الاديب الفنان في حديثه عن (فريد) بقوله : « انـــه اديب فنان والعمل الذي يتفق مع طبيعته هو الدفاع عن الحق والعدل والجمال .. بالقلم ينفس عن نفسه ذلك البركان المسدود ، يتخذ من قلمه معولا يهدم به تلـــك الخرائب المكدسة في بلاده ، يتخذ منه مكنسة يجرف بها تلك الاقذار والرمم الملقاة في طريق نهضتنا ، يناوىء به الرجعية البشعة الوجه وذلك التعصب الاعمى للتقاليد البالية والتشبث بالقديم بلا تفكير ، بقلمه يخط سبل الاصلاح والتجديد في الاجتماع والفن والادب والحياة ويدافع عن الحرية .. لقد خلق فيه الله من الشعور ما كان سبحانه يريد ان يوزعه على مائة غيره ، وهـــو يحاول تكبير مسائل الحياة ويراكمها بعضها فوق بعض حتى تعلو كناطحة السحاب .. يحمل هموم العالم فوق زاسة ، وكثيرا ما يسير مطاطىء الرأس لان تلك الهموم تثقله كما يثقل الشعير السنبلة . انه يحلم باصلاح العالم ذلك المريض المزمن الذي عجز عن شفائه عشرات الانبياء والمرسلـــين !... ويحلم بتوحيد اوطـــانهم ولغاتهم واديانهم. »

وارى ان اديبنا الكبير كان يعبر عن نفسه عندما كتب هذا فان معظم كتاباته التي قرأتها له ابان الشباب كانت تدور حول : البشرية ـ المدينة العالمية ـ السلام ـ اللغة العالمية ..

لقد تجمعت في (الهام) كل اتجاهات تقولا يوسف الفكرية وآراؤه في الحياة والناس .. والمراة . من هي المراة التي تفوز باعجاب الاديب ويراها جزءا من كيانه الفني ؟ انها (ايزيس) احدى بطلات القصة : «شخصية محببة تعرف كيف تصغي وكيف تجلس باعتدال وظرف وهدوء : واذا وقفت فبلباقة وبغير تكلـــف ، وهي في اشارات يديها وحركات قدميها تعبر في جلاء عما اعطيت من موهبة التوازن وضبط النفس .. فتاة ذات شخصية غير عادية ، لها فم طفل ساهم حالم كثيرا ما تزينـــه ابتسامة حلوة .. قامتهـــا ممشوقة تشـــبه الزهرة في اكمامها .. لها صدر ناهد بذيع وصوت حنون كالنغـــام الناي يترك من صداه رنينا يتلاشى متباطئـــا في قرارة القلب .. فتاة تمر امامه كالطيف او تحنو عليه كالام ؛ لا ترى لها وجودا خاليا من الموسيقا يتصاعد غناؤهـــا او صلاتها كانه بخور يحترق فوق هيكل يوحي بشذاه الفامض وباسراره المبهمة الى الفضاء فيبعث الشجـــن ويصقل النفس ويعير الخيال اجنحة من نور . وكان قلبها يفشي اسراره في تلك الالحان ويفصح عن نفسه باسلوب ليس لكل سامع ان يفهمه .. فيه شيء من الانكسار وفيه شيء من الكبرياء ، فيه تمرد وفيه عشق الحياةوالنظرة الشاعرة لما في الحياة من رواء وعمق ، وفيه الم دفـــين وكآبة تنبعث من روح غامضة .. وليست (كسعاد) التي بالرغم من رشاقتها وخفة روحها وسمرتها الجذابـــة وانوثتها الناضجة ، لم تثر فيه اي ميل .. هو لا يرى فيها تحقيقا لتلك المثل النسوية العليـــا التي تتجلى في مخيلته حين يقرأ ويكتب ويتامل » .

والاديب الشاب لاعتكافه وحياته وكتبه ما يجيش في نفسه من ميول الشباب وما تحركه فيها حيويتهالقوية ولما له من قوة الخيال وملكة الشعر يحلم في احايين كثيرة بالمراة لا بامراة معينة بل بالمراة ككائن جميل عجيب يملأ فراغ وحدته ، ويغذي احلامه ، يكمل ذلك النقص الذي تحس به نفسه ويتعطش اليه خياله .. يتسمع اصداء صوت تلك المراة التي تنتشل نفسه الحائرة من ضبابة المادة الى اثير صاف تتطاير فيه باجنحة من نور ونار .. هذه هي المراة التي تخلب لب الاديب الفنان وتلهمه ..

والبيت ؟ انه محرابه المقدس .. يحيا في هيكلـه المزدان باعمال الفن في جو ملؤه السحر ، تهدأ فيهاعصابه من ضجيج المدينة وصخب الناس ، ويبتعد فيه قليـلا عن ذلك القلق الجنوني وتلك الحركات العصبية والملامح الملتوية التي تبدو حوله في وجـــوه الناس واعمالهم .. هناك يقضي وقتا في الهدوء والصمت والتامل والقراءة والتمشي في الحديقة ؛ وهناك يغوص في باطن النفس ، ويحاول معرفة نفسه ومحاسبة روحه ، ويجتهد ان يتخذ لوجهه وجسده ذلك الاتزان وتلك الوداعة والرصانـــة والهدوء ليتطبع بها وليقف مثل برج شامخ هادىء وسط العواصف حيث يتساقط عند قدميه الوف المجانين مثل هشيم تذروه الرياح .. انه من ذلك الصنف الذي يحب البيت والهدوء في سكن منظم مرتب يشرف على تنسيقه زوجة جميلة مدبرة تملؤه حياة وبهجة وتخلق حوله ذلك الجو الهادىء الذي تتطلبه نفسه .

والزواج ليس قيودا او اغلالا ، وليس فيه استعباد او استرقاق ، انما هو اتفاق او شركة ... والحب وان كان ضروريا للحياة الزوجية فانه ليس كل شيء اذ لا بد من التفاهم المتبادل والايثار والمرافقة بين الزوجين وخير الزوجات من لو كانت رجلا لكانت صديقا وفيا لزوجهـا في رخائه وشدته .

ويحدثنا عن الحب على لسان « سمير » فيقول ان كلمات الحب المنمقة كلها من املاء الساعة ولا تلبث ان تتلاشى كالدخان .. والحب انتهاب اللذة وعصر قبل زهرة .. ويقول على لسان (فريد) : « وضعت المقادير في طريقي امراة تحبس افكاري كلها في فكرة واحدة .. وقد رجعت فجاة الى الوراء مثل غر في العشرين يطير في ملكوت اخيلته ، ويزحف على اعتاب حبيبته ! العلها تلك الغريزة الجنسية التي تطغى على خلايا الجسم كله هي التي تطرقني متنكرة لتعبث بافكاري وتلهيني عن عملي وتلهب في دمي جمرة من الجحيم ؟ لقد خلت اني تسامیت بهذه الغريزة التي تشغل افكار الناس وتطغى على اعمالهم ، فاذا بي اليوم اسيرها واذا بها تتشكل امامي بصور غريبة ومعان لا تخرج في النهاية عن حب المراة وامتلاك المراة ... لم تعد الفلسفة ولا مئات الكتب التي قراتها تستطيع انقاذي من ورطتي فانا مهزوم ضعيف ! اعترف بضعفي واتمرغ عند باب امراة .

واديبنا واقعي في نظرته يرى ان الانسان لا يستطيع ان يعيش بالروح ولا بالاحلام وحدها ، انه يحس بجسده يربطه بالارض ويلصقه بالتراب ويرغمه على السعي لتلبية اوامره ونواهيه . الحياة عنده روح ومادة ، شعر ونثر ، عقل وجنون .

ويرى أن للحياة اكثر من غاية ومن دافع واحد عند الانسان ، فروحه تسوقه الى ان يتطور ويسمو ويتاصل ويزداد محصوله ، وجسمه يسوقه الى ان يلهو ويعبث مثل طفل كبير .. انه يسير وراء مبادئه ويدعو اليها متحملا العذاب ، معتقدا بان الغاية من حياته هي الارتقاء بنفسه وبمن حوله من الناس ، وهو ايضا يسير وراء الجد ويبحث في الاعماق عن لذات قشيبة ليغرق في امتع الوان النعيم .. مرة يقوي فيه الروح المتجدد واخرى ينشط الجد الاناني الذي يتطلب كل يوم ما يشبع نهمه من الماديات الزائلة .. ان الروح والجد يتلاقيان في كل انسان .. والنفس البشرية لا تخلو من فضيلة مستترة او من جملة فضائل تطفو وتغرق في القلب الانساني البعيد الغور حتى عند الانسان الذي لا يرى في الحياة غير ذاته ولذاته » .

ترى ماذا كان رأي اديبنا الكبير في المراة والحب والحياة والناس بعد اربعين عاما من كتابة (الهام) بعد ان ولت عواطف واحساسات الشباب وجاءت الشيخوخة بنضجها وواقعيتها ؟ ويجيبنا صديقه الاديب الكبير محمود تيمور في كتابه « مناجيات للكتب والكتاب ـ ١٩٦١ » عن ذلك بقوله : « استهل الاستاذ نقولا يوسف حياته الادبية شاعري الروح ، عاطفي النزعة ... بيد ان شاعريته في شبابه لم تكن زبدا يذهب جفاء مع سيل الايام وانما كانت شاعرية عميقة اصيلة لا تنضب ولا تزول .. لقد اذعن صاحبنا للحياة في ظاهر امره ، وبدا فيما يكتب واقعيا لا يحلق في آفاق الاخيلة .. الا ان شاعريته استخفت من وراء ذلك تتخذ من هذا التصوير الواقع منفذا الى سخرية واستخفاف وتحرص على ان تكشف اللثام عما في الدنيا من غرائب المفارقات والنقائض وعما تحويه من زيف وتمويه وصغار » .

وفي (الهام) يبدو جب اديبنا الراحل للدراسات التاريخية .. تلك الابحاث كانت بذرة في هذه القصة ، نمت وترعرعت وبدت قوية شامخة في انتاجه الضخم الاخير الذي كرس له معظم جهده والتي قرانا منها « اعلام من الاسكندرية » و « دمياط منذ اقدم العصور » . لقد تحدث كثيرا في « الهام » عن مصر القديمة ، ايزيس ، الفيوم ، دمياط .. تناول هذه كلها باسلوب جذاب جعلها تتحرك وتنبض بالحياة وتكاد تراها وتحس بها على سن قلمه .. لقد ذكرني استاذنا نقولا يوسف وهو يتجول في مسرح احداث قصته « بالسير والتر سكوت » الشاعر الانكليزي المشهور الذي كان اذا اراد وصف جدول ماء مثلا ، قصده ليراه بعينيه ثم رسمه على قطعة ورق بما على ضفتيه من الحصى والاحجار والاشجار وكانه مصور لا شاعر ثم يشرع في وصفه شعرا يضفي عليه صورة جمالية تبرز من اعماق الشاعر حتى اذا قرا احد ذلك الوصف امكنه ان يتصور الجدول في مخيلته ويراه في صورة اروع من حقيقته .. وقصتنا مليئة بمثل هذه الصور الجميلة التي جعلتني بحق اتوق الى رؤية كثير من الاماكن التي وصفها ، او استزيد من القراءة عما تناوله قلمه المبدع من ومضات تاريخية خلابة .

انني وانا اختم امسيتي هذه مع كاتبنا المبدع ارى ان امسية واحدة لا تكفي فالهام (القصة) تحلها صفحات رائعة ونماذج بشرية وصل كاتبنا الى اعمق اعماقها .. وخطرات تسري في مادة حية ، وتخطر في اطار يمنحها الحرارة والحياة .. وبها الكثير مما يجب الكتابة عنه .. هذا بالاضافة الى انها جولة في قلب وفكر صاحبها استاذنا الراحل نقولا يوسف .

لقد رددت كثيرا وانا اقرا الهاما : هنا قلب انساني يضبطه ويدل على نبضاته ذهن فنان .

القاهرة — ايليا حليم حنا



ابن زيدون

شـــاعر الحب الخـــالد

تحية لمهرجان ابن زيدون الذي اقيم في الرباط

الدكتور باقر سماكة

عواطف الشوق ندكيها فتذكينـــا ... وصبـوة لم تعـد سرا فتفشينـا
لواعج الذكريـات السمر ما برحت ... وسط الحشاشة في الاعماق تكوينا
والمهمة الشاسع المجهول يبعدنـــا ... عنكم باجسامنـا والفكر يدنينـــا
تحيـة الحـب من بغداد انثرهـا ... مخضـلة عبقـت فـلا ونسرينـا
من نهر دجلة من اسحارهـــا انـر ... ينـــدى عليها ومن اشهى سواقينا
من النـؤاسي من انفـــاس ... من كل مـا سحـر السمـار راوينـا
من كل مـــا زوق الدنيا ونضرهـــا ... من الـف ليلة من ازهى شواطينـــا
للمغرب المشرق الباني شموع هوى ... نزفهـا وبهـا تختـــال ايدينـــا

الله يعـــلم يا احبابنـــا ولنـــا ... عهـــد له لم نزل دومـا مراعينـا
لي عندكم ذكريـــات قد سعدت بها ... حينـــا طروبا واشقتني احايينـــا
لقـد تخيـلت جنات النعيم فمـن ... صفاتهـــا ان ترى حورا بها عينـا
لان سلوتـم صبابـات نحـنُ لهـا ... هيهـــات نصبـح بعد البعد سالينا
وان تناسيتم مـــا مر من متـــع ... شقراء اشهى واحلى ما يسلينـــا
هيهـــات بل الف هيهـات احبتنا ... نمسي لبعض الذي قد مر ناسينـــا
عيـد المفـارق ان يلقى احبتـــه ... بعـد الفراق فمـا احلى تلاقينـــا
عيـد القلوب بعيـد التنائي وارفـة ... تظلهـا فترى الدنيـا بساتينـــا

يا صفـوة المغرب الطمـاح معـذرة ... ان قصر الشعر او ضاقت قوافينا
وان تهاوت جياد الشعر لاهثـــة ... وقبل ميدانكم خاضت ميادينـــا
قـد زاحمتهـا جياد الشعر لا غبنا ... اذا جيـادي لها راحت قرابينـــا
وليس مما يشـين النفس ان يـــدا ... سمحـاء تعرض اغلى من غوالينـــا
ايـا روافـد دنيـا الفكر كم بهرت ... روائـــع منـكم رفت بوادينـــا
ويا سراة البيـــان الطلق عفـوكم ... اذا بيـــاني لن يستطيـع تبيننا
فبعض ما عنـدكم مما نـــدل بـــه ... وبعض اوصافـه الغراء يعيينـــا

من الف عام على الفردوس رف جنى ... حضارة اخصبت فيها مغانينا
فتلك اندلس الفردوس شاهدة ... عن مطلع النور فيها من روابينا
وتلك غرناطة الحمراء دامية ... وجدا على غابر قد مر يشجينا
وتلك قرطبة ما زال مسجدها ... مستوحشا في حناياه المصلينا
وتلك اشبيليا فيها قصور بني ... عباد لما بها كانوا سلاطينا
اما الحديث عن الزهراء وشاعرها ... ابي الوليد - ابن زيدون - فيصبينا
الشاعر العبقري الفذ ما برحت ... اشعاره الغر ترويناً وتظمينا
ولا تزال كما كانت قصيدته ... بهجر - ولادة - تسبي المحبينا
(اضحى التنائي بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا)
سل ابن جهور عما في خريدته ... من البلاغة والابداع ينبينا
ولابن عبدوس ما زالت فريدته ... شغل الدراسات تحليلا وتدوينا
سما مقاما واعلت شانه صلة ... بمعتد باذخ قد جل تثمينا
رعاه اكرم من يرعى البنين اب ... بر فقتن منه الفضل تلقينا
يزداد من سؤذد حينا يبز به ... اقرانه يوشي شعره حينا
لا ادعي ان قرص الشمس تلمسه ... يدي وان كان هذا من امانينا
او انني ممسك وطفاء واكفة ... تهمي على جدب ما عندي فترونا
ولا بباقة ابيات انمقها ... من روض شعري تنسيقا وتزيينا
وان اذبت بها روحي وعاطفتي ... فتستحيل تحياتي رياحينا
ولو جمعت قوافي الشعر اجمعها ... وصفت اجمل ما فيها دواوينا
كلا اجل الف كلا لن اطيق ولا ... قيثار شعري ترجيعا وتلحينا

ما اروع الشعر ان الشعر موهبة ... مثلى سمت نشاة جلت وتكوينا
فيض خفي من الالهام يمنحه ال ... باري لبعض الورى قد جل بارينا
وبورك الشعر ما اعلى مكانته ... نعليه عن مارب سقط فيعلينا
لقد اضعنا بداجي الامس اندلسا ... ايام كنا عن الفردوس لاهينا
دنيا من المجد والعرفان وارفة ... ظلالها اقمرت فيها لياليا
دالت ولم يبق منها غير غصتها ... وقد (عدتنا على كره عواديا)
لما يزل جرحها يدمي عواطفنا ... واليوم هذي جراح القدس تدمينا
اجل اضعنا حمى الفردوس من يدنا ... بالامس واليوم ضيعنا فلسطينا
فبعد آسادها العرب الاباة نرى ... ترعى بآجامها بهما صهايينا
يا للاباء نفايات الشعوب على ... مرابض الاسد في الجولان في سينا
انا هزمنا بتشريين فلولهم ... من ذا يعيد الى العلياء تشرينا
انا نسفنا بتشريين صروحهم ... لما عليهم اثرناها براكينا

وانتم يا لباب الفضل يمنحنا ... من لطفه الغمر ما يضفي ويولينا
عذرا فان ينهض الشعر المهيض بما ... حملتمونا ولا تقوى جوازينا

يا مهرجان ابن زيدون خلدت ويا ... ذكرى ابن زيدون اعباقا ازيدينا

بغداد - ص.ب ٤٦٧ ... باقر سماكة

مدرستنا الوطنية الكبرى

بقلم حافظ المنذر

* * *

هم الامة اليوم هو في تساؤلها الحائر المرير : هل اجمل الى غدي آلام ودموع حاضري ؟ هل افقد بعد اجيالا جديدة تمر بي وكأنها ليست من نسل ابنائي ؟ هل تستمر الحضارة في صعودها الباسل المنتصر واظل ارقب المشهد الرائع من مكاني في الفراغ ؟..

هذا التساؤل ، هو نذير خطير ، وواعز مثير ، ولنا نحن ان نستجيب ، وفاء لانفسنا ووفاء لابنائنا ووفاء للحياة نثبت انها ما اوجدتنا في مجالاتها عبثا ..

الاحياء في الارض ليسوا الذين نراهم في متعة غنى ولا الذين يأنسون الى طمأنينة واستقرار ولا الذين يكتفون بوفرة البقايا في موائد الاحياء .. ان هؤلاء لا تعرف السعادة الحقيقية سبيلا الى قلوبهم ، ولا يمكنهم ان يطرقوا بابا من ابواب التاريخ ، وليس لهم مكان من محبة صحيحة او مجد اصيل او خلود يغلب الموت والزمن ... لان دابهم ان يأخذوا ، وهمهم ان يكونوا في مأمن من الاخطار ، وأقصى غاياتهم ان تشبع منهم الغرائز ، فلا يطمحون ولا يخلقون ولا يعرفون متع الحياة العظمى ..

الاحياء في الارض هم الذين اذا نظروا الى الشمس لا يرف منهم امام ضيائها جفن ويقولون لها ليكونن منا نحن بضا ضياء يضاهي بهاء نورك ايها الكوكب العظيم .. واذا تحداهم المجهول صقلوا له الارادة تفتت الصعاب الى ان يتضح وينجلي واذا اغواهم البعيد القصي سعوا اليه بكد لا يرحم وشجاعة تدين لها الاخطار الى آن يغدو طوع اليد غنيمة الطامحين ...

هذا الساح الواسع الرحب الذي هو الدنيا : حيث لا حياة حقيقية الا بالصراع الغالب ، ولا كرامة ولا سعة ولا عز غير ما يفرضه الانسان فرضا في وجوده .. هذه الدنيا ما انقادت يوما الا لمن حازوا الروح الشجاعة القدامة والعلم الغزير الموجه والعاقية القوية القادرة . وهي تدبر اول ما تدبر امام سقم الارواح والعقول والاجساد بجزم حياة لا تستمر ولا ترقى الا بالاقوياء من ابنائها مخلفة وراءها فلول الضعفاء تصرعهم مشقة المسير .

والحياة الهادرة بقوى ليس لها حد ، حقق لها عقل الانسان المتفوق تعبيرها الارقى : فاستحال منها الصخب الغبي حركة واعية بانية ذهبت بعيدا في مضمار التصميم والانتاج والتعمير فكانت الحضارة ..

والحضارة : هذا البناء الفخم الجميل الخير : الصاعد ابدا الى علاء بجهد الباسلين من ابناء الانسانية ، هي التي تقرر قيمة وجودنا كأمة وافراد في موكب الحياة الجاهد الصاعد .. والقيمة في ما ننتج ونبذل مع الراقين بالانسانية الى اهدافها المثلى ... ولا سبيل الى ذلك ان لم نكن اغنياء بالمعرفة اغنياء بالمحبة اغنياء بقوى المادة على انواعها ..

بالبناء اذن ، بناء العقول والارواح والاجساد ، في تصميم شامل وادراك كامل لانبل وارفع الغايات والاهداف ننشىء ابناءنا الصغار ليصيروا اما نساء عظيمات او رجالا ابطالا ترقى الامة بهم سلم الرخاء والمجد وتبني الحضارة نعيما يرتع فيها كل بنيها ...

لهذا الغرض لا غير كانت المدرسة

ولهذا الغرض لا غير وجب على مدرستنا ان تكون م

حياة اليوم ، حيث يتهالك الانسان على التراكم ، ينهل ويستفيد ويستنبط ويفيد ، ولا يكف عن اخذ وبذل الا بعد ان ينهكه العناء فيسقط وعيناه عالقتان في مورد المعرفة ويداه متشبثتان مكانهما من المدماك ..

حياة اليوم هذه لنا نحن فيها اكثر من دور مجال ..

لنا ان تنهي سيرنا المضطرب الاتكالي البطيء

لنا ان نشق الطريق الصواب

لنا ان نبعث في نفوسنا الطموح

لنا ان تراودنا اهداف الانسانية الكبرى .

لنا ان نحيا

انها خديعة كبرى ، تلك التي راجت في هذه الديار بتوجيه استعمار طويل منوع ، حذر دوما من نهوض وانعتاق ، منذرا اننا بذلك ساقطون في الادهى ، بقصد القضاء على طموح الشعب ليستمر اداة استغلال غبية يجني الطامحون منها ما يطيب لهم ان يجنوا .

وبعد الخديعة اشاعوا فوضى الفكر في دور للتربية ما زالت حتى اليوم تحمل لواء التعليم الحر . يختص كل منها بثقافة وفلسفة ودين ، تعدد مواد التعليم وتحشو وتعقد البرامج ، لتحار عقول يافعة كما يشاؤون لها ان تحار فلا تطمئن ولا تتفق حتى امام ابسط الحقائق .

ان الفكر الاصيل الذي هو نتاج العقل العالم لا يسير في الهدى ولا يصل بنا الى فلاح الا اذا لزم العلم في العقل موضع الاداة فحسب ، وظل العقل هو الواعي السائد الموجه لهذه الاداة .. ذلك لان العلم الذي يطغى على العقل فبنا لكثرة وتشعب ما ندخر منه يبطل في هذه العقل قدرته على الاستيعاب النافع والانتاج الخلاق .. فيهبط الى امية احط واغبر من اميته الاولى .. والعقل

عندما يصاب بمثل هذا التشويه يفقد اول ما يفقد قدرة ادراك وتحقيق الصفاء لمعنى الكلمة وغايتها .. فـــلا يستوعب من الفكر الا الظاهر التافه ولا ينتـــج منه الا العادي السقيم الخالي من الروح والعمق والتأثير الموجه الباني .

الكلمة التي تقال ، هذا الاداء الساحر لحرف وفكر وروح ، لا شيء اروع منها ولا اقوى ولا افعل .. وبمقدار ما تكون من الحقيقة والحق تعرف الحقيقة ويصـــان الحق ... .

واهل الفكر ، اهله الحقيقيون ، يقيمون لقدسيـــة الكلمة معبدا ..

وتكون لديهم الشيء المحرم الذي لا يفاه به الا من اجل الحقيقة تعلن بتمامها والا من اجل الحـــق يدعى لنصرته على الدوام .. تلك هي رسالة الفكر اطلاقـــا وما عداها فهو خداع وتدجيل لتسخير مفاهيم القيم ..

الكلمة عندنا يجب ان تكون في الحرمة التي تصونها .. كثيرا ما نطلقها بخفة رعناء لا حس بمسؤوليـــة ولا رادع من ضمير .. فهوى مستوانا الذهني الى الدركات السفلى وحل الفكر السياسي في احطها جميعا ليمضي بنا بعيدا في فوضى التقدير وميعة التعبير ... فصـــار الخبث دهاء والنفاق مرونة والدس حنكة .. وانهارت مع الكلمة كل مقومات الاخلاق بتخريب كان من البداية مقصودا رمى بنا فيه من اتونا بالعلم مجردا من مضمونه الرسالة وجعلوه اداة فتك اجتماعي دائـــب تقضي على مواهبنا باستمرار وتهبط بنا رويدا رويدا الى الاغوار..

وفي فوضى الفكر التي تخبط بنا بلا هوادة ولا نور يهدي ، تهب علينا الانواء من كل صوب فنغدو في الريح ونمسي في العاصفة ، دون ان نابه ان ارضنا هي وحدها المرساة وان لا سبيل لنا الى امان الا بعد ان نتوجـــد فيهـــا ..

وفي لف الدوامة التي تدور بنا وتعود بحسبنـــا الدوار فنستسلم وننسى .. ننسى ان الحياة كفـــاح يبتغي رفعة السماء وان فقداننا له يبطل في حياتنا كل معانيها .. ننسى ان الحكم رسالة خير تؤدى وانه بـــلا عدالة من اعمال الطائشين ننسى ان الطائفية هي الوبال المقعد وان بقاءها صائر بنا الى زوال .. ننسى ان اثرة الغنى جرم وان الفقر قوادنا الى كل نقيصة ..

فهل يمكن ان يستمر التعليم هنا حرا ونحن نصدمنا كل يوم خيبة جديدة تدل اول ما تدل ان مصدر محننـــا

والشفاء كامن في اســـس التربيـــة اوعى من ان نرتفـــع عليها اية من القيم البانية للقادة الصالحين .. نحـــن بحاجة الى كل قوة فينا تعبأ وتختزن دعما لكفاحنا من اجل التحرر والبقاء والنمو والارتقاء .. وابناؤنا هـــم العدة والامل .. هم جنود المعارك التي تخاذلنا نحن عن خوضها وهي صغيرة هينة لتفرض عليهم فرضا في غد باهظة الفداء والبذل تكفيرا عن اجيال تفاهة وعفاء حملت شدائدها ضروبا من العداء دون ان تابه او تفقـــه او ترعوي ...

هنا ، ان شئنا ان نجبه واقعنا مخلصين ، وكانت لنا الجراة اللازمة لذلك، فاضمحلت لدينا كل مراعاة يمكن ان تحيد بنا عن سواء السبيل ، واردنا حقيقة بناء وطن يثبت بقوة وينهض بكبر ... تكشفت امامنا خطوط اربعة هي لا غير اســـس السعي الى الهدف المبتغى :

البيت ، الثكنة ، المدرسة ، العدالة الاجتماعية .

فالبيت حدب ورعاية خلق وعطاء محبة ...

والمدرسة توجيه وادخار ومعرفة ..

والثكنة تمرس في الدفاع عن القيم

والعدالة الاجتماعية تحرير من الخوف وضمـــان لامان دائم .

وهذه العناصر الاربعة الكبرى، في اتصالها وتشابكها وتكاملها ، هي التي تنشىء المواطن الصحيـــح الصالـــح المجهز بكامل امكان البقاء والارتقاء ، يأخذ منها اليـــوم غذاءه الكامل ليرده غدا جهدا سخيا في الانطلاق العام .. فبلا فعل المحبة لا تنشأ في ابنائنا اخلاق النقاء وبـــلا توجيه لا يدركون مدى فعل ايمانهم بالقيم وبـــلا علم لا يعرفون ماهية وجودهم والغاية التي من اجلها كنا وبقينا ونستمر ، وبلا اكتـــاب لفضائل الجندية تبطل لديهـــم بسالة الدفاع عند وقوع الخطر ، وبلا ضمان اجتماعي تظل اخلاقهم عرضة للسقوط تحت وطأة الحاجة .

ان هذا الكائن النابت الذي هو التلميذ ، يتطلـــب اول ما يتطلب البيئة المعدة الاعداد الكامل لتحقيق نمـــوه ونضوجه .. ويظل البيت كما تظل المدرسة والثكنة في تقصير عن تأمينها ان لم يقبل المجتمع بكليته عليها درايـــة وبذلا لتشب فيها اماني غده غزيرة الامكان والمواهـــب وتنطلق المدرسة تعبيرا حيا لامة حيـــة تبني الحضـــارة اغداقا متزايدا باستمرار يوما بعد يوم وجيلا بعد جيل.

انســان اليوم لم يعد بامكانه ان ينفرد ، هو مـــن المجتمع في الصميم ، والمجتمـــع من كل فرد فيه في

العميم ايضا .. ذلك هو منطق الحياة في عصرنا هذا .. ويفعل هذا المنطق ، ندفع دفعا الى التعاون والمشاركة في جميع شؤون حياتنا ، حيث يتضح لنا ان اعقد ما نجبه من مشكلات تتضاءل وتهون ان نحن عالجناها مجتمعين متفقين ونصل بالتالي الى الشعور الملح بضرورة تحقيق النظام الاجتماعي الاصيل القاضي بجعل كل مورد في الوطن الذي ينتج منه النفع الاعم للمجتمع بكليته .

ومن مفهومنا هذا للمجتمع ، وادراكنا انه يضمنا جميعا في وحدة حياة ووحدة مصير ، نخلص الى مبادىء للتربية توجيها وتعليما غير التي اعتمدناها حتى اليوم على انها الهادية وما قادتنا الا الى ظلام ، ويبرز المجتمع امامنا انه الاساس الصحيح المكين لانطلاقنا الى تحقيق حياة جديدة مجيدة .

هنا ندرك ان الحياة تبادل عطاء

وان العطاء لا يحمل معانيه الا بالسخاء

وأن البذل السخي هو الذي يفجر ينابيع الخير من المواهب والموارد . فنعي ان ما اوصد بوجوهنا حتى اليوم رتاج الحياة الاكبر المشرع على غنى الروح وغزارة المادة هو انانية لم يكن لجشعها حد حلت فينا علة لكل تجزئة وتنافر وتباعد وصيرت الى عقم وبوار أجزل ما بذلنا من قاسي الجهود وغالي التضحيات .

وهنا يبرز امامنا معنى لله ارقى وارفع ومعنى للارض اجدى ومعنى للانسان جديد .. فنهتف بابنائنا قائلين :

ـ ان الله واحد ، ورسالاته للناس أجمعين ، خذوا بروح تعاليمها واحذروا الفرقة بالدين واحذروا الطائفية ..

ـ قدسوا ارض بلادكم .. فهي وحدها آلام الواهبة في معين لا ينضب .. ولكل منكم فيها قدر ما يبذل لها من نشاط وجهد ..

ـ احبوا بعضكم بعضا ، وتعاونوا في كل صغيرة وكبيرة ، فليس هنالك بعادة اعم من التي تشارك في تحقيقها كل القلوب وكل الايدي ..

ـ مدرستكم هي النواة للمجتمع الاكبر : كما تكونون فيها يكون ... فاسعوا وراء العلم والكمال ولكم اني تطلعتم لتحقيقهما مجال .

ومن وحي هذا المجتمع وانصهارنا فيه ، من ماهية تكوينه : من تقائصه وفضائله ، من آلامه وآماله ، من ماضيه وواقع حياته وغايات هذه الحياة نكب على معين المعرفة نستمد منه عناصر النهضة المنشودة .

واول العلم ان نتعلم لغتنا ؛ فندرك انها اداة تعبير لا اروع ولا افعل ، ونعمل على زيادة غناها بالاصطلاح الجديد ونتقن وننشر ونروج انتاجنا بها . ونعمدها في تدريس كل مادة من كل علم وفن لتسلم لنا العربية أم اللغات التي تحمل تراثنا كله .

واول العلم ان نعلم من نحن . وما كنا والى اي مصير .. فالتاريخ هو دليلنا الى آثار خطانا في مدى الزمن ؛ حيث حللنا حينا في القمة وسقطنا حينا الى الغور ، واتحدنا زمنا وافترقنا اخر ، ومر بناء اعداء وصادفنا اصدقاء .. فتتضح امامنا أسباب النهوض وعوامل التخلف لنتعظ بما كان تعبيدا الى الغد الافضل .

واول العلم ان نعرف بلادنا ، ومركزها من العالم : وما فيها من امكان وموارد ، فتتكشف لنا غن وضع مزموق وخيرات لا تحصى ، غفلنا عنها على الدوام لتبتلع الهجرة الالوف من عقول وسواعد شبابنا ..

واول العلم اخلاق نبني نبلها من عبر التاريخ واعلاء المناقب واعزاز الاهداف ليعي ابناؤنا انهم هنا لتحقيق الخطر المجيد من أغراض وجودنا وان هذا الامر رهن بارادة قوية صارمة تأخذ الحياة في جد وتصمد في عناد ليتم لها ما تبتغي .

وباللغة التي تكتمل ، والتاريخ الذي يهدي ، والارض المكتشفة عن عناصر الثراء ، والارادة الدائبة الصامدة ، نتكب على موارد المعرفة نستضيء من انوارها لنخطط لكل علم وفلسفة وفن سعيا وراء الاكتشاف والانتاج والتعمير تحقيقا لنهضة ملحة لم يعد من حدوثها بد في جهدنا نحو حياة ارقى نعود ونلحق بها ركب الحضارة الذي صار منا في الافق البعيد .

نحن بحاجة اذا الى النهوض بمدرسة الدولة ، مدرستنا الوطنية الكبرى ، تغدو عندنا الوحيدة الواحدة الموحدة البرامج لمختلف درجات التربية والتحصيل العلمي ، المدركة لعظم الرسالة الملقاة على عاتقها ، تقدس المعرفة وترفع قدر المعلم ، تجمع كل ابنائنا على السواء ، مجانا ، في كل مدينة وقرية ومزرعة .. هذه هي الحاجة التي تجبه كل مسؤول عندنا وتجبهه في عنف وتحد ..

دولتنا هذه تظل كيان تسويات عليل ، ان لم تستقم في نفوس بنيها اولا ، حيث آن للايمان ان يتركز ، بانها مجال رحب لبناء الحرية في نظام امثل ، ولنصرة هذه الحرية في كل ارض عربية وكل ارض في العالم تحل بها ظلامة او يطاها عداء ... كل التضحيات في هذا السبيل يجب ان تهون ليكون لبنان حقيقة مركز النور المشع المضيء الهادىء .

المحيدثة ـ لبنان

حافظ المنذر



جورج صيدح

شكر الله الجر

١٩٠٨ ـ ١٩٧٥

بقلم جورج صيدح

* * *

اخي حبيب الروح الاستاذ عيسى فتوح ـ دمشق

اصابتني رسالتك ٢٥ـ٢ـ١٩٧٥ بسهم وقع في الصدر ، ونفذ الى الظهر . ناعيا شكر الله الجر . لا شك ان الاسف عليه شعور عام في الاوطان والمهاجر . ولكنني اشعر بالم خاص لفقد هذا الزميل النبيل ، نشأ من عقدة الذنب نحوه (على ما اظن) . لم نتعارف شخصيا ، رغم زياراتي المتعددة لريو دي جانيرو واثناء اقامته فيها ، اذ كانت رحلاتي تجارية وهدفي استيراد البضائع من المصانع ، بعيدا عن رجال الصحافة واهل القلم . ورغم ذلك حظيت في الرحلة الاولى عام ١٩٤١ بمعرفة عقل الجر . شقيقه الاكبر الاشهر وقتئذ . اكرمني بزيارته لي ، ثم اكرمني بحضور مأدبة عالية اقيمت على شرفي ، وطارحني التحيات الشعرية ، كما ترى في ديوان عقل الجر الصفحتين ١٤٢ ـ ١٤٤ . اما شكر الله فاحتجب عني ، بدعوى انه صاحب مجلة يزار في ادارتها : قبل أن يزور القادمين وانا في ذلك الحين كنت آخر من يعلم هذه اللياقات والتقاليد ، ومن يعمل بها . ذلك لم يمنع شكرالله من نشر قصيدة لي في مجلته عنوانها «وطني» (هي المنشورة في ديواني الجزء الثاني صفحة ١٧٥) كما انه نشر المطارحة الشعرية التي جرت بين اخيه عقل وبيني . ثم اخذ يراسلني الى كراكاس اثناء الحرب العالمية ، وهمه تامين وصول دفعات من ماله يرسلها الى والدته (معبودته) عن طريق فنزويلا .

لم تنقطع صلات المراسلة بيننا الا عام ١٩٥٧ ، على اثر صدور كتابي المهجري « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » ، اذ قيل لي انه استاء من الدراسة المنشورة فيه عنه . وبالتحقيق وجدت في صفحة ٤٧١ السطر الرابع عبارة نابية وهي « ان اعجابي بنثره يفوق اعجابي بشعره ... لانني لا استشعر بالاسترخاء الذي تشعرني به قصائده المطولة » هنا اعترف ان الذوق خانني في هذا التعبير ، وحيث قصدت المبالغة في التكريم بعد ان رفعت شعره الى السماء السابعة ، ثم قلت ان نثره يفوق شعره ظنا مني انني ازيده رفعة ، في ناحية لم يقرظها احد من مقرظي دواوينه . فالتوى قصدي وضاع جهدي . ولم اجد فرصة لتبرير موقفي امامه لانه لم يكتب لي كلمة عتابه ، بل آثر السكوت والاحتجاب .

هذه الهفوة وغيرها من الهفوات اتيح لي ان استدركها في الطبعتين الثانية والثالثة للكتاب ، فطبعت نشرة التصويب واعطيتها لدار النشر لوضعها داخل الكتاب ، فلم تفعل . فاخذت بتوزيعها على مكتبات الموزعين في بيروت واحدا واحدا ، فلم اجد تلبية من احد . الامر لا يهمها بل هو مضيعة لوقتها كما صرح لي بذلك صاحب مكتبة كبيرة في ساحة النجمة . جرى لي مثل ذلك في نشر آخر ديوان لايليا ابي ماضي طبعته في دار العلم للملايين وعثرت فيه على اغلاط مطبعية طلبت استدراكها في الطبعات التالية ، فلم تستجب لطلبي ، واستمرت الاغلاط ذاتها تتكرر بدعوى ان التصحيح في طباعة اللينوتيب امر عسير .

اليوم بعد وفاة الشاعر الحبيب يمكنني وفاء حق الفقيد علي بأعادة نشر دراستي عنه مهذبة ، تكريما

---

(١) نزولا عند رغبة الصديق العزيز ، فقد اجريت قلمي في البحث الذي كتبه عن الشاعر المرحوم شكر الله الجر ، في كتابه « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » وصححته طبقا للائحة التي ارفقها بالرسالة المذكورة اعلاه ، وهي تصحيحات قيمة ، فارجو ممن يمتلكون الكتاب المذكور في طبعتيه الثانية والثالثة اللتين اصدرتهما دار العلم للملايين في بيروت ، ان يعمدوا الى هذا البحث وينقحوه كما ورد في شكله الجديد .

عيسى فتوح

لذكراه . ولكن اني لي الجلد والقدرة على الجهد الطويل في الكتابة ! وفحتي كما يشتهي العذال . يكفي ان اكتب لك ملاحظات وجيزة مع رسالتي هذه تتصرف بها كما تشاء .

★ ★ ★

غادر قريته يحشوش (التي انجبت داود بركات) عام ١٩٢٣ لاحقا باخيه الاكبر عقل الجر الى عاصمةالبرازيل وفي جعبته زاد وافر من العلوم العربية والاداب الغربية التي تلقنها من مدرسه الحكمة البيروتية ، وبعد ان شارك اخاه زمنا في الاعمال التجارية ، عكف على استغلال ادبه ابتداء من عام ١٩٣٠ ، فانشأ مجلتين على مستوى عال هما « الاندلس الجديدة » و « الزنابق » واصدر كتابا عن جبران خليل جبران سماه « نبي اورفليس » وكتابه الرائع في النقد « المنقار الاحمر » وديوانين من الشعر العاطفي « الروافد » و « زنابق الفجر » وكان اول من فكر بانشاء العصبة الاندلسية واول من سعى لتاسيسها عام ١٩٣٢ وما جنى في عشرين عاما من جهوده الادبية غير المتاعب والمشاكل ، ولا درت عليه مجلته وكتبه ما يغريه بالاستمرار ، فعاد الى ميدان التجارة وانشا مصنعا للقمصان يرتزق ما يكفيه وما يصون به اباءه وكبرياءه .

هو في الادب من دعاة التجديد الموضوعي ، مع التمسك بسلامة اللغة وفصاحة الاسلوب ، يتميز شعره بموسيقى الالفاظ ، ونثره بحرارة التعابير . تشع في مؤلفاته الفكرة النيرة والثقافة الواسعة والثقة بالنفس، حتى لتشعر اذ تقرؤه انه يخاطبك من برج عال ، وينظر الى صغارتك نظرة اشفاق . لم يرض عن خطبه وعن عشيرته — وحقه ان لا يرضى — ولكنه تجاوز حقه حتى نصب نفسه حاكما مطلق التصرف في موازينهم .

قال في المنقار الاحمر :

« واذا قلت لاحدهم ليس لدينا في العالم العربي شاعر كامل نخط عليك وراح يكردس من اسماء الاحياء والاموات اجيالا . فان احصيت ما تكدس من الشعر العربي منذ نشأة الشعر حتى الدقيقة التي نحن فيها . فانك لا تجد سوى افق محدود ضيق لا يزيد عن كونه صورة لحياتنا المحدودة الضيقة ، المبطنة بالضجر . المكبلة بالتقاليد البالية ، هات من تشاء من شعراء اليوم — وانا منهم — لاقول لك ان كل ما نظموه لا يساوي ضياع الوقت في قراءته » .

احس الكاتب صرامة حكمه فساوى نفسه بالمحكوم عليهم ، كي لا يظهر في مظهر الظالمين .

وما درى انه اضاف الى قداحة الظلم خطيئة الكفر بنعمة الله عليه . فهو الشاعر الموهوب الذي نجله ونطرب لقراءة شعره . وما ضاع وقت نغنم منه الشجو والطرب. فان شاء ان لا ينصف نفسه انصفناه نحن . وكما اننا لا نأخذ اعترافه على محمل الجد لا نقابل بالتصديق — قبل التحقيق — التهمةالتي القاها بزملائه الشعراء — اليس بينهم افذاذ أطراهم هو فيما بعد وتغنى بشعرهم ؟ اليس بينهم اخوه العبقري عقل ؟ ايريد منا ان نهمل شعر عقل البليغ هربا من ضياع الوقت في قراءته ؟

في حلق الشاعر غصة سببها الاغتراب وجور الحياة المهجرية على الاديب ؛ وضياع القيم في محيط جاهل مستهتر :

جل من قدر السعادة للناس ... ومن قدر الشقاء علينا
قد قضينا الاعمار نبري من الاقلام ... اعناقها الى ان برينا
فاذا سربنا الزرقاء يغشى ... ريشة ريشة ولونا فلونا

لكن هذا السرب المزرقش الذي يحنو عليه ويتوجع للمصير الذي ينتظره ، لم يسلم من سهامه الحادة :

كثر الناظمون فينا ولكن ... قل من اولد المعاني جنينا
ان من ينسل الخلود بيانا ... غير من ينسل الغناء بنينا

ها قد عاد الى النقد الجارح ، ولكنه استثنى نفسه هذه المرة واشار من طرف خفي الى من يكون ذلك الشاعر الذي « ينسل الخلود » من شعره ، وتجري في دمه عبقرية اجداده الفينيقيين . ومن يكون غير « انا » :

انا ابن الابيض الرهراه ... والشاطي الجميل
انا ابن الرمح والمجداف ... والفكر الصقيل
انا ابن السنديان الفخم ... والحور النحيل

للشاعر نظرية خاصة في القومية العربية تلوح من خلايا شعره ؛ ولا تستوقفنا قدر ما تستوقفنا عذوبة ذلك الشعر وقيمته الفنية . اننا نستيغه ايا كان موضوعه ، واحيانا نسكر بخمرته ، قال يخاطب شلال تيجوكا :

قديتك قيثارة للطبيعة ... من مقلتيها نسلت الوتر
فمطر بدمعك شعر البدجى ... وشف بلحنك اذن القمر
وعل بكاسك خمر الورود ... فترقص نشوانة في السحر
وخل فؤادي يقفي ظما ... لدى برد سلسالك الدافق
فلست تروي قلوب العطاش ... الى نهلات الهوى الصادق
ولو سال من جفنك الكوثر

لقد شغف بالطبيعة فابدع وصفها :

والنهر كالديباجة الخضراء ... جعدها النسيم
ينساب مثل اللوءة الخرساء ... في صدر الكريم
عا اذان الشيخ في القبة يدوي في الفضاء
والدعا لله في الجامع والدير سواء
فعلاة الطير في الربوة والسفح غناء
وعبير الزهر بخور تعالى في الهواء

وله جولات موفقة في القضايا الاجتماعية :

ضحك المال من الباطل لما بخلا
وشكا المال من الباذل لما بذلا
ليت شعري من من الاثنين كان الاعقلا

وله غزل رائع مثير ، كقوله :

اسكرتني فسكرت من ... خمرتين ، لحظك والرضاب
وطبعتها قبلا على ... شفتيك تضطرب اضطرابي
قبل معربدة على ... ... من دعابي
جسد له عبق الورود ... تفتحت لندى السحاب
جسد تشرب من دم ... الشفق المفرج بالصناب
نمقي ونبقى اسطرا ... تبكي وتضحك في كتاب

على ان اروع الحانه واوقعها في القلوب هو ما غناه « لجبل الالهام » لبنان ، من شعر الحب والحنين :

ان لبنان عندنا جبل الالهام ... والشعر حيث كنا وكانا
حلم سابح على شفق النفس ... وفجر يشع خلف دجانا
نحن في البعد مقلة ترشف الغيم ... سم على افقه جوى وحنانا
وقليل ان تبذل القمر يا سالي ... على قطرة تبل ظمأنا

في هذا الشعر لبست العاطفة الصادقة ما يلائمها من اثواب الجمال ، وتهادت فتانة بين عرائس الخيال وقد املتها محبة لبنان ، والفخر بالانتساب اليه بحرارة لمسناها قبله في شعر شقيقه عقل في قوله :

قل لمن تجهل الحقائق عن لبنان ... هذا تاريخنا الخالد فاقرا
نحن من كحل البصائر بالنور ... واعطى البرية الحرف بكر

وقوله :

وليشهد الله لم ننزل على بلد ... غير المحيطين من صدر الدنا الرحب
الا ركزنا بنود المجد خافقة ... للارز والفاد في الابراج والقبب

هذا الشعر « الكلثومي » كلما تغنيت به حضرتني ردة اديب الظرف المرحوم سعيد تقي الدين « عاش التواضع »

اقول ، ولا اظلم هذا الشاعر المتاز ، انه على علو كعبه في الشعر ، وعلى فنه الجميل في عرض الصور وتنسيق الانغام واستنطاق العواطف . انني معجب بنثره مثل اعجابي بشعره . ففي نثره فورة نفس ووثبة فكر وقوة عصب ليست في شعره ، اقرأ كتابه النفيس « المنقار الاحمر » فاهتز لبيانه الرائع الاخاذ . ولا اشعر بالاسترخاء الذي تشعرني به قصائده المنظومة في قالب الموشحات . وفيها من رتوبة الصفة ومن اتقان التزويق ما يتعب القارىء . فالكمال الشكلي المستمر قد يمل احيانا .

اليكم انموذجا من نثره في مقالة ليست باحسن مقالاته :

« يتخذ الشاعر الغربي من نبات الارز السنة ارواحا تتكلم بالسنة الاجيال وارواحها . وينتخرج لك من سراديب الشمس شموبا تكاد تدهش الانسانية بتألق انوارها . اما نحن ـ ابناء تلك المدنيات ، شعراء القرن العشرين ، قرن الثقافة والنور ـ فاننا نكتفي من الارز بالتغزل بنسيمه وحفيف اوراقه ، ونقنع من هياكل بعلبك بالتغني بضخامة اعمدتها وشموخها ، ولا نتكلف الوثبة الى سراديبها الحافلة بالاسرار ، ودهاليزها المكتظة بجماجم الأجيال ، ولا نصغي الى اصوات ارواحها الصاخبة في مسارب اللانهاية . . »

لقد تمكن شاعرنا من الاداب الفرنسية ، فتميز نتاجه عن نتاج زملائه في الجنوب ، وشحت ثقته بهم حينما تحول مجراها نحو شعراء الغرب .

لقد اصدر ديوانا جديدا عام ١٩٦٣ اسماه « اغاني الليل » واصدر بعده كتاب « قرطاجة » ورواية « الشبح الابيض » وديوان « من خوابي الزمن » وقد علق الاستاذ الياس زيادي على هذه المؤلفات تعليقا بارعا ختمه بهذه الصورة القلمية : « يتجلى لك شكر الله الجر في شعره الغزلي ، لا سيما في ديوان « اغاني الليل » كاهنا اعظم في هياكل الحب ، انه ولا مشاحة على قدم التساوي وكبار الغزليين في شرق وغرب من « نشيد الانشاد » الى « زهار الشر » . .

« احرق على مذبحه من البخور والصندل ما عبق رائحة الطيب على اثواب والرحاب ، فكان واحدا من القلائل الذين اجادوا سكب تسبيح نشوتهم على اجنحة من نور . نحلم احلام الورد والذهب ، وتغمر بلاف عين ساحرة عيون الشوق والدلال » .

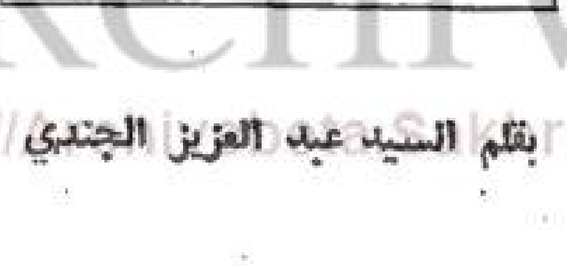
نمي الينا في مغتربنا الثاني ان شاعرنا عاد الى لبنان عام ١٩٦٧ مصطحبا رفات شقيقه الغالي ليودعها ثرى جبيل مسقط رأسه ، تجاه التمثال الذي اقامه شكرالله الجر له على تفقته الخاصة رمزا للوفاء الاخوي : اما الوفاء الوطني فهل من يطالب به ؟

باريس — جورج صيدح

اشتركوا في مجلة
الآداب
تساهموا في نشر الثقافة

انتصار

بقلم السيد عبد العزيز الجندي



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ انور افندي .. انور افندي
ـ ايه مالك يا عم زكي
ـ النتيجة ظهرت .. نتيجةالثانوية .. خد الجرنال اهه .. الواد بتاع الجرايد عليه زحمةزي يوم الحشر .. ويبيعه بشلن .
ـ هات يا عم زكي متشكر جدا ... خد الشلن اهه .

اخذ انور الجرنال في لهفة ، ووضعه امامه على المكتب ، واخذ يمر على الارقام بسرعة وقلبه يدق في اضطراب . والتف حوله جميع زملائه بالقسم وهم يسالونه عن رقم جلوس شقيقته وهو يقول لهم في ضيق .

ـ انتظروا شوية ارجوكم .

بينما كان وجهه منكبا على الجريدة وعيناه تبحثان في الارقام ، واصبعه تتحرك مع نظراته من رقم الى رقم ... من اعلى العامود الى اسفله .. وكلما انتهى من عامود ارقام دون ان يجد الرقم الذي يبحث عنه ، انتقلت عيناه مع اصبعه الى عامود اخر واخذت دقات قلبه تزداد وتضطرب كلما انتقل من عامود الى عامود .

وعندما انتهى من اعمدة الارقام ، ولم يبق غير العامود الاخير رفع يده ومسح بها وجهه ، ثم اخرج منديله من جيبه واعاد مسح وجهه ورقبته ، وبوجه المنديل الاخر مسح عينيه . بعد ان بلل العرق كل اجزاء جسمه ، وبدات نقطه تتساقط على رقبته وتتخذ لها مجرى في وسط ظهره .

وتوالت عليه الاسئلة من زملائه مستفسرة عن النتيجة، ولكنه لم يرد على اسئلتهم وبعد فترة قصيرة بدا يعاود البحث عن ضالته من جديدفي عامود الارقام الاخير . واخذ يحرك اصبعه مرة اخرى مع عينيه من رقم الى رقم ولكن في اناة وعلى مهل . وفجاة .. توقف اصبعه تحت احد الارقام ، واخذ يحملق فيه . ثم اخذ يبحث بيده الاخرى عن قلم .. اي قلم .. بينما اصبعه ما زال مثبتا تحت الرقم .

وبسرعة امتدت اليه ايدي زملائه بعدة اقلام ، اخذ منها واحدا وخط خطا تحت الرقم ثم رفع اصبعه ووضع يده في جيبه واخرج حافظة نقوده ، واخرج منها قصاصة من الورق مدونا بها رقم جلوس شقيقته .. والذي كان مكتوبا في ذاكرته ، ولكنه اراد ان يتاكد من صحته .

وبعد ان راجع الرقم الذي معه على الرقم بالجريدة عدة مرات جلس على كرسيه ، واسند ظهره بارتياح ثم ملا رئتيه بالهواء في شهيق طويل وعميق ، واخرجه بزفير مصحوب بآهة ارتياح .. القى بها حملا ثقيلا على كتفيه ، وحطم بها قيدا ضيقا حول قدميه . وتناثرت عليه كلمات التهنئة وعبارات الفرح والابتهاج واخذ زملاؤه من الاقسام الاخرى يفدون الى مكتبه للتهنئة .

ودخل عم زكي حاملا على كتفه صندوقا من الكوكا كولا ، ثم تبعه ابنه علي يحمل صندوقا اخر وبعد ان وضعا الصندوقين بجوار الحائط وقف عم زكي ممسكا في يده بفتاحة الزجاجات وقال لانور وهو يشمر عن ذراعيه :

ـ ايوه يا استاذ انور .. حضرتك حتعمل كشف والا حتخليها بالبركة ؟

ـ كشف ايه وبركة ايه يا عم زكي .. انت مين اللي قال لك هنا في الحناديق دي ؟

عند ذلك نهض احد زملاء انور وقال بصوت مرتفع :

ـ نعم نعم .. انت مش متفق معانا تسقينا كوكا كولا اذا نجحت اختك في الثانوية .

ـ ايوه .. لكن احنا هنا ثمانية بس .. وعم زكي جايب صندوقين يعني ثمانية واربعين ازازه

ـ يا اخي هي المناسبة السعيدة دي متستاهلش ان زمايلنا كلهم يشربوا حاجة سقعه .

ـ خلاص يا عم زكي .. افتح يا سيدي ووزع وامري لله .

قال ذلك بينما كان يقول لنفسه (هو ده كل اللي انتم عايزينه)

غادر انور مكتبه بالشركة بعد انتهاء العمل ، وفي طريقه الى محطة الاوتوبيس اخذ يفكر فيما يجب عمله بعد ان نجحت شقيقته ليلى .. تضاربت الافكار في داخله وتداخلت حتى وجد نفسه غير قادر على التركيز في موضوع معين ، فهناك موضوع عمل اخته وما يتطلبه من اوراق ومصوغات للتعيين ، واي عمل من الاعمال سيكون ذا فائدة اكثر .. في الحكومة ، او في احدى الشركات او .. او .. وكم من الشهور او من الاعوام سيمر قبل ان تتسلم ليلى عملها .. وكم سيكون مرتبها ؟

وتداخلت الصور في مخيلته ، فها هم باقي اخوته تتزاحم صورهم بجوار صورة ليلى . احمد .. الذي نجح في امتحان النقل الى السنة الثانية الثانوية . وسلوى .. التي نجحت في الاعدادية وسهير .. التي نجحت في القبول وستدخل المرحلة الاعدادية .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة

مليئة بالرضا . وتذكر اثناء ابتسامته والده الذي توفي منذ عشر سنوات وهو (اي انور) في السنة النهائية بكلية التجارة . ووالدته .. التي توفيت بعده بسنتين، وتذكر انور كيف استطاع ان يتحمل ذلك العبء الثقيل بعد ان اصبح رب العائلة بعد والديه . وكيف استطاع ان يجد هذا العمل بمساعدة بعض اصدقاء والده واقربائه ، ثم كيف استطاع ان ينفق على اخوته من مرتبه بالاضافة الى الثمانية جنيهات يعاش والده . وكيف استطاع ان يواصل الرسالة تجاه تعليم اخوته . وكيف مرت عليه حتى الان خمسة وثلاثون خريفا دون ان يتذوق طعم السعادة .

حينئذ اختفت الابتسامة على شفتيه .. واختفت جميع الصور المتزاحمة في مخيلته ، ونظر امامه فاذا به قد ترك محطة الاوتوبيس خلفه بمسافة كبيرة . فتوقف عن السير ، ونظر خلفه ولكنه في اللحظة التي بدأ فيها العودة الى محطة الاوتوبيس ، وجد نفسه يواصل سيره في نفس الاتجاه الاول قائلا لنفسه (لا باس .. فلاستريح في مكان ما ، بعيدا عن البيت ، لكي احسم الامور .. وافكر على مهل).

ومر في طريقه باجد المقاهي ، فانحرف اليه دون تردد ، وانتقى لنفسه مكانا منفردا بجوار احد الابواب الكبيرة للمقهى . وطلب فنجانا من القهوة .

وقبل ان تتزاحم عليه الافكار من جديد ، امسك بالجريدة التي معه ونشرها امامه ، واخذ ينظر في الرقم الذي وضع تحته خطا ، ثم راجعه مرة اخرى على الرقم المدون بقصاصة الورق التي في حافظته .

لم تعد صور اخته الى ذاكرته . ولكنه ولسبب لم يدركه .. ارتسمت في مخيلته صورة الانسة وفاء ابنة رئيس القسم الذي يعمل به بالشركة .. بقدها المشوق ، وقوامها الجميل وانوثتها المتفجرة ، وعينيها الواسعتين الحالمتين ، وشعرها الاصفر الذهبي المعقوص على ظهرها في دلال ، تذكرها وكأنه يسمع صوتها الرفيع الهادىء كنسمة هواء باردة في قيلولة يوم قائظ .

لم يرتبط بها باية علاقة . فهو لم يعرف عن النساء ما يعرفه غيره من الشباب ، ولكنه كان يراها عندما كان يدعوه والدها الاستاذ سعيد الى بيته لانهاء بعض الاعمال الخاصة بالشركة ، والتي لم يكن وقت العمل



السيد عبد العزيز الجندي

الرسمي كافيا لانجازها . فقد كان الاستاذ سعيد من المقربين للسيد المدير لنشاطه وكفاءته وطاعته كما كان محبوبا من مرؤوسيه لحسن معاملته وسماحته . وكان انور احب من بالقسم للاستاذ سعيد لحسن خلقه واحترامه لمواعيد الشركة ولوائحها . لذلك كان كثيرا ما يدعوه الى بيته لانهاء بعض الاعمال الهامة والمستعجلة .

لم تكن وفاء على قدر كبير من الجمال يدعو الى الاثارة ، ولكنها كانت في نظر انور اجمل من في الارض . كانت في نظره اسطورة من اساطير الزمان .. بل كانت هي اسطورة الزمان . وعندما تخيلها وهي تمد يدها اليه للسلام وتبتسم له في رقة ودلال احس بالدفء يسري في يده ثم في سائر جسده .

ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يفكر فيها في وفاء ، فبعد انتهاء كل زيارة لهم كانت دائما تملأ قلبه ، وتسيطر على فكره ، ولكن ذلك كله لم يكن يتعدى ساعة من زمن ، واحيانا لا يتعدى بضع دقائق ، وسرعان ما ينساها بمجرد رؤيته لاخوته او اندماجه في مشاغل الحياة ومتاعبها . ولكن في ذلك اليوم بالذات ، وبالتحديد بعد نجاح اخته ليلى في الثانوية وجد نفسه مقيدا بقيد اخر غير الذي تخلص منه عند رؤيته رقم الجلوس في الجريدة . ولكنه قيد ذو سحر عجيب وملمس لذيذ يشع في نفسه نورا ، وفي طريقه ضوءا ، ويوقظ في ذاته املا طالت رقدته ، ويجلي صدءا ران على وجوده طوال خمسة وثلاثين عاما .

واخيرا استطاع انور ان يوفق بين هذه الصور التي تزاحمت وتداخلت في خياله فليلى تعمل وتتسلم منه ما بقي من الرسالة ازاء باقي اخوته ، ولن يطول بها الطريق ، فبعد سنوات قليلة يتسلم منها احمد الرسالة ويعمل هو الاخر بالثانوية ، ويستطيع ان ينتسب في الجامعة ويكمل دراسته اذا اراد .. ويخف عنهم العبء شيئا فشيئا .

اما هو — اي انور — فيستطيع من الان ان يفك قيده ، ويخلع طوقه ، وينطلق .. ليبحث عن السعادة والمتعة . تذكر ان معظم زملائه بالقسم متزوجون مع انهم اصغر منه سنا ، فلماذا لا يتزوج ويكون سعيدا كغيره من الزملاء ؟ وهل بعد هذا العمر الا الشيخوخة والندم ؟

ان الاستاذ سعيد رجل طيب . ولن يضن عليه بابنته . حقا ان الاستاذ سعيد يعلم انه لا يمتلك غير مرتبه . ولكن انور يعلم كذلك انه ليس بالرجل الجشع ؛ ولا تهمه المادة بقدر ما يهمه الخلق .

وفجاة .. تقلصت عضلات وجهه ومرت على تخيلاته سحابة قاتمة ؛ عندما تذكر انه لا يعرف ان كانت وفاء مخطوبة ؛ واخذ يجاهد نفسه لكي يتذكر اذا كان قد راى دبلة في اصبعها ولم يذكر لان وجود الدبلة او عدم وجودها لم يكن يعنيه من قبل . ثم خطر له سؤال اخر وهو ماذا لو رفض الاستاذ سعيد ؟ ولم يحاول الإجابة على هذا السؤال ولكنه قال لنفسه (سأذهب غدا اليه في بيته ، وساضرب عصفورين بحجر . ساطلب منه مساعدتي في ايجاد وظيفة مناسبة لليلى ، وفي نفس الوقت اطلب منه يد وفاء) .

وبعد ان هم بمغادرة المقهى .. وجد نفسه امام مشكلة اخرى (لنفرض ان الاستاذ بعيد وافق على طلبه .. فمن اين له ما يلزم لهذه الموافقة) .

وتقلصت عضلات وجهه مرة اخرى فهو لا يملك شبكة ولا مهرا .. صحيح انه مشترك في جمعية مع زملائه بمبلغ ثلاثين جنيها سيقبضها بعد شهرين ، ولكن هل يكفي هذا المبلغ لتقديم حتى شبكة؟

وعندما احس بخيط السعادة الواهي يكاد ينقطع بين يديه ، وجد نفسه يغادر المقهى قائلا لنفسه (هذه ليست مشكلة فاستطيع ان اقتصد أكبر جزء من مرتبي بعد ان تتسلم ليلى عملها ؛ ولا شك انها ستساعدني ايضا . المهم انني لا بد ان اتزوج ، وعلى وجه السرعة وحتى لو لم اوفق في زواج وفاء فالفتيات كثيرات وكلهن جميلات) .

كان يشعر وهو في طريقه الى بيته بنشوة لم يشعر بها من قبل .. تسللت الى داخله نسمة رطبة ندية غسلت كل ما في نفسه من أدران .. وبللت مرآة عينيه فانعكست الى خارجه ؛ واصبح كل شيء حوله جميلا .. ولاول مرة اخذ ينظر الى كل امراة : وكل فتاة يلتقي بها في طريقه بنظرات ثاقبة فاحصة .

واستقبله اخوته في لهفة وشوق ، وامتزجت اصواتهم في نبرات مختلفة تعلن نجاح ليلى . فضمهم الى صدره وقبلهم جميعا واحدا بعد واحد . ثم اقتربت منه ليلى وعلى وجهها ابتسامة نصر كبير . فضمها الى صدره ؛ وطبع على جبينها قبلة حب وحنان وقال لها :

ـ مبروك يا ليلى

فرفعت اصبعها الى اعلى محذرة وقالت :

ـ من فضلك .. لازم تقول مبروك مرتين .

ـ مبروك يا ستي كمان مرة .. والف مرة عشان ايه المرة الثانية ؟

ـ مبروك نمر ١ عشان نجحت .. ومبروك نمر ٢ عشان المجموع .

ـ مجموع .. مجموع ايه .. المهم انك نجحت وخلاص والحمد لله .

ـ خلاص ازاي يا استاذ وانا طالعة الاولى على المدرسة ومجموعي ٨٢٪

ـ طيب يا ليلى مبروك كمان مرة والف مبروك .

ـ الحقيقة انا مش عارفه اقول لك ايه .. لكن ..

ـ لكن ايه يا ليلى .. عايزه تقولي ايه ؟

ـ عايزه اقول لحضرتك ان انا كنت اتفقت معاك اتوظف بالثانوية وانتسب للجامعة ... و...

وكانه احس بغريزته بان هناك شيئا اخر وراء حوار شقيقته . وان هذا الشيء سيسبب له متاعب كثيرة . لذلك اسرع بالرد عليها قبل ان تكمل حديثها فقال مقاطعا :

ـ طيب يا ستي ما انا عند وعدي حتتوظفي وحتنتسبي للجامعة كمان وانت وشطارتك .

قالت وفي عينيها نظرة حزن مدفون .. وفي صوتها نبرة الم مكتوم :

ـ مش عارفه انتسب لكلية ايه ؟

ـ الكلية اللي تعجبك ياحبيبتي. انت نسيتي ان مجموعك يؤهلك لدخول اي كلية .

ـ للاسف الكلية اللي تعجبني واللي كنت بحلم بيها مفيهاش انتساب .

ـ ليه يا ليلى هو فيه كليات نظرية غير الحقوق والتجارة والاداب ؟

ـ ايوه ... فيه كلية الاقتصاد .

كان يشعر بغريزته اثناء حواره معها ان هناك شيئا يهدد احلامه .. ويهدد كيانه لا يعرف ما هو . وكانت كلية الاقتصاد هي ذلك الشيء .

وران على الاثنين صمت مطبق ؛ فاحتبست الكلمات ، وقيدت الالسنة ، وانطلقت النظرات في شرود .. متنقلة في ارجاء الغرفة .

وبعد لحظات .. تحركت قدما انور ، واتجه الى غرفته ، بينما ظلت ليلى في مكانها .

ومرت على المكان سحابة قاتمة .. اخترقت اعماق كل من انور وشقيقته ليلى ؛ فحجبت عن عينيهما شعاع الامل الذي لاح لهما وسطع حتى غمر كل شيء امامهما .

في المساء دخلت ليلى حجرة انور وقدمت له فنجانا من الشاي وجلست بجانبه ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة .. امتزج فيها الرضا بالرضوخ ، والاقتناع بالامتثال .

ـ انا اسفة يا انور .. متزعلش

مني .. حضرتك اتحملت كتير . وضحيت كتير علشانا ، وانا لازم اساهم معاك في المسؤولية عشان اخواتنا الصغيرين .

خلاص يا سيدي متزعلش حدخل كلية التجارة او الحقوق . او اي كلية فيها انتساب عشان اقدر اشتغل ؛ عشان حضرتك كمان لازم .. لازم تتجوز .

وبددت كلمتها الاخيرة السحب القاتمة التي تراكمت في نفسه ، وتسلل شعاع الامل الى نفسه من جديد فاستدار اليها ووضع يديه على كتفيها ، وطبع جبينها قبلة اودعها كل ما حرمتها الايام من عطف ابيها وحنان امها .

ثم افلتت منه واتجهت الى مكتبه وفتحت درجا من ادراجه وهي تقول له :

ـ لو سمحت تغمض عينيك دقيقة واحدة :

ثم تقدمت نحوه حاملة لفة كبيرة من الورق وهي تقول :

اتفضل يا سيدي حلاوة نجاحي .

وفتحت لفة الورق لتقدم له قميصين جديدين وزوجين من الجوارب . فنظر الى هديتها في دهشة ثم نظر اليها ، ولكنها بادرته قائلة :

ـ عارفه اللي عايز تقوله .. ناظر المدرسة عامل مكافاة عشرة جنيه للاولى على المدرسة ولما رحت النهارده كان موجود هناك . وسلمني العشرة جنيهات بعد ما سلم علي وباركلي طبعا .

ـ طيب يا ليلى مجبتيش لنفسك شوية ملابس ليه ؟

ـ يا سيدي انا بكره لما أشتغل حجيب كل حاجة .. وحضرتك طول عمرك بتجيب لنا كل اللي احنا عايزينه .

فقبلها مرة اخرى واستاذنها في الخروج لزيارة احد زملائه .

ارتدى انوز اجمل ما عنده من الثياب بما فيها احد القميصين الجديدين ، وخرج من البيت والامل يملأ قلبه ، والمستقبل السعيد ينير الدنيا من حوله نورا وبهجة ، ولكنه عندما نزل من الاوتوبيس توقفت كل الافكار والاماني التي رسمها له خياله وكانه تركها في الاوتوبيس .

توقفت امانيه كلها وتجمدت .. ثم اضطربت ، وظللتها تلك السحابة السوداء من جديد . كانت المسافة بين محطة الاوتوبيس وبيت الاستاذ سعيد قرابة محطتين ، وكلما اقترب من البيت ازدادت افكاره اضطرابا ، واسرعت دقات قلبه ، وشعر ببرودة تسري في اوصاله ، وتزاحمت في مخيلته مرة اخرى صور كثيرة .. حتى صور زملائه ووالديه . ثم ما لبثت ان اختفت جميع الصور ولم يبق امامه الا صورتان بارزتان . تتزاحمان وتتناضلان . وتحاول كل صورة منهما ان تقف امام الاخرى لتحجبها عنه .. ثم ارتفعت اصواتهما ، كل منهما تدافع عن نفسها ، حتى كاد صوتهما يصم اذنيه ..

فهذه وفاء تصف له المستقبل السعيد . والبيت السعيد والاستقرار و... و... و... وهذه ليلى تذكره بمسؤوليته . ببوصية والديه ؛ وتشير له على زميلاتها وهن ينظرن اليها في اعجاب واجلال لما حققته من نجاح يؤهلها لدخول كلية الاقتصاد التي يحلم بها كل فتى وفتاة . وحال بينهم وبينها مجموع الدرجات المطلوبة للقبول بها .

ثم راى الدموع تتدحرج من عينيها في صفاء ، وراى باقي اخوته الصغار يلتفون حولها ويحتضنونها في حنان .. وتلتقي دموعهم وتمتزج وتتساقط حارة ملتهبة كماء النار . احس برعشة انتفض لها كل اجزاء جسمه كما لو كانت دموع اخوته تساقطت عليه .. فرفع يده يمسح بها هذه الدموع .. ولكن يده لمست شيئا لينا رطبا تحسه والتمس فيه راحة ازالت كل ما اصابه من حروق .. وبددت ما تبقى من السحب القاتمة التي جثمت على صدره واخذ يمسح بيده القميص الجديد الذي اهدته به ليلى ..

ووصل اخيرا الى بيت الاستاذ سعيد ، وتردد بضع ثوان ثم ارتقى السلم ببطء واناة ، ووقف امام الباب .. ورفع يده الى الجرس .. واحس برعشة تسري في اوصاله ؛ فرفع يده قبل ان يضغط عليه . وسمع .. او خيل اليه انه سمع صوت خطوات من الداخل متجهة الى الباب . فلم ينتظر ، ولكنه عاد مسرعا الى حيث اتى .. وعاد اليه من جديد النور والرضا والحب . وعادت الى مخيلته صورة سعيدة لليلى ، ومن حولها باقي اخوته . ولكنهم في هذه المرة كانوا سعداء . احس برغبة في العودة اليهم .. وازداد شوقه الى ذلك الحب والحنان الذي لم يتغير حتى بعد خمسة وثلاثين عاما .

القاهرة

السيد عبد العزيز الجندي

في مطلع كل شهر

أطلبوا

الأديب

منهل الفكر والعطاء

من الباعة والمكتبات

أيها الفردوس

متى ادخل اليك

ليلى السايح

الكويـــت



عندما تاخذني اليك
تاخذني الطفولة ،
وتمدني بنارها الازلية نشوة الحياة ..
احس انك الفردوس الذي فقدته
عاد يحنو علي ،
ويمنح ما يمازج بين الواقع والخيال
ما يجعل القلب موجة ،
والروح ملايين النجوم
احس انك الفردوس ، وانسى كل اللغات
لان فيها ما يميز بين البرق والضياء
لان فيها ما يجعل المصالحة مستحيلة
بين الوردة والحجر
بين الارض والسماء .

حدثتك عن الانسانية
عن الحب الحقيقي .. النادر
حدثتك عن تجربة الضياع الى الابد
بلا يقين
وكنت في الحقيقة اتحدث عني وعنك
اتحدث عن حب ولد قبل ان نلتقي ..
كنت اتحدث عن ميلاد الروح
حيث يتطهر الانسان من لعنة الانقسام
حيث يجمع في نهر واحد : الحياة والموت ..
يستطيع أن يعرف نفسه
ولكن ، من من هؤلاء يعرف نفسه ؟
من يعرف الانسان في نفسه ؟
الا تراهم يدوسون الانسان في اعماقهم
وهم يستخدمون بعضهم بعضا كمثل الوسائل
مجرد وسائل
والشيطان وحده يعرف السبب ؟
والمراة .. هذه الملهمة الطيبة
الم نر كيف ينظرون اليها ؟
لقد حولوا معناها الاول
الى كل المعاني المبتذلة
حولوها الى مجرد وسيلة لذة
وليس الى غاية حياة

كان اراغون يقول :
« الموت اهون من الحب
ولذا اتحمل عبء الحياة من اجلك »
ولم اكن افهم كنه هذا القول

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قبل ان عرفت
كيف يصبح الحب
مركزا لدائرة الحياة
مركزا للتحدي ، واثارة الاعماق الانسانية فينا
ان حبك يطالبني ان ابدأ
باعادة ترتيب الاشياء
يطالبني ان امنح الاشياء اسماء جديدة
ان امزج بين الطريق والتعب
ان اكون كما انت كائن !

اترى الى هذا العباء الكئيب
عبء ان يكون الانسان نفسه .. وان يحيا
اذن ، كيف يعيش هؤلاء البشر ، ولا يحبون ؟
لماذا لا يكتشفون هذه القارة السحرية : الحب ؟
انا ادرك لماذا ؟
اعرف ذلك السر الذي
يعيد خلق الاشياء في لهبه الدائم ..
انا اعرف الحب
وهم يهملون ، او ينسون هذه الكلمة
هذا السر الكوني
الذي يجعلني أحيا من اجله ..
الحب الحقيقي مقدس
ولا اقتراب من المقدس
الا بفعل الطهر والايمان
بفعل العبادة
والحب ، معنى المرأة الاول
المعنى المكتمل في ذاته
واقتراب الرجل منه ، هو بلوغ للكمال
وفي هذا الحب ،
يغدو اتحاد الكائنين صلاة

والصلاة : امتزاج بين الحب والعبادة
وسمو فوق التعارض بين الانسان والانسان
انه الرجوع الى ينابيع الطفولة الجسدية والروحية
من هنا عودة المحبين
الى عالم الصفاء
حيث ينبثق السمو
من لحظات الذوبان المطلق
حيث يتعالى الانسان ، باكتشاف أبديته
على لحظات الزوال

حيث يحس انه يحيا في قلب الابدية
وانه اقوى من الهزيمة
والكآبة ومرارة الاحزان

ههنا يمحي التعارض بين الروح والجسد
التعارض بين الذات والموضوع
ويغدو الجسد طريقنا الى الروح
وتصبح الروح طريقنا الى الجسد
هكذا افهم الحب ـ الانسانية
اود احيانا لو استطيع ان اقول :
نارك .. الدفء .. الحنان .. الامان
ولكن ، كيف يمكن للكلمة
ان تحتوي خلود النار
وخلود الدفء والحنان والامان ؟
كيف يمكن ان اقول ما لا يقال ؟
انني احترق
كي اعيش الموجة لا الكلمة
الرعشة لا الرجفة ..

حينما تتعانق ، يخيل الي
انني سوف لا أحس بجسدي
سوف احس فقط انني موجة شفافة
تموج على دفئك وتهدهدني ..
فخارج صلاتنا ،
وبعيدا عنها ، لا يبقى اي شيء
لاننا ساعتذاك ،
نعيش الوجود الاكثر غنى ، والاثمن
الوجود الذي اكون مجدفة فيه
على صلاتنا
لو قلت : انا وانت
هذه الشفافية التي تصهرنا
وهذا النقاء ، هو ما يجعلني ادعو البشر
الى ان يطهروا نفوسهم لكي يعرفوها
ففي النقاء وحده
لا نعرف من الذي يعطي الاخر
لان « انا وانت » كلمتان
لا وجود لهما في الفردوس
أيها الفردوس ؟
متى ادخل اليك ؟

الكويت

ليلى السايح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشاعر جميل بطرس حلوة

بقلم الدكتور جورج ديمتري سليم

* * *

مساء الجمعة ١٥-٢-١٩٤٦ ، كان « جميل بطرس حلوة » قاصدا منزله عندما دهمته ، في محطة « الصابواي » بمدينة نيويورك ، نوبة قلبية راح في الحال ضحيتها . وذاع نبأ وفاة جميل، فارتجت الجالية العربية له لان جميلا كان لها رجلا خاصا .

كان ـ قالت « السائح » ـ انسانا خفيف الظل والروح ، عفيف النفس ، غنيا باخلاقه ، ودودا ، عرف الحب ولم يعرف البغضاء ، وآمن بالعفو ولم يؤمن بالحقد، وزهد بكل شيء من متاع العالم الا بجمال النفس والمروءة » .

وكان ـ بكلمات اسماعيل الخالدي ـ « مثالا للرجل المرشد الصالح ، قوي العزيمة ، مخلصا لاصدقائه ومعارفه ، مضحيا بصحته ووقته لاجل أهله وبلاده ، قلما تسمع منه شكوى وتذمرا من احد . الجميع عنده اخوان واصدقاء » .

وكان ـ باقرار صديقه عبد المسيح حداد ـ « شاعرا له ميزته بين الشعراء . كان سريع النظم حتى ليستطيع ان ينطق به نطقا دون تعثر . وكان فياضا ، يتدفق شعره كتدفق الشلال ، ويقوله بنبرات كانها هدرات الشلال . كان شاعرا مجليا ، جواده الفطرة السخية ، ومرماه الادب العربي الذي ولع به ولعا جما ؛ على الرغم من تضلعه باللغة الانكليزية وغوصه في آدابها».

وكان كاتبا حاذقا ، يدبج المقالة باسلوب سهل بديع بعد دراسة وفهم للموضوع . فوق هذا ، كان محاميا ناجحا ، دافع عن ابناء جاليته افرادا ، كما دافع عنهم جماعة . وقد كفل نجاحه في دعاويه ـ باعتراف من عرفه ـ ذكاؤه ومقدرته ونزاهته .

اضف الى ما ذكرت ما ذكره هو عن نفسه ، قال : « ولدت عام ١٨٨٣ في مدينة دمشق الشام . وانا عريق بدمشقيتي من ناحية جدتي ، والدة أبي . فعائلتها آل « حجار » معروفون باستيطانهم دمشق من قبل فتوحات تمرلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) . اما جدود والدي فاصلهم من شمالي لبنان القديم » .

توفي اذن جميل عن ٦٣ عاما ؛ ودون ان يظهر له ديوان مجموع او كتاب مطبوع غير كتاب « المهاجر السوري » ١٩١٠ . ومرت ٣٠ سنة على وفاته نسيه فيها معاصروه . فظللنا نجهله دون الانتفاع من نتاجه الادبي .

وليس قصدي هنا التعريف بهذا الاديب المهجري الممتاز وبنتاجه الجميل ـ فهذا ليس مجاله ـ انما قصدي التقديم لمطولة شعرية من نظمه ، احيي انا بها ذكراه الثلاثينية الطيبة التي جاءت ونكبة لبنان الكبرى قد طال جريها على قدم وساق .

على انه يجب ان انبه القارىء ان هذه المطولة ليست بنت مكان وزمان واحد ، بل بنت امكنة وازمنة عديدة متباعدة ، كانت ما بين ١٩٠٦ و١٩٣٨ . ذلك لان المطولة ليست ، في الحقيقة ، قصيدة واحدة بل اجزاء من قصائد حاولت انا ربطها بعضها الى بعض ربطا فنيا .

والان ، وقد عرفت القارىء بجميل بطرس حلوة وبمطولته ، علي ان اعرفه ايضا ، في هذا المجال ، برأي جميل في « الشعر ومنزلته في الهيئة الاجتماعية » . كتب جميل في هذا الموضوع يقول :

« الشعر أوسع وابدع واشمل وافعل واسطة لنقل المعارف والعواطف لانه يطرق القلب ، ويخرق الروح ، ثم يسري إلى الدماغ ، فيضربه بعصا السحر ولو انه قد من صخر .

وباكتشاف الشعر والكتابة الشعرية قد اكتشف الانسان جمال ماهيته وعلو مركزه بين الخلائق . ولذلك فقد عني به جدا ؛ وجعله مستودعا لفلسفته وتاريخه واخباره ونوادره واسفاره ، وتركه اثمن ارث لنسله من بعده . وبزعمي ان اول من اكتشف هذا الفن الجميل احق واجدر بالتجليل والتكريم ، والتبجيل والتعظيم ، من اعظم مكتشف او مخترع ، وافهم محترف او مصطنع ..

عظمة كل امة قائمة برجالها : ورجال الامة الشعراء : والكتبة ، والسياسيون . والمخترعون . والبارعون في صنائعهم . والمتمولون . وعندي ان الطف واعطف واشرف واعرف هؤلاء كلهم هم الشعراء والكتبة. وعروا كل امة من شعرائها وكتابها تروا مقدار ما ينحط من عزها ومقامها .

هوذا التاريخ مصداقا لهذا التقرير . فاسألوه ينبئكم ان في الحروب اليونانية لما كانت تعجز بلاغة السياسيين عن الاقتعال بالجنود كانوا يستدعون الشعراء لنشيد الحماسيات ، فتلمع البوارق ، وترتفق البيارق ، وتقدم الجنود كالاسود باقدام على الحمام ، فيظفرون من

الامجاد بالرام . وسالوه ايضا ينبئكم انه على زمن الثورة الافرنسية (١٧٨٩) حين لج الشعب وكفر ، واضطهد الدين الى درجة كادت تجعله اثرا بعد عين ، كيف ان الشعر والكتابات الشعرية سكنت ثائر الغضب واطفأت نار الجهل ، وفتحت عيون الإرواح ، فحررت الاجساد ثانية في هيكل القداسة مسبحة العلي القدير .

ثم انظروا، في وقتنا هذا ، كيف يزار الكتبة والشعراء بالشعب مستنهضين الهمم لجذب النعم وصرف النقم ...

اجل ، نحتاج الى ارواح علية ، واذهان صفية ، وقلوب نقية ، وصدور بحمية ، والسنة جريئة وفية ، واقلام مخلصة قوية ، نحتاج الى كتبة وشعراء حقيقيين تنهض بامتنا ، وتعود بماضي مجدنا وعزتنا . فشجعوا العلم ، ايها القوم ، واكرموا الكتبة والشعراء ، وانصتوا لاصواتهم ، الحياة والنجاح عندئذ لكم مكفول ، والامر مقضي مفعول ، انشاء الله » .

اختم هذا التقديم مترحما على جميل بطرس حلوة، مرددا قوله :

بنجعل حب الحق للنفس ديدنا ونخدم، ما عشنا، عتى الحق موطنا

١ ــ شواعر

انوم ــ وقلبي بين جنبي شاعل ... وقد ارقتني الحادثات النوازل
وكيف عيوني مطبقات جفونها ... وقد هطلت منها الدموع الهواطل
تحيرت ، لا ادري اذا كان مضجعي ... من الشوك ، اوفيه الحصى والجنادل
ولكنها الاوطان ، ايسر خطبها ... له تسرح في مهجتي متواصل
وحومت الغربان في عرصاتها ... وقد خرست فوق الاراك البلابل
وقفت ــ بفضل الروح ــ عند طلولها ... اسائلها عن آلها وتسائل
وليس سؤالي غير ترديد لوعتي ... وما انسا الا عالم متجاهل
فسللتم ، وفي ايدي النبين عندكم ... مصابيح تذكو للهدى ، ومشاعل
واني تجرت الاحاديث عنكم ... وقد انبأتني كتبكم والرسائل
علمتم ، وعلمتم بني الارض، انما ... عليكم قضى ــ لو تعلمون ــ التخاذل
ولولا اتحاد البحر من قطراته ... لما هدرت امواجه وهو هائل
ولولا مدافين البخار تجمعت ... لما زلزلت سطح الوجود الزلازل
حرام عليكم تشهدون انقراضكم ... وياخذكم طيف الكرى المتثاقل
واقليمكم خير الاقاليم في الورى ... تجود عطاياه وتحلو المناهل
عليي اريضات الرياض كانها ... جنائن « عدن » انهرتها الجداول
وبطن خيرات اذا هي اخرجت ... تزول من القاموس عاف وسائل
قد استوجب الاصلاح امر بقائكم ... فكونوا كما في الارض عاشت جدودكم
وبنوهم بين الشعوب اتحادكم ... وحاضركم داع الى ترك ما مضى

٢ ــ نداء ورجاء

اواه ، يا قوم ، اين الحب بينكم ... والاتحاد ، وعزم ما به كلل
واين منكم ثبات لا يحول ، ولو ... دون المارب حال الموت والاجل
واين منكم اباء النفس يرفعكم ... لربع مجد غدا من دونه « زحل »
ويقتدي العدل في ارجائكم حكما ... وينتفي الفقر والآفات والعلل
ويصبح الدين بين القوم نبع تقى ... رعاته برضاء الله تتصل
لله ادهار مجد فيك قد سلفت ... يا شرق ، هل ذاك ظل راح ينتقل
وهل تعود تلك الايام ناضرة ... وهل تكف صروف الدهر والغيل
ام يتزوي ظل الاسعاد مندرسا ... عليك مني سلام ، ايها الطلل

٣ ــ متابعة النداء

بالتساوي وبالاخا والمحبه ... طالب العز وانفعال الرغبه
ليس يرجى لامة من فلاح ... غير ان هب كلهم فرد هبه
شعراء الزمان كم نبهتنا ... بغناها ، وكم خطيب بخطبه
ان كسر العصاة سهل ، ولكن ... كسر العش بانضمام صعبه
وهو امر لكم تمثل حينا ... بعد حين ، وكم رقيناه رقبه
والى القسم كم دعوا ، فضربنا ... فيه عرض الجدار اية ضربه
ولكم نحوه الضرورة حثتنا ... فعدنا ، والخلف يبعد قربه
ما ترى ، ان يكن من نواحي ... الشام «زيدا»، ومن اراضي «الشربه»
او فماذا ان كان لـ«القدس» ايمى ... او الى « مكة » يتم « الكعبه »
فهو يثري في دينه باعتقاد ... وهو حر ما شاء يعبد ربه
ليت نستبدل التعصب يوما ... بالمؤاخاة كي نرى ما العصبه
كي نراها تقودنا للاماني ... حيث تهي الهنا ومرعى الخصبه
كي يصير الشرقي بالجد موصوفا ... لدى الناس في ديار الغربه
ايها الناس ، قد كفانا هوانا ... وكفانا اهانة ومسبه
نحن ان ظل جمعنا في شتات ... ليس يرجى لحالنا من قلبه
من رمى بالدواء ، وهو عليل ... كيف تقوى على شفاء الاطبه

٤ ــ فحتى متى ، يا قوم ، حتام نجهل ؟

رويدا، بني الاوطان ، لستم اعاظا ... وعندكم « الانجيل » بالحق منزل
وعندكم « القرآن » يعرب مفصحا ... وعندكم « التوراة » تقضي وتفصل
ولكنها ذكرى الحقائق قد دعت ... لتذكيركم ، فاستنهضوا وتعقلوا
الا ان اس الاجتماع فضائل ... ودون اجتماع ليس للملك منزل
تقاطعتم بعضا عن البعض، فاشتفت ... عداكم بكم ، آها ، ولم تتوصلوا
ولو احسن التدبير بالامس جمعكم ... لما عسف الظلام فيكم وهولوا
ولا فرقت ايدي «سبا» امر العمى ... يبيتون لا يدرون ما الصبح يحمل
ولا حل «عزرائيل» يحصد راغبا ... ابادتكم ، والجوع في الكف منجل
الا ، هل رأيتم من تعصبكم جنى ... عليكم ؟ وهلا بعد ذا اليوم يبطل
جزاء الالى يستلمون جهالة ... معجل ذل ، او فموت مؤجل
جهلنا ــ وايم الحق ــ معنى وجودنا ... فحتى متى ، يا قوم ، حتام نجهل

٥ ــ نبضات القلوب

قام «الزيد» ينازع العيش «العمروا» ... قام « عمرو » على سواه يجور
اينما سرت التقي شن غارات ... فلا من يغيثني ، او يجير
ساد في سالف العصور ذوو البطش ... فولوا ، وقد اتت ذي العصور
فعلى الافتراس كان مدار الناس ... طرا ، لذا الرزايا تدور
كذلك الفلاة نحيا ، ولكن ... قد عدتنا الايباب والتكشير
يا خطانا ، سيري بنا في طريق الحق ... حتى متى يلبون الغرور
ذكرينا ، يا نفس ، بالموت دوما ... عل يجدي نفعا بنا التذكير
وهلمي الى الطبيعة ، حيث ... الطير بالحب عائش ، والزهور
والقري في صحائف الكون ما يحيا ... به القلب والنهى والضمير
ما وجدنا لكي نعيش شقاء ... بل شقينا لان منا القصور
نحن في وسعنا اذا انصف الناس ... جميعا ، واحسن التفكير
ان نعيد الفردوس ايضا ، ونغدو ... نحن منا ....
هكذا الناس في نزاع عنيف ... ما تزال الاطماع فيهم تثور

٦ ــ في سبيل الوطن

يقولون ، لا اوطان يعبدها الورى ... وها المال قد خرت لديه خواشعه
فاين تعاليم المسيح ، وقبله ... تعاليم موسى ، ثم احمد تابعه
مشيت الى ان قد حفيت ميمما ... فاين السلام المشتهى ومرابعه

الهوى المجتاح

نشرت على دروب القيد قلبي ... تكي يصرعنه شغفا ووجدا
فينجو من حياة ذاق فيها ... من الحسن اليتيم اسى وسهدا
ولكن الهوى أولاه وصلا ... وهجرانا ، وارزاء ، وصدا
وصب له كؤوس البؤس عاما ... وهش هنيهة ، ليصب سعدا
فلولا شقوة الولهان دهرا ... لاغمد من ثرى النعماء لحدا
ولولا الحب لم تكن الاماني ... ولا الدنيا بلا سلمى وسعدى
ولا الامجاد ان لم يور طرف ... كحيل للهوى المجتاح زندا

محمد العدناني

وقد بات كل بالسياسة يحتمي ... ولا حبذا الغوائه وخدائعه
فهذا شعار الادميين واضح ... يخادع من تقضي عليه منافعه
وما هكذا الرحمن شاء ، وانما ... كذلك في الانسان شاءت طبائعه
فلا تغفلوا عما به «عامورة» جرى ... و « سادوم » بما قوضتها زعازعه

٧ ــ واجب الوطنية

فهبوا كشعب عاقل متناصر ... ولا تشنوا الا وقد نيل القصد
ولا ، لا يكن من دين موسى واحمد ... ومن دين عيسى فارق ومبدد
اليم ، وجثم الرقاد على الغضا؟ ... فلا تنعسوا من بعد هنا وترقدوا
فمن لم يكن يحيى على حب موطن ... من البأس والاقدام لهو مجرد

٨ ــ واجب الوطنية

واتركوا الدين ، ما له والسب ... ياسيات فيكم ، يا أيها القاسمونا
وانظروا فالشعوب اجمعها تر ... قب ما تلفظون او ترقمونا
فتعالوا على التعاضد نستبـ ... ـقي المعالي ، وهي فالتهمونا

٩ ــ وعد بلفور

اعين الدنيا اليكم ناظرات ... ترقب الاقدام فيكم والثبات
اترى تبقون ابناء الحياة ... مثلما كنتم ابـاة وكماة
ام بكم عبثت ... ايدي الهرم
لا ورب العرش ، لستم تحجمون ... فالنصارى عرب والمسلمون
امركم ، والله ، امر ذو شجون ... فكفى طويلا في سكون.
وبه كدتم ... تصيرون عدم

١٠ ــ اليوم يومكم

يا بني موطني العزيز ، سلام ... اين كنتم ، في الحل والترحال
يا بني موطني ، لقيتكم قد ... سال دمعي ، وما الفؤاد بسال
فاجمعوا الرأي واستقروا على ... مبدا شريف للفوز بالاعمال
فهو الله قادر ان ينيل الحق ... فاسعوا عليه بالاتكال
واذكروا ، واذكروا جدودا عظاما ... هم فخر الدهور والاجيال
واذكروا ان منهمو قد نلتم ... فاقتفوا اثرهم على الافضال

١١ ــ العهد الجديد

امتي لفظة لها في جناني ... نغمة الناي مثل لفظة امي
عن عياني لم تحتجب بحجاب ... فاصلات ، ولا بامواج بحـ
فبر « الشام » روحي ، وفي «البنا ... ـر» قلبي ، اهيم باسم باسم

كلما الشمس اشرقت اتمنى ... لبلادي سناهما بعد غم
كلما البدو لاح لي ارتجي ... فوهما مثله على كل جرم
كلما الطير طارد الغم عني ... اشتهيها نظيره دون غم
كلما الريح هب ينشر عطرا ... قلت منها : يروي احاديث عالم
نائبات الزمان قد ايقظتها ... فهي ترنو الى المعالي وترمي
يا بني امتي ، عليكم سلام ... في كلا الحالتين : حرب وسلم
للسياسات في الممالك قدر ... لا تفروا بسلطة وبحكم
بيد بيد اخلاقكم هذبوها ... واجهدوا ، واعلموا بفن وفهم
ان من كان ظالما في حماه ... فحماه لا بد يبلى بظلم
تظلمون النفوس في نصر دين ... ضد دين ، بل ذاك اثم باثم
تظلمون النفوس ما دامت المر ... اة منقادة بجور ورغم
تظلمون النفوس حين تبا ... هون ــ بلا طائل ــ بخال وعم
تظلمون النفوس حين تجا ... فون المحاريث ناعمين بحلم
ان ملكا تبغونه مستعزا ... ليس يبنى من در نثر ونظم
لا عدمتم في الحادثات رجالا ... لا يبالون بالقضاء الملم
بعيون ترى الحقائق في الدنيا ... جليا ، بلا انخداع ووهم
بعقول صحيحة تتوخى ... حكمة الدهر ، قبل اصدار حكم
بخطى لا تزل الا استعادت ... جريها ، واهتدت بعزم وحزم

١٢ ــ يد الوداد

مد نحوي يد الوداد ، وصافح ... لست الا مثلي على الارض سائح
رب يوم يجيء غير بعيد ... انا عنها ، وانت يا صاح ، نازح
هز كفي بكفك اليوم شوقا ... عن شعور يطيب بين الجوانح
فقدا ، ربما النوى فصلتنا ... ببحار عميقة او اباطح
هز كفي ، فرب هزة كف ... هي للنفس بلسم والجوارح
يتبقى تأثيرها في جناني ... حين تعدو بنا الخطوب الفوادح
حين ليلي يهولني بالدياجي ... وارى الارض للهموم مسارح
على شمس الوداد تهفو نفسي ... وكربي السبيل بالصبر واضح
الجمع الحطام اعرضت عني ... وتشامخت مزريا بالنواطح
اوتدري ــ فلست والله ادري ــ ... هل تكون الفداة مثل البارح
حاضر المرء عمره ، فتمتع ... بنعيم الولاء ، لا تك كاشح
ها يدي ، يا مرافقي في جهادي ، ... مد نحوي يد الوداد ، وصافح

واشنطن

جورج ديمتري سليم

مع الشاعر جورج صيدح في رحلة العمر

بقلم حسان الكاتب

* * *

الحديث عن الشاعر الكبير جورج صيدح حديث طويل وله عدة جوانب .. ولن استطيع في هذا المقال ان اوفي هذا الانسان الكريم حقه من الوصف .. لان الحديث عن صيدح يتطلب مجلدا ضخما يتضمن دراسة عن الفترة الزمنية التي نشأ فيها وعن ادبه وشعره ورحلاته ومؤلفاته وعلاقاته الادبية الواسعة. وساكتفي في هذه الدراسة بعرض بعض جوانب الموضوع .

ولا بد لي ان اتحدث في هذا المجال عن صيدح الصديق ... فقد بدأت صداقتي معه منذ ان اهديته الجزء الاول من « الموسوعة الموجزة » ورد علي بالرسالة المؤرخة في ٣-٤-١٩٧٣ بقوله : « اغدقت علي هداياك كتبا ورسائل مثنى وثلاث وانعشتني انداء كلماتك واطياب عواطفك فكنت انسي على غير وعد وطيبي من غير عمد ، شكر الله فضلك وادام علي عطفك .

انا امام رسالتك المؤرخة في ١-٣-١٩٧٣ واختها في ١٠-٣ ومجموعة الكتب كاملة مع اضافة نسخة من الجزء الخامس سابعث بها الى الصديق نعمة الحاج ليذيع كلمتك عن « جامعة الادب في اميركا » . انها بادرة تشجيع منك الى مؤسسة اسميه بين ادباء متفرقين لم يجتمعوا في ناد مرة واحدة ؛ وانا في الثمانين من عمري اصغرهم سنا ، ندوة الادب العربي في بونس ايرس اقوى وانشط ، ولم تستلفت انظار الدارسين .

ازدهاني حسن ظنك بالجزء الاول من ديواني وسأقسم الثناء بينه وبين شقيقه الثاني رقم (٢) عدديا ورقم (١) مادة وسترى كما سنرى . عن المبلغ الزهيد الذي قدمته فهو لا يقابل ثمن الورق والحبر والطبع والشحن ومعاذ الله ان اتصدى لكافأتك على الجمع والتأليف والنشر فهو جهد جبار لا يفيه مال ولا عقار . احمد الله على تعرفي بك واشكر للاخ يوسف عبد الاحد وساطته الموفقة كي احسد على صداقة هي من معدن الابريز لا مثيل لها عندي في باريز . ودمت للمخلص المعجب »

ومنذ ذلك الحين امتدت صداقة صادقة بيني وبين الاستاذ صيدح سأعتز بها مدى الحياة .

سيرته الذاتية : في دمشق الفيحاء وفي « زقاق الصواف » قرب مكتب عنبر عام ١٨٩٢ ولد شاعرنا وكان سادس المواليد في العائلة قبل اثنين تبعاد . وكان والده قاضيا في محكمة استئناف الحقوق مدة ٣٠ عاما.

لزم المدرسة الابتدائية حتى ١٩٠٩ وكان مبرزا في العربية مقاطعا للدروس باللغات الاجنبية فعوقب من قبل اهله بسجنه في كليه عينطورا بلبنان بعيدا عنهم لكي يتعلم اللغة الفرنسية ، فدرس فيها عامين ونال الشهادة الممتازة عام ١٩١١ وكان ذلك اخر عهده بالدرس والتحصيل اذ اكره على ممارسة العمل الذي عقبه وهو التجارة ، فانتقل توا من عينطورا الى المتجر في القاهرة : وصار غنيا من اغنياء الحرب ، ولكنه خسر ماله ومركزه بعد سنين معدودة وحمله الافلاس على الهجرة الى اوربا عام ١٩٢٥ في طلب الرزق ، ولما تعذر وجوده هناك هاجر الى فنزويلا وتاجر ٢٠ عاما متوالية . وفي سن الخمسين انسحب من ميدان الاعمال وفقا لعهدة بينه وبين نفسه وانصرف الى المطالعة والسياحة في انحاء العالم الى ان استقر في باريس .

وفي صدد الحديث عن اصل تسمية العائلة « بصيدح » وهل لهذه التسمية علاقة بعذوبة الصوت يقول الاستاذ جورج صيدح : « بحثت مرة عن شجرة اسرتنا وعن اصل التسمية « صيدح » فعثرت في خزانة جدي لوالدي « وكان تاجر اقمشة في خان قريب من الجامع الاموي في دمشق » على مجلد ضخم متين يضم صفحات التوراة والاناجيل ، مع صفحات بيضاء مضافة اليها ، وعلى هذه الصفحات كان جدي يخط تاريخ العائلة أبا عن جد ويسجل حوادث الميلاد والوفاة والعماد والزواج .. ويروي جدي تسلسل البطون والافخاذ من قبيلة عربية زحفت من حوران الى دمشق . اما عن التسمية فيقول انها لقب غلب على الكنية الاصلية لما اشتهر احد اجدادي برخامة صوته في قبيلته ، يؤكد ان الاجيال المتعاقبة لم تخل من صاحب صوت رخيم مبرز اسم « صيدح » ويذكر أطرف حادثة جرت له سنة الستين ، اي سنة المذابح والفتنة الدينية فقال ما معناه: « لما هاجم بيتنا الرعاع بسكاكين وخناجر مصبوغة بدم الجيران عرفني واحد منهم كان استضافني وسمع غنائي فمنع رفاقه من الفتك بي على شرط ان اجود على مسامعهم ببعض الايات القرآنية ففعلت ونجحت في التأثير عليهم : فما كان منهم الا ان البسوني عمامة بيضاء وجروني الى مئذنة الخراب وطلبوا مني ان اؤذن . فاذنت واشتريت حياتي وحياة عائلتي بهذا الثمن .

وقد سمع بالحادثة الامير عبد القادر الجزائري فارسل قبل المغرب رجالا من حاشيته تقلوني مع عيالي الى قصره حيث بقينا في حمايته الى نهاية الاضطراب ».

صيدح المهاجر : اما عن هجرته فيحدثنا المترجم فيقول : وبعد ان افلست تجارتي في مصر . وانقطع رزقي في اوربا بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧ ، اقدمت على ما يشبه الانتحار بالنزوح الى فنزويلا احاول ملكا او اموت فاعذرا . . ه فدخلت دنيا عجيبة موحشة . بين مهاجرين عرب يتراطنون بالاسبانية المستعربة ؛ متفرقين في البلاد الشاسعة ؛ لا متاجرهم مجتمعة في سوق ، ولا منازلهم متقاربة في حي ، فلم يتعارفوا ويتآلفوا كما في سائر المهاجر الاميركية : بل اندمجوا في المحيط الاجنبي، وتعودوا الكلام بلسانه : حتى ثقل عليهم اللفظ العربي ، واصبحت الاسبانية لغة الحديث في بيوتهم ومجتمعاتهم . فكان علي ان اتعلم الاسبانية وانسى لغتي وعزوبتي لكي اختلط بهم ، بغية الحصول على عمل يقوم بمعاشي ، فلزمت غرفتي في الفندق الزري واخذت بالدرس آناء الليل واطراف النهار.» .

شعره ومؤلفاته : ويقول الشاعر المهجري الكبير في صدد بداية تجربته الشعرية « كان اول ما نشرت عام ١٩١٠ في جريدة « البرق » لبشارة الخوري ثم توالت قصائدي على «سركيس» اثناء اقامتي في القاهرة فلم تخل مجموعة منها ، مع العلم اني كنت غارقا في بحر التجارة ، لم اتعلم العروض في المدرسة ولم اقتن معجما عربيا الا في الارجنتين بعد التقاعد من الاعمال التجارية ».

هذا شيء عن جورج صيدح الانسان اما صيدح الشاعر فاننا نجده في ديوانه « النوافل » الذي اصدره عام ١٩٤٧ وديوانه « نبضات » الذي طبعه في باريس عام ١٩٥٣ وكتابه « ادبنا واباؤنا في المهاجر الاميركية » الذي اعيد طبعه ثلاث مرات خلال الاعوام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ١٩٦٥ . واصدر عام ١٩٧٢ طبعة جديدة من « ديوان صيدح » الجزء الاول ؛ كما اصدر عام ١٩٧٣ الجزء الثاني من هذا الديوان .

وسنتحدث فيما يلي عن كل من هذه الكتب :

١ ــ ديوان النوافل : لقد طبع الشاعر ديوانه هذا وجعل ريعه لحساب لجان « الدفاع عن فلسطين » وهو يقع في اربعة فصول . يشمل الفصل الاول قصائد الباكورة الاولى في الوطن والثاني يشمل بعض قصائد الهجرة الاولى الى مصر . والثالث يشمل بعض القصائد التي نظمها الشاعر في اسفاره في اوربا وغيرها وخص الفصل الرابع ببعض قصائد المهجر الاميركي .

والذي يقرأ ديوان النوافل يتأثر بناحيتين الاولى الحنين والوطنية والثانية الوصف ومناجاة النفس وقد غلبت في الحالتين المسحة الوطنية التي دلت على عاطفة صادقة .

فهذا هو الشاعر في مصر وفي بداية هجرته يتذكر بلده الحبيب فيقول :

اذا البلبل الفرد فارق روضه ... فكل رياض الكون في عينه قفر
وداعا دمشق الشام لم ترحم النوى ... دموعي، ولم يشفع بي السهد والزفر
واني لطير من طيورك لم تزل ... تجاذبني تلك الحدائق والنهر

وفي نهر بردى الخالد يقول :

ملأت منك يدي بعد امتلاء فمي ... ولو قدرت ملأت الصدر والكبدا
حتى اقول لدهر سامني ظلما ... في غربتي، «لن تراني ظامئا ابدا»

وهذا شاعرنا يحز في نفسه بعده عن وطنه حين يركب الباخرة ليمخر عباب المحيط الى اميركا عام ١٩٢٧:

للشام ارواحنا يا بحر ، ما طمعت ... امواجك الهوج الا في بواقينا
ها نحن فالتقف الاجسام هامدة ... وانثر عليها نديف الموج تسرينا
وخل ارواحنا تطفو مولية ... شطر الديار نحيي من يحيينا

وفي شعر الوصف والنفس يقول في قصيدة وطني :

شاعر يرجى ولا يرجو ، ولي ... مسجد الاصنام يوما ما سجد
تتحداه البنات استنشزت ... كلما زاد اتئاة وجلد
عاف ورد الماء فيه ولغت ... حشرات القوم فاستسقى البرد

ويبدع الشاعر في وصف ناطحات السحاب في نيويورك فيقول :

كوى تطل على الافلاك اعينها ... والنها تستقي اخبار بارئها
انوارها تكشف الافاق معلنة ... عن سلعة بها الافلاك تشريها

٢ ــ ديوان « نبضات » : في هذا الديوان نلاحظ زفرات الالم القومي والايمان العربي الذي يصور حنين الشاعر وشعوره الوطني واحاسيسه وعواطفه الجياشة كقصيدته في ابنته ساعة اجراء عملية جراحية :

رفقا بها يا مبضع الجراح ... شرحت قلب الوالد الملتاح

وتارة اخرى تتبدى الاحاسيس الوطنية له ولومه لبني قومه فيقول :

ولو صدق الجهاد لما رأينا ... انوف العرب تمرغ في الرغام

٣ ــ ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية : لقد وضع شاعرنا المهجري هذا الكتاب حين كلف ان يحاضر طلاب معهد الدراسات العربية العالية عن ادب المهجر بطلب من مفكر العرب ساطع الحصري .. وهنا تبدو لنا موهبة صيدح كباحث اديب حين يهادن عالم الشعر وينصرف لعالم الدراسة والبحث فيعيش من جديد مع ادباء المهجر وشعرائه ومفكريه يدرس ادبهم وشعرهم دراسة اديب عايش اكثرهم وعرف الكثير من حياتهم الادبية الخاصة منها والعامة : فاظهر منها وما خفي فاشتملت المحاضرات تاريخ الهجرة وبواعثها وتياراتها وحظ الادباء منها ونشأة الادب المهجري ومراحل نموه واثره في الادب العربي العام وخصائصه ورسالاته ونواحي نشاطه ، الى ماخذ خصومه عليه . وصدرت هذه المحاضرات في كتابه سنة ١٩٥٦ في القاهرة بعنوان « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » ثم اعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٥٧ كما اعيد طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩٦٤ وقد اضاف اليه دراسات جديدة عن ادباء اغفلهم في الطبعة السابقة ولم يعط عنهم معلومات شافية ، الى دراسات اخرى استطاع ان يتوسع في معالجتها بفضل الاتصالات والتحريات والمطالعات التي اتيحت له خلال سبع سنوات مرت على كتابة

عاد الربيع

عاد الربيع ، وعـاد تلزهر والادج ... لا تكتمي الشوق ، ما في حبنا حرج
ان آنـت تم تذكري آذار مبتهجـا ... ولم يهـزك عيـد صادح ، هـزج
فكـل نيـانـة تم تال تهتـف بي ... وكل خافقـة ، في البـال تختلج
اولاني الحـب من ايامـه عبـرا ... وزفني القـلب نبـلا ما بـه عوج
من كان يالف نسيـاني ، ويمنعني ... ما كان يمنحني هـدب له ، غنج
باق كما كان ، حلوا لا اشوهـه ... ابكي وافرح ، اذ يبكي ويبتهـج
عاد الربيـع ، فهل حلم يؤوب بنا ... وهـل يعربـد ، في اعراقنا ، وهج
ما زلت اهواك ، آن تسلي وآن تسلي ... اني لسان ، بآيـات الوفا ، لهـج
هل تذكريـن سماحات نطوف بها ... آن ضـل خطو بنا ، او تاه منعرج
ماهمنا الناس ، لم نسلك كما سلكوا ... في الحادثات ، ولم ننهج كما نهجوا
لمـا توحـد عمرانـا ، وآبهجنـا ... ضـوء يقطـر في ضوء ، ويمتزج
ضاع الزمان ، فلا ماض يؤرقنـا ... وليس الا غـد ترنـو له المهـج
ونحـن والفجر خننـا رقـة ونهى ... هل يحزن الليل آن الفجر ينبلـج
يا بهجة العيد ، انت العيد فابتسمي ... لا بد يطلع ، بعد الشـدة ، الفرج

فوزي عطوي

الطبعة السابقة . وقد برزت مواهب الشـاعر المهجري الكبير كاديب محقق وباحـث منصف ، وناقـد لا تفوتـه النمزة التي تهدي القارىء الى الهفوات التي وقع فيها الشعراء او انزلق اليها الادباء : والى نقـده الموضوعي اللاذع ، كان المحـامي البارع المتحمس لرسـالة الادب المهجري ، فاصبح كتابه ، على كثرة ما صدر من الكتب والرسالات عن الادب المهجري، اصبح من اصدق واوسع واوثق المراجع له ، فهو بحق موسوعة كاملة في هـذا الميدان ، ومن قصائده البديعة التي نظمها بمناسبة المولد النبوي الشريف بعنوان « محمد » يقول :

وجه اطـل على الزمـان ... لالاؤه شـق العنـان
فيـه شعـاع النـبرا ... ت وفيه انفاس الجنـان
صاقـب قريش بـه ، اما ... يكفي قريش الازهـران
من لا رأى طفـلا ينـا ... غي الله بالبـع الثـان
نبـذ الشتائم وهـو في ... مهـد الرضاعـة والحنان
يا صـاحبي : بـاي آ ... لاء السمـاء تكذبـان

والقصيدة طويلة اكتفينا منها بهذا القدر .

وفي « ديوان صيدح » الذي صدر عـام ١٩٧٢ و١٩٧٣ (الجزء الاول والثاني) يروي فيهما قصتـه الذاتية وقصص نضال امته ، فبينما نعيش معه في واحة من الانس والنعيم ، نطرب للنغم ونحلق بالكلمة الشاعرية التي تدغدغ احاسيسنا ، اذ بكلماته تنفلت في بعض المواقف آلى شواظ من نار على رأس المستعمرين وعلى الذين كانوا سبب نكبة فلسطين حكايات طويلة ، يرويها من اغترابه : عن الوجد والحنين ، عن الالم والانين ، ومعايشاته مع خلانه ، وتوازع الجمال التي تثير وجدانه: وليالي الصفو التي تهز مشاعره وترقص كيانه والاحداث التي تنزل بقومه فتثير اشجانه . كل هذه الالوان المتباينة بآفاقها واشواقها واصدائها واهوائها انتظمت شعـرا سهلا حلو النغم شعر الديباجة الانيقـة والنغم المرح الطروب والعاطفة الصادقة المرهفة .

هذا بالنسبة لما نشره صيدح وهناك ما لم يطبع فهي حكايات حداثته ونكبات تجارته ومشقات غربته .

دمشق — حسان الكاتب

المراجع :
١ ـ ديوان صيدح (الجزء الاول والثاني) .
٢ ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية لجورج صيدح .
٣ ـ ادب المهجر لعيسى الناعوري
٤ ـ الادب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي
٥ ـ شخصيات من الادب المعاصر لوحيد الدين بهاء الدين
٦ ـ النبي محمد صلى الله عليه وسلم
كلمات باقلام نخبة من الباحثين والادباء المسيحيين المثقفين من منشورات مجلة التمدن الاسلامي بدمشق ١٩٦٤ .
٧ ـ مقال بعنوان « من مآسي الهجرة » لجورج صيدح .

اخي شفيق معلوف

القيت في حفل تأبين الشاعر شفيق معلوف
الذي اقيم في الكنيسة الشرقية بزحلة
يوم ٢٦ / ٦ / ١٩٢٢

*

حزن الشعـــر يا اخي وتـــاثر ... وبكى حسرة عليـــك المنبـــر
والقوافي تيتمـــت نائحـــات ... باكيـــات عليـــك كم تتحسر
احرق الدمـــع مهجتي وضلوعي ... يا لدمع كالنـــار مـلء المحجر
جمـد الدمـع في عيـوني حزنا ... وعلى جفني انكئيـــب تسمـر
يا شهيـــد اليراع والوطن الغالي ... الذي مجـــده بمجدك يكبـــر
عمرك الان بالخـــلود مديـــد ... انمـــا في الحيـــاة كان الاقصر
نحن كنـــا ثلاثـــة نتغـــنى ... من ضفاف الوادي لارض المهجر
فاحتللنـا في دولة الشعر صرحا ... اثر صرح ومنبـــرا بعـد منبـر
كان فـوزي على بسـاط مـــع ... الربح وراح الشفيق يقصد عبقر
وانـا في الحيـاة صرت وحيدا ... بـــين هذا وبـين ذاك محـــير
لست اخشى الممات بعدكما اليوم ... ومـاذا في فضلـــة العمر احذر
فالى موعـــد قريـب لقـــائي ... معكمافي الاثير .. لن اتاخـــر

شعرك السحر والبلاغـة فيـــه ... فهـــو عقـد منمنم ومجـوهر
ملـك الشعر انـت انت امـــير ... ولـك الصولجان ذا فتصـــدر
لا تسلني عن سكرتي بالقـــوافي ... دع اخاك الرياض بالشعر يسكر
نشوتي هـذه من الشعر كانـت ... من دنـان الشفيق من فـم عبقر
فقـــد الشرق عبقريـا عظيمـا ... فيك من من شفيقه ـ اليوم اشعر
ايـه لبنان والمصـــاب عليـــه ... كمصـاب الحروب ادهى واكثر
كـــم بـه كنـــت دائما تتغنى ... وعلى حربـــه اسى تتـــاثر
وتتبعـــت حربـــه باهتمـــام ... هم لبنـان كم حياتـك كـــدر
فالرســـالات كلهـــا استفهـام ... عـن مآسيـــه راجيـا ان يثمر
نصر الحق يا اخي فتظمئـــن ... غدنـــا باحرفه سوف نفخـــر
قلت فيه شعرا بديعـا جميـــلا ... رددتـــه الرواة في كل محضر
هـذه زحلتي من الحـزن جنـت ... وهي تبـكي عليـــك لا تتصبر
لـك شعـر فيهـا يذوب حنينا ... وهي دوما شفيقهـــا تتذكـــر
بلـدة الشعر كم عشقت سماهـا ... وثراهـا وكم يراعـك صـــور
نهرها .. والكروم فوق الروابي ... ثم وادي الفردوس ..وادي الكوثر
وهي ترجو بان تعـــود اليهـــا ... ثم في قلبهـــا ضريحك يحفـــر

عصبـة الشعر انت كنت لواهـا ... ذي عكاظ فيهـا البلابـل تسحر
هـاك لبنـان يمـلأ الكون شعرا ... اي شعر بشعـره مـــا تاثـــر
كل فرد منـــا اراد اغترابـــا ... حمل الشعر والطموح .. وابحر

يا زميلي .. ويا شفيقي المفدى ... يا جناحي الذي هـــوى وتكسر
لـــك قلـب على الجميع شفيق ... وطبـــاع كانهـــا نفـح عنبـر
كيـف انسى اخـــوة غمرتنـي ... منك دومـــا وكيف لا اتذكـــر
كنت انت .. الانسان قولا وفعلا ... وفعال الانســـان تبقى .. وتذكر

زحله ـ لبنان

رياض معلوف



وحيد الدين بهاء الدين

فيليب لطف الله شاعراً وانساناً

بقلم وحيد الدين بهاء الدين

* * *

اقول وقولي ليس بجديد : ان الشعور الانساني منبع الشعر ومنصبه (١) ...

يعني ان الشعر يتفجر من الاعماق هادئا او صاخبا ، ليأخذ طريقه بكل روافده ، عبر الخلايا والحنايا ، ليصب في نفوس الاخرين : أي في احاسيسهم ، وهي تتقبله اما راضية راغبة واما ساخطة راغمة ... ذلك مرهون بالمزاج الذاتي ، وموقوت باللحظة الشعورية الانية .

اذا الشعر لم يهزك عند سماعه فليس خليقا ان يقال له شعر

هذا ما قاله جميل الزهاوي ، ترى ماذا يقول فيليب لطف الله :

فما الشعر الا ما يهز شعورنا وينفذ في النفس بالدفء والبرد

واخلص الى ان الشعر اذا افتقد مسوغات الفن : الجمال وروحه .. الصدق وفحواه ، الحركة ومداها ، صار هو والتخريف او التزييف كائنا واحدا ..

واشرب الكوثر السلسال مندفعا من الينابيع يروي الترب كالديم
اردد الكاس ملأى من مناهلها ... عابقة بالطيب والقدم
تمر بي نسمات الروض عاطرة بالحب تحت ظلال الدوح والخيم
من نبع صنين من افواه كوثره قد استقيت رحيق الشعر والكلم
ومن علاه اتاني الوحي منهمرا كالغيث يهطل بالايات والحكم
الجو صاف ولا غيم يكدره والشمس تشرخيط الحب في الاكم
ويخطر البرد في ليل الهدى دنفا يثير سبل الهوى في حالك الظلم
ويرسل الناي الحانا ترنحنا والطير تطربنا بالشدو والنغم
والماء اغنية اليشوع تسمعنا ، لحنا فريدا وهمس الحب في النغم
والناس تمرح في حقل وفي عمل والعيش يحلو لراعي العنز والغنم
هي السعادة في الدنيا لطالبها ففي القناعة كنز الناس كلهم

تلك هي نقطة البداية بالقياس الى فيليب لطف الله في قول الشعر والاسترسال فيه على طبعه بلا تصنع وتنطع . بينما هو يعبر عن ما يجيش بخاطره ، وينازع ضميره : وبصور ما يدعوه الى الانصياع له واستيحائه بالرغم عنه ، من شرائح الحياة وخبيآت النفوس واسرار الطبيعة والوجود . هكذا الفن ..

ما لليالي تجافيني وتظلمني اضعت نجما قضيت الليل ارقبه
عيناي ما عرفت غمضا وارقني ليل طويل كعام الشؤم احسبه
زهر النجوم تجنت وهي ساطعة لكن نجمي غيوم الهجر تحجبه
تحلو الكواكب افق الحب يجمعها انا المحب الذي جافاه كوكبه
انا المعذب من دهري ودورته متى يدور بافق السعد عقربه

ثم يقول وقد رقت حواشيه وعمقت نظراته :

ارسلت صوتي مع الامواج مرتجيا على الاثير جوابا منه ارقبه
فجاء رجع الصدى والموج يحمله كم عاشق في عبابي خاب ملتبه
والبر اقفر لا جن ولا بشر ... قد دار ناب الردى حولي ومخلبه
استغفر الله في حب اعيش له فصار شهد الهوى كالسم اشربه
ايقنت ان الذي في القلب مسكنه ما رق قلبا فاضناني تصلبه

من هنا قال فيليب لطف الله ، الشاعر المهجري ، ورئيس جامعة القلم بسان باولو في مقدمة ديوانه (٢) (حصاد الايام) : (اما انا فانني انظم الشعر مدفوعا برغبة داخلية ولذة نفسية كفن يدمن الكحول او التدخين ولا يمكنني التملص من هذه العادة .)

على سروري وليلي ما له سحر ليل المصائب لا زهر ولا قمر
رهن الهواجس والافكار تنهكني ما اتعب المرء ان شطت به الفكر
الغوص في بحر احلام مشتتة ... تعود في لجها الاصداف والدرر
ولست ادري اخيرا منها ارقبه ام في عواقبها الارزاء والضرر
ليت الرزايا التي نالت بكلكلها بعد العشية لا يبقى لها اثر

كذلك انظر الى هاته الابيات المنتزعة من الكبد :

وداعا ايها البيت المريح ورفقا كيف اضناني البروح
وكنت لاسرتي قمرا منيفا وصرحا لا تعادله صروح
شمخت على المساكن والروابي ودون علاك تتخلف السفوح
وكم اكرمت من ضيف عزيز ومن الف السخا لا يستريح
وحولك جنة وريا انيس سياج نسجه ورد وشيح

وما ذلك الا نتيجة طبيعية لعملية كظم وتسام ، جذورهما ضربت في اغوار الذات .. فالعنف في التجربة الشعورية والاخلاص في تخير القيم التعبيرية الموحية ثم الملائمة بين تلك التجربة وهذه القيم على صعيد من الاصالة والتوتر ، هو الصفة الظاهرة على عدد من قصائد الشاعر ومقطعاته ..

فيليب لطف الله في شعره داعية محبة ، حتى لكأنه لا يرى في الوجود غير المحبة وانوارها المتراحبة ، ولا يسمع الا اصداءها ومرددا تها ، وهي تتناهى اليه من بعيد تارة ومن قريب اخرى ، ولا يتنسم الا اريجها وهو فائح هنا وهناك ، ينعش قلوبا عليلة ، وافكارا خابية ، محيلا ما بها من سخائم الى رجاء وتفاؤل وخضرة دائمة.

ديني المحبة في قولي وفي عملي وحرمة الحب من شرعي وايماني

فالمحبة بمعناها الصحيح تقتحم قلاعا حصينة وتغسل نفوسا مريضة ، وتبدد ظلاما مرخى دواما ثم تقتلع الظلم

من عروقه الممتدة .. من هذه الارض التي يستوي عليها فيليب لطف‌الله وجد غالته المنشودة في المحبة.. والمحبة وحدها :

وانشر الحب فالحياة ولام ... ولاء وخدمة وعطاء
يفتح الحب للسماء سبيلا ، ... عبدته بأيها الانبياء
كن محبا فدرهم الحب يشفي ... داء قوم في حقدهم ضعفاء
وانشر الحب فهو نور البرايا ... اسيغته على العباد السماء

هذا دستور الشاعر في محبته : محبة الله والوطن .. محبة الناس والفن .. محبة كل ما يمت الى خير أخيه الانسان ورفعته ودفعه الى الامام .. كيما يثبت وجوده ويحقق مطلبه في هذا الوجود : .. ما اسمى ما يقول :

هو الحب ما ادراك ما فعل الحب ... هو خلجات النفس ان نبض القلب
هو النور في الدنيا يشق ظلامها ... فلا شمسه تفنى ولا نوره يخبو
هو قوة الدنيا ويرد سلامها ... ومرشدها للسلم ان نشرت حرب
هو محور الدنيا وميزان عدلها ... اذا فقد الميزان قد فقد اللب

والمحبة بعد هذا كله سراج وهاج يهتدي أبدا الى الاشراقة الروحانية والنقاوة النفسية ، وبهما تتحقق الحياة في اصلها الثاني :

فلا شيء في الدنيا سوى الحب دائم ... ولا شيء يهديهم اذا فقد الحب

ويقول فيليب لطف الله :

فما الحياة سوى حب نعيش به ... من فاته الحب عاش العمر كالحجر
هل تعبدين اله الحب قانعة ... كم في صلاتك من حب ومن عبر

ويبدو ان وظيفة الشاعر لا يراد لها التوقف عند هذه الصيغة ، بل يدعونا وغيرنا الى الاغتراف المتصل من ينبوع المحبة ومن غير ابطاء وتريث اشراكا للاخرين معه ، لتعميق معناها وترسيخ مغزاها :

احيا بهم ، احيا لهم ، احيا على ... حب يقوم على الوفاء الاندر

كذلك يقول في قصيدة (دولة) :

ما الحب الا منهل عذب ... يجري مع الاهواء والادب

ثم انظر اليه يقول في قصيدة (ثوب الوفاء) :

وما الاعمال الا نسج حب ... وان الحب مفتاح السماء

كما انه يقول في قصيدة غيرها :

وكن محبا فان الحب جوهره ... في كل قلب كريم النفس مفضال

على ان فيليب لطف‌الله يفصح عن تاثير الحب وفاعليته على مستوى الفرد والجماعة على نحو من الانحاء جميل :

فالحب في الناس امال تعيش بها ... واليفض آفة كفار وظلام
الحب يرفع قدر المرء يكسبه ... محبة الناس من قدر واكرام

مهما يكن من شيء فان موقف الشاعر الايجابي : يعيد لنا مواقف الصوفيين والمثاليين ، والذين وقفوا حياتهم على تطهير القلوب من الشرور والاوجاع ثم الانباض باقدار الاخرين فوق مراتب الشهوات والدنيات واقتلاع جذور الانانية والشحناء من اعماقهم : لتحل محلها القيم الرفيعة والاحساس الصادق بها ليكونوا نماذج صالحة في السيرة والسلوك وهم يخطون درب الوجود الطويل :

امنت بالله حبنا في خلائقه ... امنت بالحب ان الحب ايماني
دين المحبة للاكوان يجمعها ... ما فرق الناس الا كل شيطان

الا ان هناك ـ كما احسب ـ ربطا موضوعيا بين هذا الذي سلف التوقف عنده بغض الشيء : وما يقتضي التعريج عليه بعض الشيء ايضا ...

رجال المال والاعمال بحكم ما يعانون ويعملون الفكر من اجله ، يتميزون بقدر كبير من الذهنية المادية في تفاعلهم مع الاحداث وتعاملهم مع الناس.. كذلك يفتقدون اغلب الاحايين ، في ذلك كله ، الجانب الروحي لانهم يرفضون غير الايمان بقيم معينة ، وغير الاهتداء بمقاييس خاصة بهم ...

اما فيليب لطف‌الله الصناعي والمالي ، فيشذ ومعه ـ بالضرورة ـ اخرون عن هذه القاعدة ـ ولكل قاعدة شواذ ـ كانسان تسمو به خلال ومبرآت ، ترامى الي بعضها من بعيد ، وحدثني عن بعضها الاخر من خالطه وخبره .. لاقاه واختبره ..

معناه : ان فيليب لطف‌الله في تعامله المادي هو نفسه في تعامله الادبي .. رهافة في الحس .. سخاء في العطاء .. نبل في القصد .. ذلك حسبه .

بديهي أن هذا السلوك لا ينتهجه الا من كانت المحبة والشعور العميق الشامل بها ، دينه وديدنه ، والتعاون على البر والتقوى شعاره ، والاريحية آية بين آيات اعماله وتطلعاته الدائمة :

على الاعمال تزدحم البرايا ... وحاجتها الى خبز وماء
وما الباقي سوى فضلات عيش ... واطماع سرت في الاثرياء
اذا الريت لا تنس جياعا ... فان الخلق يسمو بالسخاء
وان تسعد بعيشك كن رؤوفا ... على من عيشهم عيش الشقاء
فقد يسطو الزمان على غني ... ويصبح بين آشداق البلاء
فلا شيء مع الايام باق ... كذاك يزول مجد الاغنياء
فكم من ثروة هدرت ومجد ... مضى من حيث جاء على السواء

فيليب لطف‌الله في مصادره الشعرية والثقافية وان كان يعول على واقع الحال والحياة ، فهو يقول : (ان الشعر موهبة تكتمل بالدرس والمران والمتابعة الدائمة) (٣) ..

صحيح ذلك ..

متى كان الفنان والمفكر يستمد محصولاته ومضموناته من اللاشيء .. من العدم .

ومتى كانت الموهبة تكفي وحدها ، لخلق هذا

الفنان وذاك المفكر . ولتحقيق غرض ما مهما يكن حظه من الاهمية والقيمة .

انما صهر الموهبة الانسانية في بوتقة الزمن تارة والحياة اخرى ، بغية الكشف عن ما بها من بعد ومدى وعمق ، بغرض المعاناة والصقل ، ويتطلب الدراية والشجاعة ...

ولقد تجلت لي وانا اتابع شعر فيليب لطف‌الله ، خاصية ، لعلها أميز ما لديه ..

ذلك تمثله للافكار والمعاني ثم تمكنه من التخليق بها ما وسعه . في الوقت الذي يحاول ان يكون له دوره الايجابي في عملية الخلق الجديدة ، باضفاء ذاتيته الحساسة عليها من ما يجعلها تدل على الجدة أو تشف عنها ، وتدعو الى التأمل والامعان ..

من هنا يقول فيليب لطف الله في قصيدته (تحت مبضع الجراح) :

ما زلت في عزمي واوج كفاحي ... رغم الكهولة ما رميت سلاحي
اشدو ويطربني صداح مغرد ... نشوان بين القيد والسراح ...

ويستطرد قائلا :

يا ايها الاسي ترفق بالذي ... يشكوك من السم ولمع جراح
عاش الحياة ولم يكدر صفوها ... مرض ولا عرفت سوى الافراح
ما زال في شرخ الشباب بروحه ... ما الجسم الا مسكن الارواح

قصيدة متسقة معنى .. مسربلة باشعاع الحياة بكل اشواقها ، وآلوت بكل جبروته . انها ترطب الامزجة اللاهبة وتملأ النفوس بشحنات المقاومة والتصدي لغوائل الزمن وفواتك الامراض ..

وعلى الرغم من ذلك كله ، فانها تنقلنا الى جو قصيدة اخرى سبق ان مرجنا عليها لروعتها واصالتها ، تلك هي قصيدة (تحت مبضع الجراح) لشاعر المهجر الكبير جورج صيدح ، قالها في ابنته الوحيدة (جاكلين)، عندما اجريت لها جراحة :

رفقا بها يا مبضع الجراح ... شرحت قلب الوالد الملتاح
ان رمت ايلاما ففحت تجلدي ... وجمعت بين صياحها وصياحي
والله لو اطلقت روحي لارتمت ... تحت النصال تصدها بجراحي
هذه القطاة الصامة من ريشها ... تكفي اذا انتشرت لقص جناحي
ماذا جنت وهي الغطيمة في الربى ... حتى تذوق خشارة الاقداح
بالامس مدت عنقها من وكنها ... واليوم تشهد مدية النباح

تغنى شعراء المهجر الشمالي والجنوبي بالطبيعة ، مظاهرها ومفارقاتها وفصولها الاربعة ، معبرين من خلالها عن ذواتهم التي يهزها الشوق والحب والحنين الى تراب الوطن . منهم جبران خليل جبران . وميخائيل نعيمه وعبدالمسيح حداد ووديع رشيد الخوري ومنهم شفيق معلوف وشكرالله الجر وجورج صيدح ، وفيليب لطف‌الله ..

وفي شعر فيليب لطف الله تتألق الطبيعة كما هي من غير اصطناع : شأن الفنان المفطور الذي يستقي لوحاته بجزئياتها وكلياتها من المشهد الماثل امامه ، وان حاول محاولة مخلصة ان يفيض شيئا من نفسه عليها لتتكامل من الوجهة الفنية ..

والفصول الاربعة التي قال فيها فيليب لطف‌الله شعرا ، طرقها قبله اخرون شعرا ونثرا ، من القدامى والمحدثين ، وفي الشرق والغرب .. على ان جولة في بطون المظان والمراجع تطلعنا على ان لكل واحد من هؤلاء، صيغته المميزة في الاداء ، وطريقته الخاصة في الوصف والتصوير ، وقاموسه الادبي ـ الشعري او النثري ـ الذي اعتاذ الركون اليه والاستمداد منه ..

فقد قال فيليب لطف‌الله حين وصفه فصل (الشتاء)

جاء الشتاء فلا زهر ولا ثمر ... وفي عواصفه الايات والعبر
يقفي على باسقات الروض فانهزمت ... وفي البرية يقضي حكمه القدر
يمضي القديم ويبقي بعده خلفا ... يجدد النشء فيه الكون والبشر
فما الحياة سوى آت ومرتحل ... والليل مهما دجا في قلبه السحر

اسلوب مباشر .. هادىء يأبى الاغراب والجنوح، ثم يشف عن بساطة الصورة الشعرية .. يذكرني في هذه الحالة ، بمقطوعة (الشتاء) للشاعر التركي المجدد احمد هاشم .. حيث يقول :

اقبل الشتاء . يا لها من نظرة للشمس في الغروب
ها هي ذه الطيور سارحات في الافاق ..
يتعالى انينها وحنينها
لاوكار عبثت بها قسوة الطبيعة ..
اقفرت السهوب وهجرت ،
وعليها يطول الشتاء خيم السكون ..
وعلى امتداد الارض الصفراء ،
لا يتراءى للناظر غاد ولا رائح .. (٤)

ثم يقول فيليب لطف الله في قصيدته (تحت مبضع الجراح) :

لولا القباحة ما عرفت ملاحة ... فمن القباحة ميزة الملاح

بينما الشاعر ـ ولعله علي بن جبلة المشهور بالعكوك ـ قال قبل ذلك :

فسدان اما استجمعا حسنا ... والفساد يظهر حسنه الفسد

وقال فيليب لطف‌الله :

مهما نحاول في اطالة عمرنا ... فهناك يوم مؤذن برواح

اي : (لكل اجل كتاب) .. صدق الله العظيم .

وجاء في الامثال التركية ما ترجمته : (ثمانون .. تسعون ، والعاقبة يوما ستلاقي المنون ...)

وضمن فيليب لطف‌الله عددا من قصائده المستمدة من الواقع المعاش على مستوى الزمان والحياة ، حكما

الافق الاخضر

لو ابحرنا في النهر العاشق
لعرفنا وجه الريح .. وذقنا اسرار الرحلة
لو ابحرنا في الفجر الى ذاكرة المنبع
لغنمنـــا المركب والربـــان
ولما اهترأ الانسان على ابواب قرانا
لو كنا نعشـــق حقا افراح الرحلة
لرأينا اشجار الضفة
وخلعنـــا احذيـــة مسحوره
لو كنا نعشـــق حقـــا
لخرجنا من دائرة بساط الريح
ولم نقض العمر سكارى في المرفا
آه .. لو كنا نعشق حقا ، لارتفع الزلاج
وتخطينـــا جمجمـــة المجهول
« ورسونا في الافق الاخضر »
من ياخذ مني عمري المهراق
ويعطيني افراح الرحلة ...
من ياخذ مني عمري المهراق
ويعطيني يوما في الافق الاخضر

الناظور ـ المغرب — القمري الحسين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأمثالا ، جديرة بالتامل والتفكير .. يقـول في قصيـدة (السر المبهم) :

المرء يشقى في الحيـاة وينعم ... ومجيئـــه وذهابـه لا يعـــلم
فله فى الدنيـا نصيـب واحـد ... مهما تنوع فهـــو حكم مبـــرم
فالبعض يقضي العمر يكدح ساعيا ... خلف الثمار وقد جفاه الدرهـم
والبعض فى متع الرفاهـة غارق ... من خـير دنيـاه يعيش وينعم
ان الذي قسم المواهب والنهى ... ما كان يومـا للعقـول يقســم

كذلك يقول في قصيدته (سر الوجود) :

ما السر فى الانســان والاكـوان ... فى ذا الوجـود وكثـرة الدوران
ناتي كما نمضي ويأتي بعدنـا ... من صلبنـا أنمهـد والاكفان
تبدو الطبيعـة جنـة بسنائها ... وهوائهـا وجمالهـا الفتـان
فترى الحياة تمور فى الانســان ... والاشجار والاشياء والحيـوان
ويد الممات تعبث بالاحيـاء ... والاشجـار والاشيـاء والبنيـان
وترى المنيـة والحيـاة تاخـا ... فى حلقـة التكويـن تلتقيـان

يعني من ما سلف ان هناك شيئا اسمه (تشبع اللاحق بالسابق) .. لا يتغابى عنه ولا يمكن ان يتغابى

الا المكابر ... المجانب للحقيقة الادبية والعلمية .

ولكن هذا (التشبع) ما هو الا توطئة في الفـــن الشعري ...

وحكمة الفن في خطواته : تشبع .. ثم تطور .. ثم تجدد ..

الاعظمية ـ بغداد — وحيد الدين بهاء الدين

---

(١) انظر بحث (حافظ جميل : الشاعر الوجداني) فى كتـابي (من الادب العربي الحديث) ص ٥٢ .

(٢) وللشاعر ديوان اخر عنوانه (نسمات الجبل) . وسبق ان نوهت به فى مقال لي عنوانه (نسمات برازيلية) انظر مجلة (الكتاب) البغدادية .. كانون الاول ١٩٧٤ .

(٣) انظر مقدمة ديوان (حصاد الايام) سان باولو ـ البرازيل ١٩٧٥ .

(٤) انظر كتابي (اعلام من الادب التركي) ص ٨٢ .

من رواد الاندلس

محمد لبيب البتنوني

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

*

ادب الرحلات ، من الاداب السامية العالية ، التي تفيد صاحبها بما يطلع عليه من انماط الشعوب ، وحياة المجتمعات ، وغرائب الدنيا ، وعجائب الكون .

والعرب امة من الامم ، التي وهبتها الطبيعة طاقة على احتمال السفر ، وطول المسافات ، ووحشة الطرق ، والتعرض للمخاطر ، لا يثنيها برد الشتاء ، ولا يضنيها هجير الصيف ، ولا تخيفها ضاريات الوحوش ، مع قلة الزاد ، وضآلة المؤونة .

وقد سجلت صفحات التاريخ الاسلامي والعربي الكثير من اسماء الرواد البارزين في هذا الحقل ، واشير الى اسماء مؤلفاتهم في القديم . منه ما هو مطبوع اليوم ، ومنه في طيات الخزائن وعند الرفوف النحلى بالمخطوطات في دنيا الشارق والمغارب .

ولقد قام (دي غوئيه) الهولندي (١٨٣٦–١٩٠٩) بنشر (المكتبة الجغرافية العربية) ١٨٧٠ – ١٨٩٤ حيث نشر لنا مجموعة نفيسة منها :

١ – التنبيه والاشراف – للمسعودي .
٢ – نزهة المشتاق – (قسم المغرب والاندلس) للادريسي
٣ – احسن التقاسيم – للمقدسي .
٤ – المسالك والممالك – لابن خرداذبة . وغيرها من الكتب والدراسات .

وجاء نفر اخر من المستشرقين اهتموا بهذه الناحية ، والفوا في عالمها الجغرافي الادبي . وفي مقدمتهم المستشرق الروسي (اغناطيوس كراتشكوفسكي) .

ثم درس ادب الرحلات ، وعرض شخصيات بعضهم نفر من الاساتذة المعاصرين منهم :

الدكتور زكي محمد حسن والدكتور صلاح الدين المنجد والدكتور نقولا زياده واحمد ابو سعد وغيرهم .

كل هؤلاء تحدثوا عن عظمة الرواد العرب والمسلمين الذين غامروا بحياتهم في سبيل المعرفة للانسانية ، واكتشاف المجهول للبشرية . كما تحدثت (المقتطف) في مجلداتها عن (الرواد) في العالم الاوروبي والدنيا الجديدة.

ان ابن جوقل والهمداني والمقدسي وابن جبير وابن سعيد وابن بطوطة تظل اسماؤهم نجوما لامعات في عالم السياحات ، وفي كشف المجاهيل . وسر عظمتهم كامن في انهم كانوا صريحين مع انفسهم ومع الاخرين ، لا يصدهم الباطل الذي شاهدوه ، عن قول الحقيقة حينما راوا المجتمعات التي زاروها ، وطالعوا معالمها ، ودرسوا طبائعها واثارها . كما ان سر عظمتهم يبدو للباحث في انهم قصدوا غاية العلم . وجعلوا الرحلات وسيلة اليه . ولم يجعلوا المادة غرضا في اعمالهم العلمية والاكتشافية. هذا في الماضي . اما الحاضر فلقد ظهرت طبقة من الادباء والعلماء والرحالة العرب في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . ساهموا في خلق النهضة الفكرية في الشرق العربي . وقد اورد لنا الاستاذ انور الجندي في كتابه (اضواء على الادب العربي المعاصر) بعضا منهم واغفل البعض الاخر . ونخص منهم في حقل ريادة الاندلس كلا من :

١ – احمد زكي باشا شيخ العروبة – وكتابه (السفر الى المؤتمر) .
٢ – ادوار باشا الياس – وكتابه (مشاهد الممالك)
٣ – محمد كرد علي ، وكتابه (غرائب الغرب) .
٤ – امين الريحاني ، وكتابه (نور الاندلس) .
٥ – محمد لبيب البتنوني ، وكتابه (رحلة الاندلس) :
٦ – الامير شكيب ارسلان وكتابه (الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية) .
٧ – الاستاذ محمد عبد الله عنان . وكتابه (الاثار الاندلسية الباقية) .
٨ – الدكتور حسين مؤنس ، وكتابه (رحلة الاندلس).
٩ – الاستاذ مصطفى فروخ ، وكتابه (رحلة الى بلاد المجد المفقود) .
١٠ – الاستاذ سامي الكيالي ، وكتابه (في الربوع الاندلسية).
١١ – الدكتور صفاء خلوصي ، وكتابه (رحلة الى اسبانيا) :
١٢ – الاستاذة جاذبية صدقي ، وكتابها (رحلة الى اسبانيا)
١٣ – الاستاذ ناجي جواد ، وكتابه (رحلة الى الاندلس) :
١٤ – الاستاذ عماد الدين التكريتي ، وكتابه (اسبانيا موطن الاحلام) .

كما ان هناك بعض الرحلات التي نشرت في بعض المجلات العربية ، وفي الصحف السيارة ولم يجمعها اصحابها ، ومنها لا زال مخطوطا تركها اصحابها بعد ان ذهب بعضهم الى دار الخلود . ومن هذه الكوكبة التي ذكرها الاستاذ الفاضل انور الجندي اسماء معروفة في الاوساط الادبية ، ومنها لم يشر اليها في كتابه المفيد. ومنهم على سبيل المثال :

الشيخ محمد طاهر الجزائري والشيخ خليل الخالدي وكاتب هذه السطور .

ان الرحالة الرائد محمد لبيب بك البتنوني او البتانوني المصري ، اشار عنه المستشرق السوفييتي كراتشكوفسكي في كتابه الجليل (تاريخ الادب الجغرافي) ولم يتحدث عنه مفصلا ، لانه قد وقف في مؤلفه الى القرن الثامن عشر الميلادي . وقد قارن بينه وبين ابن الجيعان ٩٠٢ هـ ١٢٩٧ م صاحب الرحلة المسماة (القول المستظرف) التي وضعت في القرن الرابع عشر الميلادي ، وهو برفقة السلطان كرقانيباي ملك مصر في زيارته

للشام . والبتنوني قدم (الرحلة الحجازية) الى الخديوي عباس حلمي الثاني سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م وصاحبه في زيارته للديار المقدسة .

والبتنوني قليل الحظ في الدراسات المعاصرة ، لان من الناس من ينالهم غنى الكتابة عنهم . ومنهم من يصيبهم فقر التعريف بهم . كما ان اصحاب التراجم كصاحب (الاعلام) و (معجم المؤلفين) و (مصادر الدراسة الادبية) ، لم يدرسوا شخصيته ، ولم يستطيعوا ان يؤرخوا ولادته . وقد تكون في حدود سنة ١٨٥٨ م اما وفاته فقد كانت سنة ١٩٣٨ وقد نعته مجلة (الرسالة) للاستاذ الزيات ومما قالته عنه في العدد ٢٤٩ ـ ١١ ابريل ١٩٣٨ س ٦ ص ٦٣٥ قولها :

« فقدت مصر .. عالما من خيرة علمائها ، ومؤلفا بحاثة من كبار المؤلفين فيها . ولقد عرف عن الفقيد خلال حياته الحافلة بجلائل الاعمال شغفه بالعلم والادب وتوفره على البحوث التاريخية التي كانت تزدان بها صور الصحف والمجلات لاكثر من ثلاثين سنة خلت .

ثم قالت المجلة في (بريدها الادبي) .. ذلك الى ما الفه من كتب الرحلات التي دلت فيها على طول باعه في الادب وسعة علمه بالتاريخ وقدرته على وصف عادات الامم وطبائعها » .

كان موظفا في الشؤون الزراعية ، وقضايا التربة ، ولديه بعض المال الذي يستعين به لقضاء الصيف خارج مصر كما اشار الى ذلك في رحلته الموسومة (رحلة الى امريكا) عام ١٩٢٧ .

اسلوبه : له اسلوب في الكتابة ، بسيط واضح ، وتتبع تاريخي جميل . ونشاط كتابي كثير يمد به الصحف والمجلات المصرية ، وخاصة (الاهرام) ؛ وجريدة (الموسوعات) : واغلب رحلاته كانت مذكرات وانطباعات يصورها بقلمه مصورة ويرسل بها الى كبريات صحافة بلاده . وهو مثقف واع ؛ بعيد عن الخيال الممزوج بالاساطير ، كاشفا للحقائق ؛ دون تهور واندفاع . صريح نحو قضايا التاريخ والاخبار التي لا يرتضيها العقل المدرك السليم . اضافة الى معرفته باللغة الفرنسية والتركية ـ وبعض الانكليزية .

آثاره : من آثاره المطبوعة في عالم الرحلات :

١ ـ رحلة الصيف في اوروبا ؛ عام ١٩٠٠ برفقة الخديوي عباس حلمي الثاني وعدد صفحاتها ٢٦٢ ص . وقد شملت مجموعة من بلدان اوروبا كدول البلقان ؛ والنمسا ، وفرنسة . وقد طبعت سنة ١٩٠١ .

٢ ـ الرحلة الحجازية . عام ١٩٠٩ وهي بصحبة الخديوي عباس حلمي الثاني مزينة بالصور والخرائط في ٢٦٦ صفحة . لها قيمة تاريخية سياحية تحدث فيها عن مكة المكرمة ـ والمدينة المنورة . وقرظها الشيخان الجليلان الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الازهر يومذاك ، والشيخ عبدالكريم سلمان ؛ وقد طبعت عام ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م .

واشار عنها وعن التي سبقتها المستشرق المعروف بروكلمن في ، تاريخ الادب العربي) دون ان يتحدث عن رحلته الإندلسية .

٢ ـ الرحلة الى امريكا ـ وهي التي قام بها وحده صيف سنة ١٩٢٧ الى الولايات المتحدة لحضور مؤتمر التربة الزراعية المنعقد في واشنطن بشهر يوليو وكانت تنشر في (الاهرام) . جاءت في ٢٣٣ صفحة ذات خرائط ورسوم مصورة . وقد سجل فيها مشاهداته وانطباعاته وتكلم فيها عن الجالية العربية في المهجر الشمالي والجامعات والمكتبات . طبعت في القاهرة سنة ١٩٢٧ .

وهو كما يقول كان حريصا ان يشرك بني قومه في فائدة هذه الرحلات ، ويود صادقا ان يجد بلاده متقدمة في عالم التطور والمدنية والحضارة شانها شان ما رآه ووجده في العالم المتقدم . قال :

« لقد رأيت كما هي عادتي في رحلاتي ان اشرك بني قومي في مرئياتي ومشاهداتي ، وفي كل ما كتبت احس به من كمال في تلك البلاد ، ونقص في بلادي . رغم ما كان يصيبني من تعب ونصب ، في التحرير والتحبير والبحث والاستقصاء والترجمة . في وقت كان حقيقا بان ارتاح فيه من عناء السفر المطرد ليلا ونهارا في مسافة شهرين تقريبا » .

٤ ـ رحلة الاندلس : كانت الرحلة في بداية امرها رسائل متعددة ، اخذ يبعث بها صاحبها الى جريدة الاهرام بعنوان (جولة في اسبانيا) خلال الصيف . وجعل لكل رسالة مقدمة استطلاعية ، وختمها بكلمة (للعبرة والتاريخ) .

وقد بلغت الرسائل عشرا ، مزينة بالصور ومزدانة بالخريطة المشيرة الى اسبانيا ، والبرتغال . مع ملحق ببعض الاعلام العربية الاسبانية ، وجاءت الرحلة الاندلسية في ١٦٧ صفحة ، وهذ ملخص محتويات الرحلة استعرضه الان للفائدة والاطلاع .

١ ـ كلمة (تمهيد) ـ وبها آراء ونقدات صائبة عن تاريخ العرب في الاندلس ـ وفي لوم بعض المؤرخين الذين درسوا تاريخ وجود العرب فيها ؛ وقد سلط الاضواء على ما جاء في (نفح الطيب ، للمقري وما ورد فيه من اساطير وحكايات .

٢ ـ الرسالة الاولى : وتشمل بداية السفر من فرنسة الى اسبانيا عن طريق حدود اسبانيا الشمالية الغربية في بداية شهر اغسطس سنة ١٩٢٦ . وفيها حديث عن مدينة (سباستيان) ومصارعة الثيران في اسبانيا .

٣ ـ الرسالة الثانية : دخوله الى مدريد العاصمة وتسميتها عند العرب باسم (مجريط ، او ، مشريط ، . وعن دير الاسكوريال وزواج العرب بالاسبانيات وتاثير ذلك في سياستهم وحياتهم . وعن الحياة الادبية والشعرية والعلمية في اوساط الاندلس .

٣ ـ الرسالة الثالثة : من مدريد الى قرطبه وفيها وصف المسجد الجامع العظيم فيها بروعته وسحره .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤ ـ الرسالة الرابعة : من قرطبة الى اشبيلية وفيها يتحدث عن آثار بني عباد وقصورهم باشبيلية . ومنارة الخيرالدد .

٥ ـ الرسالة الخامسة : من اشبيلية الى غرناطه وبها حديث عن غرناطة وتاريخها وقصورها . وخاصة قصر الحمراء وجنة العريف .

٦ ـ الرسالة السادسة : دخول العرب اسبانيا وكيفية الفتح واسماء ابرز قواده .

٧ ـ الرسالة السابعة : الاندلس ، ومدة حكم الامويين فيها ، وعظمة سلطانهم .

٨ ـ الرسالة الثامنة : سبب تفرق كلمة العرب في اسبانيا وضعفهم امام هجوم الاسبان .

٩ ـ الرسالة التاسعة : بعد تسليم غرناطه ، وما آلت اليه حالة المسلمين هناك .

١٠ ـ الرسالة العاشرة : من غرناطه الى برشلونه وبها حديث ممتع عن برشلونه وطبيعتها وموقعها ، وجمالها ، وصناعاتها وتقدمها المدني والعمراني والثقافي.

والكاتب كان قد رغب في زيارة بلنسية ، ولكن حرها الذي سمع به ، والذي يفوق حر الاندلس الجنوبية منعه عن زيارتها ، وفضل العودة لوطنه بعد ان سجل لنا مظاهر الحياة الاندلسية والاسبانية بطريقة علمية، متزنة ، بعيدة عن العواطف الملتهبة ، والخيال الجامح الكثير . وهو في كل فصل ، ونهاية كل رسالة يقارن بين الماضي والحاضر ، ويستعرض بعض القضايا الاندلسية ، ويحلل شؤونها ، ويربط بينها وبين ماضيها وواقعها اليوم، دون ان يذهب به الامر بعيداً خارج نطاق الحقيقة الصادقة .

ان من ابرز (رحلة الاندلس) للمرحوم الاستاذ محمد لبيب بك البتنوني : هي انها واضحة الصورة ، بارزة الفكرة ، قصيرة الزمن ، وقد حلل فيها الشعب الاسباني وحياته ، ونفسيته ، تحليلا واقعيا ؛ واشار الى ان هناك بعض الفروق بين الاندلس العربية بالماضي، والاندلس الاسبانية اليوم .

اما المآخذ على رحلته ، فانه قد جعل دخول العرب الى اسبانيا في الرسالة السادسة . وكان الافضل ان تكون من اولى رسائله ، حتى تتم جوانب الصورة التي رسمها ، وتتكامل خطوطها الهندسية ، ويتقبلها الاسلوب العلمي المنطقي .

ونراه احيانا يسرح مع الخيال ، ويسير مع قضايا التاريخ التي سجلها المؤرخون القدامى . دون ان يترك المجال لقلمه بان يتحدث عن واقع مارآه وسمعه واحس به .

اما مصادره ومراجعه في هذه الرحلة فانه اعتمد على ثقافته وشخصيته المتمرسة في عالم الرحلات ، والاتصال بالشعوب وبلدانها .. ومن الكتب القديمة التي نهل منها كتاب موسوعة (نفح الطيب) للمقري المتوفي ١٠٤١ هـ . وتاريخ ابن خلدون ومقدمته الرائعة .

وبعض مؤلفات المؤرخ الاندلسي المعاصر الاستاذ محمد عبد الله عنان وآثار الاستاذ المجمعي محمد كرد علي .

نموذج من كتابته في رحلته قال ، في (تمهيد) :

« وهنا يقف القلم باهتا حائرا خجلا من ان يرى لبعض مؤرخي العرب بعض الآثار التي تتصل بالتاريخ القديم لاسبانيا اقوالا لا تنطبق على عقل ولا فكر بل هي اساطير اعتادها بعضهم عندما يريد ان يتكلم على شتى تغلغل تاريخه في بطن الماضي البعيد .

وقال : ولا بد ان يكونوا قد اخذوا هذه الاساطير عن سكان البلاد بعد فتحهم لها ، وتاريخ الاسبان انفسهم مشحون بكثير من امثال هذه الخرافات . ولكون العرب امناء على النقل لم يشاءوا ان يحكموا عقولهم فيها ولا في غيرها من هذ القبيل ، لذلك ترى تاريخهم انفسهم قبل الاسلام سقيما عليلا فيه كثير من الاساطير التي تنعدم حقيقة التاريخ بين سطورها . وربما ترى هذه الامانة نفسها في ايامنا هذه حتى في الازهر الشريف فانك تجد اهله يحترمون غلطات المؤلفين ومع اعتقادهم انها اغلاط فانهم لا يزالون يتركونها لهم في كتبهم ولا يريدون ان يصلحوها احتفاظا بامانتهم في النقل » .

والكاتب كما هو ظاهر يتكلم اللغة الفرنسية ، وهي واسطته في التعارف والحديث ، في اوروبا . غير انه يرى من الضروري للعالم وجود لغة اخرى عالمية تكون بمثابة القاسم المشترك الاعظم بين سكان الدنيا للتخاطب ، واشار الى وجود لغة الاسبيرانتو ووضع اصول لغتها في العالم الاوروبي .

ثم عاد بعد ذلك فقال « على انه لا حاجة لكل هذه المتاعب في خلق لغة جديدة . وحسب الناس الاتفاق على لغة من اللغات الكثيرة الانتشار في العالم لتكون هي اللغة الثانية لكل امة » .

والبتنوني ـ رحمه الله ـ ذو ذوق ادبي في اختيار الشواهد الشعرية الاندلسية ، حيث يختار منها ما يناسب السياق . ويعتبر من رواد الاندلس الذين نفعوا تاريخ الاندلس القديم ، يكشف بعض معطياته النافعة . كما انه من اصحاب القلم السيال والمرونة الصحفية ، التي لم تجعله كثير الحشو كغيره ؛ او تزلف قلمه الى مهاوي الحكم السريع ، والراي الفج السقيم .

طيب الله تربة البتنوني وغفر لقومه من ابناء العروبة ، الذين اغفلوا الكثير من ابنائهم في عالمي الحياة : وبعد الممات . ولم يتكرموا عليه بكلمة عطرة ، ولا بذكرى عابرة ، تبعث التشجيع في نفوس السائرين على دربهم والمتتبعين خطى اعمالهم . الغارقين في لذة المعرفة ؛ والحالمين بامجاد الخلود : والصابرين على آلام الحياة ، ومنغصات الوجود .

والى الدراسة القابلة عن رائد اخر من رواد الاندلس الطيبين .

بغداد ـ كلية الاداب — محسن جمال الدين



عبد الغني شعبان

الموسيقار عبد الغني شعبان

بقلم الشيخ طه الولي

* * *

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » صدق الله العظيم .

وان عبد الغني شعبان كان واحدا من بين هؤلاء الرجال الذين خصهم الله عز وجل بآية في كتابه الكريم، ذلك انه رحمه الله ، جعل بينه وبين ربه ميثاقا مبرما بان تكون حياته كلها وقفا على البر بأمته العربية ، والاخلاص لرسالته الفنية وان يجود بذات نفسه عن الفناء من اجل سؤدد وطنه وسعادة مواطنيه . وان هذا الميثاق كان يعايشه مل‌ء برديه وبين جنبيه اين ما كان وكيف ما كان آناء الليل في سهره واطراف النهار خلال عمله . وهو موصول الفكر به اذا فتح عينيه عند انبلاج الصباح ويبقى كذلك الى ان يغمضهما للراحة في النوم عندما يدلهم دجى الليل في المساء .

اذا تحدث فان كلامه لا يتجاوز موضوع هذا الميثاق ومتى سكت فان هذا الموضوع يكون هاجسه في تأمله وانطلاق خياله . ولست اذكر اني جلست اليه يوما الا وكان حواره معي كلمات حرى عن امته التي اقلقه حالها اليوم وشغله مصيرها في الغد . وكانت كل جارحة في جسمه تشارك لسانه في التعبير عن حرصه على شد هذه الامة الى تراثها العريق في ركب الحضارة الانسانية لكي تعود الى مكانتها الطبيعية في دورة الزمن والتاريخ على صهوات المجد والخلود .

وعندما دهمه الداء الذي اسلمه الى ريب المنون لم تصرفه هموم صحته وتباريح آلامه عن التفكير بما اخذ نفسه به من العمل المتواصل لاجل امته ووطنه ودينه . ومن فوق فراش المرض كان يبادل عائديه من اهله واخوانه الراي فيما يضطرب به ذهنه من الاحاسيس والاماني بما يمكنه ان يصل الى غايته بهذا العمل على النحو الذي يرضي ضميره ويحقق طموحه حتى تكون الامة في المستوى الحضاري الذي يعيد اليها زمام المبادرة من جديد في قيادة العالم عبر دروب التقدم والتطور والازدهار !..

« اني احب ان اعيش لا طمعا بالحياة فان لكل اجل كتاب ، بل رغبة في اداء واجبي كاملا نحو امتي وديني ووطني ، ولست اخاف من الموت الذي هو الحق المنتظر لكل بني البشر ، فكل نفس ذائقة الموت ، ولكني اخشى ان تنتهي اياي وتازف ساعة الرحيل عن هذه الدنيا قبل ان استوفي املي كاملا باعطاء الناس جميع ما يخفق في صدري من المحبة لهم والوفاء برسالتي من اجل كرامتهم وسعادتهم » هذه الكلمات التي لهج بها عبد الغني شعبان على مسمعي وهو يتقلب على جمرات الغضى تحت وطأة داء كانت تترجم نبضات قلبه عبر صدى صوته قبل ان يزرح هذا القلب الكبير تحت كلكل العياء القاتل ويتوقف عن الخفقان لاخر مرة بعد ساعات قليلة ويضع الموت حدا نهائيا لرحلة فقيدنا الغالي مع ابناء الحياة .

ان هذه الكلمات صدرت عن عبد الغني شعبان وهي ترسل في كل حرف من حروفها وهجا منيرا من شعاع رسالته ؛ وقد رددها في لحظات متلاحقة اكثر من مرة ، كانه كان يدرك انه على موعد مع القدر على ساعة الفراق الابدي ، فاراد ان يكتب وصيته الاخيرة قبل حلول هذا الموعد لتكون هذه الوصية نبراسا يضيء الطريق لمن يتصدى لحمل الرسالة من بعده !..

وعندما اصغيت اليه وهو يردد هذه الكلمات بصوته المتهدج المنهوك : ساورني شعور غامر ان ابا محمد بلغ من العمر نهاية مطافه ، ولم يعد يفصل بينه وبين لحظاته الاخيرة سوى فترة وجيزة ؛ ثم يكون الوداع الذي لا لقاء بعده الا يوم البعث والنشور ؛ بين يدي خالق الحياة والموت ، فلم املك نفسي من مغالبة دموع الفراق وهي تترقرق في عيني ؛ وتمتمت في سري : واحزني عليك ايها الاخ الكريم .. انا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم !..

اجل انه لا بد مما ليس منه بد . فلقد ازفت ساعة

الرحيل لعبد الغني شعبان واخذ صدره يضيق بانفاسه المعدودة وما ان انبلج صباح اليوم التالي من حم القضاء الصادع وغاب ضياء الحياة عن محيا هذا الانسان الذي طالما تألقت قسماته باشراقة الانس والوداعة على الشاشة الفضية وهو يقدم لمشاهديه ومحبيه في ندوة الفن احكامه الموزونة على مستوى الطامحين لدخول عالم الطرب والموسيقى والحان الغناء .

وهنا لا بد لنا من القول بانه عندما كان التلفزيون يعرض على شاشته الفضية تلك المجموعات الغضة من اولئك الطامحين الناشئين ، فان المشاهدين من هواة الاستعراضات الموسيقية والغنائية كانوا يلصقون ابصارهم على الشاشة ويرهفون اسماعهم لكي يتعرفوا على وجه عبد الغني شعبان ويسمعوا صوته وهو يدلي برايه فيما يعرض امامهم ، ذلك انهم يثقون بعدالة حكمه القائم على المعرفة العلمية ، والتجرد عن الهوى ، والبراءة من العقد النفسية والترفع عن التعسف المذهبي والعصبية الاقليمية ، ومن فم عبد الغني شعبان ، كان المشاهدون والعارضون معا يتعلمون دقائق الفنون الموسيقية وهو يحلل لهم باسلوبه الجذاب وبيانه المبسط القواعد والاصول التي ينسجم معها الصوت الرخيم ويقيم بها اللحن السليم ويتكامل الايقاع المتناسق الخالي من النشاز والتنافر ويرتاح اليها الذوق الرفيع . واني اكاد لا ابالغ اذا قلت بانه كان لعبد الغني شعبان وحده القول الفصل القائم على التحليل والتعليل والتفصيل الذي كان يطمئن اليه الجميع سواء في ذلك الذين يشتركون في تقديم الندوة الفنية او الذين يشاهدونها .

على ان عبد الغني شعبان لم يكتف من دنيا الفن بالدور الذي ينتهي عند حدود شاشة التلفزيون ، بين العرض والمشاهدة ، اذ ان هذا الفنان الاصيل كان يمارس صنعة الفن من موسيقى وتلحين وتاليف منطلقا من ايمانه الوثيق بان هذه الصنعة ليست حرفة تجارية يستعين بها الانسان على التكسب المادي لتأمين معيشته اليومية واكتناز ثروته المالية ، ولا هواية مترفة يتوسل بها المرء لابراز مواهبه الشخصية ، ولا ضربا من الوان التسلية العابرة يزجي بها الكادح اوقات راحته او ساعات فراغه ، وانما هي رسالة انسانية هادفة يتطلل اليها اصحاب المثل العليا لتحقيق ما يعتلج في نفوسهم من مطامح السمو بالامة التي انجبتهم لكي يبرزوا شخصيتها الحضارية ويؤكدوا ملامحها القومية حتى تقف على قدم المساواة مع نظائرها من سائر الامم الناهضة والشعوب المتقدمة .

وبهذا المفهوم الواعي فان عبد الغني شعبان كان يلتحم في عروة وثقى من التلازم المصيري مع مبدا « الفن من اجل الامة والدين والوطن » ومن خلال هذا التلازم ومعطياته العقلانية ؛ فانه عطر الله ثراه بالرحمة والرضوان لم ينجرف مع القول الشائع « الفن من اجل الفن » هذا الشعار المتهافت الذي تلوكه السنة المحترفين الذين يضربون على الالات الموسيقية او يرطنون بما تفرزه حناجرهم من زعيق منكر في الحان ملفقة جمعوا انغامها كحاطب الليل الذي يلتمس من كل واد عصا .

لقد قال احمد شوقي بك امير الشعراء في بيان معنى الشعر واثره في التوجيه الاجتماعي والدعوة الى مكارم الاخلاق :

والشعر ان لم يكن ذكرى وعاطفة او حكمة فهو ترديد واوزان

ولست ارى الا ان الشعر والفن وجهان متقابلان لمعدن واحد . فهما يسيران بالانسان في خطين متوازيين ، على انهما كلاهما ينبعان من معين واحد ويلتقيان في النهاية عند نفس الغاية الاجتماعية والخلقية ، وهما الجناحان اللذان ترتفع بهما اخيلة العباقرة والموهوبين لوصل تليد الامة بطريفها واثارة عزائم المواطنين للنهوض بالوطن وتأثيل مجده وسؤدده . ولعمري ، ان لم يكن الفن تواما للشعر في هذا المعنى فهو لن يكون اذن اكثر من ضجيج الالات المعدنية وصخب الاصوات البهيمية المسخرة لاستثارة الغرائز الحيوانية الوضيعة في الانسان المتخلف .

هكذا كان عبد الغني شعبان في نظرته الى الفن ، ومن خلال هذه النظرة الخلاقة والتصور الايجابي البناء كان يلتزم مع نفسه كلما امسك بالقلم وشرع في تاليف معزوفة موسيقية او تلحين مقطوعة غنائية . كان يندمج بفكره وقلبه مع الفنون الموسيقية الى درجة الفناء المطلق بحيث استحال هو بالذات معزوفة متكاملة بين حسه وجسمه حتى اصبحت حياته كلها هبة من العطاء والجود لهذه الفنون من غير حد لتفاعله بها واخلاصه لها . فاذا تحدث كانت الموسيقى موضوع كلامه . واذا فكر كانت الموسيقى هاجس فكره ، واذا تامل كانت الموسيقى مسرح خياله ورؤى بصيرته وخلجات شعوره . فلقد كان هذا الفن ياخذ عليه مجامع وجوده وكيانه يلازمه اثناء شواغله اليومية في مقر عمله ومع وساوسه لتامين ضرورات معاشه واعباء عائلته واذا آوى الى فراشه للاستراحة من عناء السعي وراء رزقه كان هذا الفن رفيق احلامه في اغفاءة النوم الهنيء وهو بهذا الشعور كان يمارس التاليف الموسيقي .

وما اكثر ما رايته وهو معتكف على نفسه في ركن بيته والى جانبه عائلته وآولاده ومعهم خطاؤه من رواد مجلسه واصدقائه ، مقبلا على اوراقه يجوس خلالها ببراعه وريشته منهمكا في تاليف قطعة موسيقية تستمد انغامها والحانها وايقاعها من المفاهيم الانسانية والمبادىء

الوطنية التي آمن بها واخذ نفسه بالدفاع عنها والدعوة اليها ولم يكن رحمه الله . وهو مكب على عمله هذا يعنى بما يجري حوله من صخب الاولاد او ضجيج الزوار ولا غير ذلك من شؤون الناس وشجونهم . حتى اذا ما وصل الى غايته من الكتابة والتاليف رفع رأسه وانفرجت اسارير وجهه واقبل على من حوله وهو يقول بجذل الذي يعثر على ضالته المنشودة بعد ضياعها « لقد وجدتها لقد وجدتها » ودون ان ينتظر الجواب يندفع بلا تكلف ولا اصطناع الى شدو ما كتب تشاركه في الشدو والترديد جميع جوارحه واعضاء جسمه ونبضات فؤاده وخلجات شعوره ولفتات ذهنه . ولا بدع فان هذا الفنان المطبوع، كان يضع كل ما وهبه واحب الوجود من وجود عبقريته الفنية من اجل خدمة الرسالة التي كانت في الواقع جزءا لا يتجزأ من عقله وقلبه وعاطفته .. وهي رسالة التراث العربي المجيد في امتداده الحضاري الخالد !..

نعم ، ان فقيدنا الذي لا يعوض كان يعتقد بما لا يقبل النقاش ولا الشك بان الفنان العربي يجب ان يكون له نفس الدور القومي في الحفاظ على هذا التراث ورد غائلة الغارة الاجنبية والاحقاد الشعوبية عن حماه الى جانب العالم والمؤرخ والاديب وشاكي السلاح ، كل في الجبهة التي هو فيها من ساحة النضال والكفاح انه كان يعتقد بان اصحاب المواهب الفنية من موسيقيين وملحنين ومغنين عليهم ان يأخذوا مكانهم الفعال جنبا الى جنب مع اهل القلم من المفكرين والمثقفين ومع حماة الديار من المقاتلين على الحدود للمشاركة في شرف ايقاظ الوعي القومي والذود عن الوطن واشاعة رسالة الايمان بالحق والخير والجمال وكرامة الانسان وعيشه بحرية وسعادة وامن وسلام .

وباسلوب العالم المحقق المتمكن من ثقافته الفنية راح عبد الغني شعبان يعطي الدليل يتلو الدليل على ان دهاقين الموسيقى من الاجانب كانت روائعهم الفنية عالة على القواعد التي وضعها رواد الموسيقى العرب (!!!) وهنا في بيروت ، وكذلك في سائر الحواضر والمجامع في البلاد العربية والاقطار الغربية كانت له صولات وجولات في سبيل تاكيد المقام الاول للفنون الموسيقية التي كان لاجدادنا العرب فضل ارسائها على الاسس التي امست اصولا ثابتة للمبادرات الموسيقية بين الامس واليوم (!!!)

رحم الله ابا محمد ، حاجة العرب في هذا الجيل . رحم الله هذا الفنان الرائد لابناء هذا الجيل . فانه كان من النماذج البشرية التي يجد فيها التواقون الى التسامي على غرور الحياة الدنيا وزخرفها الباطل صورة نقية من شوائب الانتهازية والوصولية . فلقد كانت تتجد في شخصه المعاني التي يرتون باشواقهم اليها فيزدادون يقينا بانه ما يزال للقيم الاخلاقية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وجعلوا حياتهم وقفا على هذه القيم دون ان تطرف عيونهم بزائق العيش الرخيص على حساب مبادئهم . وكانت كرامتهم وعفة نفوسهم في السر والعلانية القسطاس المستقيم الذي يزنون به روابطهم الفكرية بينهم وبين الناس ورب الناس . فلقد كان ابو محمد علما مفردا من هؤلاء الرجال ، والى شخصه كانت الايدي تمتد بالاشارة كلما احتفلت الالسن بالحديث عن رجل تكتن في هامته العزة والمثالية وتتمثل في مواقفه الجراة بقوله الحق مهما غلا مهره واربدت عواقبه .

وخلال الخمسين عاما التي انطوى على ايامها عمره الخصيب ما حدثته نفسه بان يلهث بالجري وراء الشهرة الزائفة على بساط من ريح الاعلام المأجور والدعاية الكاذبة ، ولا راوده الطمع بان يقيم منجده الفني على سراب من شهوة الوصول الرخيص عن طريق الملق بين يدي تجار الوجاهة في المواسم العارضة او الزلفى لاصحاب النفوذ والسلطان من اهل المناصب الزائلة بل ان تلك النفس الابية التي راضها صاحبها على كبرياء الثقة وعنفوان الشرف كانت تشده دائما وابدا الى ارتقاء معارج المجد من خلال كفاءته الذاتية التي ملك ناصيتها عن جدارة واستحقاق بالعمل والصبر ، واصلا نهاره بليله معتمدا على عرق جبينه وكد يمينه منذ ان بدأ نشاته الاولى دهانا للسيارات في دكينة متواضعة الى ان استوى شامخا على سدة الفن الموسيقي نجما ساطعا يتألق بالنجاح في الخافقين بين شرق الدنيا وغربها وتشرئب اليه انظار الالوف من مواطنيه واصدقائه الاجانب ، ويا ليت شعري .. ان لم تكن سيرته هي العصامية الفذة بعينها ، فكيف اذن تكون العصامية ؟

اما بعد ، وقد استردت العناية الالهية منا وديعتها وغاب عنا عبد الغني شعبان وراء ضباب الابدية بجسمه تاركا فينا هذه المعاني الاثيرة التي ما تزال تعيش فينا مع اسمه وذكراه . فهل ترانا اليوم قدمناه بما يليق به من وفاء لحقه علينا عبر هذه الكلمات التي كتبناها عنه في هذه العجالة ؟

اننا نسارع الى الاجابة على هذا السؤال ونبادر الى القول بكلمة «لا» دون ان هذا الكنز الفني الذي طواه الثرى في احشاء الارض كان بالنسبة لنا ثروة لا تقدر بثمن مهما كان غاليا والكلمات مهما طالت وتوالت فانها تبقى قاصرة عن الوفاء بهذا الحق علينا وعلى الاجيال العربية ما سلف منها وما هو آت ؛ بيد ان عزاءنا بابي محمد ان التاريخ المنصف سيفيه حتما حقه بالخلود .. وان عبد الغني شعبان هو اليوم ، وفي كل يوم في عليين مع الخالدين .

بيروت .

طه الولي



رشيد الذوادي

الشاعر التونسي سعيد ابو بكر

١٨٩٩ – ١٩٤٨

بقلم رشيد الذوادي

* * *

لقد اجتمعت عوامل كثيرة على تكوين شخصيته وابراز مؤهلاته الشعرية ، فهو دقيق الشعور وذو حافظة عجيبة وخيال فسيح وحس مرهف .

انه اخذ عن كل شاعر افضل ما عنده فاعجب باشعار المتنبي وابي تمام ، وراقته موسيقى البحتري وافتتن بصفاء خيال ابي نواس ، وقد كان من اولئك الذين يتهافتون على قراءة كل ما يتصلون به من انتاج ادباء المشرق ، فاطلع على اشعار كل من احمد شوقي : (١٨٦٨ – ١٩٣٢) وحافظ ابراهيم (١٨٧١ – ١٩٣٢) وخليل مطران (١٨٧٠ – ١٩٤٩) ، وشكيب ارسلان (١٨٧٠ – ١٩٤٦) واسماعيل صبري (١٨٥٤ – ١٩٢٣) وجميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ – ١٩٣٦) ومعروف الرصافي (١٨٧٥ – ١٩٤٥) وغير هؤلاء من شعراء الشرق وادبائه (١) وكان يحب الفن والموسيقى ، ومغرما بالمزاح والتنكيت يقول الشعر في كل مكان وينظمه في كل وقت ولا يضايقك بتلاوته او بالاطلاع عليه ..

انه احد إدبائنا الكبار الذين ساهموا مساهمة جدية في انارة الراي العام التونسي . ودفعوا به نحو ساحات النضال والاستشهاد ، وعبروا عما يعتمل في النفوس من خلجات وافكار في وقت عمه النفاق والرعب وامتلا بالرجعيين والمنزلفين .

اجل انه احد اعلام الادب التونسي . ومن جهابذة نهضتنا الادبية الحديثة . ورائد من روادها وشاعر الشعب بلا منازع .. تالق نجمه في سماء الادب منذ سنة ١٩٢٠ اي منذ العهد الاول لنهضتنا الفكرية فاثرى بشعره ادبنا المعاصر ؛ وألهب بمقالاته وكتاباته المهج والنفوس في احلك فترات تاريخنا ضد المستعمر الاجنبي البغيض ، وعالج مشاكلنا الاجتماعية ، وحرك العزائم والهمم ودفع بالشعب الى النهضة ؛ والتحرر والثورة ؛ وهو بفضل هذه الميزات يعد من مشاهير ادباء تونس في النصف الاول من القرن العشرين عامة وفي ثلثه الاول خاصة وممن اسهموا بقسط وافر في جعل ادبنا يتجه نحو الميادين الاجتماعية والوطنية والانسانية بوجه عام.

عصره : عاش سعيد ابو بكر بين عامي ١٨٩٩ – و١٩٤٨ وهذه الفترة كانت هامة جدا من الناحية السياسية والثقافية ، فقد عرفت فيها بلادنا احداثا تاريخية هامة كواقعة « الزلاج » عام ١٩١١ ، وحادثة « الترام » عام ١٩١٢ ، وثورة ابن عسكر ضد طغيان السلطة الفرنسية سنة ١٩١٥ ، ثم تاسيس الحزب الدستوري وبروز نزعة وطنية ووعي ثقافي اصيل وخاصة من الشباب المثقف في ذلك العهد الذي استوعبته جمعيتا قدماء الصادقية والخلدونية عقب تاسيسهما وايضا ظهور نواة الحركة النقابية القومية عام ١٩٢٤ على يد الدكتور محمد علي بن المختار المحامي (١٨٩٤ – ١٩٢٨) .

كما عاش فترة بعث جريدة « صوت التونسي » عام ١٩٢٩ ، وانعقاد المؤتمر الافخاريستي المنعقد « بقرطاجنة » فيما بين ٧ و١١ ماي ١٩٣٠ ، وحوادث التجنيس التي سيطرت على الميدان السياسي في سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ، والاضرابات الزيتونية قصد اصلاح التعليم ، وانبعاث الحزب الدستوري الجديد في الثاني من مارس ١٩٣٤ .

وشاهد بعينيه اعتصابات الجوع ، والتنكيل بالوطنيين ، وقسوة المستبد ، وظهور الكثير من الصحف والادباء والمثقفين الذين تعززت بهم الحركة الوطنية وخطوا بها اشواطا بعيدة .

انه عاش في هذا الجو الثقافي والسياسي والاجتماعي وقد وجهت مظاهر هذه الفترة التاريخية الحاسمة حياته وانتاجه كما سنرى ذلك فيما بعد .

حياة حافلة : وسعيد ابو بكر من مواليد المكنين في ٢٨–١٠–١٨٩٩ ولقد اتفق كل من الاديب : زين العابدين السنوسي صاحب كتاب « الادب التونسي » في القرن الرابع عشر والاستاذ راجح ابراهيم الفيلسوف والمحامي بسوسه سابقا والذي قدم لسعيد ديوانه « السعديات » الصادر عام ١٩٣٧ : اتفقا على أن ادبنا تتلمذ في احدى المدارس القرآنية بالمكنين ثم في احدى

(١) ديوان السعديات ص ١١ و ١٢ .

المدارس الحكومية بها ثم التحق بسوسه ليواصل تعليمه الثانوي لكن تعذر عليه ذلك لضعف امكانياته المادية. فاضطر الى العمل ككاتب عند بعض المحامين واخيرا قيض اليه الاستاذ راجح ابراهيم فاخذه الى مكتبه وامده بكل ما كان يصله من انتاج ادباء المهجر والشرق وقد ساعده هذا الجو الثقافي المنعش على استكمال ثقافته العربية ، نظهرت بوادر نضجه ، وتفتقت شاعريته فتهافتت على مقطوعاته الشعرية مجلة « النديم » التونسية حيث نشر فيها عدة مقطوعات تحت عنوان « زهرة بعد زهرة » (٢) جمعها فيما بعد في ديوانه الصغير « الزهرات » .

ولم يقتصر نشاطه في هذه الفترة على مراسلة « النديم » فحسب ، اذ راسل « الصواب » و « الوزير » وغيرهما من صحافة ذلك العهد .

وبفضل هذا النشاط المتزايد تألق نجم ادبه ، وعلا صيته ، وتلقفت صحافة البلاد ومجلاتها وتقاويمها قصائده ومقالاته وقصصه ذات الاغراض الاجتماعية الهادفة .

تمر الايام ويرى الناس سعيدا يكتب في جريدة « لسان الشعب » بعض المقالات النقدية الهادفة تحت عنوان من « النافذة » (٣) ثم يرونه يتردد على نادي الحزب بنهج « انكلترا » بتونس ويصبح مع عام ١٩٢٧ علما من اعلام النهضة الادبية في تونس وشاعرها الاجتماعي الصداح رغم ما كان يعتري بعض انتاجه من نقص واغلاط في اللغة حسبما يذكر المؤرخ زين العابدين السنوسي في مقال له « بالندوة » عدد ٥ ماي ١٩٥٢ ص ١٤ اذ يقول عنه في هذه الفترة بالذات : « .. مع كل ذلك فقد بقي صاحبنا سعيد يتبعه نقص اصلي في حرفته الكتابية من حيث اغلاطه النحوية والصرفية والرسم تجعله عرضة للاحظات صاحب المكتب ، تلك الملاحظات التي لم تعد تتلاءم مع ما يلقاه من اكبار العموم ومع انه كان يعرف ان ناشري ادبه يهذبون من هفواته تلك، فقد كان الاغراء عظيما على نفسه ان يستقل عن رؤسائه المحامين وعن اصحاب تلك « التقاويم » و « المجلات » و« الجرائد » التي تستثمر جهوده وتتمتع بنتائج ادبه بينما اصحابها يعاملونه معاملة القاصر وما زالوا يهذبون ويشذبون من اقواله التي تتلقفها الاذان والافواه » .

وتعلقت همته باصدار مجلة يشرف عليها بنفسه فتقدم في هذا الشأن بطلب الى السلطة فرفض مطلبه ، فالتجأ الى الحيلة وتسوغ تحت طي الخفاء امتياز مجلة « العالم » من صاحبها لمدة ثلاث سنوات واصدر العدد الاول منها في يناير ١٩٢١ لكن صاحب المجلة فسخ العقد بعد عام ونصف وسوغها لغيره فاضطر الى كشفه والى تقديم قضية عدلية به .

وبعد توقف هذه المجلة عمل كمراسل لجريدة « النهضة » اليومية وفيها حرر سلسلة من الفصول عن « مؤتمر البعث » بقصر هلال وقد اعاد طبع هذه الفصول في كتيب نشره سنة ١٩٣٦ .

وتأتي سنة ١٩٣٧ فتتحقق رغبته القديمة ويصدر مجلته الشهرية « تونس المصورة » بعد صدور اوامر اوت ١٩٣٦ التي سمحت للتونسيين ببعض الحريات النسبية ومنها حق اصدار الصحف وقد استمر صدور هذه المجلة الى نوفمبر ١٩٤٢ ، اذ توقفت بسبب الاحتلال الالماني ثم استأنفت نشاطها من جديد في عام ١٩٤٥ الى آخر يوم في حياة سعيد ابي بكر المتوفي في ٢٩ يناير ١٩٤٨ بمدينة تونس .

والملاحظ انه في فترتي صدور « تونس المصورة » يختفي اسمه من التقاويم والمجلات والصحف اذ انشغل « بالتمويلات » التي تحتاجها مجلته ، ولم يعد له من الوقت ما يستطيع به ان يراجع حتى بعض المقطوعات القديمة قبل بروزها للنشر ولاجل هذا كان اغلب ما نشره من اشعار بعد اصداره لمجلته قد جاء ضعيفا وخاليا من المقومات الفنية كقوله في مقطوعة : «يستعذبون التكلف» :

يقولون لي: ماذا صنعت؟ ومالذي	تريد لنا بالشعر ؟ مهلا ! اما كفى
فما الشعر الا ما تراه معجبا	يخر له دقن العليم متتفعا
نعم ! انما شعري البسيط ولم اكن	ارى انهم يستعذبون التكلفا (٤)

وهكذا كانت حياة هذا الاديب العصامي .. انها صورة من مجتمعه المضطرب .. فقد عانى التنكيل والسخرية والتمزق ، وعرف الشدائد والخطوب وقاسى ما قاساه غيره من ابناء هذا الجيل قصد رفع المظلمة والسير بالامة نحو الانعتاق والسؤدد .

مؤلفات سعيد ابي بكر : يعد سعيد ابو بكر من ابرز كتاب تونس المرموقين في هذا القرن ، فلقد سخر قلمه وفكره من اجل تونس والرفع من شانها في ميادين الفن والفكر والثقافة فالى جانب اهتمامه بالعزف على « الكامنجة » (٥) فانه قد ترك لنا مؤلفات هامة وذات اهمية بالغة ونستطيع ان نحصي هذه الاثار فيما يلي :

الجزء الاول من « السعديات » ويقع في ١١٠ صفحات ، ويقول سعيد في مفتتح هذا الديوان « اني اتقدم اليوم بالجزء الاول من ديواني الى ابناء البلاد وابناء الشرق وانا حاسب اني قد بذلت قصارى مجهوداتي في ترضيتهم وفي تقديم كل شيء نفيس عندي .

ولقد رأيت من الاحسن ان أقدمه الى القراء من

---

(٢) راجع مجلة (الندوة) التونسية عدد ٥ ماي ١٩٥٢ ص ١٤ فصل لزين العابدين السنوسي بعنوان « من ضحايا النبوغ المبكر ».

(٣) الادب التونسي في القرن الرابع عشر : لزين العابدين السنوسي ، المجلد الاول ص ١٠٢ ط تونس ١٩٢٧ م .

(٤) « الزهرات » : ص ٦٢ ط تونس عام ١٩٢٠ .

(٥) مجلة « الندوة » التونسية عدد ٥ ماي ١٩٥٢ ص ١٥ .

غير نويب جزء لما جاءت به الدواوين التي جرت عادة اصحابها ان يضعوها حسب حروف الهجاء ، او حسب ابواب الشعر ، او حسب تاريخ الحوادث . اما انا فقد جعلته شبه كشكول لاني لم انظم شيئا في كثير من الابواب التي اعتاد الشعراء ان ينظموا فيها مثل المديح ، والهجاء ، والفخر ، والرثاء ، والنزل ، وغير ذلك ، بل ان جميع قصائدي يمكن ان تكون في باب واحد ليس الا .

هذا وقد ابقيت القصائد التاريخية المشتملة على تفصيل حوادث دخلت في التاريخ سواء مما وقفت عليه في الكتب ، او مما حضرت عليه بنفسي ، وقد عولت على اثباتها في الجزء الثاني من « السعديات » التي باشرع في طبعه بحول الله في العام المقبل الخ ... » .

والملاحظ ان هذا الديوان الذي ظهر في غام ١٩٢٧ ويشتمل على قصائده الاجتماعية والوطنية وعلى مقدمة للاستاذ راجح ابراهيم ، قد اهداه « الى كل امراة شرقية تقوم بواجبها في بيتها بين ابنائها ، والى كل استاذ شرقي يقوم بواجبه في قسمه بين تلاميذه ، والى كل فتى وفتاة خرجا من حضن امهما الى حضن المدرسة القومية ليخرجا منها عارفين قيمتهما ومقدرين حقوق البلاد عليهما الخ .. » كما احتوى على مقدمة ادبية رائعة كتبها الاستاذ راجح ابراهيم واستغرقت خمس عشرة صفحة تعرض فيها الى تعريف الشعر والى ابراز اطواره والى شيوعه ورواجه في قصور الخلفاء والامراء والبراة وذوي اليسار في ايام ازدهار الحضارة الاسلامية التي بهرت اشعتها الابصار مما جعل الشعراء يتفننون في مجالات الابداع والابتكار ، كما تعرض فيها الى ما تعاقب على البلاد التونسية من افراح واتراح كانت نهايتها احتلال تونس عام ١٨٨١ كما تناول فيها بعض ميزات الشاعر وكفاحه الطويل من اجل بعث مجتمع الكفاية والعدل ، اذ سعيد عاش في اتون من القلق والضجر فكم تالم من تاخر الشرق وتلاعب الغرب به ، وكم من مرة حث امته على النهوض ودعاها الى ترك التواكل والكسل ... انه دفع بلهيب زفراته النفوس الخامدة وايقظ باشعاره النائمين ومن اجل هذه الاهداف كان يستنهض ابناء جيله ويهيب بالشعراء في قصيدته (ايها الشعراء) (٦) :

وصار عليكم ان تقولوا : حياتنا ... رفيقة ياس لا يقيام لراقد
الى الحزم والتفكير في شان امة ... يقاسيها كؤوس الويل داء التحاسد
الى خدمة الاوطان قد ضيع العلا ... بنوها وحادوا عن كمال وسؤدد
الى رفعها قد حان يوم صعودها ... وقد قابلت سهم العناء بتجلد
الى مدها في نهضة ادبية ... بالامكم قبل اصطدام الشدائد
الى نهضة بالشعب قبل مماته ... الى قطع اسباب الهلاك المهدد
الى كشف اسباب النجاح بربكم ... عسى غافل للخير من ذاك يهتدي
الى بث روح الالتحام لعلنا ... بها في هناء النفس والعيش نقتدي

(٦) ديوان السعديات ج ١ ص ٥ ط تونس ١٩٢٧ .

الى عقل مراة الفخار ! الى متى ... يضيع لدينا وهو اشرف تالد
الى حث القوام لنيل فضيلة ... نجر بني الانسان نحو المحامد
الى وضع ايديكم بكفي فانني ... اساعدكم يا اهل ودي باعدي

« الزهرات » : وهو ديوان شعر صغير نشرت اغلب قصائده بجريدة « النديم » ويتحدث سعيد عنه في المقدمة ص ٦ فيقول : « ولقد بذلنا مجهوداتنا وجعلنا هذه المجموعة عبارة عن «كشكول» يجد فيه المطالع شيئا من كل شيء ضرورة اننا كنا ننتقل فيها بقرائنا من الادبيات الى الاجتماعيات ومنها الى الفكاهات والمداعبات كل ذلك حرصا منا على ارتياح نفس المتطلع اليها فاذا هي لم تكن لترتاح الى ذلك فحسبنا اننا اردنا وحاولنا» .

« مؤتمر البعث » وهو مجموعة مقالات ظهرت بالنهضة اولا ثم اصدرها فيما بعد في كتيب يقع في ٨١ صفحة عام ١٩٣٦ واعيد نشره عام ١٩٦٧ ضمن منشورات الحزب الاشتراكي الدستوري .

الجزء الاول من كتاب « دليل الاندلس » او الاندلس كانك ترآها وهو كتاب فريد في نوعه يشتمل على مجموعة من الصور الفوتغرافية اخذت من قصر المعتمد بن عباد « باشبيلية » ومن الجامع الاعظم « بقرطبة » وفيه وصف لاثار مدينتي « قرطبة » و « اشبيلية » ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٣٣ .

الاثار الغير المطبوعة :

١ ــ الرحلة الجزائرية : وهو وصف للاماكن التي زارها وقد نشر بين سنتي ١٩٢٧ و ١٩٢٩ ، ارتسامات عن هذه الرحلة في حلقات متسلسلة بعنوان « عشرون يوما في عمالة قسنطينة » (٧) .

٢ ــ الجزء الثاني من كتابه : « دليل الاندلس » وهو يحتوي على وصف بقية المدن الاندلسية التي زارها .

٣ ــ الجزء الثاني من ديوانه « السعديات » وهو يحتوي على قصائده السياسية .

وعلى كل فان انتاج « سعيد » لو حاولنا تقييمه وتعيير قيمته فاننا نجد هذه القيمة واضحة جلية خاصة في كتابيه : « دليل الاندلس » الذي انتهج فيه منهج كبار الجغرافيين والمؤرخين العرب ، اذ برز فيه اسلوبه الشيق الاخاذ وظهر فيه التاثر واضحا بكتب الرحالين امثال : ابن بطوطة وغيره و « السعديات » وهو اهم اثر شعري خلفه سعيد لنا وفيه طرق كثيرا من مظاهر الحياة الاجتماعية والملاحظات ان اغلب قصائد هذا الديوان تطغى عليها مسحة من التشاؤم والسخافة والقلق من الحياة ، ومن الوجود بوجه عام .

وطنية سعيد : ومن الطبيعي ان يتاثر هذا الاديب باحداث عصره ويتفاعل معها فيتصدى للاستعمار ويتحدى

(٧) « شخصيات وتيارات » لاحمد خالد ص ٤٧ ط مؤسسة (تونس) عام ١٩٦٩ .

الرجعية في قوة وعنف لانه كان وطنيا صادقا وابنا بارا لبلاده .

ونحن ان اردنا ان نتحدث عن « سعيد الوطني » فاننا سنتحدث عن احلى ميزة لهذا الرجل وابرزها .. لقد تفتح احساسه الوطني منذ الصغر ومنذ ان شعر انه يمشي فوق تراب تونس فاخذ يتحدث على لسانها قائلا :

انا الزهرة التعساء فاح اريجها ... واوراقها من حزنها تتذابل
رآها رسول آلوت تخفي خياله ... فاصبح بالرصاد لا يتنقل
انا الغصن في زهر الشباب يقصه ... بقادومة الحطاب وهو مولول
انا تونس الخضراء ، وبك الى متى ... على السير في نهج العلا تتغافل
كأنك لا تلقي العبرة آذ ترى ... بلادك في خطب ولا تتقلقل

ولم يترك سعيد اية فرصة دون ان ينبه شعبه الى المكائد التي يعيدها له الدخلاء الاجانب وما فتىء يوقظه ويحثه على الكفاح والثورة فنسمعه يقول :

يزعم المستبد ان يد القو ... لاذ اولى بمن يمده عليه
ليس بالقبضة يسكن الشعب لكن ... يوم يلقى حقوقه في يديه (٨)

وتهزه موجة من الاحساس العنيف فيصنع سهاما من قوالب الشعر ، هي الى القوة والصمود اقرب من غيرها حينما يشتد ضغط المستبد على الاحرار فيثور في نفسه قائلا :

قولو الذي شغف بالعسف يعشقه ... مستعملا نغمة الطلاب للثار
فتش ديار الالى لا يعرفون الى ... من آبت اليه غير الخزي والعار
لا يرجع الحر عن اسباب نهضته ... حتى ولو سكن « البوليس » في الدار (٩)

وتبلغ اصداء اشعاره الطغاة فيزداد غيظهم ويتضاعف عسفهم فتمتلىء السجون بالمعتقلين ويغمر القلوب شعور بالارهاب .. لكن رغم كل هذا نسمع دوي الشجعان من ابناء شعبنا البطل يرددون قولة شاعرنا البطل :

الحر لا يخشى السجون وانما ... تخشى السجون بان تقسم مثيله (١٠)

فهو يهزأ بالعذاب المسلط على شعبه لانه آمن بارادة الشعب وبان الحق يعلو ولا يعلى عليه ، فقد كان سعيد ابا بكر كما ذكر المؤرخ ح ح عبد الوهاب في « مجمل تاريخ الادب التونسي » ص ٢١٦ : « ... وطنيا صميما متمسكا اشد التمسك بحب بلاده ؛ وقد تلوح هذه العاطفة في كثير من اشعاره » .

سعيد كاتب ملتزم وشاعر مجدد : كان سعيد يعبر عن خلجات نفسه المضطربة اولا في جريدة « النديم » « زهرة بعد زهرة » حيث اعتنى بمشاكل مجتمعه في هذا الركن ، وسلط اضواءه واتجاهاته السياسية والاجتماعية على ضوء المبادىء والمثل التي آمن بها منذ فجر شبابه وعلى ضوء هذا الاختيار الهادف ينشر قصائد ملتزمة مثل : « الناس ذئاب » و « كم بددوا » و « قم من سباتك » و « بئس التمدن » و « ويل هذا الشعب » و « انني لا انثني » ثم نراه في مقالاته النقدية على جريدة « لسان الشعب » وفي كل من « السعديات » و « مؤتمر البعث » متجها وجهة معينة هي اخلاصه لبلاده . وحبه الجارف لشعبه ؛ ودفاعه عن ابناء وطنه ، ومحاولة ايقاظهم من سباتهم الطويل ليستعيدوا مجدهم التالد ، ومن اجل تحقيق هذه الاهداف السامية نراه ينادي بحرية الصحافة والاهتمام بالفقير ، ويصور مأساة المرأة التونسية ويدعو الى فتح آفاق التعليم في وجهها ويؤازرها في حق اختيار الزوج الكفء ويتحدى المهور الغالية وينادي بالثورة للقضاء على المستبد .

وعلى الرغم من الصعوبات التي وجدها سعيد لاهتمامه بهذه القضايا والتزامه بها شأنه في ذلك شأن زميليه « الحداد والشابي » فانه جابه الصعاب بنفس قوية واستطاع ان يغذي بهذا اللون من الانتاج الادبي الجماهير القلقة ، وان يدفعها الى البذل والتضحية فتستجيب للنداء وتلبي الطلب عن طواعية ورضا .

وسعيد بعزوفه عن الاغراض الشعرية التقليدية كالغزل والمديح وغيرهما المنتشرة بوفرة في تلك الفترة - تهيأ وتبوأ لمضاف شعراء الالتزام الكبار بالاضافة الى شهرته كشاعر مجدد ؛ ثار على الشعراء واعطى معنى جديدا لشعره سواء من حيث المفاهيم او الاغراض او حتى في الاسلوب .

انه تشيع بدعوة « التجديد » ثم كان من انصارها المتحمسين ، ونادى بحل قيود الشعر وحث على ادخال اوزان جديدة عليه ، ثم كان اول تونسي نظم في هذه الاوزان التي ابتكرها شعراء المهجر (١١) ونستطيع ان نلاحظ هذا التأثر حتى في عناوين القصائد والدواوين فقصيدة « الغصن المجرد » وضعه على منوال « النهر المتجمد » لخائل نعيمه ، وديوانه « السعديات » وضع على منوال « الشوقيات » لاحمد شوقي .

وعلى العموم فسعيد ابو بكر شاعر عصامي ملتزم (١٢) قد ثار على الاساليب المتبعة البالية سواء من حيث النسج والتركيب : او من حيث المضمون والاوزان والقوافي .. انه ابن جيله وشاعر تونس المجدد ، فقد وعى عن عمق مشاكل امته وعيا كاملا وتفاعل معها في ثورتها فجاء انتاجه وليد هذه التجربة شأنه في ذلك شأن كل المفكرين التونسيين الذين التزموا لقضايا وطنهم واستماتوا من آجله الى النهاية .

تونس — رشيد الذوادي

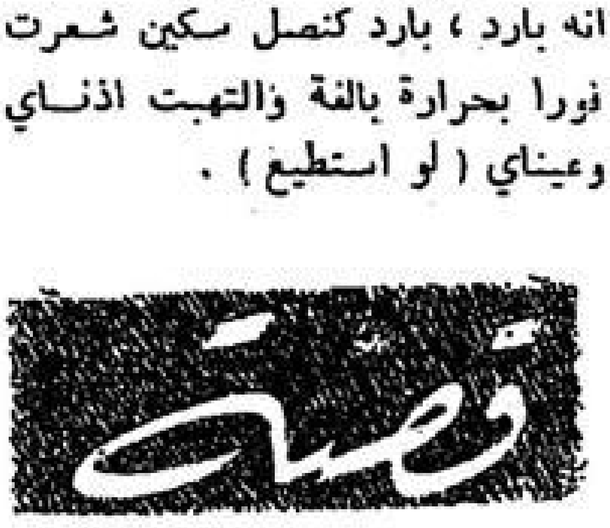
---

(٨) الزهرات : ص ٢١ .
(٩) ديوان « السعديات » ص ٧٠ .
(١٠) الزهرات ص ٢٥ .
(١١) راجع « السعديات » ص ١٢ .
(١٢) راجع كتاب البعث : « شاعران » لمصطفى رجب الكتاب الرابع عشر : يناير ١٩٥٧ ص ٢٨ .

ربيع نجمة محترقة

فصل من قصة طويلة

بقلم سمير تنير



عندما فتحت عيني كان الظلام ما يزال حالكا ؛ فاطبقت عيني من جديد واخذت اسمع من بعيد نشيجها . لقد رحلت منذ ايام ولا ازال اسمع نشيجها كل يوم . انها هناك في الطرف الثاني من الغرفة . ولكن السرير خال ؛ والنافذة مغلقة: والبرد يمس الموت ، والظلال تصبغ رداء السرير بانوار ضوئية قرمزية وثنياته تتلوى امام عيني. وانا وحدي والبرد يمس الموت فاطبقت عيني من جديد واخذت اسمع من بعيد نشيجها .

قالت وداد : « هل تموت ؟ »

واطلت من عينيها حيرة وبكاء . كانت عيناها تستغيثان : « هل تموت ؟ »

كان الجميع يسالون ولا يجابون الا بصمت ثقيل . ان الصمت اخذ يمتد الي .

امتد الى جسدي فامتلكه . صمت كثيف يأخذك بدوامته ؛ ويتركك ضائعا ، اتبكي ام تنهشك كلاب حقيرة تأخذ بتلابيبك فلا تتركك الا جثة ممزقة . كلاب كثيرة يتصاعد عواؤها من بعيد .

« انت الذي قتلتها .

ـ لست انا ملك الموت .

ـ من اذن ؟ » .

اخذت الاضواء الحمراء تطفو على السرير تصبغه بلون كلون شعلة قنديل منطفىء . مرت سيارة مسرعة في الشارع واضاءت مصابيحها السقف والنوافذ بنور باهر سطع للحظة ثم اختفى . سمعت ازيز السيارة ، عندما مرت ، خافتا . بعيدا . ثم همد كل شيء . ان الهواء في الخارج لا يزال يتشبث بسكونه والاوراق على الاشجار غارقة في انعكاسات انوار الشارع . البنايات المجاورة تعلو وسط الظلام في قلب الفراغ لرمادي الذي غلف كل شيء . القمر يشح بكل سواده الليلة مبحرا مع الغيوم السوداء التي تطوقه وتخنق انواره.

كانت الاشجار ترتفع بشراعة الى السماء ، والجبال بعيدة حمراء ؛ والنجوم تراجعت الى الخلف وغابت؛ ولم تسقط .

(ماذا .. لو) السكون يمتصني مرة ثانية . اخذ نشيجها يمتلكني من جديد . انقلبت على جنبي الاخر حيث الظلمة اشد كثافة . مددت ذراعي . عندما كنت صغيرا لم اكن انام وحيدا ، وعندما بلغت الحادية عشرة انفصلت لانام في سرير جديد، ولما كان الليل والقلق يزحفان الي ، كنت امد ذراعي الى ذراعها فاستلم لنوم مريح . اغمض عيني وانا اشعر بحرارة ذراعها تحيطني بوجودها العذب ، بينما هي تبتسم وتبتسم وتقترب وانا اتراخى في نوم حذر تحت يدي الصغيرتين ..

الصغيرتين جدا . مددت يدي فلمست بقعة من الانوار الزرقاء والوردية . انها انوار الشارع . مددت يدي اكثر ولم المس الا فراغا كما يلمس الانسان صفحة لوحة تجريدية نثرت عليها الوان كثيرة . مددت يدي ولمست زجاج النافذة. انه بارد ، بارد كتصل سكين شعرت فورا بحرارة بالغة والتهبت اذناي وعيناي (لو استطيع) .

عند النافذة شعرت بحركة راعشة قلقة : عصفور مبلل ينقر الزجاج . لم اتبينه الا قطعة سوداء مصبوغة باشعة حمراء رقيقة . انه يزقزق ثلاث مرات برتابة لا معنى لها، كصوت الم لا الم فيه ، ثاقب ونفاذ يحطم السكون المتشبث بالكون والاجساد ، وبعد لحظة مرت سيارة ثانية افزعت العصفور فطار مع النور الذي غمر النافذة والسقف للحظة ، ثم اختفى كل شيء .

عندما ترخل الزوخ وتضيع في سماء رمادية لا نهاية لها ، مرصعة بغيوم وردية ، ترى اي شيء سيلحق بها ، اي طير هائم سيعثر عليها .. اية موجة ستردها؟ تنصت. سمعت الساعة في المشي تثرثر وتنبض بثبات وعجبت انني لم انتبه لتكتكتها منذ زمن . انها تخفت الان وتدق احدى عشرة دقة « لا بد ان عادل قد نام وكذلك عائدة ، ولكنه هو ، هو لم يعد حتى الان ، لقد تأخر طويلا .. ترى هل سيعود اليوم ! هل سينسى ؟ انا لا استطيع .. هل سيأتي ؟ » ان شيئا ثقيلا يحيط بي.. شيء لزج وشفاف كانه عنكبوت . خطوط الاشجار والبنايات واغصان الورود البرية التي زرعها جارنا على سطحه تنتصب في فرجة النافذة ، وترتسم وسط الليل . انها واضحة . انها تعيد الي شيئا احس بانه يضيع مني واكاد افقده .. هل افقدها يا ترى ؟ احسها لصق ذراعي ، انفاسها تحيطني وتحيطني ، تسير الى قلبي ، تتقاطر اليه كتيار كهربائي يهز يدي (لو استطيع فقط) اني مضطر الى تحمل كل هذا دفعة واحدة ، فلا مجال لرده . انه يستولي على جسدي كله دفعة واحدة ؛ ويجعلني ارتعش وارتعش ولا استطيع التوقف . في الخارج لا تزال النجوم تشيع خلال الغيوم السوداء . القمر قد غاب تماما الان وضاع وسط هالة سوداء. انقلب في

فراشي : وفجأة يبدو لي شيء كطريق طويل ينحدر الى واد عميق. كان محكوما علي ان انحدر الى الهاوية ، وعلي احتمال ذلك الانحدار الذي لا مفر منه . انه لم انم منذ ثلاثة ايام الا ساعات معدودات . هدني التعب . ان ساعات النور لم تجلب لي أية راحة . كل شيء كان ينفتح الى ممرات طويلة عندما انام وفي كل مكان يتحرك شيء .

« ـ انت لا احد غيرك .

ـ لا لست انا .

ـ انك لم تبك .

ـ ولماذا أبكي ؟ ان حزني يقتلني وهو في قلبي .

ـ انه الموت .. الموت .. لا احد غيرك » .

كانت الزرقة المتعبة ترمقني . ظلت الزرقة تذوب ثلاثة اشهر حتى اضمحلت في ليلة تناقط رمادها بكثرة ، أيتها الزرقة ، يا زرقة العينين ، يا زرقة السماء والبحر : انا جائع اليك . ان الاستغاثات والالم الذي عشت بجواره اياما طويلة ، تمطت الدقائق والساعات فيها لالاف السنين ، تعاود كرتها الان . ثمة شكوى تصعد من اعماق الظلمات . كانت تتوسل (لو استطيع ان اقول) النداءات لا تزال تتردد شديدة . كان ثمة من يهاجمني ويتعلق بي بيأس . لقد تتابعت دقات تنبض في صمت ، وفرغت مساحات واسعة . شعرت انني مجرد وشاجب تماما عن الداخل . ان وجودا معذبا يصرخ ويجأر ويعلن عن نفسه بنداءات لا اسم لها . آن قطة تموء ويتصاعد مواؤها ليملأ كل مكان في نفسي . اخذ البدوء ينساب الي من مكان اجهله . يتسرب من نقطة اخذت تتسع وتتسع . سألت امي : « لماذا تموء القطط في الليل ؛ اتنادي صغارها الذين فقدتهم ؟

انني استمع اليها . كنت استمع اليها في ليال كثيرة . قالت : « انها تنادي الله » ..

ـ ولماذا تناديه ؟

ـ انها تناديه لكي يساعدها

ـ وما الذي تريد ان يفعل لها ؟

ـ انها تناديه كي يساعدها حتى لا ترى انسانا ، لانها تريد ان تبقى لها حياتها وصغارها .

في الغرفة المجاورة كانوا نائمين . كانت التنفسات ذات الايقاعات الرتيبة تتلاقى . كان هناك من يتقلب في فراشه ويتنهد بين آن وآن . انها وداد .

سمعت شهقة سريعة : « عائدة لماذا تركتني وحيدة ؟

كان الصوت ينساب كأنه يتحسس يبدو انه صوت يريد اختطاف ثانية من الراحة ، وما من احد يظفر بها . كانوا جميعا متلاشين في النوم المصطنع الذي يهبط دون رحمة ليذوب اخر الامر في تشويش لا نهاية له . ان الالم يسيل نحو الجميع فيشل قلوبهم ويجمدهم في السكون . كان الالم يبني قلاعا لا منافذ لها ، وعالما اسود مغلقا بلا رحمة . كان الظلام يحمل الينا ، تحمله وداد وعائدة ؛ فلا يمد احد يدا الا ليضع لقيمات ثم يشيح عنه .

قالت عائدة :

ـ ما بك الم تستطيعي النوم ؟

ـ بلى .. نمت وافقت الان .

الم يأت بعد ؟

ـ لا لم يأت بعد .

وما الذي يفعله ؟ لم لم يأت بعد ؟

ـ لا اعرف ..

نهضت وجلست في السرير . طويت رجلي تحتي . نحيت الغطاء قليلا ورفعت نظري الى السماء التي انفرجت بعض غيومها ؛ وتوشحت بلون الصفرة الفوسفورية . جعلت امر بيدي على وجهي وذراعي . لقد فقدت لحما كثيرا .. ان العينين قد وسعتا وتقرعتا . كان ثمة نبتة ذات جذور ضاربة بين السماء والارض تمتصني وتفرغني كالقشرة . كانت غصان ترتفع وتهوي هزيلة بعد ان سلخ مداها من النمو . ظللت وحيدا مع تلك النار التي اخذت تسري كأمواج رقيقة (لو استطيع ، لو استطيع فقط)

« عندما عدت من المدرسة في ذلك اليوم احسست ان شيئا قد حدث.

لم اكن احب ان انهي الدروس الطويلة في النهار دون ان اتشرد ولو لوقت قصير في الشوارع . كنت احب ان اعود الى البيت عندما ينتشر الرماد والهدوء ويموت الضجيج . وفي ذلك اليوم عندما عدت كان شعاع من الشمس يخترق اوراق الاشجار وينحدر حتى يلامس جذعها . كانت الازهار قد احترقت وذراها الهواء ، وكانت بعض الاوراق تسقط وتطفو في الهواء ثم تسقط . كان شعاع الشمس الذي تسلل من بين الاغصان ينير وجهها ويضيء خيوطا وردية تحفر اخاديد قاسية . كانت ترفع يدها الى شعرها . كان الصمت يمتزج بالرماد والظلال ويجمد الكائنات. وهناه وسط النور المتكسر على الاغصان كان عصفور يغني . ينبعث غناؤه من مكان اجهل تحديده . يزقزق ثم يصمت كأن سكينا قطعت عنقه ، ثم يعود لغنائه والاوراق تتحرك وتهذر مع النسيم، والهواء يعنف فيثير غبار الحديقة حاملا الي عبير الازهار المحترقة .

عندما وطئت شرفة البيت رفعت وجهها ونظرت الي .

ـ طارق .. لماذا تأخرت يا حبيبي .

ـ تشردت قليلا في الشوارع .. ثم رجعت .

ـ هل انت جائع . ساحضر لك الطعام .

ـ لا .. لا تعذبي نفسك .. لست جائعا .

اضاءت النافذة شعاعات الشمس الغاربة. كانت عيناه لا تزالان تنظران

الي . لحظة واحدة وصار امام الباب نظر الي وهو يمر بيده على الاشياء. تناول سيكارة واشعلها . ولم ينظر الي . ثم صفق الباب وذهب . احسست ان نبضي قد اخذ يتحرك في صدغي ورقبتي . ارتجفت اصابعي (ورود ازهار ذبلت وجفت ثم سقطت واحرقتها الشمس) . بدات الساعة تهدر وتثرثر وتنبض برتابة واضحة ، رنانة . عندما تقدمت نحو الباب كان النور قدمات تماما ، وخلف ظلاله .. وعندما تقدمت خطوة ثانية كانت يد باردة كالثلج قد وضعت على خدي وصوت يسيل عذوبة يقول : « طارق .. طارق الى اين تذهب يا حبيبي ؟ الان رجعت فقط .. هل انت زعلان مني ؟ » . كان هو يركض وينادي تاكسيا عندما عرفت للتو ماذا فعل. كان يمشي كقطار مسرع ويمسك بذراعها . كان يركض وسط شارع مليء بالدخان ، بينما ازهار الاشجار التي احرقتها الشمس تتساقط وتتقاطر اليه في زذاذ كرذاذ المطر .

عندما اخترقت الحديقة سمعت اصداء خطواته ، وعندما اظلم الليل خرج من مرآته وكنت اسمع خطواته وكنت اسمع نحيبا وشهقات بكاء . عندما عاد مع القمر كسحابة سوداء رايت الظلال تمشي حوله . كان يسير الى سريره ، ثم يلقي بجسده على السرير ويستغرق في نوم ثقيل؛ بينما يرتفع نحيب وآهات وترتفع يد الى شعرها .

اصداء خطوات بدات تقطع الشارع واضحة خافتة رنانة . اصداء طويلة . ثم تعكر الصمت وتبعتها اصداء خطوات سريعة قوية ورنانة .. القيت بالغطاء بعيدا ، واتجهت الى النافذة . عند زاوية الشارع كانت فتاة تعبر تضم شيئا بيديها الى صدرها ، يلاحقها ظل طويل ينبثق من دائرة النور ويتلاشى مع الليل الذي جمد الكائنات .

« عندما وضعت يدي على الباب امس في الحديقة ، احسست ان لم يعد في البيت شيء . النافذة بعيدة ومظلمة ، وفي الدار كان المطبخ ساكنا والغبار يملأ الرفوف والغسالة الكهربائية مهملة في زاويتها . والمائدة تتناثر عليها الاكواب والصحون والسكاكين في فوضى . وقفت في ممر الحديقة ، كان شيئا منعني من متابعة السير ، وعندها رايت القطة. اقتربت مني غير خائفة . هل فقدت هي احد صغارها فاتت تخفف عني عبء الفجيعة ؟ اقتربت مني ، فانحنيت واخذت امر بيدي على راسها ملامسا فراءها الناعم ، فاخذت تهرهر راعما ناظرة بعينيها نحو البيت : « آه .. آه لو تعلمين » . خطوت وكانت القطة تخطو معي ، وعندما اقتربت من النافذة كان الغسق يلقي بالنور الوردي على الزجاج ، وفي فسحة الغرفة والنافذة خالية . كانت الغرفة فيما سبق تبدو لي واسعة فسيحة اما الان .. اكاد لا استطيع التنفس . عندما كان النور يشرق كنت اراها في الغرفة مع زقزقة العصفور، وعندما يغيب النور وينتشر الشفق في النافذة مع الليل تمتد الحديقة مظلمة والغبار فيها يتناثر مع نور لا يزال يرتعش كشلال ، وقلبي ينبض بثبات في صدري .

كان الهواء يعصف في الخارج وقطرات الماء بدات تضرب الزجاج والسكون لا يزال في الغرفة وفي قلبي . منذ ساعات طويلة كنت انتظر ان يأتي ابي . جلست على السرير واحطت رجلي المثنيتين بذراعين ترتجفان بين حين وحين . فرقعت السماء . وقصفت برعدها رفعت نظري الى الاعلى . رايت حافة النافذة العليا وبقعة من السقف ترتسم عليها ظلال مصابيح النوافذ البعيدة . منذ ثلاث ليال وانا اراقب نور تلك البقعة المستطيلة بالضياء في السقف وعلى الجدار وهي تتحول كل يوم الى ظلمة ، لو اقول يا امي امي ! .

« النور انبعث الى عيني وهاجا عندما واجهتني الشرفة الصغيرة خطوت الدرجات الخمس الى الدار كانت الشرفة قذرة واوراق الاشجار تتناثر فيها والهواء يعبث فيلقي بالاوراق على الدرجات . في المطبخ وفي الغرف كان السكون اسود يلقي غلالته ، وهي لم تطل في الشفق بعد « لم تاخرت قلقت عليك . هل احضر لك الطعام » (لو اقول يا امي) تقدمت . يدي ارتفعت الى جبيني ، وانا اغفل عن النافذة والضياء الشاحب في الحديقة (ورود وورود عائلتنا تنمي لكم بمزيد اللوعة وورود) تقدمت الى غرفتي . هل اجد اخي ؟ ماذا يفعل يا ترى ؟ كان امام النافذة وفي يده تحترق لفافة يتصاعد دخانها الازرق : « هل عاد عادل ؟ هل رجع ؟ يا الله لماذا تاخر » كانت النافذة تغوص في الشفق والصوت بعيد » .

ثلاث ليال تمر مذ اعلنت عائلتنا بمزيد اللوعة وفاة امنا . كان الوجه قد غاب مع الشفق وترك نافذة فارغة (ورود .. ازهار اختفت جسدا كان يودع اعوام تعب طويلة) منذ ساعات الصباح الباكر لم يعد بعد . هل سيعود اليوم ؟.

« مشيت الى الحديقة عندما رايت عادل يضع يده على حافة السياج كان يهتز بنشيج . كانت يده تهتز » .

(انا لم ارد هذا انه ليس اكاد ارى الشيء ينمو من الارض مع الشوك عندما يعود الظلام كان من المرآة يخرج مع الشفق يرحل الى امراة شقراء هناك : في مدينة ابعد من سفح الجبل .

انه كذلك ليس هو الا خطاك انت لست الا طفلا الا ترى انني انه ليس الا)

« لم يتحرك عندما واجهته . كانت الحمرة تغمر عينيه .

ـ اتركني . الا ترى ما نحن فيه؟

ـ ارى .. طارق لا يظن انني ..
ـ انا لا اقول اي شيء . الا تعلم اي شيء فقدناه ؟

كان الاصيل ينحدر من الافق عندما تركني وانحدر الى الحديقة بجانب شجرة الليمون . كانت الاشجار والاوراق تلفه والشمس تسطع » .

السماء تقصف وترعد مع مطر يسيل ويجري ويضرب السقف . وفي الغرف صمت مميت.. والساعة لم اسمعها . هل تباتي ؟ منذ يومين قررنا نحن الاولاد ان لا نلقي على ابينا اية تحية ، وان لا نجري معه اي حديث . ولقد غادر البيت منذ الصباح دون ان يخبرنا بوجهته ، والتلفون ظل صامتا ، فهل تراه يعود ؟ الظلمة تتكاثف مع السكون في غرفتي ، والبقعة المضيئة في السقف وعلى الجدار تكاد تتلاشى. كنت اسمع نقرات المطر ونشيد الريح الغاضبة . ثلاثة ايام غمرت الازهار دارنا ، واتى اناس طلوا وجوههم بحزن كاذب . كانت الورود تغيب مع جسد حبيب (الازهار فاحت ، نشرت حزنا اعلن منذ ثلاثة ايام مع اوراق كانت تلصق على الجدران ورود) ترى هل سيعود ؟

« انسفحت على خدي قطرات المطر عندما جلست في مقعدي في الاوتوبيس . كنت متوجها الى عملي بعد انقطاع يومين . وفي المكتب كان كل شيء يرقد كما لو لم يمسه احد . لم اسمع الضحكات تنساب. كان الصخب في الشارع وفي الحافلة ، وكان السكون في قلبي »

التفت بسرعة الى النافذة . هل يسود الظلام الشامل من جديد . كانت الريح من بعيد تعيد انشودتها الغاضبة .

« اضاء القمر الشاحب امس حديقتنا . وعلى البعد رايت عادل ظلا مع الشارع امام الفناء يعلو الى السماء . القمر الشاحب انحدر الى نافذة كنت اتطلع نحوها بلهفة علني ارى احدا يسطو يتسرب من خلالها مع القمر فتمزق السياج والهواء البارد يصفع وجهي . كنت ارى عادل ينكىء على شجرة الليمون من بين فسحات الاوراق » .

« في قلب الظلمة كنت الهث

مع الليل كنت استمع الى البكاء

اعط امي فرصة لكي تعيش

ارجوك امي

ما بها

مع الظلمة في الفراغ الواسع كان القمر اصفر شاحبا يتعلق مع السحب في الفراغ كان وجهها بغيب كسحابة بيضاء تعبر سماء شديدة الزرقة

ظله الطويل في الغرفة امام الزرقة .

من خلال النافذة كان الهواء الفضي ينساب الي

لم يكن من احد في الدار كنت وحيدا

عندما غاب القمر في السحابة السوداء واختفى مع ظله الهواء كان الوجه يبدو ضئيلا وكنت ارتجف عندما سمعت صوت وداد كنت اركض والهث الى الطبيب لم يكن من سيارة في الطريق كنت الهث واركض وانا ارتجف عندما لاح ضوء المصباح لماعا كنت في وسط الطريق الوح بيدي ولما وقف السائق واشار لي ركضت الى باب السيارة افتحه وانا الهث اقول

ارجوك امي

ما بها

في الغرفة تحت المصباح وقف الطبيب يفتح حقيبته الجلدية والسحابة البيضاء تتبدد بسرعة في سماء زرقة متوهجة .

في الغرفة امام النافذة كنت اتطلع الى الوجه الذي اضاع منذ قليل انوار الوجود والسماء القمر كان لا يزال يبين دخانا اصفر من خلال سحابة التمعت بالشعاع كانت نقطتان مظلمتان تغيبان مع سحابة بيضاء تبددت واصبحت رذاذا .

ارجوك امي

ما بها

كنت اسمع اصداء الخطوات رغم الريح . التفت بسرعة الى سنارة النافذة الممزقة. انها سائلة متموجة الثنيات ، والريح لا تزال ترسل صرختها . عادت الاقدام تطأ الريح بخفة كان لصا يخترق المشى. ترى هل عاد ؟ خفق قلبي بسرعة . دقيقة واحدة وكنت امام الباب ، في المشى .

في الغرفة الوابعة كنا جميعا نتطلع اليه . انه لا يتكلم . انه يترنح في مشيته .

ـ ابي .. تعال اجلس هنا ... هل انت بخير ؟

وداد كانت تقول هذا . كان وجه قاتم الصفرة يتطلع الى الارض ولا يتكلم . قرقعت السماء بشدة وغاب النور ، في الظلمة كنا جميعا نتنفس وفاء الصغيرة شهقت وصرخت . صاحت وداد : « اشعلوا الشمعة » قالت وفاء بلثغتها : « انا ساشعلها» ابي بوجهه الاصفر ، بطياته العميقة ، يبرز الي من خلال الثوب الباهت . كان يتطلع الي .

ـ هل هذا ما تريده ؟ انني استنزل عليكم لعنات الله .

ـ انك لا تدرك ما تقول . انك مخمور . الا تخجل من نفسك ؟

ـ لو كنت قويا الان لصفعتك صفعة تلقيك شهرا في الفراش . انك لا تطاق ..

ـ هيا جرب . اريد ان افرغ غضبي انا ايضا. امنا تموت وتتركني وحيدا ارى الموت . الا تدرك انني صغير ؟ لماذ تركتني وحدي ؟ اين كنت ؟ اريد ان اعرف

ـ ليس هذا شانك .

ـ حسنا .. سنعرف كيف نتصرف معك بعد الان . انك لست بابينا . نحن نتبرأ منك .

جدران الغرفة سوداء متعكرة والعينان تلمعان بصورة هائلة .

الى وجـــدة

وجـــدة !..
ها قـد اصبحت لعيني روضـــة
تحمـــل في عينيهـــا الازهـــار
صارت وديانـــك تحمـــل فضـــة
تسكـب ... في اوراق الاشجـار
وتوزع حبـــل الالهـام على الاطيار
حسبك انك صرت كلؤلؤة في عقد الاشجـار
تسبـح كالحلم العاطر ما بين فسباتين الاقمار
وجـــدة !..
حبي لـك اكبـــر من كل الاشيـاء
واسمـك اقدس من كل الاسمـــاء
حفرتـه اصابـع كفي اليمنى فـوق الصخر
تركتـــه تمثـــالا يسخر من امـواج البحر
يا من علمـت القلب هوى وجـــده
افـلا علمتـــه تحطيم جـــدار الوحـــده

الرباط ـ المغرب — محمد علي الرباوي

ـ انني سابصق على قبوركم . لياخذكم الشيطان . هاه .. هاه .. اذهب عني وفتش عن حبيبتك .

ـ ماذا تقول .. هل تقول هذا ؟

النظرات مسامير تثقب الظلمـــة كنت امام الباب ، وعائـدة تحيطني بعينيها .

ـ اذهبوا عني. غدا ياخذني القبر ولا احد يهتم بي .

ـ كيف تقول انت هـــذا ؟ .. وامنا ؟

ـ اسمع انا لا يهمني احد .

ـ وامنا ..

تحركت يداه بسرعة واشعلـــت السيجارة . كان يهذر ويهذي .

ـ تعال .. عادل .

ـ ماذا تقول ايها الكلب .. هل.

عندما تحركت يده القى بالسيكارة وسحقها على البـــلاط . عندمـــا ارتعشت يدي كان هو قد اطبق علي وكان نور الشمعة يتهاوى من ورائي وفي المطبخ .

المصفـور كان يصرخ بضراوة . والنور من حولي يتهاوى، والنظرات سهام هائلة ، والعصفور يزقـــزق ويدي لا تزال تقبضها يده ..

ـ الا تعرفون .. الان ستعرفون انني رب هذا البيت ...

عندما رايته مرة ثانية كنت احاول ان احرر يدي منه وان ابتعـد الى الجدار . كان الوجه يبدو لي مـن خلال النور اسود لامعا ، وكنـــت استطيع من خلال النافذة ان ارى السماء والاشجار والاضواء بعيـدة ونور الشمعة يتهاوى من ورائي ..

ـ دعني وشاني .

عندما اقتربت عائدة ووضعـــت يدها على كتفي كان عـادل يحيطني بيده ونحن نخطو الى غرفتنا .

عندما اتكأت على حافة النافـذة ما كنت اسمع الا المطر يهذر ويثرثر وكان بوسعي ان اسمع العصفور ، وليثت متكئا حتى سمعت الصراخ .

كانت النار تئز وهي تلهب وفاء .

عندما رايت النار كانت الاقـــدام تركض بسرعة ويدا ابي تحتضنـــان وفاء تطفئان ثيابها المشتعلة . كانت اليدان في النار، مع النار التي لاتزال تئز وابي بيديه لا يزال، بيديه يطفىء الثياب المشتعلة وهما تحترقـــان . عندما انطفات النار سمعت العصفور والشمعة كانت ملقاة بجانب وفـاء على الارض. الصغيرة وفاء لم تعرف عندما عبث الهواء بالشعلة في الشمعة وكادت تنطفىء ، الا ان تخـــبىء الشمعة تحت ثوبها كيـــلا تنطفىء وعند ذلك اشتعلت هي والشمعـــة انطفات ..

اليدان كانتا قد قضتا على النار في الثياب ... عندما راينا وجه ابي ويديه المحترقتين كان جسده يرتمي على المقعد وهو يجهش بالبكاء :

ـ انا لم اقتل امكم يا اولادي !

صمير تنير



عيسى فتوح

مريانا مراش

شاعرة حلب

١٨٤٩ – ١٩١٩

بقلم عيسى فتوح

* * *

اذا ما ذكرنا وردة اليازجي ، ووردة الترك في لبنان ، وعائشة التيمورية في مصر ، ذكرنا مريانا مراش في سورية .. فهي شاعرة حلب الاولى بلا منازع ، قبل نصف قرن تقريبا ، واخت العالم الطبيب الشاعر فرنسيس مراش ، والتاجر الاديب عبد الله مراش ؛ اما ابوها فهو فتح الله مراش صاحب المكتبة المراشية الكبيرة التي سارت بذكرها الانباء .

ولدت مريانا في حلب عام ١٨٤٩ وفي بيت عني بقضايا الادب والفكر ، فمنذ ان فتحت عينيها على النور ، رأت نفسها محاطة بالكتب ؛ وعندما ايفعت بدأت تتتلمذ على اخيها فرنسيس الذي لقنها العربية ؛ اما الفرنسية فتلقتها في مدرسة راهبات مار يوسف .

كانت بيروت تعيش في ذهن الصبية الحسناء ، تحلم بها وتتمنى لو تنهي دراستها في معاهدها الاجنبية التي تعد بالعشرات ، وكيف لا يحلم بتلك المدينة كل اديب ، وهي التي كانت ولم تزل مصدر الاشعاع الفكري وملتقى التيارات الادبية في العالم . حتى لقبت بباريس الشرق .. وهكذا غادرت الطالبة الشاعرة مدينة الشهباء لتدخل المدرسة الانجيلية التي انشأها يوحنا وورتبات . وتنمي ثقافتها العربية والانجليزية ؛ لان ثقافة البيت لم تعد تنقع غليلها وتشبع نهمها ؛ وتروي ظماها الى العلم .

ويشاء القدر ان لا تمكث طويلا في بيروت ، فعادت من حيث ذهبت ، اسيفة مكدودة الذهن ؛ لتتأنف الدراسة على ابيها علامة عصره ، فاتقنت عليه قواعد الصرف واصول النحو والعروض .. ولم تقف عند ذلك بل طفقت تتعلم الموسيقا على نفسها حينا ؛ وتتلقى بعض الدروس في العزف على القانون والبيانو حينا اخر ، حتى اجادت ذلك كله . ومضت سنوات واذا بالفتاة تأنس من نفسها القدرة على النظم ، فتنظم بضع قصائد تبعث بها الى مجلة « الجنان » التي كان يصدرها المعلم بطرس البستاني – اول من دعا الى تعليم المرأة – فتقع من نفسه موقعا حسنا .. وهكذا راح اللغوي الكبير يشجعها من بعيد ويرعى موهبتها الشعرية ، وينشر لها مقالاتها النثرية التي تنتقد فيها عادات فتيات عصرها ؛ وتحضهن على التزين بالعلم والتحلي بالادب .. ومثل ذلك فعل خليل سركيس صاحب جريدة « لسان الحال » .

يقول الاستاذ المرحوم سامي الكيالي : « كانت مريانا مراش تنتقد التقعر في اساليب الكتاب وتدعو بنات جنسها الى معالجة الكتابة ؛ والى تحسين الانشاء ، وتنويع الموضوعات والتفنن فيها ، وقد سافرت الى اوروبا واطلعت على اخلاق الاوروبيين وعاداتهم عن كثب ، فاستفادت منهم كثيرا ، ثم عادت الى وطنها تبث بين بنات جنسها روح التمدن الحديث والاخلاق الصحيحة » .

ويقول في مكان اخر : « كانت مريانا لزمنها من الشاعرات المشهورات .. فهي اول اديبة سورية كتبت في الصحف ، ولا سيما بعد زيارتها لديار الغرب . وظهور امراة تكتب في الصحف وتنظم الشعر في تلك الفترة المظلمة حادث له دلالته ، وتاريخنا القريب يقول ان الذين يقرؤون ويكتبون من الرجال في تلك الفترة بالذات من الندرة بمكان لذلك كان ظهورها في خضم تلك الليالي المربدة المظلمة اشبه بالنجمة المضيئة في كبد السماء » .

ان ما خلد هذه الشاعرة في تاريخ ادب المراة الحديث ؛ ليس ديوان شعرها فحسب ، بل صالونها الادبي الذي يعتبر الوحيد من نوعه في الشرق ، قبل ان يكون صالون مي زيادة الذائع الشهرة في وادي النيل ، ولعل رحلتها الى أوروبا ؛ ومشاهدتها الكثير من امثاله عند السيدات الغربيات كمدام دي ستايل ، ومدام دي ثواي شجعتاها على اقامته ، رغم ضيق الحياة الاجتماعية في تلك الاونة المظلمة من العهد العثماني البغيض .

كان رواد صالونها نخبة من ادباء حلب يومذاك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كقسطاكي الحمصي . وجبرائيل الدلال ، وكامل العزي . ورزق الله حسون . وغيرهم ، يجيون فيه امرة واحدة . ويتطارحون الشعر ، كل واحد يلقي ما كتبه او نظمه في فترة غيابه عن الصالون : اما مريانا الشاعرة فكانت تلف الجميع باغمار الحب الدافيء : والانوثة العبقة : والمرح البريء ، وتوزع ببراعة فائقة ظرفها ورقة شمائلها ، واشراقات مبسمها العذب ، حتى يخرجوا وهم يلهجون بلطفها وحسن معشرها ، مسحورين بانغام قانونها العذبة.

يقول قسطاكي الحمصي احد رواد صالونها الدائمين : « كانت مريانا مليحة القد ، رقيقة الشمائل، عذبة المنطق ، فكهة الاخلاق ، طيبة العشرة ، تميل الى المزاح ، حسنة الجملة ، عصبية المزاج .. وكان منزلها مثابة الفضلاء وملتقى الظرفاء والنبهاء ، وكان لنا عندها منزلة ترتد عنها اعين الحساد كليلة ، لما كان بيننا وبين شقيقها عبد الله من المودة الجزيلة الطويلة ، فقيا لايام الشباب ، ومجالس الاداب والأحباب ، وماجلاتنا بالمحفوظ والبديه من الاشعار ، ورقصنا على العود والمزمار » .

عندما اسرف الاتراك في تضييق الخناق ، وبث الرعب والفوضى ، واشاعة الذعر في صفوف المواطنين وبخاصة حملة الاقلام منهم ، والمح في نفيهم او سجنهم ، او تقتيلهم ، اضطر هؤلاء الى مغادرة البلاد مرغمين ، تاركين في الوطن احبابا يذوبون شوقا اليهم ؛ وحنينا الى نشق عبيرهم ، ولا سيما من عمروا صالون مريانا بنكاتهم الطريفة .. لقد انفرط عقد هؤلاء الادباء ، واقفر الصالون الا من مريانا .. فر جبرائيل الدلال ، وهو في طليعة المغضوب عليهم ، الى باريس ، بلد الحرية والنور ، ومن هناك راح يراسل صديقه المقيم قسطاكي الحمصي ، ويصف له حياة الفرنسيين الطليقة من كل قيد ، وحريتهم التي يعتبرونها لا اثمن ولا اغلى ، وانه بالرغم من كرهه الغربة ، راض بها ما دامت تصون كرامته ، وتحمي شرفه من الاذى يقول :

واذا لم يكن هنا غير ان الحر فيها يعيش دون منازع
فهو يكفي حظا لقلبي وان سالت على غربتي غروب المدامع
لم تبق لي الارائل في الشهباء من مآرب ولا من مطامع

وعندما يذكر الشهباء ، لا بد ان يذكر مريانا ربة الفضل والفضائل كما يقول ؛ ومجالس الأدب اللطيفة في ردهتها الانيقة ، ويتحسر :

لا ولا اشتهي سواكم ولا ارغب فيها من بعد تلك الوقائع
غير قرب الفريدة اللطف ذات الصون والحسن والذكا والبدائع
ربة الفضل والفضائل (مريانا) التي ذكرها يسر المسامع
والتي زانها الكمال اذ زان سواها الحلي وسدل البراقع

شعرهـــا

من يتصفح ديوان مريانا الصغير الحجم (بنت فكر) يجد فيه قصائد بعضها في المدح وبعضها الاخر في الغزل والرثاء وشعر المناسبات والالبيات والاخوانيات . ذلك ان الشاعرة مدحت عددا من رجال السلك الديبلوماسي الذين كانوا يفدون على صالونها ، كما مدحت نفرا من رجال الحكم من عرب واتراك ؛ ولكن لا يقعن في الظن انها كانت تمدح بغية صلة من مال او بغية عطاء : بل عن اعجاب وتقدير : ولذلك نحس عندما نقرا هذا الشعر : بانه يفيض بالود ، وينضح بالاخلاص : ويبعد عن التزلف بعد السماء عن الارض .. فمن قولها تمدح السيد ايفانوف قنصل روسيا آنذاك :

بزغت شموس السعد بالشهباء ... فجلت لياليها عن الظلماء
فشمت غيوم الغيم عنها فانجلت ... كعروسة تزدي ببدر سماء
وغدت بها السكان تمرح بالهنا ... وتجر ذيل مودة وهناء

ومن قولها تهنيء جميل باشا بولاية حلب سنة ١٨٨١ :

افديه لا افدي سواه جميلا ... اولى المحب تعطفا وجميلا
بدر علت دول الجمال لحسنه ... فابى لذا تمثاله التمثيلا
فاذا تجلى فوق عرش كماله ... تجثو له زهر النجوم مثولا
واذا توارى في حجاب سنائه ... لا تبلغ الجوزا اليه وصولا

وقالت تهنيء احدى الجميلات من صديقاتها :

من كل غانية زهت بجمالها ... ودلالها كالروضة الغناء
ماست كغصن فوقه بدر له ... مراى الثريا في بديع بهاء
بحواجب مقرونة قد اوترت ... قوسا ترن بها سهام فتاني
ان كلمت ما بنبل لحاظها ... كان الشفاء له بعذب الماء
حتى ترد اليه ذاهب روحه ... فيعود معدودا من الاحياء

وقالت ايضا :

من كان من اهل الفضائل والنهى ... وغدا اسير شمائل وعيون
يهوى الجفاء من الحبيب فان جفا ... يزدد به كلفا وفرط شجون
يشكو له ويظل يشكو فعله ... ان التعفف شيمة المفتون

اما وثاؤها فيكاد ينحصر في اهلها واقربائها ، وكلهم عزيز عليها ، اثير عندها .. رثت اخاها فرنسيس المتوفي سنة ١٨٧٣ رثاء ينم عن عاطفة جياشة ولا عاطفة الخنساء نحو اخيها صخر وما دام تجانس المصاب قد جمع بينهما ـ كلتاهما فقدت شابا كريما عليما شهما ـ فلا غرو ان تلتقيا في اكثر من نقطة ، وتتقابلا في اكثر من منعطف ؛ ويقع الخاطر على الخاطر ، كما يقع الحافر على الحافر . . لقد لجأت مريانا الى تعظيم اخيها واظهار فضله وعلمه وادبه، والاشادة بمناقبه وشهرته الواسعة ، وتهويل فاجعتها به. حتى انها اشركت الورق والازهار والرياض ؛ ومظاهر الطبيعة كلها من جو وماء ، وهي لا تخفي تأثرها بالخنساء بل تصرح به تصريحا فتقول :

ما لي ارى اعين الازهار قد ذبلت ... ومال غصن صباها من ذرى الشجر
ما لي ارى الروض مكمودا وفي كرب ... والماء في انة والجو في كدر
ما لي ارى الورق تنعي وهي نادبة ... فراق خل وتشكو لوعة الغير
نعم لقد سابق الاحياء اجمعها ... ونام ذا اليوم مطروحا على العفر
من فقه الناس في علم وفي ادب ... ونور الكل في شمس من الفكر
ابدى من الفضل ضوءا لا خبو له ... والشمس شمس وان غابت عن النظر
واته بحر علم لا قرار له ... وقد حوى كل منظوم من الدرر
هذا الذي جابت الاقطار شهرته ... قد صار مطرحا في اضيق الحفر
خنساء صخر بكته حينما نظرت ... اليه ملقى بلا سمع ولا بصر

اقلام اهل النهي ترثيه وا اسفي | هل عاد من عودة يا مفرد البشر
فغاب شخصك هذا اليوم عن نظري | جادت عيوني بدمع سال كالمطر
فيا لدهر خؤون لا زمام له | قد راشهما اصاب الفضل بالقدر
فحزن يعقوب لا يكفي لتدبك يا | تدبا نفرد بالاجيال والعصر
ويلاه من حزن قلب نال غايته | قد واصل القلب في غم مدى الدهر
في لجة الحزن نفسي فاق مكنها | من ذا يلي فؤادي قل مصطبري

ما لي اطنب في وصف عاطفتها وعاطفتها كعواطف كل امراة ، وهل تحتاج عواطف المراة الى دفع او اثارة او تحريك لتتفجر ؟ افلا يكفي ان اقول انها عاطفة اخت وكفى .

ولمريانا هذان البيتان في رثاء صبية من نسباتها توفيت محترقة بالبترول :

عفاقة نفس مع بديع محاسن | ورقة اعطاف فلله كم تسبي
لقد جمعت ضدين في حد ذاتها | فلي اللحظ ايجاب بشر الى السلب

اما غزلها فهو الوجه الاخر المناقض لرثائها ؛ لان كلا الفنين يقوم على العاطفة الرقيقة والوجدان الحي المنصهر .. انه صدى لحبها العميق ، وتاثراتها الداخلية ، فلنسمعها تقول :

بذكر المعاني هام قلبي صبابة | فيا نور عيني هل اكون على القرب
عسى الشمس في مرآك للعين تجلي | فتنقل للابصار ما حل بالقلب

ولنسمعها تشطر احدى قصائد الغزل الشهيرة — والتشطير كان « موضة » ذلك العصر وما قبله — فتصف افاعيل الغرام بالمغرمين ، وثبات بعضهم على الحب لا يروم لسنته تبديلا :

« للعاشقين باحكام الغرام رضا » | يهون صرعى به لم يانفوا المرضا
لا يسمعون لعذل العاذلين لهم | « فلا تكن يا فتى للجهل معترضا »
« روحي الفداء لاحبابي وان نقضوا » | ذاك الذمام وقد ظنوا الهوى عرضا
جاروا وما عدلوا في الحب اذ تركوا | « عهد الوفي الذي للعهد ما نقضا »
« فقد استمع نصرة الصب الذي قتلوا » | وكان يزعم ان الموت قد فرضا
اصابه سهم لحظ لم يبال به | « فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا »
« راى فحب غرام الوصل فامتنعوا » | فما ابتغى بدلا منهم ولا عوضا
تقطع القلب منه بانتظار عسى | « فسام صبرا فاعيا نيله فقضى »

لم يكن في وسع مريانا ان تكون غير ما كانت ، لان طبيعة الفترة التي عاشت فيها فرضت عليها نوعا من النمطية ، وجعلتها تنحو منحى من تقدموها من الشعراء ، وتسير على خطاهم التي رسموها ، دون ان تحيد قيد شعرة .. تكرر ذاتها ، ليس لان الجراة كانت تعوزها فحسب ، بل لان الجمود السياسي فرض عليها شيئا من الجمود الفكري ..

لقد اقبل الشعراء في زمنها على شعر التصوف والتعبد ، نتيجة اشتداد الحروب وتفاقم المحن ؛ لعل الله يكشف غمائم الكروب .. فزع الناس الى ربهم يعتصمون بحبله ، يمدحونه حينا ، ويستشفعون رسله حينا اخر بقصائد اطلق عليها اسم « البديعيات » لعله يفرج الازمات ويحل وثاق الشعب المغلوب على امره ، ولا غرو فالله كان ولم يزل ملجأ كل ملهوف ، وملاذ كل مستضعف : ومثاب كل حائر مضطرب .. ولو رجعنا الى دواوين شعراء عصور الانحطاط لرأيناها حافلة بالقصائد الدعائية والابتهالية .. حتى لتوشك ان تكون تسابيح وصلوات ترتل في الكنائس والمساجد ، علما بان معظم من كانوا ينظمونها ليسوا من رجال الدين قالت مريانا في ذكر خالق السماوات وبارىء الكائنات :

الله اكبر انت الحي والصمد | مقصود كل البرايا واحد احد
لا ينعم المرء في الدنيا بلا امل | فالوعد منك وانت العون والمدد
ان قل رزق فانت الفضل اوسعه | او حل بؤس فانت الرفق والعضد
وكل من رام شيئا من سواك غوى | ولا يقر له حال ولا سند
اذا مددت يدا في يوم معركة | فتخمد النار والابطال ترتعد
يا مبدع الكون يا مهدي الانام الى | صراط حقك ان ضلوا فيرتشدوا
يا من يجيب نداء المستغيث به | يا من عليه جميع الناس تعتمد

وقبل ان انفض يدي من هذه الدراسة ، لا بد ان اشير الى ضرب اخير من شعرها ، كان بمثابة حجر الغلق في مدماك البناء الشعري ، او هو الحلقة الذهبية التي لا تتم دورة النظم الا بها ؛ تلكم هي الحكمة : مسرح آراء الشعراء في الحياة ، ومنطلق نظراتهم الفلسفية .. انها القالب الذي يصب الشعراء فيه خلاصة تجاربهم ؛ او الاناء الذي يستوعب اختباراتهم ، تقول الشاعرة :

شرف الفتى عقل له يسمو على | كل الورى فينال غايات التى
وكذاك حسن الخلق فخر مسود | متسربل بالعطف نعم المقتنى
والمرء ان شهدت له افعاله | بالفضل والاداب يكتسب الثنا
ما كل من طلب الكرامة نالها | من رام صيد الظبي حل به العنا
ذو المال يذهب ذكره مع ماله | لكن ذكر الفاضلين بلا فنا

بقي ان اشير الى هذه الابيات الاربعة من اخوانياتها تطالب بها احد الفضلاء بانجاز وعد وقد ضمنتها المثل المعروف « وعد الحر دين » :

يا ذا الوفاء والدين انت وليه | وعلاء فضلك دونه الجوزاء
هل تذكر القول الذي سمحت به الا | نفس النفيسة واليد البيضاء
فالوعد عند الحر دين ثابت | وبوعد مثلك يحسن الايفاء
انجز به واقبل ثناي ودم على | طول المدى تخضع لك البلغاء

لم يصف الدهر لمريانا مراش كل الصفاء ؛ فبعد ان فقدت اباها فرنيس — الذي كف بصره — واباها وامنا شعرت بانها وحيدة ؛ ولذلك آثرت الزواج فاختارت حبيب الغضبان الحلبي ، الا انها لم ترزق ولدا .

اصطلحت عليها الادواء في شيخوختها حتى جردتها من كل اثر من آثار الفتنة والجمال ، وصبغت وجهها الزاهي بصفرة الفناء ؛ لكنها ظلت تتابى على شيخوختها اليانعة بلمسات ناعمة واهية من اصابيع بيانها الساحر ؛ فتبعث في نفسها الامل بالبقاء قليلا ، الى ان اطفا الموت عينيها في حلب عام ١٩١٩ تاركة صدى اديبا يتردد على مر الزمان .

دمشق — عيسى فتوح

فدوى طوقان

شاعرة وفية لانوثتها

بقلم محمود الشهابي

* * *

يطالب القارىء ديوان احد الشعراء فيلمس سمة خاصة تموج بين ثنايا الابيات : تزدهر كلما كان موضوع القصيدة يساعد على ذلك ، وتتوارى احيانا لعدم تناسب الغرض ؛ ولا يغشى من شانها كونها تارة ترتفع واخرى تنخفض ، آونة تتضح واخرى تتوارى ، وقد نجد بعض الصفات الثانوية لدى الشاعر ـ غير ان مجموع شعره يتلون بهذه الصبغة دون سواها ، حتى لا يرى القارىء باسا من ان يجعلها صفة مميزة له ، ودليلا على شخصيته . ولقد تالقت امام ناظري وانا اتصفح دواوين الشاعرة «فدوى طوقان » ظاهرة الانوثة : فالشاعرة ـ كما ارى ـ محافظة على طبيعتها تمام المحافظة ، معجبة بانوثتها غاية الاعجاب فهي لا تتجاوز حدود جنسها الى تكلف مظاهر الخشونة، تفصح اشعارها عن هذا ، احيانا بوعيها وارادتها ، وآونة تنساق الى ذلك بفطرتها وطبيعتها ، فهي تنظر الى مكانة نفسها تجاه الرجل نظرة الانثى السوية حيث تعتبر ذاتها جوهرة غالية يجب ان تصان من العبث والابتذال ، وهي غير قادرة على ذلك وحدها ، بل لا بد لها من قوة الرجل الذي يسهر على حفظها وصونها ويجعلها في منعة من الاخرين . فتخاطب فتاها بقولها :

وانا كنزك الذي تحتويه
بيدي باخل وحرص ضنين
وتواريه عن فضول العيون

ويتلالأ الصدق في صوت الشاعرة حينما تصرح بخيالاتها الانثوية دون حرج، فاذا بها تترك العنان لسجيتها تنطلق ضمن نطاق احاسيس حواء ، فعند سماعها نداء المحبوب تمثل لها تلك الاحلام الوردية ؛ وما في الشباب من فتوة وغواية :

يا حبيبي كلما ناديتني ... هاتفا عبر المسافات : تعالي
عبقت في خاطري يا جنتي ... جنة وانهل ضوء من خيالي
وبدا لي عالم ريان وردي الظلال ... من شباب وفتون وغوى
اسكرت آفاقه خمر الهوى ... وتعرت فيه اطياف الجمال

ومن طبيعة المراة السوية انها لا تبدا الرجل بالنداء؛ وشاعرتنا تترك الرجل يخطو نحوها مناديا اياها، ثم هي لا تتردد في الاجابة معلنة استعدادها لتتبع خطوه :

نادني من اخر الدنيا البي ... كل درب لك يفضي فهو دربي
يا حبيبي انت نحيا لتنادي ... يا حبيبي انا احيا لالبي
صوت حبي انت حبي

انت دنيا ملء قلبي ... كلما ناديتني جئت اليك
بكنوزي كلها ملك يديك ... بينابيعي بانهاري بخصبي

ولا تقتصر ظاهرة الانوثة لدى الشاعرة « فدوى طوقان » على القصائد الوجدانية فحسب اذ نجد تلك الظاهرة في موضوعات متعددة ؛ بل انها تلوح في مناسبات ابعد ما تكون عن الاهواء وبامكاننا ان نلمس ذلك في قصيدة وطنية بها عنصر المأساة ، فقصيدتها « نداء الارض » التي تحكي فيها شوق لاجيء فلسطيني الى ارضه التي طرد منها ـ نجدها تمثل اوفى الوان العطاء نابعا من المراة ،فمن صدرها ينمو الطفل بالغذاء ؛ ومن قلبها يستمد الرجل سعادته وهناءه :

تمثل ارضا نمته وغذته ... من صدرها الثر شيحا وطفلا
وكم نبضت تحت كفيه قلبا ... سخيا وفاضت عطاء وبذلا

وحينما التقى اللاجيء بارضه جعلت الشاعرة الارض فياضة الانوثة، تشع على الرجل الحنان ، تغمره بالدفء، تلفه بالعاطفة :

واهوى على ارضه في انفعال يشم ثراها
يعانق اشجارها ويضم تلالي حصاها
ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خدا وفم
والقى على حضنها كل ثقل سنين الالم

وليس ببعيد ان يتصور الشعراء الرجال الارض كالمراة ، غير اني ارى ان التصور الرجولي الكامل لامومة الارض يجعل موقف الشاعر حيالها ايجابيا غير سلبي ؛ فلا يقتصر على زفرات الشوق والحنين ، ولا يقف عند اجترار الذكريات واستعذاب الالم .

وذلك ما لا نجده عند « فدوى طوقان » فتصورها الانثوي يتالق حينما جعلت لقاء اللاجيء بارضه بعد تلك السنين مشهدا غراميا يهز مشاعر المحبين ، ويجري مدامع القلوب المشبوبة بالوجد ، في خيال رومانتيكي مفجع ؛ فهو يقف بالنهاية عند سعادة العاشق لموته على صدر معشوقته ، وترحيبه بهذه النهاية :

وهزته انفاسها وهي ترعش رعشة حب
واصغي الى قلبها وهو يهمس همسة عتب
رجعت الي ؟ رجعت اليك وهذي يدي
سابقى هنا . ساموت هنا . هيئي مرقدي

ولقد كان من الممكن ان تختم المأساة هذه الخاتمة مع شعور اخر ، فبدلا من الاستسلام والاسترخاء يكون الصبر والعزيمة والجلد : ولكنها روح الشاعرة وليست روح الشاعر . لذلك فبعد ان قتل البطل كان المشهد باهت الظلال ، خاليا من الحيوية ؛ مرضيا للنفوس التي تميل الى الاستسلام ؛ وتتكلف الرضى به :

بدا الفجر مرتعشا بالندى ... يذرؤه في الربى والسفوح
ومر بطيء الخطا فوق ارض ... مضمخة بنجيع نفوح
تلف ذراعين مشتاقتين ... على جسد هامد مستريح

الطفل

*

الهي لا تسمح بان يظما الشـــذا ... وتذوي على ملد الفصون البراعم
وصن كل طفل يا كريم وطفلة ... ومن هو للاطفال الاك عـــاصم
وان شئت كفكف دمعة اليتم ما بكى ... يتيم وما آست يتيما حمائم
وبارك كريمات الحسان حوانيا ... على الطفل ترعى حقه وتلازم
اذا الام مدت للسموات كفها ... همى الخير مدرارا وفاضت مراحم
الهي لا تسمح بحرمان ناشىء ... من العلم يا من انت بالامر عالم
امرت فكان الوحي للناس هدايا ... وما الهدى الا ان تسود المكارم

وديع ديب

واعتقد ان رؤية « فدوى طوقان » ذاتها بوضوح — اعانتها على التصور الصحيح لهمة الرجال وفهمها لخفايا نفسيتها بدقة ، اعطاها القدرة على استكشاف اغوار الرجولة ، ولهذا حالفها التوفيق في تعبيرها عن عزيمة الرجل ، فحينما اجرت محاورتها مع فتاها شعراً قالت على لسانه :

سابقى الكافح صلب الجناح ... بوجه الحياة جريء القدم
وان حطمتني الحياة فحبي ... اني صمدت فلم انهزم

ثم تثب فجأة خلال هذا الحوار الجدي لتسأله عن ماضيه الذي يهم كل امراة — اي عمن التقي بهن من بنات حواء فيجيبها :

عرفت النساء وليمة لهو ... اعدت لاشباع جوع الجسد

ثم تزدهي الشاعرة بانها نوع نادر الوجود يصعب على فتاها ان يجد بديلا له

الى ان طلعت على الافق روحا ... غريبا كغربته الحائرة
فكنت له الزاد والخمر والنور ... والواحة الخصبة الباهرة

وتلح عليها طبيعة الانثى فتلفتنا الى احد مواطن الجمال فيها وهو احمرار شفتيها وتبرزه بلباقة حواء حينما تخفي مواطن الفتنة لتجعلها افتن ، فتترك فتاها ينبئنا بذلك ، اذ يقول :

وفي شفتيك صبيت حنيني ... ورويت لونهما من دمي

على ان فدوى طوقان نفسها ترى انها انطلقت في التعبير عن مشاعر بنات جنسها وانها تقف موقف الريادة في الافصاح عن احاسيسهن :

كم فتاة رات بشعري التفافا ... ت رؤاها الحبيبة المكتومة
كان شعري مرآة كل فتاة ... واد الظلم روحها المحرومة

ولقد تألقت انوثة الشاعرة في روح خصبة ريانة حينما التقى بها شاعر ايطالي واطرى جمالها فطربت لهذا ايما اطراء وكادنا نلمحها تتمايل عجبا في قولها :

قلت في عينيك عمق ... انت حلوة
قلتها في رغبة مهموسة الجرس ... فما كنا بخلوة
وبعينيك نداء وبأعماقي نشوة ... اي نشوة
انا انثى فاغتفر للقلب زهوه
كلما دغدغه همسك : ... في عينيك عمق انت حلوة

وهي تدفع الشاعر عنها بذكر حبيبها العربي الذي ينتظرها ؛ وذلك عندها ليس في اهمية الافصاح عن نشوتها باطراء الجمال فكان التعبير عنه في مرتبة اقل :

انا يا شاعر لي في وطني ... وطني الغالي حبيب ينتظر
انه ابن بلادي لن اضيع قلبه ... انه ابن بلادي لن ابيع حبه

كما ان الموسيقى الشعرية غير متناسقة في البيتين بل ان الشطر الاول من البيت الثاني خال من الوزن العروضي المعهود .

ولقد عادت الشاعرة في نهاية القصيدة الى ترديد القول بانها رائعة الجمال فاتنة الصورة وفي هذا المقطع بتألق المرح والازدهاء في نغمة موسيقية حالمة فيرق التعبير وتأتي الدفقة الشعورية على قدر المعنى في تناسق بديع مع الوزن والقافية حيث تصدح انوثتها :

غير اني تعتري قلبي ... نشوة
حينما تطفو ظلال الحب في عينيك ... او تومض دعوة
انا انثى فاغتفر للقلب زهوه
كلما دغدغه همسك : ... في عينيك عمق . انت حلوة

انجلترا — جامعة اكستر

محمود الشهابي

شاعر عراقي منسي

محمد امين بك آل ياسين المفتي

بقلم عماد عبد السلام رؤوف

*

شهدت الموصل ، والعراق بوجه عام ، منذ مطلع القرن الثامن عشر ، بوادر حركة ثقافية ذات طابع ادبي ، شملت اغلب مدنه الكبيرة ، مثل بغداد ، والنجف ، والحلة ، والبصرة ، وغيرها .

وكان لاستقرار الحكم في ايدي اسر محلية من ابناء البلاد من جهة ، وسطحية الحكم العثماني من جهة اخرى ، دورا رئيسيا في ابراز الشخصيات المحلية للولايات والمدن العراقية . فقد شجع الحكام المحليون الجدد ، امثال المماليك في بغداد والبصرة ، والجليليين في الموصل ، وغيرهم ، قيام تلك الحركة ، وامدوها بما تحتاج اليه من رعاية واهتمام ، فبرزت الى الوجود طائفة كبيرة من الشعراء والادباء والكتاب ، ممن ازدانت بهم الحياة الفكرية آنذاك .

ومن بين شعراء العراق في هذا العهد ، شاعر مجيد ، شاء سوء الحظ ان يبقى في طي النسيان حتى يومنا هذا ، فلم يعرف فضله وادبه ـ فيما نعلم ـ الا القليل ، مع ان في شعره من جزالة اللفظ ، وتنوع الاساليب ، والفائدة التاريخية ، ما يستحق كل دراسة واهتمام .

ذلكم هو الاديب ، الطبيب ، الشاعر الناثر : محمد امين بك بن ابراهيم بك بن يونس افندي بن ياسين افندي المفتي ، من اسرة آل المفتي الشهيرة في الموصل (١) ، وكانت هذه الاسرة قد نزحت من مدينة سامراء في منتصف القرن العاشر للهجرة (٢) ، واشتهر من رجالها محمود افندي رئيس العلماء ، وولده ياسين افندي ، الذي عرف بالمفتي لتوليه منصب الافتاء حينا من الدهر ، وشيد عددا من المنشآت العامة النافعة ، كمدرسته التي عرفت باسمه ، والخان الذي عمره للتجار (٣) . كما عرف من بعده ، ابنه يونس بك ، وهو اول من نال لقب (بك) من افراد هذه الاسرة .

ومما يبعث على الاسف ، ان معلوماتنا عن حياة هذا الشاعر جاءت في غاية القلة والاقتضاب ، فلم يذكر احد تاريخ مولده ، واغلب الظن انه ولد في حدود عام ١١٤٠هـ ـ ١٧٢٧م بدلالة ان صديقه ومعاصره امين العمري (المتوفي سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٨م) ذكر في ترجمته القصيرة التي اوردها في كتابه (منهل الاولياء) ، انه « قد جاوز الان ستين سنة » (٤) ، واذا ما علمنا ان العمري الف كتابه هذا في حدود سنة ١٢٠١ هـ ـ ١٧٨٦ م ، يكون مولد الشاعر في التاريخ الذي حددناه ، او قريب منه .

نشاته ودراسته

في تلك البيئة العلمية العالية ، نشا شاعرنا محمد امين ، فقرأ العلوم على عدد من علماء الموصل ، والاكراد ، وغيرهم .

وكان لا بد له ، وهو لم يزل شابا يسعى في طلب العلم ، ان يرحل الى بغداد ، ينهل من علمائها ، ويأخذ عن ابنائها فنون الادب ، فكان يشد اليها رحاله بين حين واخر ، ولا شك في ان لوجود خاله عبد الله بن فخر الدين ، ببغداد آنذاك ، اثرا في تردد الشاعر على هذه المدينة ، فقد مدحه بقصائد عديدة ، واثنى على سجاياه وحسن ضيافته وكرمه .

وممن اخذ عنهم ببغداد ، السادة الحيدرية ، الذين اطبقت شهرتهم في العلم والادب مدن العراق في ذلك العهد وبرز منهم في عصره العلامة صبغة الله الحيدري ، وولداه عيسى وحيدر المفتي (٥) .

اقامته

وكان يفضل ، اثناء اقامته في الموصل ان يقضي جل وقته في قرية بعشيقا (٦) القريبة ، حيث كانت له مزارع هناك ، وقصر ريفي بناه في تلك النواحي ، يختلف اليه بين حين واخر ، ويستقبل فيه ضيوفه وزواره من الموصليين وغيرهم ، وينتقل اليه اسرته خلال فصل الربيع ، حيث تكون القرية « من متنزهات الموصل الفائقة ، ومراتعها الانيقة » ، وهي المشهورة بكثرة اشجار الزيتون والمشمش والكروم (٧) وبمناظرها الممتعة الخلابة . ويذكر المؤرخ الاديب امين العمري انه حل لديه ضيفا مرتين « والدنيا

---

(١) ذكر محمد امين بك في جميع آثاره انه حسيني النسب ، ولم نعثر في المصادر الاخرى ، التي ترجمت له او لاعلام اسرته ، ما يشير الى ذلك او ينفيه ، وتعرف هذه الاسرة اليوم بآل (شريف بك) .

(٢) شجرة نسب آل ياسين المفتي (مخطوط) .

(٣) منهل الاولياء لامين العمري ج١ ص ٢٢٢ ، والدر المكنون لياسين العمري (مخطوط) ، وعصام الدين العمري : الروض النفر (مخطوط) ، وعن المدرسة انظر : مدارس الموصل في العهد العثماني لسعيد الديوجي ، مجلة سومر العراقية ج١و٢ ـ ١٩٦٢ ـ ص ٧٩ـ٨٠

(٤) منهل الاولياء ج١ ص ٢٤٨ .

(٥) ياسين العمري : غاية المرام ص ٢٦٢ وانظر ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١٢١ .

(٦) قرية تبعد عن الموصل مسافة ١٦ ميلا ، وردت اخبارها في القرن الثالث الهجري (٩م) واشاد ياقوت (معجم البلدان ١ـ٧٢) بجمالها ومائها وارحائها ، وفي العهد العثماني اصبحت بعشيقا اقطاعا (تيمارا) يتبعه ٢٠٠ رجل ، واهلها خليط من مسلمين ونصارى ويزيدية .

(٧) ياسين العمري : منية الادباء ص ١٢٤ . وتشتهر بعشيقا اليوم بالزيتون والبصل .

اذ ذاك مقبلة عليه . واوقاته في غاية الصفو ، وكان ينقل عياله اليها في فصل الربيع : ويقضي عامة اوقاته بالسرور والنشاط » (٨) .

ونحن واجدون في ديوانه المخطوط نماذج عديدة لما قاله في التغني بقصره ، وما يحيط به من مروج ، وجداول وبساتين ، وما كتبه على اوانيه وابوابه واحواضه من ابيات ومقطوعات ، من ذلك ما كتبه على غرفة جديدة عمرها سنة ١١٨١ هـ ١٧٦٧ م :

بوركت يا غرفة باليمن قد بنيت ... وبالسرور وبالافراح للناس
حيي وعزي وسري الوافدين لك ... وانزليهم محلا اصله راسي
وان ارادوا رحيلا بعد راحتهم ... فودعيهم بترحيب وايناس

ويصف مباهج قصره ، فيقول :

طوبى لك يا غرفة ... فاقت بزوقها الجنان
فسر قلب نزيلها ... وتحله وسط الجنان
اشجارها كخرالبد ... غيد مزينة حسان
اوراقها كزبرجد ... ولمارها مثل الجمان
اطيارها وهزارها ... دوما تغرد كالقيان
والحوض مثل بحيرة ... اضحى معينا للعيان
حمامها كحمامة ... بيضاء تشدو باللسان
بالله هلموا واسبحوا ... واستفيدوا فرص الزمان
وتنعموا وترفهوا ... فى غفلة الدهر الخوان

هجرته الى بغداد

ولم تشأ الاحداث ان يهنأ شاعرنا في قصره ، بعيدا عن المتاعب والنوائب ، فقد ادلهمت الخطوب في الموصل سنة ١١٨٤ اثر نشوب النزاع بين زعمائها ، وانقسام فرق الجيش (الينكجرية) الى فريقين متخاصمين ، اتخذوا من احياء المدينة ميدانا لحل خلافاتهم بالقوة (٩). فكتب يشكو الى خاله عبد الله بن فخر الدين ، كاتب ديوان الانشاء ببغداد ، ذلك الوضع ، قائلا : « انا لما كنا في عيش هني ، وفي حال سني ، قد غض الدهر طرفه عنا ، ولسان حال الزمان يقول اطلب ما تتمنى ، والافراح لدينا متطارحة والاتراح عنا متباعدة متنازحة . اذ دهمتنا المزعجة الداهية ، وهي الفتنة العظيمة ، والمصيبة الوخيمة والبلية الاليمة الذميمة ، ولقد عمت المدينة والقرى ، وناهيك ما جرى : ان المسلمين استحلوا دماء اخوانهم ، واباحوا قتل اصحابهم واعوانهم ، وهاجت الغوغاء ، وهوت الاهواء ، وتحكم السفهاء .. وارعدت السماء باصوات المدافع .. واهتزت الارض ومارت ، واستدارت رحى الحرب ودارت .. وهاجت الفقراء ، وماجت الضعفاء ، وسدت الطرق بالجص والاحجار ، وانقطعت السبل من جميع الاقطار والامصار .. واستمرت الاحوال على هذا المنوال خمسة وثلاثين يوما ، والناس يعومون في بحر الفتن عوما » .

ويبدو ان الفتنة امتدت لتشمل قريته الجميلة بعشيقا . والظاهر ان حوادث تخريب جرت في املاكه . ادت الى احداث دمار في قصره القائم هناك . ففي رسالة بعث بها الى خاله آنف الذكر ، نراه يعتذر عن تاخره في الكتابة بسبب انشغاله « بمداواة المرضى من الفقراء والاغنياء ، وتجديد الدور ، وتشييد القصور ، وتعمير المدثور ، والبيت المعمور ، في قرية بعشيقا ، ذات القامة الرشيقة ، والرياض الانيقة ، والخياض الدقيقة .. ومنها امور لا تذكر لسوء المخبر ، وقبح المذكر » . وكتب الى احد اخوانه يشكو له فيها ما دهاه من الاحداث في الموصل ، وتبدل اهلها عليه « فلا ترثي لي اذا بكيت ، ولا ترق لي اذا ابتليت ، لا ترحمني اذا اصطليت .. لا تقبل لي اذا اتيت ، ولا تصفو لي اذا صفيت » ونجده يتمنى السكنى ببغداد ، اذ يقول : « يا ليتني كنت مدى العمر معك ، في بلدتك مقيما ، فافوز فوزا عظيما ؛ فانعم بها من بلدة مانوسة ، ومن ساحة محروسة .. »

والظاهر ان اقامته في الموصل لم تطل بعد تلك الاحداث ، فانه رحل الى بغداد في العام نفسه ، سنة ١١٨٤ هـ ـ ١٧٧٠ م ، حيث اقام فيها عدة سنين (١٠)، متمتعا بحظوة خاصة لدى الوالي الوزير عمر باشا (١١) ثم انه تزوج ببنت من بنات بعض بيوتاتها ، وولد له عدة ابناء . على ان طول اقامته ، واستقراره ؛ لم ينسه مدينته الموصل ، ولم يشغله عن معارفه واصدقائه فيها ، ففي ديوانه طائفة من الرسائل والاشعار مما كان قد بعثه لاحبائه هناك . وشاء حظه ان يتوفى اثناء مكوثه في بغداد بعض اقاربه ، منهم خاله عبد الله بن فخر الدين واخوه السيد حسن افندي الزكي ، عام ١١٨٦ هـ ، وخاله السيد يحيي افندي المفتي في السنة التالية .

ولاسباب لا نعلم طبيعتها ، رحل شاعرنا الى القسطنطينية عام ١١٩٣ هـ ـ ١٧٧٩ تاركا اهله واصدقائه وهو يقول في قصيدة له ؛ معارضا البوشنجي الخراساني (١٢) :

كسب المعالي وحب الاهل والجار ... ضدان ما اجتمعا للمرء فى الدار
ان كنت ترجو المعالي فالتزم نصبا ... او فارضبالذل واسكن بين اشرار
لا بد للمرء من جاه ينال به ... فخرا وعزا ليسمو بين اخيار
فالجاه ينفع فى الدارين صاحبه ... وفى الممات ويوفيه من النار

وتأخذ القسطنطينية بلبه : فيصفها بأرجوزة لطيفة مطولة ، ذكر فيها ما رآه من القصور والقلاع والمارستانات ودور السبل والمساجد والحدائق والبساتين والجداول ، على ان اقامته فيها لم تطل ، اذ سرعان ما غادرها متوجها

---

(٨) منهل الاولياء ج١ ص ١٤٨ .

(٩) ياسين العمري : الاثار الجلية فى الحوادث الارضية (مخطوط)

(١٠) يذكر ياسين العمري انه اقام فيها سنتين (غاية المرام ٢٦١) والظاهر ان اقامته امتدت اكثر من ذلك ، فانه تزوج سنة ١١٨٥هـ ، وولد له غير ولد ، وهو ببغداد .

(١١) ديوان حسين العشاري ، الورقة ١١٥ (مخطوط) .

(١٢) محمد بن ابراهيم البوشنجي العبدي ، من ائمة اللغة وكلام العرب ـ توفى سنة ٢٩١ هـ .

ـ هذه المرة ـ الى الموصل .

استقراره في بعشيقا

لا ندري في ما اذا كانت رحلته هذه حققت اهدافها او لا . وعلى اية حال فاننا نجده يعود الى قريته بعشيقا سنة ١١٩٥ هـ ـ ١٧٨١ م : ليجدد ما اهمل في اثناء غيبته عنها ؛ وليعاود سيرته السابقة فيها ، فاضاف بعض المقاصير والغرف الى قصره هناك ووصف بعض ما شيده بقصيدة : جاء فيها :

ومقصورة مقصورة لاولي العلا ... بقصر مشيد شيدته يد الرشد
احاطت به الاشجار من كل جانب ... فاضحى كبيت الحمد والعز والمجد

ويبدو ان فترة اقامته الاخيرة في بعشيقا كانت اهنا فترات حياته واحلاها ، فقد نظم الشعر ، وانشا الرسائل ، وكتب المقامات ، والف الكتب ، وعانى اغلب انواع الفريض . وكان يستقبل ضيوفه من ادباء الموصل وشعرائها بالقصائد الرنانة ، ويودعهم بها . كما كان يرسل اشعاره الى الولاة والحكام يهنئهم او يعزيهم ، لا طلبا لصلة : او طمعا بمال ، فان وضعه المعاشي كان يغنيه عن مثل ذلك ؛ وانما مشاركة لهم في افراحهم واتراحهم ، وحبا بالشعر لذاته . وهو ما صرح به في غير موضع من ديوانه (١٢) . ومما يدلك على ذلك انه لم يكن يهتم بتدوين شعره ، وجمع قصائده ؛ وتاليف الدواوين ، كأغلب شعراء زمانه ؛ وانما كان ينظم الشعر « لمداعبة بعض الاخوان ، ولمعارضة بعض الاقران » ويقول « ولم ازل على هذا الحال : الى ان بلغت سن الاكتهال ، كلما نظمت شيئا تركته في زاوية النسيان ، وفي هاوية الهوان ، الى ان صار شيئا خفيا ، وكاد ان يكون نسيا منسيا » . ويبدو ان استقرار حياته ؛ وتوفر الوقت الكافي له في سكنه في ريف الموصل الجميل ، هيأ له فرصة جمع ما نظم ونثر في ديوان مستقل ، ورغم ان ديوانه جاء تقليديا في ابوابه ومطالبه ، اذ نظم في البديعيات ، والمعشرات ، وفي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض الانبياء والصحابة ومدح الوزراء والاقارب والاخوان ، ونظم الحماسات والمضمنات ، والاراجيز والمواليا ، فان لنا ان نلحظ في شعره رقة بادية ، وعزة بالنفس ظاهرة ، وميلا الى وصف الجمال والتغني به ، وهي في الواقع ؛ مظاهر شخصيته وانعكاس لاخلاقه وسجاياه . وكثيرا ما رق نسيبه . واسترسل في مقدماته الغزلية ، حتى تفوق من حيث البلاغة ورقة الاحساس ؛ سائر القصائد ، على تعدد مطالبها ، وتنوع اغراضها . فمما نقتطفه من قصيدة يمدح فيها الامام عليا رضي الله عنه؛ قوله مضمنا ابيات الشهاب الموسوي الحويزي :

مات دلالا كالقضيب الاسمر ... ودعت فؤادي لم يزل يتحسر (١٢م)
وبدت تذب عن الرضاب عيونها ... فحمت علينا الحور ورد الكوثر
يا راعي العقب الصحيح اذا رنت ... اياك ضربة جفنها المتكسر
نفسي الفداء لظبية الوادي التي ... يبني الكناس لها بغاب القور
كشفت لنا عن صحن صفحة خالها ... كالفور فجر شق ليل العنبر

وقال في قصيدة له يمدح بها خاله يحيي افندي المفتي ؛ مضمنا بعض ابيات الشهاب المذكور :

سل ياسم البرق صبحا عن تاياها ... فقد حكاها فهل يروي حكاياها
وسل مدير .... عن شهد ريقتها ... اي الحبابين عند ... اشهاها
وهل درى الطير لما شم عنبرها ... في خدها اي خال في سويداها
لا زلت عمري للاطلال عامرها ... ليلا واصبحت مجنونا بليلاها

ومن تشطيراته البارعة : قوله مشطرا قصيدة ابن الفارض المشهورة ، عام ١٢٠٧ هـ ـ ١٧٩٢ م :

قلبي يحدثني بانك متلفي ... يا سيدي فانصف بحال المدنف
وفؤادي المضني من البلوى جفا ... روحي فداك عرفت ام لم تعرف
لم القض حق هواك ان كنت الذي ... بلغي رضابك اغتصه بمرشفي
لو كنت طول العمر ارشف ثغره ... لم القض فيه اسى ومثلي من يفي
ان الذي يفني حشاه وقلبه ... في حب من يهواه ليس بمشرف

وقوله يمدح والي بغداد علي باشا سنة ١١٧٥ هـ ـ ١٧٦١ م :

رشيقة القد ذات الفتح والكحل ... لقد غزتني بسيف اللحظ والمقل
وجردت مرهفا من لحظها وبدت ... تميس تيها على النزلان والحجل
ماست دلالا والوت وهي معجبة ... تسبي القلوب بتلك الاعين النجل
محمورة الجفن لا تنفك مقلتها ... يرد الفتح فيها حيرة الثمل
قد حار بالوت في نوني حاجبها ... المكتوب في قلم الرحمن خط جلي
فثغرها حق در زانه حبب ... كروضة زينت بالزهر والنفل
رضابها الشهد والكافور نكهتها ... وريقها السكرى العذب كالعسل
بديعة تزهت بالحسن عن شبه ... فريدة بالبها جلت عن المثل
يحول من دونها لج النصال ولو ... رام العبور اليها الطيف لم يصل
تاشتهيها الوصل يوما وهي ثاملة ... فلم تجبني ولم تصغ الى جدلي
باكرتها مرة اخرى وقلت لها ... يا ربة الخدر رفقا فادفعي وجلي
فلم ترد جوابا من صبابتها ... ولم تراقب حالي والوجود بلي
قالت: فما بك تبغي الوصل من جدل ... فان جهلت مقامي فاتق سبلي (١٢ب)
فدون وصلي اهوال ومهلكة ... دعني ، ونفسك فز فيها على عجل
اجبتها انني قد لذت في بطل ... امنت فيه من الاعداء والعذل

ثم ينتقل الى المديح ببراعة مدهشة .

وله في مدح الوزير سليمان باشا الجليلي ، قبل ان يتولى مقاليد الحكم في الموصل :

سعاد بدت في الحي ام طلع البدر ... ام ابتسمت سعدى فبان لها نفر
الليلى تبدت بالمحاسن والبها ... اهند تثنت من سناها بدا الفجر
ازينب قد تاهت وباهت بحسنها ... وماست فمن اعطافها عبق العطر

ونظم في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة جمع فيها كل انواع البديع ، وسماها « البديعية الموصلية الامينية في المدائح المحمدية النبوية » ، وقد فرغ منها في قريته بعشيقا اوائل شهر صفر سنة ١١٨٣ هـ ١٧٦٩ م

---

(١٢) من ذلك قوله ، في موال له ، باللهجة العامية :
نظمت الشعر من الفاك ابكار ... ولا تاجرت لا بحرفة ولا بكار
والكار ، كلمة فارسية ، بمعنى الشغل ، والعمل ، والمهنة .

(١٢م) الصواب بالرفع .
(١٢ب) الشطر معلول .

وتقتطف منها الابيات التالية :

براعني برعت بالحل والحرم ... لما استهلت دموع العين تالديم
تلفتت مهجتي والحب في نعم ... وقلب عاذلنا في الهجر فينا عمي
لفقت كل جميل فيك من كرم ... جازيتني بالعنا والقلب منك دمي
قالوا دع الحب وارجع عن محبته ... قلت الغرام دعاني بالي الرمم
لا تعترض يا عذولي في محبته ... فهو الشفيع فينا يوم مزدحم

وقد اشاد معاصره امين العمري بهذه القصيدة ، بقوله « رائقة النمط ؛ غريبة الحوك : بديعة الصوغ ، بينة الانسجام ؛ وكم له مثلها من قصيدة عجيبة ومقاطيع انيقة » . وكان قد اثنى على شاعريته بقوله « له في الشعر باع طويل ، ونظر حاذق ، ومنظومات في غاية اللطف ومنثوراته في نهاية الظرف » . وقال عصام الدين عثمان العمري « له من النظم ما هو كالعقود والجوهر ؛ ومن النثر ما هو في المذاق كالسكر المكرر » (١٤) .

ولديوان شعره ، اضافة الى ما ذكرناه ، اهمية تاريخية خاصة ، فانه قد اشار فيه الى مناسبات واحداث شتى في معرفه عصره. من ذلك انه وصف طرفا من الحرب الروسية ـ العثمانية عام ١١٨٣ هـ ـ ١٧٦٩ م ، عند مدحه الغازي محمد امين باشا الجليلي والي الموصل الذي شارك فيها . ومنه انه ارخ حوادث عديدة ، مثل تعيين الولاة والحكام وعزلهم ؛ ووفيات الشخصيات البارزة في المجتمع العراقي آنذاك ، وبعض حروب ولاة بغداد مما له علاقة بالموصل في ذلك الحين .

ومن الديوان هذا ، نسخة بخط الشاعر ، ارخت قصائدها بين عامي ١١٧٥ و ١٢٢٠ هـ ، محفوظة في خزانة الدكتور محمود الجليلي في الموصل ، وقد استفدت من نسخة مصورة عنها في كتابة هذا المقال . كما توجد نسخة حديثة من هذا الديوان في خزانة عباس العزاوي في بغداد (١٥) ، وثمة مجموعة مبتورة من شعره في خزانة داود الجلبي في الموصل ، مؤرخة في سنة ١١٨٤ هـ (١٦).

ولمحمد امين بك ، كتاب آخر في الادب ، سماه « اطلاق الذهب » ، رتبه على شكل مقالات متنوعة تبحث في الوعظ والنصح ، وذكر في مقدمته انه نهج فيه نهج رسالة العلامة جار الله الزمخشري المسماة « اطواق الذهب » ، ورسالة العالم الخويلي المعروفة باسم «اطباق الذهب » . وفي آخر الكتاب اورد المؤلف مجموعة من امثال العرب ، تليها مجموعة اخرى من امثال العامة والمولدين ، ثم مجموعة ثالثة في الامثال نظمها شعرا . منه نسخة بخط المؤلف مؤرخة في سنة ١٢٠٢ هـ ، في خزانة كتب الاوقاف ببغداد . وكان المستشرق كولدزيهر قد اشار في كتابه « بحوث في علم اللغة العربية » الى كتاب له سماه «اوراق الذهب في علم المحاضرات والادب » ولا نظن الكتاب الا « احلاق الذهب » نفسه ، للتشابه الكبير بين العنوانين والموضوعين .

والذي يظهر لنا ان محمد امين كان ملما ايضا ، كاغلب المثقفين في الموصل آنذاك : بفنون الموسيقى والغناء: فاننا نجد له بعض القصائد المنظومة على الحان مشهورة : كالدوكاه ، والعبا ؛ والجاركاه ، وغير ذلك .

تمهره بالطب والتشريح

على انه لم يكن شاعرا اديبا وحسب ؛ بل كان طبيبا جراحا مشهورا ، له غير كتاب في هذا الميدان ، وقد ذكر امين العمري انه « مهر في علم الطب ، وله فيه مصنفات مفيدة ، وفوائد سديدة ، وعلاجاته ابقراطية ، وتدبيراته جالينوسية ، وبالجملة فلا قرين له في علمي الطب والتشريح » ، وذكر انه استفاد منه فوائد جمة في كلا العلمين . وذكر عصام الدين عثمان العمري ان « له في الطب والادب ابواب ، لم يكن لغيره الى تلك الدور دخول» وقد مر بنا انه اشتغل اثناء فتنة عام ١١٨٤ هـ بمداواة المرضى من الفقراء والاغنياء ، وذكر ياسين العمري انه لما قدم الى الموصل والي بغداد الوزير علي باشا سنة ١٢٢٠ هـ ، « حصل به بعض الامراض ، فاستدعاه وقربه فعالجه ، وخلع عليه خلعة القبول والرضى » .

ومن مؤلفاته الطبية ، كتابه الذي سماه « الشفاء العاجل والدواء الكافل » ، و « دستور العمل في علاجات الجدري والحصبة والاحتراز من الوقوع فيهما ». والكتابان ضمن مجموع واحد بخط المؤلف ، اطلعنا عليه ، في خزانة جامع يحيى باشا الجليلي في الموصل .

وفاته

ولسنا نعلم تاريخ وفاة هذا الشاعر العالم ، وان كنا نذهب الى انه جاوز الثمانين عاما ، بدلالة ما نص عليه امين العمري ؛ من انه كان يجاوز الستين عند زيارته له عام ١٢٠١ هـ ، وان آخر اشارة اليه كانت في سنة ١٢٢٠ هـ ـ ١٨٠٥ م ؛ ففي هذا العام نظم ـ ارتجالا ـ ارجوزة . ارسلها الى ابنه محمد بديع في حلب (والارجوزة موجودة بخطه في ديوانه) . كما ترجمه ، باختصار : ياسين العمري ، في كتابه « غاية المرام » ، ولم يذكر وفاته : وكان فراغه من تاليفه هذا الكتاب في ٢١ شعبان سنة ١٢٢١ هـ (الموافق ١٥ تشرين الثاني سنة ١٨٠٥ م) فتكون وفاة الشاعر محمد امين بك بعد هذا التاريخ .

المجمع العلمي ـ بغداد — عماد عبد السلام رؤوف

---

(١٤) الروض النضر في تراجم فضلاء العصر . الورقة ١٢ ب(مخطوط)
(١٥) اشار اليها في تاريخ الادب العربي في العراق ج٢ ص ٢٩٩ .
(١٦) مخطوطات الموصل ص ٢٨٠ .



رشاد علي اديب

طرف من كتاب الاغاني

بقلم الفقيد رشاد علي اديب

* * *

ان كتاب الإغاني اروع الكتب الادبية وهو يحتوي على طرائف بارعة من الادب والشعر والتاريخ والقصص والنقد والفكاهة وكل ما يتعلق بالغناء والطرب لا نجدها في كتاب آخر وهو واحد وعشرون جزءا وقد استغرق تاليفه مدة خمسين عاما ولما اتمه مؤلفه قدمه الى سيف الدولة الحمداني فاعطاه الف دينار واعتذر له عن قلة المبلغ .

ولادراك اهمية ذلك الكتاب اذكر ما يروى عن الصاحب بن عباد الوزير الخطير والاديب الشهير فقد كان يصطحب معه في السفر حمولة ثلاثين جملا من الكتب ليطالع فيها فلما حصل على كتاب الاغاني اكتفى باصطحابه فقط .

وقد ولد ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد في اصبهان سنة (٢٨٤) هـ وتوفي في بغداد سنة ٣٥٦ هـ (٨٩٧ ـ ٩٦٧ م) وهو اموي النسب هاشمي النزعة .

اخبار عاتكة الصحابية

بعد هذه المقدمة الوجيزة اروي طرفة عن اخبار عاتكة الصحابية الجليلة المتوفاة حوالي سنة (٤٠هـ) (٦٦٠م) وهي مدونة في الجزء السادس عشر من كتاب الاغاني مع اختلاف في اللفظ وتصرف في العبارة واختصار وشرح وتوضيح حسب الاقتضاء .

هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية العدوية صحابية مهاجرة شاعرة وكانت امراة لها جمال وكمال وتمام في عقلها ومنظرها وجزالة رايها . تزوجها عبد الله بن ابي بكر الصديق فشغفته حبا وغلبته على امره وشغلته عن سوق وتجارة حتى عن صلاة الجمعة فقد مر عليه ابوه مرة وهو ذاهب الى صلاة الجمعة فوجده يناجيها ويناغيها في علية وعاد من الصلاة وهما على هذه الحال فقال يا عبد الله اجمعت ؟ اي اصليت فرض الجمعة . قال اوصلى الناس قال نعم قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة وقد الهتك عن فرائض الصلاة طلقها فطلقها طلاقا واحدا فبينا ابو بكر يصلي على سطح له في الليل سمع ابنه عبد الله ينشد الابيات الاتية :

اعاتك لا انساك ما ذر شارق	وما ناح قمري الحمام المطوق
اعاتك قلبي كل يوم وليلة	لديك بما تخفي النفوس معلق
لها خلق جزل وراي ومنطق	وخلق مصون في حياء ومصدق
فلم ار مثلي اليوم طلق مثلها	ولا مثلها في غير شيء تطلق

فرق له وهو المشهور برقة قلبه ورهافة حسه فاشرف عليه وقال له يا عبد الله راجع عاتكة فقال اشهدك اني راجعتها واسرع الى غلام له اسمه ايمن فقال يا ايمن انت حر لوجه الله تعالى اشهدك اني راجعت عاتكة ـ وقد اعتقه لتصح شهادته له ـ ثم عدا الى اخر الدار حيث عاتكة وقال :

اعاتك قد طلقت في غير ريبة	وزوجت للامر الذي هو كائن
كذلك امر الله غاد ورائح	على الناس فيه الفة وتباين
وما زال قلبي للتفرق طائرا	وقلبي لما قد قرب الله ساكن
ليهنك اني لا ارى فيك سخطة	وانك قد تمت عليك المحاسن
فانك ممن زين الله وجهه	وليس لوجه زانه الله شائن

واعطاها حديقة حين راجعها على ان لا تتزوج بعده فلما مات من السهم الذي اصابه بالطائف قالت ترثيه :

فلله عينا من راى مثله فتى	اكر واحمى في الهياج واصبرا
اذا شرعت فيه الاسنة خاضها	الى الموت حتى يترك الرمح احمرا
فاقسمت لا تنفك عيني سخينة	عليك ولا ينفك جلدي اغبرا
مدى الدهر ما غنت حمامة ايكة	وما طرد الليل الصباح المنورا

فلما خطبها عمر بن الخطاب قالت قد كان اعطاني حديقة على ان لا اتزوج بعده قال فاستفتي فاستفتت علي بن ابي طالب فقال ردي الحديقة على اهله وتزوجي وحين زواجها دعا عمر عليا وبعض الصحابة الى بيته فطلب علي ان تستر عاتكة فاستترت فقال يا عاتكة :

فاقسمت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي اغبرا

ليذكرها بوعدها وقسمها فقال له عمر وما اردت الى هذا ؟ فقال وما اردت الى ان تقول ما لا تفعل وقد قال الله تعالى « كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون» وهذا شيء كان في نفسي احببت والله ان يخرج فقال عمر

ما احسن الله فهو حسن فلما قتل بطعنة لؤلؤة مولى المغيرة قالت ترثيه :

عين جودي بعبرة ونحيب ... لا تملي على الامام النجيب
فجعتنا المنون بالفارس الله ... ـم يوم الهياج والتلبيب
عصمة الله والمعين على النعـ ... ـر غياث المتاب والمحروب
قل لاهل الفراء واليؤس موتوا ... قد سقته المنون كاس شعوب

وقالت ترثيه ايضا :

منع الرقاد فعاد عيني عيد ... مما تضمن قلبي المعمود
يا ليلة حبست علي نجومها ... فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهر في حذارك مرة ... فاليوم حق لعيني التهويد
ايكي امير المؤمنين ودونه ... للزائرين صفائح وصعيد

فلما انقضت عدتها خطبها الزبير بن العوام وبعد ان تزوجها قال يا عاتكة لا تخرجي الى المسجد وكانت عجزاء بادنة فقالت يا ابن العوام اتريد ان تمنعني لغيرتك مصلى صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وعمر قال فاني لا امنعك وترصدها عند اذان الصبح في سقيفة بني ساعدة فلما مرت به ضربه بيده على عجيزتها فقالت مالك قطع الله يدك وهي لا تعلم من هو ورجعت الى بيتها وبعد عودة الزبير من المسجد قال لها ما لي لم ارك في مصلاك ؟ قالت يرحمك الله ابا عبد الله قد الناس بعدك الصلاة اليوم في القيطون افضل منها في البيت وفي البيت افضل منها في الحجرة والقيطون لغة البيت داخل البيت وهي تعني بأبي عبد الله زوجها السابق عمر بن الخطاب فلما قتل عنها الزبير في وادي السباع قالت ترثيه :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة ... يوم اللقاء وكان غير معرد
يا عمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشا رعش اللسان ولا اليد
شلت يمينك ان قتلت لمسلما ... حلت عليك عقوبة المتعمد
ان الزبير لذو بلاء صادق ... سمح سجيته كريم المشهد
كم غمرة قد خاضها لم يثنه ... عنها طرادك يا ابن فقع القردد
فاذهب فما ظفرت يداك بمثله ... فيما مضى فيمن يروح ويغتدي

وكان الزبير كالاسد شجاعة وقوة والبهمة بضم الباء الجيش والمعرد الهارب والفقع الكمأة البيضاء الرخوة والقردد الارض المرتفعة وفي المثل : اذل من فقع بقرقره: لانها تكون تحت التراب تداس ولا تمتنع عن المجتنى . والقرقر الارض الملساء اللينة .

فلما انقضت عدتها تزوجها الحسين بن علي وكانت اول من رفع خده من التراب حين قتل وقد رثته بقولها:

وحسينا فلا نسيت حسينا ... اقصدته اسنة الاعداء
غادروه بكربلاء صريعا ... جادت الزد في ذرى كربلاء

ثم تايمت بعده فكان عبد الله بن عمر يقول من اراد الشهادة فليتزوج عاتكة .

ويقال ان مروان بن الحكم خطبها بعد مقتل الحسين فامتنعت عليه وقالت ما كنت لاتخذ حما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والحم، بتسكين الميم بعدها عمزة ابو الزوج والنبي العربي جد الحسين لامه والجد بمقام الاب ويطلق ايضا على من هو قريبه وفيه دون همز اربع لغات وهي الحمو بتسكين الميم بعدها واو والحما بالالف في اخره والحمو بضم الميم بعدها واو للاطلاق والحم وهو من الاسماء الخمسة ولا يأتي الاخير الا مضافا وقد جاء في الشعر مفردا دون اضافة ويجوز في الشعر ما لا يجوز في النثر .

ويروى ان عليا طلبها بعد مقتل الزبير فقالت اني لاضن بك على القتل يا ابن عم رسول الله ـ وكانها لم تضن بالقتل على ابنه الحسين فقبلته زوجا لها ـ

طرفة ثانية

وهذه طرفة ثانية وردت في الجزء الثاني من الاغاني: تغني طويس المغني المخنث لفتية من قريش في بطن محجر برثاء عاتكة لعمر بن الخطاب :

منع الرقاد فعاد عيني عيد ... مما تضمن قلبي المعمود

فطرب من غنائه الحاضرون وقالوا له لمن هذه الابيات يا طويس ؟ فقال لاجمل خلق الله وجها واشأمهم فقالوا بانفسنا انت من هذه ؟ قال والله من لا يجهل نسبها ولا يدفع شرفها تزوجت بابن خليفة نبي الله وثنت بخليفة خليفة نبي الله وثلثت بحواري رسول الله وربعت بابن نبي الله ـ اي ابن بنته وكلا قتلت قالوا جميعا جعلنا فداك ان امر هذه لعجيب بآبائنا انت من هذه ؟ قال عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل فقالوا نعم هي كما وصفت قوموا بنا لا يدرك مجلسنا شؤمها قال طويس ان شؤمها قد مات معها فقالوا انت والله اعلم منا .

اقول ان طويسا نسي شؤمه وكان يذكره للناس متباهيا ويتندر به وقد قال عن نفسه مرة انه ولد يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وفطم يوم مات ابو بكر وختن او بلغ الحلم يوم قتل عمر وزوج يوم قتل عثمان وولد له يوم قتل علي وقيل انه ولد له يوم مات الحسن وان امه كانت تمشي بين نساء الانصار بالنميمة وان ما ذكره عن نفسه يفوق كل شؤم ويجعله اشأم الناس

وطويس لقب غلب عليه اسمه عيسى بن عبد الله وكنيته ابو المنعم وغيرها المخنثون فجعلوها ابا عبد المنعم وهو مولى بني مخزوم وكان طويلا مضطرب الخلق احول والناس يتشاءمون من الحول وقد ضرب بشؤمه المثل فقيل اشأم من طويس .

وكان ظريفا عالما بامر المدينة واناب اهلها واحوالهم سلط اللسان يتقن فنه الغنائي حسن الصوت واللحن والاداء مجيدا بالنقر على الدف يرعى حرمة قريش وهم يرعونه ويقربونه ويرغبون في غنائه وما وضعه الا تخنثه وهو اول من غنى في المدينة غناء عربيا بايقاع متقن ولقب بالذائب

لانه غنى بقول الشاعر :

قد براني الحب حتى كدت من وجدي اذوب

ويروى ان ابن سريج المغني الذائع الصيت قدم الى المدينة وجلس يوما في جماعة وهم يقولون أنت والله احسن الناس غناء اذ مر بهم طويس فسمع ما قالوه فاستل دفه من حضنه وتقره وتغنى بشعر ابن زهير المخنث وهو :

ان للخنثى التي ... مرت بنا قبل الصباح
في حلة موشية ... مكية غرلى الوشاح
زين تشهد فطرهم ... وتزينهم يوم الاضاحي

فقال ابن سريج هذا والله احسن الناس غناء لا انا.

ولطويس من المئة الصوت المختارة غناؤه بشعر عبيد الله بن قيس الرقيات وهو :

يا لقومي قد ارقني الهموم ... فلفؤادي مما يجن سقيم
اذنب الحب في فؤادي فليه ... لو تراءى للناظرين كلوم
ما لذا الهم لا يريم فؤادي ... مثل ما يلزم الغريم للغريم
ان من فرق الجماعة منا ... بعد خلفي ونعمة للعديم

ولما قتل مروان بن الحكم النغاشي المخنث لزندقته قال لمن جاءني بمخنث فله عشرة دنانير وبينما كان طويس يتغنى بشعر حسان بن ثابت الانصاري :

لقد هاج نفسك اشجانها ... وعاودها اليوم اديانها
تذكرت هندا وما ذكرها ... وقد قلصت منك اقرانها
وقفت عليها فساءلتها ... وقد لمن الحي ما شانها
فصدت وجاوب من دونها ... بما اوجع القلب اعوانها

جاءه الخبر بمقالة مروان فقال :ما فضلني الامير عليهم بفضل حتى جعل في وفيهم امرا واحدا ثم خرج حتى نزل الوبداء على ليلتين من المدينة فلم يزل بها حتى مات في ولاية الوليد بن عبد الملك في السنة الثانية والتسعين من الهجرة النبوية وقد عاش احدى وثمانين سنة ذكرت آنفا ان لطويس صوتا من المئة صوت المختارة ومطلعه :

يا لقومي قد ارقني الهموم ... ففؤادي مما يجن سقيم

توضيح

وارى من المفيد التوضيح عن المئة الصوت المختارة واسباب جمعها كما جاء في الجزء الاول من كتاب الاغاني والصوت هنا بمعنى النغم واللحن كما اصطلح عليه فقد حكي ان الرشيد امر المغنين ومنهم ابراهيم الموصلي وابن جامع وقليح ان يختاروا له مئة صوت فاختاروها ثم امرهم باختيار عشرة منها فاختاروها ثم امرهم ان يختاروا ثلاثة منها ففعلوا وهذه الاصوات الثلاثة هي صوت معبد بشعر ابي قطيفة :

القمر فالنخل فالجماء بينهما ... اشهى الى القلب من ابواب جيرون

وصوت ابن سريج بشعر عمر بن ابي ربيعة :

تشكى الكميت الجري لما جهدته ... وبين لو يستطيع ان يتكلما

وصوت ابن محرز بشعر نصيب :

اهاج هواك المنزل المتقادم ... نعم وبه من شجاك معالم

وهذه الاصوات الثلاثة على هذه الطرائق لا تبغي نغمة الا وهي فيها .

وفي روايه ضعيفة لحظة ان ابراهيم الموصلي احد اصحاب الاصوات الثلاثة المختارة في تغنيه بشعر العرجي:

الى جيداء قد بعثوا رسولا ... ليحزنها فلا صحب الرسول

وقد اخرجت هذه الرواية معبدا من بين اصحاب الاصوات الثلاثة واخراجه غير معقول كما ان ادخال الموصلي بدلا منه لا يصدق لا سيما وان بين اللذين اختاروا الاصوات من هو مثله او اهم منه كابن جامع فلا يمكن ان يفضله على نفسه .

وفي رواية عن ابراهيم المهدي وكان حسن الغناء والاداء ان اخاه الرشيد امر المغنين ان يختاروا له احسن صوت غني به فاختاروا له صوت ابن محرز في شعر نصيب وفيه صنعة كثيرة .

تلك هي قصة المئة الصوت المختارة وما اختير منها.

طرفة ثالثة

واختم مقالتي بطرفة ثالثة وردت في الجزء الرابع من كتاب الاغاني فقد جاء فيه :

طويس لقب واسمه طاوس ـ وصغر اسمه بعد تخنثه ـ وهو اول من غنى الغناء المتقن بين المخنثين واول من صنع الهزج والرمل في الاسلام وهما لحنان معروفان في ذلك الزمان وكان الناس يضربون المثل بهزج طويس فيقولون : اهزج من طويس .

قال حسين بن ضحمان الاشقر : كنت بالمدينة فخلا لي الطريق وسط النهار فجعلت اتغنى :

ما بال اهلك يا رباب ... خزرا كانهم غضاب

فاذا خوخة ـ اي نافذة ـ قد فتحت واذا وجه بدا تتبعه لحية حمراء فقال يا فاسق اسأت التأدية ومنعت القائلة ـ اي النوم في نصف النهار كالقيلولة ـ واذعت الفاحشة ثم اندفع يغنيه فظننت ان طويسا قد نشر بعينه فقلت له اصلحك الله من اين لك هذا فقال نشأت وانا غلام حدث اتبع المغنين وآخذ عنهم فقالت لي امي يا بني ان المغني اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه فدع الغناء واطلب الفقه فانه لا يضر مع قبح الوجه فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى فقلت له فاعد جعلت فداك قال لا ولا كرامة اتريد ان تقول اخذته عن مالك بن انس ؟ فاذا هو مالك بن انس ولم اعلم . وهو احد الائمة الاربعة في مذاهب الفقه وقد قيل فيه : ايفتى ومالك في المدينة وهو صاحب الموطأ الكتاب المعتمد عليه بفقه المذهب المالكي .

وهذه الرواية تدل على ان هذا الامام الجليل كان بارعا في كل علم وفن رفيع .

هذا طرف من الطرائف التي وعاها كتاب الاغاني المشهور وبالامكان استخراج مئات الطرف منه .

جبلة ـ سورية

رشاد علي اديب

محنة بيروت

◎

دم ينهل واكفه انصبابا ... كسيل جارف غمر الشعابا
تدفق ناطقا بلسان حال ... عن المأساة يرويها اقتضابا
اشار الى المجازر مستفيضا ... وقص عن الاذى العجب العجابا
افاض ولم يدع للقول بابا ... وما ملك البلاغة والخطابا
الم تك السن النيران بكما ... وملكت الاعنة والرقابا
تثير الرعب ما عصفت ، فتغضي ... لها الاحداق شجوا واكتئابا
وما تنفك تجرف كل طود ... غواربها وتسفيه يبابا
وكم من صامت لم يعط قولا ... افاء بمعجز طال السحابا

دم في كل منحدر ونجد ... ترامى صاخبا يحكي العبابا
هريق على الهوى طيشا وهدرا ... وكم جر الهوى عورا وعابا
اثار الفتنة العمياء نارا ... زلازلها الاذى انتظمت عذابا
وايقظ للضغينة كل افعى ... تمج الموت والسم المذابا
ضغائن جملت دهرا بستر ... فلما استنفرت كرت ذئابا
ضغائن حددت للشر نابا ... واشرعت القواضب والحرابا
احلت ما الشرائع حرمته ... وجانبت المروءة والصوابا
ولم ترفق بشيخ او صغير ... ولم تفمد قواضبها احتسابا
مجازر مثلما الاهواء شاءت ... وشاء الغدر ختلا واغتصابا
تمثل في الشوارع كل يوم ... فتصطفق القلوب لها اضطرابا
ولم تبرح تكر بلا انقطاع ... غوائلها اغتيالا او خرابا
مشاهد للاذى في كل يوم ... تعاد فصولها بابا فبابا
شواهد لم تزل للحقد تحكي ... عن المأساة رمزا واقتضابا
فمن جثث ترامت في فضاء ... واشلاء توسدت الترابا
اذا هتك الرصاص لهن ثوبا ... كساهن الدم القاني ثيابا
وانقاض الخرائب قائمات ... تحدث سائلا يبغي جوابا

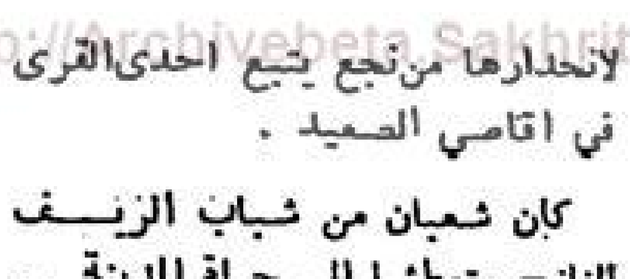
معاهد اينعت وزكت رباها ... واطلعت المسومة العرابا
افاءت بالمعارف من قديم ... على الدنيا رحيقا مستطابا
وحاكى صرحها في مشمخر ... نجوم الافق طولا والسحابا
اجال الدهر عامرها يبابا ... وقوض شامخا وطوى قبابا
واخلى ربعها المعمور الا ... هواجس من رؤى طيفا سرابا
فلست ترى بندوتها سميرا ... يصوغ القول الحانا عذابا
وران بكلكل صمت عميق ... ثقيل اللج دفعا وانجذابا
سواحله البعيدة ما ترامت ... تمج على المدى قتما وصابا
بني القطر الشقيق لكم شجاني ... تكالبكم على زيف غلابا
اثرتم فتنة عصفت جحيما ... وكنتم امس للناس الشهابا
يعز علي ما اجترحت يداكم ... من الفتن التي سطرت معابا
اسيت لكم وكنت اخا محبا ... توخى النصح والراي اللبابا
اخاف غدا وليس غد بعيدا ... اذا التاريخ عاقب او اثابا

دمشق — عدنان مردم بك

البداية

بقلم جمعه محمد جمعه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



انه الضياع دائما ؛ وفي اغلب الاحيان ؛ لكل نازح من الريف الى المدينة .. فالمدينة تتوعب احلام وآمال الشباب النازحين اذ لا يتوعبها الريف الذي نزحوا منه لتلقي العلم في الجامعة ؛ او للعمل في الوزارات او المؤسسات او الشركات .. ولا يجد النازح في العاصمة الكبيرة ما يعوضه عن حنان اسرته .. يشعر اول ما يشعر بالغربة والوحدة ، واحضان الوحدة قاسية ، واذرع الغربة طويلة تمتد بطول مسافات السفر.. يفر النازح من احضان الوحدة القاسية ، ومن اذرع الغربة الطويلة الى احضان المدينة ترفا ولهوا ومرحا ، وينغمس في الملذات والاهواء .

وجد شعبان نفسه داخل حجرة ضيقة من حجرات شقة يسكنها اخرون في حي المطرية الاهلبالسكان .. افتقد رحابة دار اسرته في البلدة .. شعر بالهواء الذي يتنفسه ثقيلا وكان الهواء في المدينة يوزع بقدر حتى يتمكن كل سكانها من اخذ نصيبهم منه .. بدات تنتابه حالات الشعور بالاختناق ، والضيق ، والغضب .. كان الزمن يمر عليه في بطء ممل قاتل .. الساعة بطول اليوم ، واليوم بطول الاسبوع .. ومع هذه الرتابة والملالة تعتلي راسه الخواطر والافكار عن اسرته ، وعن البلدة وعما كان يتمتع فيها به .. امضه التفكير في محاولة الخروج من دائرة البلاء الذي وجد نفسه فيه .

كانت تسكن في نفس الشقة اسرتان فقيرتان يكد عائليهما طوال النهار ؛ ويعودان في المساء .يتناول كل منهما عشاءه مع زوجته وابنائه؛ وينام ليعاود الكد والكفاح من جديد صباح اليوم التالي .. شعرشعبان بتآلف ومودة مع الاسرتين ، خاصة الزوجتين اللتين كانتا تسابقان في خدمته .. تتفانيان في تلبية طلباته .. ومع الماء يتجاذب معهما اطراف الحديث قطعا للوقت .. كانت سعاد احدى الزوجتين صغيرة السن .. تعلو بسمات الفقرجمالها الاقل .. عرف قصة زواجها وهي في الخامسة عشرة من عمرها ، يعمل زوجها ميكانيكيا في احدى الورش.. انجبت ثلاثة اطفال اكبرهم فيالسنة الاولى الابتدائية .. وكانت سامية امراة في حوالي الاربعين .. اكبر اولادها يغنل صبيا في ورشة للنجارة .. تفتقر الى الجمال بحنان امه ، واهتماما فاق اهتمامها .. خففت على نفسه وطاة الغربة والوحدة فاحبها ..

كانت البداية ذات ليلة عندما سمع نقرا خفيفا على باب حجرته .. ترك فراشه متعجبا لتلك النقرات وعلى عجل فتح الباب وراى سعاد اولى المفاجآت التي توقعها ولم يتوقعها في نفس الوقت ... مدت يدها بلمبة صغيرة من الصفيح يعلوها شريط من القماش قائلة :

ـ آسفة يا سي شعبان لازعاجك .. لم اجد عندي كبريت ..

هز شعبان راسه علامة الفهم .. نظر الى نفسه وهاله ان راى جسده لا يستره سوى ملابسه الداخلية.. شمله الاضطراب وهو يحضر علبة الكبريت ويشعل عود الثقاب ويقربه من شريط اللمبة .. ضحكت سعاد ونفخت عود الثقاب المشتعل فانطفا واشتعلت بينهما في تلك الليلة البداية ..

بدت الحياةالجديدة امامه ممتعة .. رائعة .. وقبل ان ياخذ العام الاول دورته الكاملة كان قد تعرف على كثير من الاصدقاء والزملاء الذينبدأوا يحضروناليه ويشاركونه السهرات في حجرته .. بدا شعبان يندفع وراء جنون شبابه لا يهتمادنى اهتمام باي شيء .. لا بصحته ، ولا بماله ، ولا باسرته .. كف عن القيام بزياراته للبلدة .. واكتفى بارسال رسالة كل بضعة اشهر ، وانغمس بكليته في اللهو والترف ..

مضى عام ؛ وفي ذيله عام اخر ، وثالث ورابع ؛ وخامس .. وشعبان يعيش عازبا عبدآ لاهوائه حتى سقط مريضا ولازم الفراش . نقلت وسائل البرق نبأ مرضه الى اسرته التياسرعت اليه..وبالكشف عليه امر الطبيب بنقله الىالمستشفى لخطورة حالته ..

مكث شعبان في المستشفى حوالي العام تحت العلاج : زاره معظم اهل بلدته ، وبانتهاء العام خرج ليعود الى عمله والى حجرته ، وقد حذره الاطباء من الانغماس مرة اخرى في اللهو والعبث خشية اصابته بنكسة ان يخرج منها سليما هذه المرة ..

بدات امه تفكر في تزويجه لحمايته من شرور المدينة التي احاطت به ، وحتى لا يعود اليه المرض مرة اخرى ..

رفض شعبان الفكرة من اساسها .. غضبت امه واتهمته بالعقوق .. تركت له الحجرة وسافرت الى البلدة تحمل في اعماقها الدعاء له بالهداية.

ومر عام اخر تعرف فيه شعبان الى اصدقائه الجدد كمال : وصبحي ، ومحمد .. وقد علموا بالجفوة التي وقعت بينه وبين اسرته .. اتهالوا عليه لوما وتوبيخا وتانيبا، واستطاعوا ان يحولوه عما استقر عليه رايه بدوام القطيعة . واضطره الحاحهم الى السفر لاعادة جو المودة والرحمة بينه وبين اسرته.. حقق لهم شعبان ما ارادوا فقد توسم فيهم اصدقاء مخلصين ، وبعد عودته الى اسرته شعر بخروجه من دائرة الضياع والشرود والتيه ، وعثوره على بر الامان ، ادرك انه لاول مرة منذ ان هبط الى المدينة نازحا من الريف يشعر بالامان والطمانينة .. وبدا يفكر تفكير انسان سوي يريد ان يحيا كبقية الناس الاسوياء.. فكروا معه وله ، ومروه ان يفكر جديا في الزواج ، ودفعوه الى تحقيق امالهم التي راى فيها اماله واحلامه ..

انتهى شعبان من استعراض كل تلك الذكريات وهب واقفا .. طرح العباءة السوداء من فوق كتفيه والقى بها جانبا .. ذهب الى امه قائلا في غضب :

ـ آمي .. امي اعدي حقائبي..

قالت في لهفة :

ـ ماذا جرى يا شعبان ؟

قال منسحبا بذراعيه :

ـ قررت السفر ..

قالت في حنان وحب :

ـ لماذا يا ولدي ؟ .. هل تضايقت منا ؟. ثم انك لم تمكث مع عروسك يوما واحدا .. الا تنوي المشاركة في ليلة واحدة لابن خالك ، وتقبل العزاء .. هل تظن ان اباك الحاج يوافقك على ذلك ؟.. ماذا جرى لعقلك الم تخبر اصدقاءك بانك



جمعه محمد جمعه

*

ستبقى معنا اسبوعا ؟

قال في ثورة :

ـ قلت مسافر ، وسأسافر لن يضطرني احد الى البقاء .

ـ وعروسك ؟

ـ سأحضر مرة اخرى ..

ـ وابن خالك ..!

ـ مات وانتهى امره ..

كان جل اهتمامه منصبا على الهرب من البلدة ، يتمنى ان يغمض عينيه ويفتحهما ليجد نفسه في حجرته او بين اصدقائه، لقد صدمته كلمات ليلى : وبعد ان كان يبغي الوقوف على حقيقة ما حدث من عايدة ابنة عمه .. انتابه شعور بان لا فائدة.. هناك بقع سوداء علقت بثوب البهجة اضيفت الى البقع الحمراء التي تمخض عنها حفل العرس الدامي.. هناك احمد ابن خاله القتيل ، وعزت ابن عمه القاتل والسجين ... هناك زوجة احمد واولاده : وزوجة عزت واولاده ، هناك الحزن يذر بذوره في بيت خاله : واخيرا هناك العار المصوب اليه وكل ليلى .. صوبته نجوى ومعها عايدة .. شعر براسه كالاقشة في دوامة .. اغمض عينيه وسقط على الكنبة وهو يحمل نفسه مسؤولية كل ما حدث .. صرخت امه مولولة :

ـ ابني شعبان .. ابني حبيبي

قال في صوت واهن :

ـ لا تخافي يا امي .. انني مثل القطط بسبع ارواح ..

ارتفع صوت الاسطه عزمي الحلاق مناديا من خارج الدار :

ـ استاذ شعبان .. تلغراف ..

خرجت الام ثم عادت الى ابنها وهي تقدم له البرقية وتنقل ما قاله لها الاسطى عزمي :

ـ تلغراف يا بني.. يقول تلغراف تهنئة ..

تناول شعبان البرقية .. قراها ودمعت عيناه .. امتلات روحه بالفرحة وفي داخله احساس بالفخر والعزة.. تمنى من اعماقه ان تشاركه ليلى في تلقي برقيات التهاني التي ستنهال عليه من اصدقائه وزملائه .. لقد تركها ولا بد ان يعود اليها وان يكون اكثر هدوءا .. لم يعد يملك القرار الذي اعتاده امام كل مشكلة تعترض طريقه .. لم يعد شعبان الذي يحمل حقيبة ملابسه وحياته سفر دائم .. بل صار مقيدا بقيد من ذهب .

القاهرة جمعه محمد جمعه

سليم عازار

شاعر الكلية

١٨٨١ ـ ١٩٠٧

بقلم فوزي سابا

* * *



فلسفة الاغريق حكمة تقول : ما خطه الله لا تمحوه الالهة ، ونحن في لبنان ، كتب علينا العطاء المرسل المطلق، حتى اذا اكتمل يختم امرنا وكل ما فرض علينا .

من ذلك تفاوت اعمار اعلامنا ، لانها تقاس بالتمام المضروب عليهم ، ويكون فتيان الادب والشعر في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، هم التدوين المؤصل في السجل الكبير ، بعدما حموا بجذوة من روعتها اختطاف كما اللمعان ؛ يسحرك فلا تدري . اهو الومض باق ام ذهب ، وانهم من هذا الومض الباهر .

من منا . حتى الذين عايشوهم على سماع ، يحس بانصرافهم : فحيف بالذين سامروهم وعاشروهم وعاشوا حياتهم ؟

ذلك الزائد الاول شاعر الحرية الياس صالح . اصابة لبنان به من شأنها ما جاء في الالياذة ؛ فالمدى الذي احتله عن ابلاغ الرسالات له هذا الخطف ، وتتلل الحلقات فاديب اسحق ثم سليم عازار شاعر الكلية الذي خاطب غليوم الثاني عندما رفع قبعته احتراما امام قبر صلاح الدين الايوبي بدمشق بقوله :

ليس بدعا يا ذا الجلالة ان ... مثلت في تربة ابن ايوب صاغر
هو فضل لكنه كان فخرا ... لك لو كان في الزمان الغابر
يوم حطين ذكره سوف يبقى ... ابيض اللون في سواد المحابر

سليم عازار لم ينظم الشعر ، بل تكلم به : سواء أكان فصيحا ام زجلا ؛ يتحدث اليك فالشعر على حديثه، ومتى على اصغاء : فالشعر في عينيه وعلى جميع ملامحه. حتى قال فيه استاذه الدكتور كرهام، ولد سليم والابتسامة على فمه، ويقول عارفوه ، انه متى سنحت له فرص وجلس الى قهوته ، ولا يكاد يشعل لفافته حتى يقصر القلم بخط ما يجيش به صدره من الشعر :

اذا الزمان رماني ... بالنائبات الثقيلة
واصبحت اصدقائي ... مثل الفلوس القليلة
وسائل رحب رجائي ... وليس في الكف حيلة
اجبه الصبر صبي ... برقصة التارجيلة

بها الاقي خليلا ... لا يستبيح خليله

عصرهم : عصر الشعر والادب : فكان الطلبة يصدرون النشرات الخطية وكان لسليم صديق من آل عطيه ينشر مخطوطة باسم « الحرية » ويصدرها بالقول: للحرية شاعر خاص . وكان الكل يعلم انه يعني سليما . فسليم لم يكتب الا الشعر . ويحدث ان يرسب صاحب « الحرية » في امتحان الصف الثاني علمي ـ المحول ـ فيقول فيه سليم :

عدت للمحولين والعود احمد ... عادة الباشوات ان تتجدد
قد فتهت الدروس جدا فشاءوا ... ان تعيد الماضي فلم تتردد

فعرف صاحبه فيما بعد باسم الباشا .

ولد سليم عازار في غرزوز من قضاء جبيل سنة ١٨٨١ وتلقى دروسه الابتدائية في مدرستها ثم في الجامعة الاميركية في بيروت حيث أنهى السنة الثانية في كلية الطب ، لكن ما فيه من سجايا شعرية وطاقات حملته الى الهجرة ؛ فالقى امره في الولايات المتحدة الاميركية يحرر في جريدة « الهدى » وسواها من الجرائد والمجلات ، حتى اصيب بداء السل ، ولما ثقل عليه عاد الى حلوان في مصر مستشفيا لكنه لم يمكث الا قليلا حتى توفي ودفن فيها سنة ١٩٠٧ . وكان من سوء الحظ ان مجموعته الشعرية فقدت عند احد اقاربه ولم تنشر ، فكان راى بعين الغيب الى حاله حين قال :

جار الزمان وصرت يا نفسي ... تتقلبين تقلب الطفس
طورا على امل واونه ... في اليأس او أشقى من اليأس
اين السرور واين ما عهدته ... فيك ديمات الهوى امسي
ازهرت في دنيا الخيال فانعة ... بالحزن والانشاء والدرس
عودي الى الماضي فقد عيست ... لما عيست معاهد الانس
عودي فقد صيرتني قمة ... للحب للاشعار .....
او لا فكوني كيف شئت وما ... شئت فافعليه فليس من باس
لا خير في من ليس ذا ثقة ... من نفسه اسمعت يا نفسي

ولد سليم والابتسامة على شفتيه كذلك ولد والشعر ملء جوانحه وكم ظلموه وكم انتحلوا من روائعه، حتى الزجلية منها .

لكثرة تعهد سليم مع الجمال جعل حياته كلها محارق على دروبه وتكون وفاته ، هي الروعة الكبرى . فانه تحدى المرض على ابعد ما في التحدي ؛ فعندما اخبره اطباؤه في الميجر بشدة دائه وانه قد لا يسمح له بالوصول الى اليابسة في عودته الى الوطن ، ركب البحر وتحدى النصح ولما وصل بريطانيا هتف بالنصر :

حل ارض بريطانيا بالسلامة ... وهو يهدي المهاجرين سلامه
شاعر تعرفونه من قوافيه ... فلا حاجة لوضع العمامه

من بريطانيا اكمل طريقه الى مصر وحل في مصح حلوان للامراض الصدرية ، وقد وقعت على مفكرته الخاصة ؛ التي وجدت على فراشه ساعة الوفاة فاذا فيها ذكريات كلها تحد للمرض وفيها زجل وفيها شعر ، وتصاميم قصائد ، وتكون قصيدة الحبيب من اروعها ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اجواء وآفاق

تعالي تقطع الاجواء فوق جناح اشواق
تهدهدنا
وحلم طائر فوق الدجى يسري
يسابقنا
وهذا الكون ، هذا البحر ، هذا الليل
في يدنا
واضواء تغامزنا ، تعابثنا
وهذا السحر يطوينا ، يدغدغنا ، يخدرنا
ويسكب هدهدات اليوم في امس بلا امس
وفي غدنا
ليصبح لحظة مغروسة في عمقنا الثاوي
تكرس بدء هذا العالم النشوان
منذ الخلق
تسبره
تسجل عمر هذا الكون
عبر مساره الابدي
تمضي في نهايته
لتنثني في زواياه
ويبقى في جوانحنا
تعالي نذرع الافاق
نقفز عبر قمتها
الى المجهول حيث البدء يغرق في نهايته
وحيث اللانهايات التي تعدو
وتعدو فوق امواج
تكسرها شواطئ حلمنا الساجي
على دفء من الآمال يغمرنا
تطهر جرحي المدفون ، تغسله وتبرئه
وتمسح حزن آماد من الاقفار
ترويها وتحييها
وترسل عطرها المحموم يسعى في جوانبنا
ليبعثنا
ايا دنياي كيف رايت عطرا لا نهائيا
يهدهدنا ليبعثا

جامعة الاسكندرية — لطفي عبد الوهاب يحيى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فانها كما وصفها صلاح لبكي في كتابه لبنان الشاعر ، رائدة الشعر الرومنطيقي في شرقنا :

بي من خلقتها ولدا تحمل الابواق والزردا
ابدا
مر عهد واتى عهد واستوى واعتدل القد
وقليلا برز ..... وكما وجنتها ورد
وندى
حقق الدهر بها ظني وغدت كالبدر في السن
بقوام فاضح الغصن يكتسي من كامل الحسن
بردا
كنت قبلا حين القاها لا اني اتشق رياها
فلماذا صرت اخشاها والاقي عند مرآها
كمدا
ان بدت فارقني حسي او مضت اسلمت لليأس
او دنت اهلمت عن نفسي ودمي حالا الى راسي
صعدا

هؤلاء فتيان الادب في غرة القرن العشرين صرفوا اعمارهم على تهاليل تحلو على الشفاه ؛ اما بقاؤهم معنا فمن الروائع التي كلما افتقد العالم ذاته وجد هذا الذات موشوما عليها ؛ فانهم لم يتركوا ضربا من ضروب الحياة الا جاؤه ، كذلك كانوا في ادبهم ايضا : فلما سالوا على الشفاه وغنوا الجمال ، كانوا على فلسفة الحياة : وهذا سليم الشاب يخاطب آماله وامانيه :

خابت امانيك يا اشيب وضاع منك الزمن الاطيب
فلن ترى غير الاسى سلوة ومن ضروب الحزن ما يعذب
اقل متن الدهر ما تشتهي واعجز الايام ما تطلب
وانفس الاحرار تعفي ولا تنيلها الاقدار ما ترغب
ما زلت للحكمة تسعى ولم تنفك في تطلابها تداب
وتلك كالحسناء من شانها تحجب الناس ولا تقرب
ولو رايت الشيخ محمودا دبا الى تربته يقرب
سمعته يهمس في نفسه خابت امانيك يا اشيب

يقول امين الريحاني في كتابه « قلب لبنان » :

« .. اذكر من الشعراء سليم بن بولس جبور عازار : الذي حمل عباء العبقرية الى الولايات الاميركية المتحدة في فجر الجيل ، ثم عاد الى مصر ، فاراحه الله هناك ؛ نقل سبحانه وتعالى سليما الى جواره وهو في ربيع الشباب ليغرد في قفص الفردوس » .

فوزي سابا



فـوزي عطـوي

العباس بن الاحنف
ارق شعراء الغزل العربي

بقلم فـوزي عطـوي

★ ★ ★

روى ابو الفرج الاصفهاني ، في كتاب « الاغاني » ان ابراهيم الموصلي مات سنة ثمان وثمانين ومائة ؛ ومات في ذلـك اليوم : الكسائي النحوي ، والعباس بن الاحنف الشاعر ، وهشيمة الخمارة ، فرفع ذلك الى الرشيد ، فامر ابنه المأمون ان يصلي عليهم : فخرج ، فصفوا بين يديه : فقال: من هذا الاول ؟

قيل : ـ ابراهيم

فقال : ـ اخروه ، وقدموا العباس بن الاحنف .

فتقدم ، فصلى عليهم . فلما فرغ وانصرف : دنـا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي ، فقال : ـ يـا سيدي كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر ؟

قال : لقوله :

وسمى بها ناس ، فقالوا انهـا ... لهي التي تشقى به ، وتكابـد
فجحدتهم ، ليكون غيرك قلتهم ، ... اني ليعجبني الهـوى الجاحـد

ثم قال له : اتحفظها ؟

قال : نعم .

فقال : انشدني باقيها .

فانشده :

لما رايت الليل سـد طريقـه ... عني ، وعذبني الغـرام الراكـد
والنجم في كبد السماء ، كانـه ... امهى تحير ، ما لديه قائـد

نادبـت من طرد الرقاد بصده ... عمن اعالـج ، وهو خـلو هاجد
يا ذا الذي صدع الفؤاد بهجره ... انـت البـلاء : طربته والتالـد
القيـت بين جفـون عيني حرقـة ... فالى متى انـا ساهر يا راقد ؟

ومنها قوله :

والله لو ان القلـوب كقلبهـا ... مـا رق للولـد الصغير الوالد

فقال المامون : ـ أليـس من قال هذا الشعر حقيقـا بالتقدمة ؟

فقلت : ـ بلى ؛ والله ، يا سيدي !

★ ★ ★

هذه الحادثة واشباهها ، منبثة بكثرة في « الاغاني » وفي غيره من كتب الادب التي اوردنا ثبتا بها في اخر هـذه الدراسة ، وهي تدل على عفة المعاني الوجدانية التي روج لها الشاعر ، فلم يتبذل ، ولم يترخص ؛ ولم يضعـف شعره رغم انه نظم اكثر ما نظم في الغزل والنسيب ، حتى لقد صح قول مصعب الزبيري : « العباس بن الاحنف ، وعمرو العراف ما ابتذلا شعرهما في رغيبـة ولا رهبة ، ولكن فيما احباه ، فلزما فنا واحدا لو لزمه غيرهما ممن يكثر اكثارهما ، لضعف فيه » .

من هو العبـاس ؟

فمن هو صاحب الترجمة ، العباس بن الاحنف ؟

ليس في المراجع التي بين ايدينا ما يحدد تاريخا دقيقا لولادة الشاعر . اما وفاته فكانت ، على ما رأينـا لدى الاصفهاني ؛ عام ١٨٨ هـ . وقيـل ١٩٢ هـ (١) . ونعرف عنه ، بعد هذا ، انه عربي يمامي من بني حنيفة : كان آباؤه ينزلون في خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ؛ ولمع منهم عمه حاجب ، اذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومرباه ببغداد ، ويظهر انه نشأ في نعمة وثراء ، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذي كان يجلب اليه عامة الشعراء طلبا للنوال والعطاء ، على ما يذهب اليه الدكتور شوقي ضيف ، وهو يضيف الى ذلك ان العباس اخذ يعيش حياة مترفة ، يختلط فيها بالشعراء ، من امثال ابي نواس وغير ابي نواس ، ولكن دون ان يتردى في خلاعتهم ومجونهم ، وقد يحضر مجالس الانس والشراب ، ولكن دون تعمق ودون اثم .

ويبدو ان اشتهار العباس بن الاحنف بالغزل فتح امامه باب قصر الخليفة هارون الرشيد ، فاصبح من ندمانه : وقد صحبه في غزواته بأرمينية واذربيجـان ، وغدا رسول الخير والحب بين الخليفة ومن يغاضب من جواريه ، فاذا به ينظم ابياتا يغنيها ابراهيم الموصلي ، فتعود المياه الى مجاريها بين الرشيـد ومن غاضبته او ادلت عليه من جواريه الحسان .

كان شاعرا عظيما

ولقد نحاول استجماع ما قاله العباس بن الاحنف ، في مختلف معاني الحب الانساني النبيل ، فيطول بنا الحديث ؛ ونحب ان الايماء الى معالم هذا الشعر

الغزلي الرائع يغني عن الاطالة ، وان ذكر اقوال كبار الشعراء فيه لما يؤكد لنا القيمةالفنية العاليةالتي احتلها هذا الشاعر في تاريخ الادب العربي . وان كانت شهرته بقيت محصورة في اذهان الخاصة من الدارسين المتادبين .

يقول عبد الله بن المعتز : لو قيل ما احسن شيء تعرفه ؛ لقلت : شعر العباس بن الاحنف .

قد سحب الناسأذيال الظنون بنا ... وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فكاذب قد رمى بالحب غيركم ... وصادق ليس يدري انه صدقا

ويقول ابراهيم بن العباس : ما رايت كلاما محدثا اجزل في رقة ، ولا اصعب في سهولة ، ولا ابلغ في ايجاز ، من قول العباس بن الاحنف :

تعالي تجدد دارس العهد بيننا ... كلانا على طول الجفاء ملوم

اما ابو العتاهية ، فكان يقول : ما حدث احدا الا العباس بن الاحنف في قوله :

إذا امتنع القريب فلم تنله ... على قرب ، فذاك هو البعيد

فاني كنت اولى به منه : وهو بشعري اشبه منه بشعره .

واما الكندي ، فكان يقول : العباس بن الاحنفمليح ظريف حكيم جزل في شعره : وكان قليلا ما يرضيني الشعر ، فكان ينشد له كثيرا :

الا تعجبون ، كما اعجب ... حبيب يسيء ولا يعتب
وابقي رضاه على سخطه ... فيابى علي ، ويستعتب
فيا ليت حظي اذا ما اساءت ... انك ترضى ولا تغضب

ومثله قول عبد الله بن العباس بن الفضل : ما اعرف في العراق احسن من قول ابن الاحنف :

سبحان رب العلا ، ما كان اغفلني ... عما رمتني به الايام والزمن
من لم يذق فرقة الاحباب ثم يرى ... آثارهم بعدهم ، لم يدر ما الحزن

شعره ، مجرى الامثال

ولقد انعقد شبه اتفاق بين الشعراء والمؤرخين على ان غزل العباس بن الاحنف كان : الى تعدد موضوعاته ، يمتاز بهذه الاولوية التي تسلس له قياد التفوق . ويورد ابو منصور الثعالبي في « الاعجاز والايجاز » قولا عن العباس بن الاحنف ؛ يرى فيه ان مما يجري مجرى المثل من غرر شعره ، قوله :

تزودكم ، لا تكافيكم بجلوتكم ... ان الحب اذا لم يتزد زادا
يقرب الشوق دارا وهي نازحة ... منعالج الشوق ، لم يتبعد الدارا

ومن معانيه المتحنة قوله :

ابكي ، ومثليبكي ، من حب جارية ... لم يخلق الله لي في قلبها لينا
هل تذكرين وقوفي عند بابكم ... نصف النهار ، واهل الدار لاهونا

ويبدو ان البكاء لغة بلد للشعراء المتيمين ان يتحدثوا بها . فمن لطيف اشعار العباس بن الاحنف في البكاء لفراق الاحبة ، قوله :

بكيت ، نعم بكيت ، وكل الف ... اذا باتت قريبته بكاها
وما فارقت لبنى عن تقال ... ولكن شقوة بلغت مداها

ومن الاصوات الجميلة التي كانت تروق هارون الرشيد ، صوت ابن جامع في قول العباس بن الاحنفحول البكاء :

الحب اول ما يكون لجاجة ... ناني به وتولته الاقدار
حتى اذا سلك الفتى لجج الهوى ... جاءت امور لا تطاق كبار
تزف البكاء دموع عينك فاستعر ... عينا لغيرك ، دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها ... ارايت عينا للبكاء تعار

ويروى ان بشارا لما روى هذين البيتين الاخيرين : اردف يقول : « لحق والله ، هذا الفتى بالمحسنين ، وما زال يدخل نفسه معنا ، ونحن نخرجه ، حتى قال هذا الشعر » .

وغنى سليم بن سلام الكوفي ، يوما ، بين يدي الرشيد ثلاثة اصوات من الهزج ، ومنها صوت في قول العباس بن الاحنف :

مت على من غبت عنه اسفا ... لست منه بمعيب خلفا
لن ترى قرة عين ابدا ... او ترى نحوهم منصرفا
قلت ، لما شفني وجدي بهم ... حسبي الله لما بي ، وكفى
بين الدمع لمن ابصرني ... ما تضمنت ، اذا ما ذرفا

فاستحسنها الرشيد ، وامر له بثلاثين الف درهم ، وقال : « لو كنت الحكم الوادي (وهو المنفرد بالهزج) ما زدت على هذا الاحسان في امزاجك ! »

عيون .. ودموع

ويستمر العباس ، مولعا بالحديث عن المدامع والعيون ، فيعبر عن قدرة اللسان على كتمان سر الحب ، فيما لا تستطيع العين ان تكتم من امر سره شيئا :

لا جزى الله دمع عيني خيرا ... وجزى الله كل خير لساني
ثم دمعي ، فليس يكتم شيئا ... ورايت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب ، اخفاه طي ... فاستدلوا عليه بالعنوان

ويقال ان الحرمازي ، بعدما انشد هذا القول ، علق عليه قائلا : « والله هذا طراز يطلب الشعراء مثله : فلا يقدرون عليه » .

ومن شعره ، في هذا المجال ، كلام غناه الواثق ، وكان اعلم الخلفاء بالغناء ، واحذق من غنى بضرب العود ؛ يقول العباس فيه :

يفرح الناس بالسماع وابكي ... انا حزنا ، اذا سمعت السماعا
ولها في الفؤاد صدع مقيم ... مثل صدع الزجاج ، اعيا الصناعا

ويؤكد العباس بن الاحنف رقة العين ، وضعفها عن كتم اسرار الهوى ، كما يؤكد حرصه على عدم انتشار حديث الحبيب بين الناس ، فيقول :

هبوني اغض اذا ما بدت ... واملك طرفي ، فما انظر
فكيف احتيالي ، اذا ما الدموع ... نطقن ، فبحن بما اضمر
ايا من سروري به شقوة ... ومن صفو عيشي به اكدر
اماني تخاف انتشار الحديث ... وحظي في ستره اوفر
ولو لم اصنه ، لبقيا عليك ... نظرت لنفسي كما تنظر

لكنه سرعان ما يعود ، فيعترف بان اللسان ليس اقل معاناة من العين ، في حمل تباريح الهوى الغلاب ، فاذا هو استطاع ان يتكتم على الحب اكثر من العين ؛ فان متاعب السر تؤول باللسان ، آجلا او عاجلا الى البوح به ، والتحلل من متاعبه :

لعمرك ما يتريح المحب ... حتى يبوح باسراره
فقد يكتم المرء اسراره ... فتظهر في بعض اشعاره

ذلك ان الحب اقوى من القلب : ومن اللسان والعين ، فهو يقهر الحبيب ؛ ولو كان لبيبا اريبا : وينطقه. مكرها ، بخبايا نفسه :

الحب املك للفؤاد بقهره من ان يرى للستر فيه نصيب
واذا بدا سر اللبيب ، فانه لم يبد الا والفتى مغلوب

ورغم كل هذا : فالعباس بن الاحنف حريص على من يحب : يحتال الحيل لصرف انظار الناس عنها ؛ لئلا يلوكوا سمعتها وسمعته ، ويتقولوا عليهما الاقوال والتخرصات :

اريد بالسلام فاتقيهم فاعمد بالسلام الى سوائي
واكثر فيهم ضحكي ليخفى فسني ضاحك ، والقلب باك

ذلك ان ما يتيسر لغيره من الاحبة ، عسير عليه مناله ، فلا يبقى له الا ان يمني نفسه الامنيات :

تمنى رجال ما احبوا وانما تمنيت ان اشكو اليك وتسمعا
ارى كل معشوقين غيري ، وغيرها قد استعتبا طول الهوى وتمتعا

رسول الخير بين المحبين

وقد بلغ من رقة شعر العباس بن الاحنف وجودته: ان الخلفاء والوزراء كانوا يتمثلون به ويروونه ، وان شعره غالبا ما كان واسطة خير بين المحبين منهم ، اذا دبت الى علاقاتهم بمحبوباتهم اسباب من الجفوة او الملالة .

يروي الاصفهاني ان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع جاء الى الحسن بن وهب ، وعنده « بنان » جارية محمد بن حماد ، وهي نائمة سكرى ، وهو يبكي عندها ، قال له : ما لك ؟

قال : ـ قد كنت نائما ، فجاءتني ، فانبهتني :

وقالت : « اجلس حتى تشرب » ، فجلست ، فوالله ما غنت عشرة اصوات حتى نامت ؛ وما شربت الا قليلا ، فذكرت قول اشعر الناس ، واظرفهم ، العباس بن الاحنف:

ابكي الذين اذا قلوني مودتهم حتى اذا ابتغوني للهوى ، رقدوا

فانا ابكي وانشد هذا البيت !!

وروى ان عليا بن هشام كلم « متيما » ، فاجابته جوابا ، ولم يرضه ؛ فدفع يده في صدرها ، فغضبت ونهضت ؛ فتثاقلت عن الخروج اليه ، فكتب اليها :

فليت يدي بانت غداة مددتها اليك ، ولم ترجع بكف وساعد
فان يرجع الرحمن ما كان بيننا فلست الى يوم التنادي بعائد

عتبت عليه مرة ؛ فتمادى عتبها : وترضاها فلم ترض ، وقال : الادلال يدعو الى الاملال : ورب هجر دعا الى صبر ، وانما سمي القلب قلبا لتقلبه . ولقد صدق العباس بن الاحنف حيث يقول :

ما اراني الا مباهجر من ليس يراني القوى على الهجران
قد حدا بي الى الجفاء وفاني ما اصر الوفاء بالانسان

واخبر الصولي الاصفهاني ان حمادا بن اسحق روى عن ابيه : قال : غضب الفضل بن الربيع على جارية له : كانت احب الناس اليه ، فتأخرت عن استرضائه ، فنمه ذلك ، فوجه الى ابي يعلمه ويشكوها اليه ، فكتب اليه ابي : لك العزة والشرف ، ولاعدائك الذل والرغم .

استعمل قول العباس بن الاحنف :

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه وان كنت مظلوما ، فقل: انا ظالم
فانك الا تغفر الذنب في الهوى يفارقك من تهوى وانفك راغم

فقال : « صدقت » . وبعث اليها ، فترضاها .

وقيل ان شرا وقع بين « عريب » ، وبين محمد بن حامد : وكان يجد بها الوجد كله :فكادا يخرجان من شرهما الى القطيعة ؛ وكان في قلبها منه اكثر مما في قلبه منها ، فلقيته يوما ، فقالت له :

كيف قلبك ، يا محمد ؟

قال : اشقى . والله ، ما كان واقرحه .

فقالت : استبدل بديلا .

فقال لها : لو كانت البلوى بالخيار لفعلت .

فقالت : لقد طال اذن تعبك .

فقال : وما يكون ؟ اصبر مكرها . اما سمعت قول العباس بن الاحنف :

تعب يكون مع الرجاء بذي الهوى . خير له من راحة في اليأس
لولا كرامتكم ، لما عاتبتكم ولكنتم عندي كبعض الناس

فذرفت عيناها ، واعتذرت اليه ، واعتبته ، واصطلحا ، وعادا الى افضل مما كانا عليه !

الرشيد «ع» وقصائد العباس

وكان لهارون الرشيد جارية تعرف باسم « ذات الخال » : فلعته يوما ، فوعدها ان يصير اليها ، وخرج يريدها ؛ فاعترضته جارية ، فسالته ان يدخل اليها ، فدخل واقام عندها ، فشق ذلك على « ذات الخال » ، وقالت : « والله لاطلبن له شيئا اغيظه به » .

وكانت ذات الخال احسن الناس وجها ، ولها خال على خدها ، فلم ير الناس احسن منه في موضعه ، فلعت بمقراض ، فقصت الخال الذي كان في خدها .

وبلغ ذلك الرشيد ، فشق عليه ، وبلغ منه ، فخرج من موضعه ، وقال لوزيره الفضل بن الربيع :

ـ انظر من بالباب من الشعراء ؟

فقال الفضل : الساعة ، رايت العباس بن الاحنف .

فقال : ادخله .

فادخله ، فعرفه الرشيد الخبر ، وقال : « اعمل في هذا شيئا » على معنى رسمه له ؛ فقال :

تخلصت ممن لم يكن ذا حفيظة وملت الى من لا يفي بي حال
فان كان قطع الخال لما نطقت على غيرها نفسي، فقد ظلم الخال

فنهض الرشيد الى « ذات الخال » ؛ مرعاة ، مترضيا لها ؛ وجعل هذين البيتين سببا ، وامر للعباس بالفي دينار ، وامر ابراهيم الموصلي : فغناه في هذا الشعر .

وفي «ذات الخال» يقول العباس بن الاحنف شعرا يغنيه ابراهيم الموصلي ايضا :

الا ليت «ذات الخال» تلقى من الهوى عشر الذي القى فيلتئم الحب
وصالكم صد ، وقربكم قلى وعطفكم سخط وسلمكم حرب

كما روى ان الرشيد غضب على ام جعفر ؛ ثم

ترضاها ، فبت ان ترضى ، فارق ليله . ثم قال : « افرشوا لي على دجله » ، ففعلوا . فقعد ينظر الى الناء. وقد رأى زيادة عجيبة ، فسمع غناء في هذا الشعر :

جرى السيل فاستبكاني السيل اذ جرى ... وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك الا حين خبرت انه ... يمر بسواد انت منه قريب
يكون اجاجا ماؤه ، فاذا انتهى ... اليكم ، تلقى طيبكم ، فيطيب
فيا ساكني شرقي دجلة ، كلكم ... الى القلب ، من اجل الحبيب حبيب

فسأل عن الناحية التي فيها الغناء ، فقيل له : دار ابن المسيب . فبعث اليه ان ابعث بالمغني ، فاذا هو الزبير بن دحمان . فسأله عن الشعر : فقال : « هو للعباس بن الاحنف » ، فأحضر واستنشده ، فأنشده اياه وجعل الزبير يغنيه ، والعباس ينشده ، وهو يستعيدهما حتى اصبح ، فقام فدخل الى ام جعفر ، فسألت عن سبب دخوله ، فعرفته ، فوجهت الى العباس بالف دينار والى الزبير بالف دينار اخرى !!

ومما يروى عن هارون الرشيد ايضا انه هجر « مارية » ، وقيل « ماردة » ام ابنه المعتصم ، لكنه كاد يموت من شدة حبه لها وشوقه اليها ، الا انه استكبر ان يبادئها بالصلح ، واستكبرت ان تصالحه بدورها ، لانه هو الذي بدأ بالهجران . وفيما كل منهما يكابد الشوق للاخر ، علم وزير الرشيد الفضل بن الربيع ، « وقيل يحي بن خالد البرمكي » ، فطلب الوزير العباس بن الاحنف وقال له : « ان « مارية » هي الغالبة على امير المؤمنين ، وانه جرى بينهما عتب ، فهي بعزة دالة المعشوق تابى ان تعتذر ، وهو بعزة الخلافة وشرف الملك والبيت يابى ذلك. وقد رمت الامر من قبلهما فاعياني ، وهو احرى ان تستفزه الصبابة ، فقل شعرا تسهل به عليه هذه القضية » واعطاه دواة وقرطاسا ، فطلبه الرشيد ، فتوجه اليه ونظم العباس قوله :

العاشقان كلاهما متجنب ... وكلاهما متعتب متغضب
صدت مهاجرة ، وصد مهاجرا ... وكلاهما ، مما يعالج متعب
راجع احبتك الذين هجرتهم ... ان التيمم للذي يتجنب
ان التجنب ، ان تطاول منهما ... دب السلو له ، وعز المطلب

ثم قال العباس بن الاحنف لاحل الرسل : « ابلغ الوزير اني قد قلت اربعة ابيات ، فان كان فيها مقنع ، وجهت بها اليه » . فعاد الرسول وقال : « هاتها ، ففي اقل منها مقنع » . فكتب الابيات ، وكتب تحتها ايضا :

لا بد للعاشق من وقفة ... تكون بين الوصل والصرم
يعتب احيانا ، وفي عتبه ... اظهار ما يخفي من السقم
اشفاقه داع الى قلبه ... وقلبه داع الى الظلم
حتى اذا الهجر تمادى به ... راجع من يهوى على الرغم

فدفع الوزير الرقعة الى الرشيد ، فقال : « والله ما رايت شعرا اشبه بما نحن فيه من هذا الشعر . والله لكاني قصدت بهذا » .

فقال : والله ، يا امير المؤمنين ، وانت المقصود به .

فقال الرشيد : « يا غلام! هات نعلي ، فانني اراجعها على رغم » . فنهض ، واذهله السرور ان يامر للعباس بشيء .

ثم ان « مارية » لما علمت بمجيء الرشيد اليها : تلقته وقالت : « كيف ذلك ، يا امير المؤمنين ! » فأعطاها الشعر : وقال : « هذا الذي جاء بي اليك » .

قالت : « فمن قاله » ؟

قال : « العباس بن الاحنف » .

قالت : « فيم كوفيء ؟ »

قال : « ما فعلت بعد شيئا » .

فقالت : « والله لا اجلس حتى يكافأ » .

فأمر له بمال كثير ، وأمرت له هي بدون ذلك : وأمر له يحي بدون ما امرت به ، وحمل على برذونه . ثم قال له الوزير : « تمام النعمة ، عندك ، ان لا تخرج من الدار حتى تؤثل لك بهذا المال ضيعة » . فاشترى له ضياعا بجملة من ذلك المال ، ودفع اليه بقيته .

وقيل انه كان للرشيد ثلاث جوار استأثرن بحبه ، وفيهن يقول الخليفة نفسه :

ان سحرا وضياء وخنث ... هن سحر وضياء وخنث
اخلت سحر ، ولا تنسب لها ... للثي قلبي ، وترياها الثلث

ويذكر الاصفهاني ان العباس بن الاحنف قال عن لسان الرشيد ، في هؤلاء الجواري :

ملك الثلاث الانسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان
ما ذاك الا ان سلطان الهوى ... وبه قوين ، اعز من سلطاني

لكننا نميل الى القول القائل بان الابيات هي من نظم الرشيد ذاته ، لا سيما وان له شعرا بهذا النفس : وفي هذا المعنى ، ومنه :

ثلاث قد حللن حمى فؤادي ... ويعطين الرغائب في ودادي
نظمت قلوبهن بخيط قلبي ... فهن قرابتي حتى التنادي
فمن يك حل من قلبي محلا ... فهن من النواظر والسواد

العباس بن الاحنف والخليفة الواثق

فاذا انتقلنا الى الخليفة الواثق ، عرفنا من اخباره ومن تمثله بشعر العباس بن الاحنف ، الشيء الكثير : روى احمد بن حمدون ، قال : كان بين الواثق وبين بعض جواريه شر ، فخرج كسلان . فلم ازل انا والفتح بن خاقان نحتال لنشاطه ، فرآني اضاحك الفتح : فقال : قاتل الله ابن الاحنف حيث يقول :

عدل من الله ابكاني واضحكها ... فالحمد لله ، عدل كل ما صنعا
اليوم ابكي على قلبي واندبه ... قلب الح عليه الحب فانصدعا

فقال الفتح : انت والله ، يا امير المؤمنين في وضع التمثل موضعه ، اشعر منه ، واعلم ، واظرف !

ومن اخبار الواثق ايضا ان جارية له ، كان يهواها ، وقد جرى بينهما عتب : « ان كنت تستطيل بعز الخلافة ، فانا ادل بعز الحب . اتراك لم تسمع بخليفة عشق قبلك قط ، فاستوفى من معشوقه حقه ؟ ولكني لا ارى لي نظيرا في طاعتك » . فقال الواثق : لله در ابن الاحنف حيث يقول :

اما تحسبيني ارى العاشقين ... بلى ، لم لست ارى لي نظيرا

لعل الذي بيديه الامور سيجعل في الكره خيرا كثيرا

وكان الواثق ، كما ينشح . يؤثر شعر ابن الاحنف على كل شعر عداه ، فمن اتبانه ما حدث به محمد بن عمرو الرومي ، اذ قال : كنا عند الواثق . فقال « اريد ان اسمع لحنا في شعر معناه ان الانسان كائنا من كان ، لا يقدر على الاحتراس من عدوه . فهل تعرفون في هذا شيئا ؟ »

فانشدنا ضروبا من الاشعار ، فقالت : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الاحنف :

قلبي الى ما ضر بي داع يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا كان عدوي بين اضلاعي ؟
اسلمني الحب لاشياعي ، لما سعى بي عندها الساعي
فلقلما ابقى على كل ذا يوشك ان ينعاني الناعي

قال : فعمل فيه الواثق لحنه الثقيل ، النشيد . الاول ، بالوسطى !

الشاعر والخليفة المتوكل

وتنتقل عدوى محبة شعر العباس بن الاحنف الى الخليفة المتوكل الذي يجهد نفسه ، فيما يروى ، في تقليد شعر العباس ، وفي تقليد لحن الواثق ، فلا يستطيع الى شيء من ذلك سبيلا . يقول علي بن الجهم : « انصرفت ليلة من عند المتوكل ، فلما دخلت منزلي ، جاءني رسوله يطلبني ؛ فراعني ذلك ، وقلت : « بلاء تنبعت به بعد انصرافي » . فرجعت اليه وجلا ؛ فادخلت عليه وهو في مرقده ؛ فلما رآني ضحك ، فايقنت بالسلامة . فقال : « يا علي ! انا مذ فارقتك ساهر ، فخطر على قلبي هذا الذي يغني فيه اخي (الواثق) قول الشاعر (ابن الاحنف) « قلبي الى ما ضرني داع » ، فحرصت ان اعمل مثل هذا ، فلم يجئني ، او ان اعمل مثل اللحن فما امكنني ، فوجدت في نفسي تقصا . فقلت : « يا سيدي ، كان اخوك خليفة يغني ، وانت خليفة لا تغني » فقال : « قد والله اهديت الى عيني نوما . اعطوه الف دينار » فاخذتها وانصرفت !

واذا كنا ، الى الان ، لم نعمد الى التعليق الا لماما على ما نروي من احداث الخلفاء والشعراء ، فان قصة المتوكل ، هذه ، تشير الى اي مدى تمكن حب الفن الشعري والغنائي من نفوس الخلفاء ، حتى لقد اصبح شعور بعضهم بالنقص في نفسه ، يرجع الى عجزه عن نظم الشعر : او تلحين القصائد ، اكثر من عجزه عن سياسة امور الناس. الا ، ما اعظم هموم امثال اولئك الخلفاء !!

التشنيع على الشعر

ويبدو ان التشنيع على الشعر ليس اختراعا جديدا عند الناس . فقد كان بعضهم يشنع على الشعراء ويحاول الانتقاص من معانيهم ، كمثل ما فعل ابو الحرث حميد ؛ عندما روى ابيات العباس بن الاحنف السالفة الذكر .

فقد ورد في كتاب الشاهيني ان ابا لحرث حميد انشد قول العباس بن الاحنف : « قلبي الى ما ضرني داع » ، فبكى ؛ ثم قال : هذا شعر رجل جائع في جارية طباخة مليحة .

فقيل له : من اين قلت ذاك ؟

قال : لانه بدأ فقال :

قلبي الى ما ضرني داع يكثر اسقامي واوجاعي

وكذلك الانسان ، يدعوه قلبه وشهوته الى ما ضره من الطعام والشراب . فياكله ، فتكثر علله واوجاعه ، وهذا تعريض . ثم صرح فقال :

كيف احتراسي من عدوي اذا كان عدوي بين اضلاعي

وليس للانسان عدو بين اضلاعه الا معدته ؛ فهي تتلف ماله ، وهي سبب اسقامه ، وهي مفتاح كل بلاء عليه . ثم قال :

ان دام لي هجرك يا مالكي اوشك ان ينعاني الناعي

فعلمت ان الطباخة كانت صديقته ، وانها هجرته ؛ ففقدها وفقد الطعام ، فلو دام ذلك عليه ، لمات جوعا ؛ ونعاه الناعي :

وتلاحظ على هذه الرواية اختلاف البيت الاخير . ففي رواية محمد بن عمرو الرومي :

فلقلما ابقى على كل ذا يوشك ان ينعاني الناعي

واما في كتاب الشاهيني ؛ فقد ورد البيت كما يلي:

ان دام لي هجرك يا مالكي اوشك ان ينعاني الناعي

وللعباس بن الاحنف ابيات عينية اخرى ، من هذا القبيل ، يقول فيها :

بكت عيني لاتباع من الحزن ، واوجاع
واني كل يوم عندكم يحلى بي الساعي
اعيش الدهر ان عشت بقلب منك مرتاع
وان حل بي البعد سينعاني لك الناعي

وهذه الابيات، على ما يروي محمد بن عبدالله التميمي قد اجيز مخارق المغني على غنائها بمئة الف درهم . فقد قال : كنا في مجلس ابن الاعرابي ، اذ اقبل رجل من ولد سعيد بن سالم ، كان يلزم ابن الاعرابي ، وكان يحبه ويانس به ، فقال له : ما اخرك عني ؟

فاعتذر باشياء ، ثم قال : كنت مع مخارق ؛ عند بعض بني الرشيد ، فوهب له مائة الف درهم على صوت غناه به ، فاستكثر ذلك ابن الاعرابي واستهاله ، وعجب منه ، وقال : ما هو ؟

قال : غناء بشعر عباس بن الاحنف :

بكت عيني لاتباع من الحزن ، واوجاع

فقال ابن الاعرابي « اما الغناء فما ادري ما هو ، ولكن هذا ، والله ؛ كلام قريب مليح » .

العباس بن الاحنف وملهمته « فوز »

ومما حدث به الصولي (٢) ان احمد بن ابراهيم قال رايت سلمة بن عاصم ، ومعه شعر العباس بن الاحنف ، فعجبت منه ، وقلت : « مثلك ، اعزك الله ، يحمل هذا ؟»

فقال : الا احمل شعر من يقول :

اسأت ان احسنت ظني بكم ... والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني الشوق ، فاتيكم ... والقلب مملوء من اليأس

ومطلع هذا الشعر، قول العباس في «فوز» الجارية :

يا فوز ، يا هيبة عباس ... واحربا من قلبك القاسي

ومتى ذكرنا قول العباس بن الاحنف :

الحب اول ما يكون لجاجة ... تاتي به وتوقه الاقدار
حتى اذا سلك الفتى لجج الهوى ... جاءت امور لا تطاق ، كبار

امكننا فهم العلاقة العاطفية التي ربطته بفوز الجارية، والتي كانت تتارجح بين الرضى والغضب ، وبين اللقاء والفراق .

لقد كانت « فوز » ، هذه ، جارية لمحمد بن المنصور الملقب « فتى العسكر » ، ثم ان بعض شباب البرامكة (وقيل احد امراء البيت العباسي) اشتراها ، فدبرها وحج بها ، وكان العباس بن الاحنف قد علق هواها ، فقال في ذلك :

يا رب رد علينا ... من كان انا وزينا
من لا نر بعيش ... حتى يكون لدينا
يا من اتاح لقلبي ... هواه شؤما وحينا
ما زلت مذ غبت عني ... من اسخن الناس عينا
ما كان حجبك عني ... الا بلاء علينا

وكان العباس ، وهو يذكر « فوزا » بهذا الشعر ، يتشبه بابي العتاهية في ذكره « عتبة » . فلما قدمت « فوز » من الحج ، قال العباس بن الاحنف ، متهللا، مرحبا :

الا قد قدمت فوز ... فقرت عين عباس
لمن بشرني البشرى ... على العينين والراس
ايا دياجة الحسن ... ويا رامشنة الانس
يلومني على الحب ... وما بالحب من باس

ويلاحظ على صدر البيت الاخير ان الارتجال والعجلة حملا الشاعر على جزم فعل المضارع ، دون وجود عامل من عوامل الجزم ، وكان الاصح ان يقول : « يلومونني » باثبات نون الوقاية .

وتتمادى ، بعد ذلك ، حكاية العباس مع فوز ، وقد روى الاصفهاني تفاصيل كثيرة ، منها ان العباس وجه رسولا الى فوز ، فعاد فاخبره انها تجد صداعا ، وانه رآها معصوبة الراس ، فقال العباس :

عصبت راسها ، فليت صداعا ... قد شكته الي ، كان براسي
لم لا تشتكي ، وكان لها الاجر ... وكنت السقام عنها اقاسي
ذاك حتى يقول لي من رآني ... هكذا يفعل المحب المؤاسي

وبعد ذلك ، برئت فوز من صداعها ، لكنها عادت فنكست من جديد ، فقال :

ان التي هاست بها النفس ... عاودها من عارض نكس
كانت اذا ما جاءها المبتلى ... ابراه من كفها اللمس
وابابي الوجه المليح الذي ... قد عشقته الجن والانس
ان تك الحمى اضرت به ... فربما تكسف الشمس

ويلج بين الشاعر والجارية جفاء لا يرى الشاعر له سببا ، فيكتب الى فوز ، يقول :

اما والذي ابلى المحب وزادني ... بلاء ، لقد اسرفت في الظلم والهجر
فان كان حقا ما زعمت ، اتيته ... اليك ، فقام النائحات على قبري
وان كان عدوانا علي وباطلا ... فلامت حتى نسهري الليل من ذكري (٣)

ولما بلغت ابياته هذه فوزا ، بعثت اليه تقول « اظننا ظلمناك ، يا ابا الفضل : فاستجيب لك فينا . ما زلت البارحة ساهرة ، ذاكرة لك » !

ومن شعره الجيد في « فوز » قوله

يا فوز ما ضر من يمسي وانت له ... الا يفوز بدنيا آل عباس
ابصرت شيئا بمولاها ، فواعجبا ... منه يراها، ويبدو الشيب في الراس

ومنه ايضا

اذا انت لم تعطفك الا شفاعة ... فلا خير في ود يكون بشافع
واقسم ما تركي عتابك عن قلى ... ولكن لعلمي انه غير نافع
واني ان لم الزم الصمت ظالما ... فلا بد منه مكرها غير طائع

ومن جميل شعره ايضا

وحدثتني، يا سعد، عنهم فزدتني ... جنونا ، فزدني من حديثك يا سعد
هواها هوى لم يعرف القلب غيره ... فليس له قبل ، وليس له بعد

وبلغ من اعجاب الشعراء بالعباس بن الاحنف انهم كانوا يتمنون لو قالوا بعض ابياته بكل ما قالوه من شعر ، وهذا محمد بن الفضل بن الاسود يروي لنا انه قرا على احمد بن ابي فنن ، شعر العباس بن الاحنف ، وكان مشغوفا به فقال احمد : « وددت ان ابياته التي يقول فيها : « يا فوز ما ضر من يمسي وانت له » لي ، بكل شعري » !

والحبيب مطاع الرغبة عند حبيبه ، وشفاعته مطلقة لا ترد . وقد حدث محمد بن سلام انه كان في خلق العباس بن الاحنف شدة (٤) ، فضرب غلاما له ، وحلف ان يبيعه، فمضى الغلام الى « فوز » فاستشفع بها عليه ، فكتبت اليه ، فقال :

يا من اتانا بالشفاعات ... من عند من فيه لجاجاتي
ان كنت مولاك ، فان التي ... قد شفعت فيك لمولاتي
ارسالها فيك الينا ، لنا ... كرامة فوق الكرامات

وتتوسل « فوز » جارية يقال لها « يمن » لتكون رسولا بينها وبين العباس بن الاحنف ، فمضت يمن الى فوز ، ذات مرة ، وقد طلبت من العباس شيئا ، فمنعها اياه وزعمت انه ارادها ودعاها الى نفسه ، فغضبت فوز من ذلك ، فكتب اليها :

لقد زعمت يمن باني اردتها ... على نفسها ، تبا لذلك من فعل
سلوا عن قميصي مثل شاهد يوسف ... فان قميصي لم يكن قد من قبل

وتعابث فوز شاعرها وتمازحه ، فلا يطيق عبثها ومزاحها . يقول ابراهيم بن اسماعيل : جاءنا العباس بن الاحنف ، يوما ، وهو كئيب ، فتشطناه ، فابى ان ينشط فقلنا : ما دهاك ؟ فقال : لقيتني «فوز» ، اليوم فقالت لي « يا شيخ » ، وما قالت ذلك الا من حارث ملال . فقلنا له : هون عليك ، فانها امراة لا تثبت على حال ، وما ارادت الا العبث بك ، والمزاح معك .

فقال : اني والله قد قلت اقبح مما قالت . ثم انشدنا :

حزنت ، اذ رأت كئيبا مني افسدته الخطوب ، فهو حزين
حزنت بي ، ونلت ما نلت منها يا لقوم ! فاينا المغبون

فقلت له : قد انتصفت وزدت !

وما بين الرغبة في الشاعر ، والرغبة عنه ، تتصل حكاية العباس بفوز . ثم تنتهي الى حيث ينبغي ان ينتهي ترخص امراة ، واباء شاعر . فقد روي ان فوزا مالت الى بعض اولاد الجند ، وبلغ ذلك العباس فتركها ، ولم ترض هي البديل ، بعد ذلك ، فعادت الى العباس ، وكتبت اليه تعاتبه في جفائه فكتب اليها يقول :

كتبت تلوم وتستريب زيارتي وتقول : لست لنا كعهد العاهد
فاجبتها ، ودموع عيني جمة تجري على الخدين غير جوامد
يا فوز لم اهجركم لملالة مني ، ولا لقال واش حاسد
لكنني جزيتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعام واحد

وقد اتهم العباس بن الاحنف بانه سرق هذه الابيات من ابي نواس ، حيث يقول :

ومظهرة لخلق الله ودا وتلقاني بالتحية والسلام
اتيت فؤادها اشكو اليه فلم اخلص اليه من الزحام
فيا من ليس يكفيه محب ولا الفا محب ، كل عام
اقتلك من بقية قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

الهجاء في شعره

لم يعالج العباس بن الاحنف موضوعا رثيا في الشعر ، غير الغزل . اما الهجاء ، فلم يعرف له غير بيتين اثنين : قالهما في ابي الهذيل العلاف ، وهما :

يا من يكذب اخبار الرسول ، لقد اخطأت في كل ما تاتي وما تذر
كذبت بالقدر الجاري عليك ، فقد اتاك مني بما لا تشتهي القدر

وسبب هجائه هذا . ان العلاف كان يكن له البغضاء ويسب عليه اللعنة كلما ذكر . يقول حسين بن فهم : سمعت العطوي (٥) (اباعبد الرحمن) يقول : كان العباس بن الاحنف شاعرا مجيدا غزلا ، وكان ابو الهذيل العلاف يبغضه ، ويلعنه لقوله :

اذا اردت سلوا ، كان ناصركم قلبي ، وما انا من قلبي بمنتصر
فاكثروا او اقلوا من اساءتكم فكل ذلك محمول على القدر

قال : فكان ابو الهذيل يلعنه لهذا ويقول : يقصد الكفر والفجور في شعره .

وهكذا ، فقد كان الهجاء الفريد الذي نظمه العباس ، بمثابة رد للتحية بمثلها .

الالحنين الى الديار

كما عرف للعباس بن الاحنف اربعة ابيات في الحنين الى الديار . قالها يوم خرج الرشيد ومعه العباس الى خراسان ، وطال مقامه بها ، ثم خرج الى ارمينية ، والعباس معه ، ماشيا الى بغداد ، فعارضه في طريقه ، فانشده :

قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا
ما اقدر الله ان يدني على شحط سكان دجلة من سكان جيحانا
متى الذي كنت ارجوه وآمله اما الذي كنت اخشاه ، فقد كانا
عين الزمان اصابتنا ، فلا نظرت وعذبت بعسوف الهجر الوانا

فقال له الرشيد : « قد اشتقت يا عباس ؛ واذنت لك خاصة » ، وامر له بثلاثين الف درهم .

مداعبته للاصمعي

وكان العباس بن الاحنف يحب مداعبة العلماء ، ولا يتورع عن ذلك حتى امام الخلفاء او الوزراء . فقد اورد الاصفهاني قصة ابن الاحنف مع الاصمعي ، في حضرة الرشيد (٦) ، فقال :

دخل الاصمعي على الرشيد ، والعباس بن الاحنف عنده ، فقال العباس للرشيد : دعني اعبث بالاصمعي .

فقال له الرشيد : انه ليس ممن يحتمل العبث !

فقال : لست اعبث به عبثا يشق عليه .

قال : انت اعلم !

فلما دخل الاصمعي ، قال له : يا ابا سعيد : من الذي يقول :

اذا احببت ان تصنع شيئا يعجب الناسا
فصور ههنا فوزا وصور ثم عباسا
فان لم يدنوا حتى ترى راسيهما راسا
فكلبها بما قالت وكلبه بما قاسى

فقال له الاصمعي ، يعرض بانه نبطي : قاله الذي قال :

اذا احببت ان تبصر شيئا يعجب الخلقا
فصور ههنا دورا وصور ههنا فلقا
فان لم يدنوا حتى ترى خلفيهما خلقا
فكلبها بما لاقت وكلبه بما بلقى

فخجل العباس بن الاحنف ، وقال له الرشيد : « قد نهيتك ، فلم تقبل » .

لكن تلك الدعابة ، وهذا التعريض ، لم يمنعا الاصمعي من انصاف العباس بن الاحنف ، عندما سئل : « ما احسن ما تحفظ للمحدثين ؟ » فقد قال : قول العباس بن الاحنف :

لو كنت عاتبة لكن روعتي اني رضاك ، وزرت غير مراقب
لكن ملكت ، فلم تكن لي حيلة ضد القبول خلاف ضد العاتب

وللاصمعي راي اخر في العباس بن الاحنف ، فقد حدث محمد بن القاسم بن مهرويه ، قال : انشدني ابراهيم بن العباس ، للعباس بن الاحنف :

قالت قلوم ، سمية القلم ما لي رايتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي ، فاقصده انت العليم بموضع السهم

فقلت له : ان اباحاتم السجستاني حكى عن الاصمعي انه انشد للعباس بن الاحنف :

اتاذنون لعبد في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لايضمر السوء ان طال الجلوس به عف الضمير ، ولكن فاسق النظر

فقال الاصمعي : « ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه ، فلا يخرج شيئا ، حتى ادخلها فاخرج هذا ، ومن ادمن طلب الشيء ، ظفر ببعضه »

فقال ابراهيم بن العباس : « انا لا ادري ما قال الاصمعي ، ولكن انشدك للعباس ما لا تدفع انت ولا غيرك فضله » ثم انشدني قوله :

والله لو ان القلوب كقلبها ما رق للولد الضعيف الوالد

وقوله :

لئن ملت ، فلم تكن لي حيلة ... ضد الملول خلاف ضد العائب

وقوله :

حتى اذا التحم الفتى لجج الهوى ... جاءت امور لا تطاق ، كبار

ثم قال : « هذا ، والله . لا يقدر احد على ان يقول مثله ابدا » .

وللبيتين اللذين انشدهما الاصمعي ، حكاية طريفة. فقد حدث ميمون بن هرون ، قال : كنا عند الحسن بن وهب ، فقال لـ « بنان » : غنيني

انا لاذنون لعب في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يقصر الوء ان طال الجلوس به ... عف الضمير ، ولكن فاسق النظر

قال : فضحكت ، ثم قالت : « فاي خير فيه ان كان كذا ؟ » او « اي معنى ؟ »

فخجل الحسن من بادرتها عليه ، وعجبنا من حدة جوابها وفطنتها .

اشعر الناس .. اغزل الناس

ولقد ترددت عبارة « اشعر الناس » و « اغزل الناس » في الاحكام التي اطلقها كثيرون ممن اعجبوا بشعر العباس بن الاحنف . فهذا الزبير يقول : ابن الاحنف اشعر الناس في قوله :

احرم منكم بما اقول ، وقد ... نال به العاشقون من عشقوا

صرت كاني ذبالة نصبت ... تضيء للناس وهي تحترق

انت لا تعلمين ما الهم والحزن ... ولا تعلمين ما الارق ؟

وفي البيتين الاولين ، قال الرياشي عن العباس بن الاحنف : « لو لم يقل من الشعر الا هذين البيتين لكفيا» .

وعن ظرفه لشعره ، كان ابراهيم الموصلي يقول : لقد ظرف ابن الاحنف في قوله ، يصف بعد عهده بالنوم :

قفا خبراني ايها الرجلان ... عن النوم ، ان الهجر عنه نهاني

وكيف يكون النوم ، ام كيف طعمه ... صفا النوم لي ان كنتما تصفان

والمعروف ان ابراهيم الموصلي كان قليل الاعجاب بمثل هذه الاشعار ، ولكنه مع ذلك ، لم يستطع الاالاعتراف بظرف ابن الاحنف وشاعريته .

يضاف الى ما تقدم ان حفيده ، حماد بن اسحق كان يقول : كان جدي ابراهيم مشغوفا بشعر العباس ؛ فيغني في كثير من شعره ، فذكر اشعارا كثيرة حفظت منها :

وقد مثلت ماء الشباب كانها ... قضيب من الريحان ، ريان ، اخضر

هم كتموني سرهم ، حين ازمعوا ... وقالوا : اتعدنا للرواح ، وبكروا

وروى ان المامون ، لما انشد قول ابن الاحنف « هم كتموني سرهم حين ازمعوا » قال « سخروا بابي الفضل»

شاعر يعجب البدو والحضر

وعن شاعريته المتفوقة التي تعجب البدو والحضر على السواء ، روى احمد بن ابراهيم قال : اتاني اعرابي فصيح ظريف ، فجعلت اكتب عنه اشياء حسانا ، ثم قال لي : « انشدني لاصحابكم الحضريين » فانشدته للعباس بن الاحنف :

ذكرتك بالتفاح لما شممته ... . لما قابلت اوجه ....

تذكرت بالتفاح منك سوالفا ... . طعما من مقبلك العذب

فقال : « هذا عندك ، وانت تكتب عني . لا انسدك حرفا . بعد هذا » .

بين العباس وابي العتاهية

ومن اوثق الدلائل على اهتمام العصر العباسي الذي ينتمي اليه العباس بن الاحنف ، بالشعر : تعصب الناس لهذا او ذاك من الشعراء ، وانقسامهم ما بين مؤيد ومعارض . وفي « الاغاني » ، يروي الاصفهاني حكاية لمجلس من مجالس الرشيد ، ويذكر قول اسحق بن ابراهيم الموصلي :

كان الرشيد يقدم ابا العتاهية حتى يجوز الحد في تقديمه ، وكنت اقدم العباس بن الاحنف . فاغتابني بغض الناس عند الرشيد ، وعابني عنده ؛ وقال عقب ذلك : « بحبك يا امير المؤمنين انه يخالفك في العباس ابن الاحنف ، على حداثة سنه ، وقلة حذقه وتجربته ، ويقدمه على ابي العتاهية ، مع ميلك اليه » .

وبلغني الخبر ، فدخلت على الرشيد ، فقال لي ابتداء : « ايما اشعر عندك : العباس بن الاحنف : او ابو العتاهية ؟ »

فعلمت الذي يريد ، فاطرقت كاني متشبث ؛ ثم قلت : ابو العتاهية اشعر .

قال : انشدني لهذا ولهذا .

قلت : فبايهما ابدا ؟

قال : بالعباس .

فانشدته اجود ما ارويه للعباس ، وهو قوله :

احرم منكم بما اقول وقد ... نال به العاشقون من عشقوا

فقال لي : احسن . فانشدني لابي العتاهية :

فانشدته اضعف ما اقدر عليه ، وهو قوله

كان عتابة من حسنها ... ذمية قس فتنت قسها

يا رب لو انيتها بما ... في جنة الفردوس ، لم انسها

اني اذن مثل التي لم تزل ... دائبة في طحنها كسها

حتى اذا لم يبق منها سوى ... حفنة بر ، قتلت نفسها

قال : اتعيره بهذا ؟ اين انت من قوله :

قال لي احمد ، ولم يدر ما بي ... اتحب الفتاة عتبة حقا

فتنفست ، ثم قلت : نعم ، حبا ... حرى في العروق ، عرقا فعرقا

ويحك ! اتعرف لاحد مثل هذا ؟ او تعرف احدا سبقه الى قوله ؟ ثم قال لي : اذهب : ويحك ؛ فاحفظها ! »

فقلت : نعم ، يا امير المؤمنين ! ولو كنت سمعت بها لحفظتها !

قال اسحق : « وما اشك اني كنت احفظ لها ؛ حينئذ ، من ابي العتاهية ، ولكني انما انشدت ما انشدت تعصبا ! »

شاعر اثر في الشعراء

وشاعر ، في مثل رقة ابن الاحنف وعذوبته : لا ريب مؤثر فيمن نهج نهجه من الشعراء ، حتى لتراهم ياخذون من معانيه ما يصوغونه باسلوبهم ، لكن هذه الصياغة

الجديدة لا تخفي : على متذوقي الشعر ؛ المنبع الاصيل الذي صدرت عنه .

روى عون بن محمد الكندي ، قال : كنا مع مخلد الموصلي في مجلس ، وكان معنا عبد الله بن ربيعة الرقي. فانشد مخلد الموصلي قصيدة له يقول فيها :

كل شيء اقوى عليه ، ولكن ليس لي بالفراق منك يدان

فجعل يستحسنه ويردده ، فقال له عبدالله : انت الفداء لمن ابتدا هذا المعنى فأحسن فيه حيث يقول :

سلبتني من الورود ثيابا ... وكستني من الهموم ثيابا
كلما اغلقت من الوصل بابا ... فتحت لي الى النية بابا
عذبيني بكل شيء سوى الصد ... فما ذقت كالصدود عذابا

قال : ففحك الموصلي . والشعر للعباس بن الاحنف !

موت الشاعر العاشق

وتنهي هذه المقتطفات بحديث وفاة العباس بن الاحنف ، وقد كلف بفوز الجارية ؛ كلفا شديدا ، حتى اذا خرجت من ملك صديقه محمد بن المنصور ، كما راينا ، راح شاعرنا يبكيها بمدرار الدموع ، وهي في الحج وضمن قصائده اليها حكاية حاله ، وما يعانيه من شوق وهيام كما في قوله :

ازين نساء العالمين اجيبي ... دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابي ، ما اقيم حروفه ... لشدة اشواقي وطول نحيبي
اخط وامحو ما اخط بعبرة ... تسح على القرطاس سح ذنوب(٧)
ايا فوز ، لو ابصرتني ما عرفتني ... لطول تحولي بعدكم وشحوبي
وانت من الدنيا نصيبي فان امت ... فليتك من حور الجنان نصيبي
ارى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيا رب قرب دار كل حبيب

حتى اذا عادت فوز من الحج ، عاد الشاعر الى معاناة العذاب كما لم يعانه معذب قبله ، ولبث يناجيها ويترنم باسمها ؛ وكأنه الرقية انعقدت على شفة ساحر ، حتى وافته منيته ، في ظروف حزينة مؤثرة .

روى ابو بكر الصولي عن ابي زكريا البصري ، قال: حدثني رجل من قريش ، قال : خرجت حاجا مع رفيقين لي ؛ فعرجنا على الطريق لنصلي . فجاءنا غلام ؛ فقال لنا : « هل فيكم احد من اهل البصرة ؟ » فقلنا : « كلنا من اهل البصرة » .

فقال : « ان مولاي من اهلها ويدعوكم اليه »

فقمنا اليه ، فاذا هو نازل على عين ماء ، فجلسنا حوله ، فاحس بنا ، فرفع طرفه ضعفا ، وانشا يقول :

يا بعيد الدار عن وطنه ... منفردا يبكي على شجنه (٨)
كلما جد الرحيل به ... زادت الاسقام في بدنه (٩)

ثم اغمي عليه طويلا ونحن جلوس حوله ، اذ اقبل طائر فوقع على اعالي شجرة كان تحتها ، وجعل يغرد . ففتح العباس عينيه ، وجعل يسمع تغريد الطائر ، ثم انشا يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجا ... طائر يبكي على فنه
شفه ما شفني ، فبكى ... كلنا يبكي على سكنه

ثم تنفس تنفسا فاضت معه نفسه ، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه . فلما فرغنا من دفنه ، سالنا الغلام عنه ، فقال : « هذا العباس بن الاحنف » (١٠)

شاعر متفوق واسع الشهرة

وبعد ، فان العباس بن الاحنف لم يكن من الشعراء في صعاليكهم او مجاهيلهم . فقد كان شاعرا واسع الشهرة في زمانه ، وكان مقدما على غيره من الشعراء في الموضوع الرئيسي الذي كاد يقف شعره عليه : عنيت به الغزل .

لقد كان العباس ـ كما يذهب الاصفهاني ـ شاعرا غزلا شريفا مطبوعا من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبة ولطف ، ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني .

اما ابو العباس المبرد ، فقد قدمه في كتابه «الروضة» على نظرائه : واطنب في وصفه ، ومما قال فيه : « رايت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه » وقال : « كان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء . وكان غزلا ولم يكن فاسقا . وكان ظاهر النعمة ، ملوكي المذهب ، شديد التزيف ، وذلك بين في شعره . وكان قصده الغزل ، وشغله الشيب ، وكان حلوا ، مقبولا ، غزلا ، غزير الفكر واسع الكلام ، كثير التصرف في الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحا » .

وقال عنه صالح بن عبد الوهاب : « ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جدا حتى تلحقه بالمحسنين » .

ووصفه ابراهيم بن العباس، فقال مشيدا بشخصيته وشاعريته : « كان ، والله ، ممن اذا تكلم ، لم يحب سامعه ان يسكت ، وكان فصيحا ، جميلا ظريف اللسان لو شئت ان تقول كلامه شعرا لقلت » .

واما ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ فقد روى عنه ابن اخته ، يموت بن المزرع ؛ قال : سمعت خالي يقول : لولا ان العباس بن الاحنف احدق الناس واشعرهم واوسعهم كلاما وخاطرا ، ما قدر ان يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه ، لانه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعرا لزم فنا واحدا لزومه ، فاحسن فيه واكثر » .

ويبدو لنا ان كون العباس من عرب خراسان ، اصلا ، وفي بغداد نشاة ، جعل بعض الخراسانيين يستنسخون شعره ، ويكتبون على نسخهم ، « شعر الامير ابي الفضل العباس» ، كما يروي عبيدالله بن عبدالله بن ظاهر ، وذلك تكريما له ، وتعظيما لشانه في عالم الشعر

ديوان الشاعر

ولقد تعددت شهرة العباس بن الاحنف عصره ، ولبث الشعراء ، على توالي العصور الادبية ، يتاثرون به ، وينهجون نهجه ، فهو قد اتصف بالحذق وسعة الخيال ،

ولولاهما لما استطاع ان يكثر من النظم في مذهب واحد لا يتجاوزه ، ويندر ذلك في الشعراء قديما وحديثا .

واذا كان ديوانه قد طبع في الاستانة عام ١٢٩٨ هـ مع ديوان ابن مطروح ، فقد قيض لشاعرنا العراقي شاعرة عراقية مجيدة رقيقة هي الدكتورة عاتكة الخزرجي التي تاثرت بشعره ايما تاثر ، ووضعت عنه كتابا ، وحققت ديوانه الذي كان موضوعا لاطروحتها في جامعة «السوربون» بباريس ، وطبعته بمطبعة دار الكتب المصرية : يقول عنها جمال الدين الالوسي (١٢) :

« احبت ابن الاحنف ، واستلهمت انفاسه . وتاثرت باسلوبه ؛ وطبعها بطابعه في الحب والخيال المجنح ؛ وان اختلفت بحبها عن حبه ، والعباس بن الاحنف ، حامل لواء الحب في صدر الدولة العباسية ، هو الذي وصفه الصولي ، الناقد وللكاتب العباسي ؛ قال : « ما رايت كلاما محدثا اجزل في رقة ؛ ولا اصعب في سهولة ، ولا ابلغ في ايجاز من شعر العباس » . وهذا ما يصدق على نثر الدكتورة عاتكة وعلى شعرها .. احبت ابن الاحنف ، وتاثرت به ؛ وآثرته على غيره من الشعراء ، ومنحته الحياة من جديد بكتابها عنه وتحقيقها لديوانه باسلوبها وتعبيرها المتميز العلمي الدقيق » .

شاعر لم يتكسب

ولا ريب عندنا ، بعد كل ما تقدم ، ان الرقة التي يتسم بها شعر ابن الاحنف اجمالا ، والتي تؤول في بعض احيان الى سهولة هي اشبه بالركاكة ، نظرا لما يعتورها من ضعف الصياغة الفنية ، او من الخطأ اللغوي ، انما مرجعها الى كون الكثير من شعره قد ارتجل ارتجالا ، وفي موضوعات غالبا ما كانت تفرض عليه فرضا ، وفي ذلك ظلم مبين للشعر والشاعر .

وفيما عدا ذلك ، فان عدم اتساع شهرة العباس بن الاحنف ، لدى عامة الناس خلافا لما احرزه غيره من شعراء العصر العباسي من الشهرة العريضة ، انما يعود الى المقاييس التي كان العصر يأخذ بها ؛ اذ يربط بين شاعرية الشاعر بمقدار ما يعالجه من فنون المدح والهجاء والفخر والرثاء وما اليها ؛ وما كان لشاعر غزل رقيق كأبي الفضل العباس بن الاحنف ان يخوض في تلك المواضيع ؛ اقتناعا منه ان الفن الخالد الباقي هو الفن الذي لا يرتبط بمناسبة ولا يبالغ في مديح وهجاء تهتز لهما اعواد المنابر : ولا يصوغ المراثي الزائفة التي ترتعش لها اتربة المقابر ، ولكنه الفن الذي يغني مشاعر الانسان ، ويتزجم خواطر الوجدان ، في كل آن وزمان ، فلا عجب بعد هذا ، اذا هو لم يترخص ويتكسب ، ثم لا عجب اذا اعتبره الزبير اشعر الناس ، واذا وصفه البحتري الشاعر بانه اغزل الناس !

فوزي عطوي

الهوامش

(١) الدكتور شوقي ضيف في كتابه « العصر العباسي الاول » ص ٣٧٩ ـ ط ١٩٦٦ دار المعارف بمصر .

(٢) ابن اخت العباس بن الاحنف ، ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين الصولي ، الشاعر المشهور ، وهو غير ابي بكر محمد بن يحي بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين ، الكاتب المعروف بالصولي الشطرنجي .

(٣) ودوي الصدر ايضا : « وان كان ما يلفته كان باطلا » .

(٤) بينما روى غيره ان العباس كان رقيق الحاشية ، لطيف الطبع ، اضافة الى كونه جميل المنظر ، نظيف الثوب ، فاره الركب ، حسن الالفاظ ، كثير النوادر ، شديد الاحتمال ، طويل المساعدة . (دائرة معارف القرن العشرين ـ ج ٦ ص ٩١) .

(٥) راجع دراستنا له في « الاديب » ـ عدد نوفمبر ودبسمبر ١٩٧٦

(٦) الاغاني ج١ ـ ص ١٧ ، لكن الاصفهاني يورد القصة ذاتها في ج ١٥ ص ١٤٢ ، ويقول ان الحادثة جرت امام الفضل بن الربيع ، ولا نملك امام هذا التناقض ما يؤكد حصول الحادثة امام الخليفة او امام الوزير .

(٧) الذنوب : الدلو المملوءة .

(٨) ودوي الصدر ايضا : « يا سليم الجسم من محنه » .

(٩) ودوي البيت ايضا :

كلما جد البكاء به ... دبت الاسقام في بدنه

(١٠) محمد فريد وجدي في « دائرة معارف القرن العشرين » (ج٦ ـ ص ٩٣) ، بعد ذكر هذه الحادثة ان ما ذكر من ان العباس بن الاحنف مات هو والكسائي وابراهيم الموصلي وهشيمة الخمارة في يوم واحد ، وان الرشيد امر المامون ان يصلي عليهم وانه قدم العباس بن الاحنف .. فليه نظر لان الكسائي مات سنة ١٨٩ هـ على خلاف فيه . وما كان المامون كما قيل ليقدم العباس على مثل الكسائي ، وايضا فقد روى الصولي انه رأى العباس بن الاحنف بعد موت الرشيد بمنزله بباب الشام . ويرجح وجدي ان العباس توفي سنة ١٩٢ او سنة ١٩٣ .

(١١) تاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ـ ج٢ ص ٢٩٥ .

(١٢) من مقال له في مجلة « العربي » ـ العدد ٢١٤ سبتمبر ١٩٧٦ ص ١٠٨ ـ ١١٢ بعنوان : الدكتورة عاتكة الخزرجي وديوانها : « اهواف الزهر » .

المراجع

١ ـ الاغاني : للاصفهاني .
٢ ـ الكامل والروضة : للمبرد .
٣ ـ طبقات الشعراء : لابن المعتز .
٤ ـ عيون الاخبار : لابن قتيبة .
٥ ـ الشعر والشعراء : لابن قتيبة .
٦ ـ الاعجاز والايجاز : للثعالبي .
٧ ـ وفيات الاعيان : لابن خلكان .
٨ ـ ديوان العباس بن الاحنف : تحقيق د. عاتكة الخزرجي .
٩ ـ العصر العباسي الاول : للدكتور شوقي ضيف .
١٠ ـ معجم الادباء : لياقوت الحموي .
١١ ـ تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي .
١٢ ـ كتاب الوزراء : لابراهيم بن عباس الصولي .
١٣ ـ الاوراق : لابي بكر الصولي
١٤ ـ طبقات الشعراء : لابي عبدالله بن سلام الجمحي .
١٥ ـ دائرة معارف القرن العشرين : لمحمد فريد وجدي .
١٦ ـ تاريخ اداب اللغة العربية : لجرجي زيدان ج ٢ .
١٧ ـ مجلة « العربي » ـ الكويت ع ٢١٤ .

كانت ملكة احلامه هي الاميرة «اجنا». ولم يكن شاعر الملك « نارابام » قد راها من قبل . وفي ذلك اليوم الذي كان الشاعر ينشد فيه امام الملك قصيدته الجديدة . جعل يرفع صوته بحيث يمكن ان يصل الى مستمعين كانوا متوارين في الشرفة المغطاة بالستائر التي تعلو البهو الكبير .

وكان يرفع انشودته الى افق النجوم البعيدة حيث يلتمع بينها الكوكب المهيمن على مصيره والمحاط بالضياء في افاق مجهولة بعيدة عن حدود رؤيته .

وكان يلمح بين آونة واخرى بعض الظلال المتحركة خلف الستائر ، وتناب الى اذنه غمغمات آتية من بعيد . فيسترسل حالما مع وقع الكعاب التي تجلجل اجراسها الذهبية عند كل خطوة . يا لتلك الاقدام الرقيقة الحمراء الوردية التي تطأ التراب الارضي اشبه بالرحمة تنسكب على الخاطئين ..!

لقد وضعها الشاعر في محراب قلبه : حيث نسج اناشيده على نغمات اجراسها الذهبية . ولم يخالجه شك فيمن تكون تلك التي يتحرك ظلها خلف الستار والتي غنت اقدامها في ذلك الحين لقلبه الخافق .

ومرت « مانجاري » وصيفة الاميرة بالقرب من منزل الشاعر وهي في طريقها الى النهر . وكان من عادتها كلما مرت به ان تتحين الفرصة لتتبادل مع الشاعر بعض الكلمات حول خبث ذوي المكر والدهاء . فعندما وجدت الطريق خاليا وظل الغسق يكسو الوادي . تجاسرت على دخول غرفته ، وجلست على ركن سجادته . وكان ثمة دائما ما يشي بعض الاشتباه حول عنايتها الزائدة باختيار لون برقعها وتنسيق الزهور على شعرها .

وقد تبسم الناس وتهامسوا في ذلك : ولا لوم عليهم . ذلك ان الشاعر نفسه لم يحاول اخفاء الحقيقة ولا ان هذه المقابلات كانت مدعاة لغبطته الخالصة .

وكان معنى اسمها «نثير الزهور». ولا بد من الاعتراف بان هذه التسمية كانت ذات عذوبة نافية بالنسبة الى العاديين من ابناء الغناء . ولكن شاعرنا قد اضاف اليها معنى من مولدات فكره ، فاطلق عليها « نثير زهور الربيع » وهز العاديون من اهل الغناء رؤوسهم عجبا ودهشة .

وفي اناشيد الربيع التي ابدعها الشاعر كان الثناء على تناثر زهور الربيع يتردد كثيرا في شعره وبشكل ظاهر ؛ وتبسم الملك وغمز بعينه وهو يستمع اليه : ورد الشاعر على ذلك بالابتسام .

وسأله الملك : هل مهمة النحلة مجرد الحومان في ساحة الربيع ؟

وكان جواب الشاعر : كلا ؛ ولكنها



لشاعر الهند رابندرانات طاغور

ترجمها عن الانجليزية جرجس عبده

ايضا ترتشف العسل من براعم زهور الربيع .

واستضحك كل الجالسين في بهو الملك . واشيع بان الاميرة اجنا قد ضحكت ايضا لتقبل وصيفتها للاسم الذي اطلقه الشاعر عليها . واحست مانجاري نفسها بالغبطة



تملأ قلبها .

وهكذا يختلط الواقع بالخيال في الحياة ـ ويضيف الانسان الى زخارفه الخاصة الى ما ابدعه الله .

والحقائق النقية الوحيدة هي تلك التي افصح عنها الشاعر في قصائده. وكان موضوعها هو « كريشنا » العاشق ؛ « ورادها » المعشوقة ، الرجل الابدي والمراة الابدية ؛ الحزن الذي يأتي من بداية الزمان ، والفرح الذي لا نهاية له . وصدق هذه الاناشيد نابع مما احسه هو في اعماق قلبه ومما لمسه من اثرها في نفوس الجميع من الشحاذ الى الملك نفسه . فاناشيد الشاعر كانت على شفاه كل الناس . فعند ابط شعاع من ضوء القمر واخفت همسة من نسيم الصيف كانت تنبعث اغانيه في الارض من النوافذ وساحات المنازل ، من الزوار قالسابحة ؛ من ظلال اشجار الطريق ، بنغمات لا عداد لها .

وهكذا مرت الايام سعيدة . فالشاعر ينشد ، والملك يصغي ، والمستمعون يصفقون ، ومانجاري لا تنقطع عن زياراتها للشاعر كلما كانت في طريقها الى النهر . والظل يخفق خلف الشرفة المنطاة بالستائر ، والاجراس الذهبية الدقيقة تجلجل من بعيد .

وفيما الامور تجري مجراها الهادىء الوانق الجميل خرج من بيته في الجنوب شاعر يمضي في طريقه الى احراز النجاح . ووصل الى الملك نارابام . بمملكة امارابور فوقف امام العرش . والقى قصيدة في مدح الملك. وتغلب على جميع شعراء البلاط ، الواقفين في طريقه ؛ وظل منتصرا على طول الطريق .

وكان استقبال الملك له مجحوفا بمظاهر التكريم ، فقال له : ايها الشاعر اننا نرحب بك .

ورد « بونداريك » الشاعر في كبرياء : مولاي انني ادعو الى النزال.

ولم يكن « شيخار » شاعر البلاط

الملكي يعرف كيف تكون معزفة القرائح . فلم يذق طعما للنوم في ليلته . فالجسم الجبار لبونداريك الشهير وانفه الحاد المعقوف كالسيف وراسه الصلف المائل في كبرياء قد اطبقت على الشاعر في رؤاه الليلية خلال الظلام .

وبقلب واجف دخل شيخار ساحة المنافسة في الصباح . وكان المسرح غاصا بالحاضرين .

وحي الشاعر غريمه بابتسامة وانحناءة . ورد بونداريك التحية بهزة خفيفة من راسه ، وحول وجهه نحو انصاره المعجبين في ابتسامة ذات مغزى .

ووجه شيخار نظره نحو الشرفة العالية المنطاة بالستائر ، وجعل يحيي في اعماق قلبه طيف ملكة احلامه وهو يناجيها قائلا : اذا قدر لي ان انتصر في هذا اليوم يا فتاتي ، فيظل اسمك المظفر مطوقا بهالات المجد .

ودقت الطبول . ونهض المحتشدون يهتفون بالنصر للملك . ودخل الملك في معطفه الابيض الفضفاض ، بخطوات وئيدة . دخل الى الردهة كسحابة خريف طافية ، وجلس على عرشه .

ونهض بونداريك . وعم الصمت البهو الشاسع . وبراسه الشامخ وصدره المنتفخ بدا يتلو بنبرات صوته الراعد قصيدته الجديدة في مدح الملك نارابام . وترددت اصداء كلماته على جدران البهو اشبه بأمواج البحر الهادرة وبدت كانها تدوي في ضلوع المستمعين من الحشد . والمهارة التي تناول بها اسم الملك فأداره على شتى المعاني وادخل كل حرف منه في نسج شعره مستخدما اساليب التشبيه البارعة قد الجمت انفاس المستمعين اليه وادهشتهم .

وبعد ان اخذ الشاعر مجلسه استمرت اصداء صوته لبضع دقائق تتردد بين الاعمدة التي لا عداد لها في قصر الملك وبين جوانح الاف المستمعين الصامتين . ورفع الاساتذة المتفنون الذين جاءوا من البلاد البعيدة ايديهم اليمنى وهم يهتفون بعبارات التشجيع والثناء احسنت وايم الله ! لا فض فوك !

والقى الملك نظرة على وجه شيخار وردا على ذلك رفع شيخار عينيه المفعمتين بالالم وجعل ينظر بهما الى سيده بضع لحظات . ثم وقف كوعل جريح يتاهب للدفاع عن نفسه . وكان وجهه شاحبا ، وخجله يكاد يكون كخجل المراة ، وجسمه الذي بقيت فيه امارات قليلة من الشباب قد بدا في خطوطه الرقيقة اشبه بآلة موسيقية مشدودة الاوتار مهياة لارسال نغماتها عند ادنى لمسة .

وكان محني الراس خفيض الصوت عندما شرع في الانشاد ، والابيات القليلة الاولى لم تكد تسمع . ثم رفع راسه في تؤدة وعلا قليلا صوته العذب الواضح في السماء اشبه بشعلة من النار المرتجفة . وبدا بالاسطورة القديمة للنسب الملكي الذي اختفى في ضباب الماضي ، واستعرضها خلال مجراها الطويل الحافل بالبطولة والكرم المنقطع النظير حتى وصل بهذا النسب الى الجيل الحاضر . ثم ثبت نظرته على وجه الملك ، وتصاعد حب الناس الهائل الفائق للبيت الملكي اشبه بالبخور في قصيدته ، وغمر العرش من كل جوانبه . وكانت هذه هي كلماته الاخيرة عندما اخذ مجلسه وهو يرتجف : « سيدي قد اكون غلبت على امري في رصف الالفاظ والتلاعب بها ؛ ولكن ليس لنقص في محبتي لك » .

وملات الدموع عيون المستمعين : واهتزت الجدران الحجرية بصيحات النصر .

ونهض بونداريك ساخرا من هذه الموجة من الشعور الشعبي وهزراسه هزة مهيبة وهو يطلق نبرة احتقار ساخرة ثم وجه هذا السؤال الى الجميع : « هل هناك ما هو اسمى من الالفاظ ؟ » ولم تمر لحظة حتى كان الصمت يشمل البهو مرة ثانية .

ثم راح يستعرض مقدار ثقافته الهائلة : فاثبت ان الكلمة هي اول ما شرف به الانسان : وان الكلمة هي عنوان تفوقه . وحشد طائفة عالية من الاقوال المقتبسة من الاسفار المقدسة : وشيد محرابا عاليا للكلمة يفوق كل ما هو موجود في السماء والارض . واعاد ذلك السؤال بصوته الجبار « هل هناك ما هو اسمى من الكلمات » ؟

وتلفت حوله في زهو وكبرياء . ولم يتجاسر احد على معارضته . فجلس في مقعده ببطء كأنه تناول للتو غذاءه الكامل من فريسته . وصاح الاتباع : ابدعت المقال ، لا حرمنا الله منك ! ولزم الملك الصمت وقد غمرته الدهشة واحس شيخار بضآلته بالقياس الى هذه الثقافة الهائلة . وانفض الاجتماع في ذلك اليوم .

وفي اليوم التالي بدا شيخار انشاده ودارت قصيدته حول ذلك اليوم الذي حركت فيه نغمات مزمار الحب البواء الساكن لغابة فريندا للمرة الاولى .

ولم تعرف فيه الراعيات من هو العازف ولا متى انبعثت الموسيقى . وقد لاح احيانا انها منبعثة من قلب الرياح الجنوبية ؛ وتارة اخرى انها اتية من السحب الشاردة فوق قمم التلال . وقد جاءت حاملة لرسالة موعد من ارض المشرق ، وطافت من تخوم المغرب بانها الحزينة . ولاحت النجوم كأنها وقفات الالة التي غمرت احلام الليل بالغناء . وبدت الموسيقى كأنها منبثقة نورا من جميع الجهات ؛ من الحقول والغدران ، من المنعطفات الظليلة ، والطرق المهجورة : من زرقة السماء الدانية ، من خضرة المروج الناجة . فلم تعرف الراعيات معناها ولا استطعن ان يجدن الكلمات التي تعبر عن رغبة قلوبهن فاغرورقت عيونهن بالدموع ، ولاحت حياتهن كانها تتوق الى موت يكون هو غايتها

ومنتهاها .

ونسي شيخار مستمعيه . ونسي انه يختبر قوته مع غريم منافس . ووقف بمفرده وسط خواطره التي ارتعشت حوله كأوراق الشجر تحت حبات النسيم في ليالي الصيف ؛ وانشد اغنية المزمار . وكانت في ذهنه رؤيا الصورة اتخذت شكلها من احد الظلال ؛ ومن صدى صوت جلجلة واهنة لخطى اقدام بعيدة .

واتخذ مجلسه . وارتجف مستمعوه بمشاعر لا يمكن وصفها ، حزينة وفرحة مهولة وغامضة . ونسوا ان يصفقوا له . ولما تلاشى هذا الشعور نهض بونداريك واقفا امام العرش وتحدى منافسه ان يوضح من كان هو هذا العاشق ومن كانت هي المعشوقة . وتلفت حوله في تبجح وغرور ، وتبسم لاتباعه ثم القى سؤاله مرة اخرى : « من هو كريشنا العاشق ؛ ومن هي رادها المعشوقة ؟ »

ثم بدا يحلل الاصول التي اشتق منها هذان الاسمان ؛ ويدلي بشتى التفسيرات لمعانيها . فاورد امام الجمهور الحائر كل حيل المدارس الميتافيزيقية المختلفة بمنتهى البراعة . ففكك كلا من هذين الاسمين الى حروف منفصلة عن بعضها البعض ، ثم تتبع مدلولاتها بمنطق صارم حتى انحلت الى ذرات غامضة لكي يعود الى تركيبها ثانية في معنى لم يسبق ان تخيله ابرع فقهاء اللغة .

واستولت على المجيبين النشوة وارتفعت اكفهم بموجة من التصفيق الشديد وتابعهم جمهور الحاضرين متوهمين انهم لا شك قد شاهدوا في ذلك اليوم اخر رقصة من ستائر الحقيقة تتمزق امام اعينهم بمعجزة من معجزات الذكاء وقد بلغ من اعجابهم بتمثيل مأثرته الهائلة انهم نسوا ان يسألوا انفسهم هل كانت تتضمن اية لمحة من الصدق في النهاية ؟

وغمرت الدهشة نفس الملك . فلجو قد صفا تماما من كل احلام الموسيقى وبدت صورة العالم المحيط وقد تحولت من نضارة خضرتها الرقيقة الى صلابة طريق عال قد ارتفع ورصف بالصخور المسحوقة .

وبدا في اعين المجتمعين ان شاعرهم مجرد صبي صغير بالقياس الى هذا العملاق الذي مشى بهذه السهولة . زاكلا الصعوبات في كل خطوة خطاها في دنيا الكلمات والافكار . وظهر لهم لاول مرة ان القصائد التي كتبها شيخار كانت بسيطة بشكل غريب . ولا بد ان الصدفة وحدها هي التي مكنته ولم تمنعهم من كتابتها . فهي ليست عميقة ولا صعبة ولا اخلاقية ولا ملتزمة .

وحاول الملك ان يحفز شاعره بنظراته المشجعة ؛ ويومئ اليه في صمت ان ينهض بمحاولة اخيرة . ولكن شيخار لم يلتفت الى ذلك . وظل ثابتا في مقعده .

ونزل الملك عن عرشه في غضب فخلع سلسلته اللؤلؤية ووضعها على راس بونداريك . وقابل الحاضرون ذلك بابتهاج كبير . ومن الشرفة العليا انبعث صوت رقيق لحفيف ثياب ؛ وسلاسل الخصور ذات الاجراس المعلقة .

ونهض شيخار من مقعده وغادر البهو .

وكانت ليلة حالكة الظلام والقمري المحاق حين انزل الشاعر شيخار مخطوطاته من فوق ارففها وكومها على الارض . وقد كان بعضها يحتوي على باكورة كتاباته التي كاد ينساها واخذ يتصفحها ويقرأ الفقرات من هاهنا وها هناك .

فلاحت له جميعها فقيرة تافهة مجرد كلمات مرصوفة ؛ واوزان صبيانية .

فاخذ يمزق كتبه واحدا بعد الاخر الى جزاءات صغيرة ، فالقاها في وعاء اضرم فيه النار : وجعل يقول : « اليك اليك ، يا جذوتي الجميلة . . لقد كنت تشتعلين في قلبي طوال هذه السنين التافهة . فلو ان حياتي كانت قطعة من الذهب لخرجت من تجربتها اكثر التماعا . ولكنها عشب هش تطأه الاقدام ، فلم يبق منها سوى هذه الحفنة من الهشيم » .

وانقضت الليلة . ففتح شيخار نوافذه على مصاريعها . ونثر على فراشه الزهور البيضاء التي طالما احبها وتغنى بها في اشعاره : زهور الياسمين والنرجس والاقحوان ؛ واحضر الى غرفة نومه كل المصابيح التي في منزله واشعلها ثم مزج بالعسل عصيرا لبعض الجذور السامة ؛ فشربه واستلقى على فراشه .

وجلجلت الاجراس الذهبية في الممر خارج الباب ، ونفذ عطر رهيف الى الغرفة مع النسيم .

وقال الشاعر وعيناه مطبقتان : « سيدتي هل اخذك العطف على خادمك في النهاية فجئت لرؤيته ؟! »

وجاء الجواب بصوته عذب : « اي شاعري ، انني قد جئت » .

وفتح شيخار عينيه ـ فراى امام السرير هيكل امراة .

وكان بصره معتما غائما . فلاح له ان الصورة المرتسمة في الظل والتي ظل يحتفظ بها على العرش في المحراب الخفي لقلبه قد برزت الى العالم الخارجي في لحظته الاخيرة لكي تلقي نظرتها على وجهه .

وقالت المراة : « انني الاميرة اجنا » .

واعتدل الشاعر على سريره بجهد كبير .

وهمست الاميرة في اذنه : « لم ينصفك الملك يا شاعري . انت هو الظافر في المعركة . وقد جئت لكي اتوجك باكليل النصر »

ونزعت عقد الزهور من عنقها ؛ ووضعته على شعره ، وسقط الشاعر على فراشه وقد فارقته الحياة .

القاهرة — جرجس عبده

اوزوريس.. واخضرار الليل

في ذاك اليوم ..
حملت على كفي وجه ضياعي
وارتجفت في الاضلاع رؤى الاشواق
شق الظما العاتي نهر الاعراق
واسير وفي الايدي كلمات
تورق في انسجة اليتم المنتحبه
وتعالى صوت العاشق في كهف الاعماق
فاضاء مشاعل شمس مغتربه
تتصاعد منها النبضات الشاحبة الالوان
آه .. تمتمت الاعماق الوعره
في العام الاتي بعد الاعوام العشرين
ياتي الجلاد ليقتل حلم النسرين
آه يصلب فوق صواري الريح حنين الثمره

ما اقسى الليل
ان طافت فيه الروح العطشى
كي تلتقط الانسام لتبنى للاهة عشا وتنام
اتذكر ذاك العام
ورفاتي تتكوم في جوف الثلج
وعلى اطراف المخدع شوفان ذابل
نسمات الحب الساكنة الاهداب
ترقرق بالدمع فتلثمني ثم تغيب بعمق العينين
آه يا ليل المطر الاسود
وانا ارتشف النبض الاجرد
حين اتاه صقيع الاخبار ..
فبات على ارصفة الغرباء
في ذاك الليل .. قد قمت اكبل انفاسي
بخيوط الاحزان الغرقى
قد كنت كبهو كنيسة
والاجراس الظامئة الايقاع
نبضي الملتاع
استرجع حين مررت على لوحات قتامه
ومددت انامل صدري احمل منها للعشق علامه
وكسرت باعماقي كل الشرفات الفجريه
ونثرت على الطرقات .. همس الكلمات الورديه
آه ما اقسى حين تلامس اهداب العينين
قطرات المطر الاسود

وانا تحت دثار الصمت
اتحرق شوقا اسكب فوق وساند حلمي
انشودة جرح تتلعثم في ثغر الوقت
اوّاه فاسمع صرخة ايزيس
« اوزوريس .. ايزيس تناديك
ان تسكب فوق الرمل دمك
ان تزرع فيه شموس
وتشم عبير الطهر ..
تلون من حبات الرمل على الراس طقوس
وعلى الساعد ينبت بيدر شوفان
فلتسمع همس الريح العائدة العطشى
ولتحمل اغنية الطوفان »
كان الصوت العاشق يا ايزيس
كالموج يداعب حلم الشطآن
ينساب خرير حروفك في جدول شريان
« اوزوريس .. ايزيس تناديك »
فعبرت اليك وفي قلبي تورق نبضة قديس
وعشات الضوء تكللني
وعلى شرفات الاهداب زرعت ازاهير الميلاد
ورحلت الى ساحات الاحلام وفي صدري ..
عيناك طفولة اعياد
لاشب على خيط الاضواء فالثم شمس جبينك
وتعانقني انسام حنينك
آه في كل ثواني الميلاد القدسية
اعتنق الحب .. في طهر المعبد
في نبض التبر المخمور
اشواق صلاتي تتوسد
وعلى اعتابك اغرس اشجار اللوز واغصان الفيروز
واذيب باضلاعك قبلة تموز

ايزيس ... صدري اشرعة وجناحك زورق
ودمي اوسمة وعيونك بيرق
حبي كالسيف .. اهديتك سيفي
وعبرت اليك اواصل عزفي
آه اكتب فوق زهور اللوتس اشراقة حرفي

آه تمتمت الاعماق بغنوة ايزيس
في العام الاتي بعد الاعوام العشرين
قد جاءك اوزوريس ...
ليخضر الليل ويورق حلم النسرين

القاهرة — عبد الشافي داود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



جعفر الخليلي

القصة عبر العصور

بقلم جعفر الخليلي

* * *

القصة حكاية ما يرتسم في الذهن من حياة الانسان في هذه الدنيا مما يقع ضمن حدود حواسه ، او مخيلته فينقلها القاص كما وقعت ، او كما تصور ان تقع واذا اتيح للتاريخ ان يعين ابتداء معرفة الانسان لكل فن من الفنون كالشعر والغناء والموسيقى والرسم والنحت ، فانه عاجز كل العجز في ان يعين تاريخ ابتداء معرفة الانسان للقصة كفن ، اما القصة كحكاية فقد عرفها الانسان منذ ان عرف الكلام : ولا شك ان القصة كانت معروفة فيما قبل التاريخ وقبل اكتشاف الكتابة ، وقد استغرقت فترة ما قبل التاريخ حتى ظهور الحضارة نحو ٩٦٪ من حياة الانسان كما يقدر المؤرخون العلماء ، وقد ظل الانسان يتناقل القصة في عصور ما قبل التاريخ ابا عن جد او عمن يسمع منهم ، وحتى الان ، وقد مر اكثر من ٣٠٠ سنة على اكتشاف نصوص للقصص في وادي الرافدين ووادي النيل مكتوبة على الطين وعلى البردي والناس لا يزالون يتناقلون قصصا عجز القلم عن ان يظفر بها لكي يدونها .

اما فترة ما قبل التاريخ ، فقد بدأت تنتهي بانتقال وادي الرافدين ووادي النيل من الحضارة في الحياة العامة من اساليب الصيد والزراعة ، والسكن ونظام المعيشة او الحروب بالتدريج حتى تم اكتشاف الكتابة وتدوين ما يهم الناس بواسطتها ، ويعتقد المؤرخون ان ابتداء هذا التطور كان في اواخر الالف الرابع قبل الميلاد .

ولقد عثر على نصوص تدل على ان قصصا قد كتبت في اوائل الالف الثاني قبل الميلاد في وادي الرافدين ، ووادي النيل ، واهم هذه القصص التي تكاد تكون كاملة هي ملحمة بابلية باسم (كلكامش) وهي قصة تتناول بطولة شخص باسم كلكامش وصديقه المسمى (انكيدو) وقد قام كلكامش بالبحث عن الخلود فكلف نفسه القيام برحلة من المخاطر في طرق وعرة مخيفة كلفته القتال واختراق الغابات الموحشة ، وعبور البحار : وقد وصفت هذه القصة شيئا من عشق الالهة وفعل السحر والتطرق للطوفان في ملحمة يثير كاتبها المجهول الدهشة في براعة خياله وتضمينه الشيء الكثير من فلسفة الحياة في هذه الملحمة ، وتصوير العقائد التي كانت تسود ذلك العصر وقد ترجمت هذه القصة الى جميع لغات العالم على اغلب الظن وان احسن من ترجمها الى العربية وعرضها فنيا مع ضبط نصوصها كان الدكتور طه باقر الذي طبعت ترجمته طبعتين ببغداد ثم كان عبد الحق فاضل الذي امتازت ترجمته بحسن العرض والتحليل واخراج نصوصها شعرا في تفعيلات موزونة ذات نبرات موسيقية ، وقد طبعت منقحة ممتازة ببيروت .

وفي قطعة من اوراق البردي يعود تاريخها هي الاخرى الى اوائل الالف الثاني قبل الميلاد اي الى نحو ٤٠٠٠ سنة اكتشفت قصة بوادي النيل كانت مبتورة ولم تبق منها الا بقية اورد الدكتور بريستد ترجمتها على النحو التالي :

« . . مات الذين كانوا في الموكب جميعهم ، ولم ينج منهم احد ، اما انا — ولا يعرف من هو المتحدث — فالقتني موجة من امواج البحر العظيم على جزيرة فلبثت فيها ثلاثة ايام وحدي لا رفيق يسليني سوى قلبي ، وكنت انا مختبئا بين اشجار الى ان يغمرني نور نهار فانهض متسللا لعلي امسك شيئا املأ به فمي فكنت اجد تينا وعنبا وكثيرا من انواع الخضرة . .

ثم تواصل القصة الحكاية فتقول :

ان حية ذات لحية طويلة امسكته . . ووجد ان تلك هي ملك الجزيرة البعيدة الواقعة في البحر الاحمر عند مدخل الاوقيانوس الهندي ، واحتفظ الملك (الحية) بهذا البحري (الغريق) ثلاثة اشهر : احسن (الملك الحية) في اثنائها معاملته . ثم ارجعه الى مصر بعد ان حباه بكثير من النضار . .

وقد اعتبر المؤرخون هذا القاص اول سندباد بحري واعتبرت قصته هذه اول قصة نسج القصاصون على منوالها في سرد المغامرات .

واذا تركنا النصوص التاريخية فان لدينا من القصص التي تصور الكثير من عصور ما قبل التاريخ ، في قصص ممتعة ، واساطير غريبة رائعة سجلتها لنا التوراة عن الخليقة والطوفان وغير ذلك ، على الرغم من ان التوراة الالقديم لم تكتب الا في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

تقريبا . ولكنه كان جامعا لما كانت تتداوله الالسن . ويقصه الناس بعضهم على بعض . حقيقة كان او خيالا . وكل هذا يشير الى قدم القصة .

ولم يكن هذا وحده الذي يشير الى قدم القصة واهميتها فهناك الشيء الكثير الذي تركه السومريون ؛ والبابليون ؛ والاشوريون ؛ والمصريون ؛ وما ورد في الاثار الفارسية بشيراز وعيلام ؛ وما عثر عليه بين اثار اليونان والرومان وما جاء في (الياذة) هوميروس و (اوديسته) وما نقلته (شاهنامة الفردوسي) مما جمعته من القصص على غرار جمع التوراة مما عثرت عليه من نصوص وما اقتبسته الحكايات المروية على الالسن والاساطير ، وما صورته (كليلة ودمنة) في غرضها الفني الذي يرمي الى فلسفة الحياة على السنة الحيوانات ، وكل هذا دليل على قدم القصة في دنيا الانسان وحياته الطويلة .

ويبدو من الملاحظات التي اوردها جيمس هنري بريستد عن القصص المصرية القديمة ان هذه القصص لم تكتب الا لغايات تتجاوز حدود التسلية والمتعة الى غايات انسانية واغراض سامية ، ومعنى ذلك ان هناك من كان يفهم قيمة القصة بانها لم تكتب الا لغاز يراد بها فهم الحياة ومقتضيات شبيهة بالقصص الهندية وبكليلة ودمنة من حيث المنزى وليس من حيث الاسلوب فهو يقول « ان الذين كتبوا هذه القصص في العصور المصرية القديمة كانوا يحاولون ان يستنهضوا بها همم الحكام واستمالتهم لمراعاة الطبقات الضعيفة من الشعب ونشر العدل والمروءة بينهم » .

اما القصة اليونانية القديمة فتمتاز بكونها اكثر القصص علاقة بالشعر والغناء وهي وان كانت قد دونت على الورق لاول مرة في نحو سنة ٧٠٠ قبل الميلاد ولكن هناك ما يدل على ان لها اصولا ترجع الى عدة قرون كان يتناقلها المتناقلون قصصا واشعارا قبل تدوينها ، وتمثل الالياذة قصة الحرب اليونانية في معركة طروادة كما تمثل الاوديسة (اوديوس) البطل عند عودته من طروادة ، وان القصص اليونانية مشحونة بقصص الالهة واختصاص كل اله فيما يملك من قوة وسيطرة ، وكل هذا من القصص التي سبقت التدوين والكتابة .

★ ★ ★

وكلما خطا الانسان خطوة في الحضارة زادت القصة عمقا في التصوير واحاطت بالموضوع والهدف الذي ترمي اليه اكثر واكثر ، وابعدت في نقل الواقعة واسبابها وكيفية بدايتها ونهايتها وما يحتمل ان تكون النتيجة التي صارت عند تكامل عناصرها اجلى من المرآة واصدق في نقل الواقعة من الذهن الى الذهن .

والواقع ان الكثير من العصور القديمة لم يخل من هذه البراعة والتفنن في سبك القصة . ولكن القصة التي ظهرت بهذا المظهر الحديث بمجموعها العام اسلوبا وسردا وعرضا تحليليا وروعة فنية : لم تبدأ الا بابتداء النهضة الاوروبية : وبالامكان اعتبار مبدئها الصحيح سنة ١٧٠٠ على ما جاء في دائرة المعارف البريطانية فيما اخرجه فؤاد عباس .

ومع ذلك فاني اعتقد ان القصة لم تعرف قيمتها العلمية والفنية كما يجب ان تعرف الا في القرن التاسع عشر اذ لم يكن مفهوم القصة قبل هذا التاريخ في الغالب يتجاوز حدود الافادة التاريخية والتسلية في كثير من الاقطار وعلى الاخص الاقطار النامية ، ولم يكن لها من الشان ما كان للشعر وسائر الفنون اخرى . وفي سنة ١٨٣٩ ظهر العالم الفرنسي اوغست كونت ليضع لاول مرة اسسا لعلم الاجتماع الذي سماه بالفيزياء الاجتماعية ؛ وعنى بذلك العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية كما تدرس العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والفلك ، فهو بالاجمال علم يعنى بالدراسة العلمية للحياة الاجتماعية . وهنا ظهرت قيمة القصة كعامل مساعد لدراسة الحياة الاجتماعية واستخلاص قواعد هذا العلم منها .

وفي سنة ١٨٥٦ ـ ١٩٣٩ ظهر سيموند فرويد وهو عالم نمساوي ابتكر طريقة خاصة لعلاج الهستريا اصبحت فيما بعد اساسا للتحليل النفسي وقد تناول فرويد مظاهر كثيرة تخص الشعور ، والكبت ، والوعي ، والجنس منذ نشأة الانسان وهو طفل : وظهر غيره كتلميذه ادلر ، ويونج ، ممن عالجوا الميول عند الانسان وقابلياته ، والنقص الكامن في نفسه ، فبانت قيمة القصة الحديثة في هذا الميدان بصورة واسعة وساعدت كثيرا على تطور علم اجتماع وعلم النفس والتربية ، كما اصبحت عاملا من اهم العوامل في سن القوانين وعلى ضوئها تلافى المشرعون كل ما كان قد فاتهم الالتفات اليه من نقص في التشريع .

وحين اهتدي ايجسون الى الصور المتحركة والتفكير في اختراع السينما سنة ١٨٩٤ وبلغ التصوير السينمائي المرحلة المتقنة التي تنقل القصة مجسمة وتجعلها نصب العين خصوصا عندما اصبحت السينما ناطقة سنة ١٩٢٦ ثم خرجت الصور بالوانها الطبيعية ؛ بانت اهمية القصة اكثر واكثر في تطوير المجتمع من حيث النشأة والتربية والعلم والمعرفة اضافة الى المتعة التي تدخل عن طريقها الى النفس وتتمتع بها العين والاذن والذهن ؛ وراح العالم يستعرض القصص القديمة ليرى فيها ما لم يكن قد رأى من قبل .

ولقيت القصة في الاقطار المتحضرة مرتعا خصبا بسبب تقدم العلم وانتشار المدنية حتى صار يطبع من القصة الواحدة ملايين النسخ لعدة مرات وتترجم الى عدة

لغات ؛ وتمثل على المسرح وعلى شاشة السينما ؛ والتلفزيون وتذاع في الراديو .

★ ★ ★

وللقرآن الكريم فضل السبق في التنويه بالقصة كعامل من عوامل التهذيب وصورة يستخلص منها الانسان العظة والعبرة في دنياه ويحقق بها منطوق الاية الكريمة « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، وآذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

وبلغ من اهمية القصة في القرآن ان خص الله احدى السور بها فسميت (بسورة القصص) وقد روى المفسرون الكثير عن فضيلة هذه السورة ، واورد الطبري في تفسيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ومن قرأ (طسم القصص) اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بموسى وكذب به ، ولم يبق في السموات والارض الا شهد له يوم القيامة : انه كان صادقا ان كل شيء هالك الا وجهه..

وابتدات (سورة القصص) بالقصة من قول الله « بسم الله الرحمن الرحيم ، طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض .. الخ » والى ان تذكر الاية مجيء موسى الى شعيب ، واخباره بما جرى عليه في قصته المعروفة مع فرعون وهروبه حين احس بانهم يطلبونه ليقتلوه ؛ فتقول الاية بعد ذلك : « فلما جاءه وقص عليه القصص » قال شعيب لموسى « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » وزوجه ابنته على النحو الذي ورد في القصة .

وقد ورد ذكر القصة في ٢٥ موضعا من القرآن الكريم ، ويكفي مدى الاهتمام بالقصة في القرآن وكونها عاملا من عوامل الموعظة والارشاد والتهذيب ما جاء في قوله تعالى : « نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » فكأن الله بهذا قد جعل كل القرآن قصة .

وسورة يوسف : وهي قصة شائقة رائعة ، وقد بلغ في اهميتها كقصة ان رويت عن فضيلتها الروايات الكثيرة ، وفي (مجمع البيان) في التفسير عن ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (علموا ارقاءكم سورة يوسف فانه ايما مسلم تلاها وعلمها اهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة ان لا يحسد مسلما » .

وكان الواجب ان يعنى العرب من المسلمين بالقصة قبل غيرهم وان يعطوها الشيء الكثير من مجهودهم كما اعطوا الشعر وزيادة ما دام ابرون مثل هذا الاهتمام بالقصة من القرآن الكريم ، ولكن العرب كانوا قد تأخروا عن ركب الحضارة في النهضة الحديثة في كل شيء ما عدا الشعر ولم يلتفتوا الى مزية القصة الا متأخرا حين اتيح لهم الاتصال بالعالم الخارجي المتحضر عن طريق الدراسة والسياحة والتجارة ، ورأوا اهتمام العالم بها فاقبل المثقفون منهم على ترجمة الروايات والقصص القصيرة الى العربية ، وبدأ الجمهور يتذوقها شيئا فشيئا حتى اصبحت معروفة ، ومع ذلك فانها لم تزل قاصرة عن بلوغ القمة في كتابتها باشواط كثيرة .

★ ★ ★

ويعود الفضل الاول لممارسة القصة العربية بالاسلوب الحديث حسب الوقت الى سوريا ؛ فهي اول قطر عربي نبغ فيه القصاص العربي الاول وهو فرنسيس المراش ١٨٢٥ ـ ١٨٧٤ والمراش هنا حلبي المولد ، سوري الاصل وهو طبيب شاعر ، واديب كاتب ، درس العلم في باريس ، وتاثر بالادب الفرنسي وثقافته ، وشعر بلذة القصة وعرف قيمتها ومنزلتها بين الفنون والعلوم الانسانية: فالف كتبا في مختلف المواضيع كالشعر والطب والاجتماع ، فهو بحق الرائد الاول للقصة العربية الحديثة ، ومن اشهر كتبه هذه « غابة الحق » وهي قصة تتضمن الكثير من الاراء العلمية والفلسفية ، والافكار الاجتماعية ، وقد طبعت ببيروت سنة ١٨٨١ .

وان رحلته التي قام بها الى باريس سنة ١٨٦٦ والتي سماها « رحلة الى باريس » هي الاخرى نمط من انماط القصة ، ومن اشهر ما وضع فرنسيس المراش روايته التي سماها « در الصدف في غرائب الصدف » .

وعلى ان رقعة سورية يومذاك كانت تشمل لبنان وفلسطين فقد رأيت اقتصار الاشارة على حدود سورية الحاضرة ما دامت هذه المجموعة من القصص التي اقدم لها تخص سورية المحدودة بالحدود الحاضرة ، وكان المنتظر ان تعقب المراش مباشرة خطوات واضحة ان لم تكن سريعة في ميدان القصة ، ولكن القصة ظلت في ركود او شبه ركود في سورية حتى حلول القرن العشرين ومرور بعض الوقت من هذا القرن ، حين دبت روح القصة في آداب هذا القطر .

وكما كان السبق لسورية في ظهور اول قصاص عربي للقصة الحديثة فيها فانه يخيل لي ـ اذا لم اكن واهما ـ بان اول ناد للقصة قد قام في سورية ايضا ، ففي الثلاثينات كان هناك في دمشق ناد للقصاصين وكان مبعث حركة ونشاط ؛ وعلى سبيل الفكاهة اذكر ان الشاعر احمد الصافي النجفي دخل مرة هذا النادي فقيل له على سبيل النيابة : انك شاعر فما شانك واهل القصة حتى تدخل ناديهم ؟ فقال الصافي صح ما تقولون ، ولكني اصلح ان اكون موضوعا للقصة .

وهناك ظاهرة عجيبة في تاريخ القصة السورية وهي

زفـــــــرة

تمـــك قلبي بالحيـــاة ، ولم اكن ... اخـاف مـلاك الموت قبل مشيبي
فشا الضعف في جسمي فاطفا بسمتي ... وهاج على عرس الشـباب نحيبي
اذا عثرت رجلي اثـارت هواجسي ... وان خلجـت عيني دعـوت طبيبي
تحول زهر العيش عندي عوسجـا ... وصار قشيب الحسن غير قشيب
لقد عشت عن داري غريبا ولم ازل ... اجر على درب الشقـــاء صليبي
فيا رب ان حم القضـــاء فلا يكن ... ترابي في واد علي غريـــــب !

بوانس ايرس ـ الارجنتين

ذكي قنصل

ان النضج في كتابة القصة لم يبدا تدريجيـا كما بدا في الاقطار الاخرى ولا سيما مصر ، وانما كان كانهمار المطر الذي لم يسبقه القطر ، وكاد المجيـد من القصاصين والقصاصات يكونون من ابناء جيل واحد ، ولا بد ان يكون هنالك من علل تحتاج الى دراسة .

وظاهرة اخرى عجيبة ، وهي انه قد ظهر بين هؤلاء القصاصين السوريين من فاز بالقصة فازة استحق بها ان يظفر بالصدارة بين قصاصي الاقطار العربية ، وان وجه العجب هذا ينحصر في الزمن القصير الذي نشات فيـه القصة السورية ، ولم يكن من العجب ان يظفر قصاصو اي قطر بمثل هذه الميزة لو كانت قد مرت اجيال طويلة على مزاولة القصة كما هو الحال في الاقطار الاوروبيـة المتحضرة .

وقراءتي لقصص بعض هؤلاء القصاصين قراءة متتابعة ، ومعرفتي لبعضهم عن كثب ، توحي الي بان ليس بين هذا البعض الذي عرفت وبين الاعتراف بهم كقصاصين لامعين يجيدون تصوير المجتمع بكل افكاره وهواجسه كما يجيده مشاهير القصاصين في العالم المتحضر ـ الا عناية خاصة توجهها السلطات لانعاش ادب القصة.

وجمع شتات القصاصين والاهتمام بهم وبذل الجوائز لهم على سبيل التقدير والتكريم وليس على سبيل المسابقة ثم القيام بترجمة قصصهم الى اللغات الحية ، ونشرها في الاوساط الغربية والشرقية ، متخذة منها وسيلة تعريف لمبلغ ما اجتاز هذا الشعب في مراحل المدنية التي تعبر عنها القصة ـ وليس غيرها ـ خير تعبير .

ومما لا شك فيه ان هناك قصاصين اخرين ضاقت هذه المجموعة عن استيعاب قصصهم فلا بد وان ياتي ذكرهم في مجموعة اخرى تلحق بهـذه المجموعة على سبيل الاستدراك .

وجامع هذه القصص وناشرها (1) ، ومخرجها على هذا النحو تاليفا هو الاديب اللامع حسان الكاتب الذي كان له الفضل الكبير على الادب العربي عامة والادب السوري خاصة ، فقد سهل بمجموعته هذه لمؤرخي الفنون وللقارىء العربي الوقوف الكامل على مدى ما بلغت القصة في سورية عند ائمتها من النضج وتكامل العناصر ، حتى ليستغني كل قارىء بما يقرأ هنا عن اي مصدر ، واي بحث لتلمس القابلية ، والموهبة ، والاسلوب ، والهدف في القصة السورية عند المتصدرين الذين بلغوا الذروة وعند الذين اقتفوا آثارهم والذين لا يزالون في اول السلم ، وبهذا يكون حسان الكاتب قد وضع لنا في هذه المجموعة دراسة كاملة للقصة السورية بمختلف طبقات القصة وقصاصيها : وقام بخدمة من خدمات وزارة الاعلام في هذا الفن ، وكان له فضل السبق في هذا المجهود ، كما كان له فضل السبق فيما اخرج من اجزاء (للموسوعة الموجزة) التي لخص فيها اهم ما يحتاجه القارىء العربي من الثقافة العامة بابسط الوسائل وايسرها .

بغداد ـ كرادة مريم

جعفر الخليلي

(1) كان من المقرر ان تكون هذه الدراسة عن القصة مقدمة لكتاب « قصص سورية » .. الا ان غلاء الورق وارتفاع تكاليف الطباعة حال دون ذلك مما دفع صاحب هذا الكتاب الى تقديمه مخطوطا هدية الى المكتبة الظاهرية في دمشق ليكمل به هداياه التي بلغت ٢٢ كتابـا مخطوطا .



رستم كيلاني

اللون الواقعي في قصص رستم كيلاني

بقلم الدكتور حامد حفني داود

استاذ كرسي الادب العربي بكلية الالسن

* * *

قبل ان نتحدث عن اللون الواقعي في قصص الاديب رستم كيلاني احب ان اشير الى ان عمر القصة القصيرة في ادبنا العربي المعاصر قد اشرف على الخمسين عاما : ذلك لان اول ما عرف من هذا اللون يعود الى الاعمال الادبية التي اصدرها الاخوان محمد تيمور ومحمود تيمور ؛ وان كنا نعتبر الثاني منهما هو الاب الشرعي للقصة القصيرة في مصر ، وان ما اصدره اخوه الاكبر لا يعدو من قبيل اللوحات الفنية التي كانت بمثابة الارهاص لمولد هذا الفن الجديد .

ولا يعنينا في هذه العجالة ما اثير من جدل حول المؤسس الحقيقي للقصة القصيرة وما قيل من آراء سجلناها في كتابنا (تاريخ الادب الحديث) ، فانه مهما يكن من امر فان محمود تيمور يعتبر الرائد الجاد لهذا اللون الجديد كما يعتبر الموجه الاكبر لهذا الرعيل من القصاص في مصر والبلاد العربية ؛ واذا قلنا مصر والبلاد العربية فاننا نعني مولد القصة القصيرة في شرقنا الاسلامي. والا فان المولد الاول والريادة الاولى للقصة القصيرة في الاداب العالمية تعود الى اواسط القرن التاسع الميلادي ، اي قبل مولدها عندنا بما يقرب من سبعين عاما ، ولعل جي دي موباسان الفرنسي هو اول الرواد لهذا النمط من الفن القصصي ، وكان يقابله ادجار الان بو في اميركا ، وتشيكوف في روسيا .. وهؤلاء الرواد الثلاثة هم نقطة البدء في تاريخ القصة القصيرة في العالم على الرغم مما بينهم من اختلاف في التناول والاداء .

ومن هذا الرافد الشرقي الذي ظهر في اوائل العشرينات نهل قصاصنا المعاصرون ؛ وما زالت القصة القصيرة تتدرج وتنمو وتكتمل حتى تم لها النضج والاكتمال والتمصير في اعمال محمود تيمور ، ومن ثم صارت لدينا خلفية تاريخية ضخمة تهيىء عوامل النضج والانطلاق القصصي للاديب رستم كيلاني الذي اخذ يحاول تجربته الاولى في الخمسينات من هذا القرن ولكنه لم يخرج الى الناس بباكورة اعماله الا في اواسط الستينات .

وهنا احب ان اشير الى ان الكاتب وهو يعالج هذا اللون الفني وجد نفسه وجها لوجه امام ثلاثة نظريات خطيرة تعالج في ضوئها القصة القصيرة في مصر .

النظرية الاولى : واصحابها يعالجون قصصهم في ضوء اللون الرومانسي ؛ وتمتد جذورها الى جي دي موباسان .

النظرية الثانية : وتمثل حلقة الاتصال بين اللون الرومانسي والاتجاه الواقعي ، وهو اللون الذي ظهر بشكل واضح في قصص تيمور ، وقد عني اصحاب هذه النظرية بتحليل الشخصيات اكثر من عنايتهم بالاحداث والوقائع.

النظرية الثالثة : وقوامها الواقعية المحسة وحدها ، وهو اللون الذي نلاحظه في اكثر قصاصنا المعاصرين .

واديبنا رستم كيلاني آثر في معاناته القصصية اللون الواقعي الذي يمثل في الحقيقة المرحلة الثالثة من تطور هذا الفن .

وحين نضع اعماله القصصية على بساط النقد الموضوعي نستطيع ان نقسم هذه الاعمال الى مرحلتين :

المرحلة الاولى : وتبدأ من سنة ١٩٥٦ وتنتهي اخر عام ١٩٦٧، وفيها اخرج «دموع الذكرى»، «هكذا التقينا»

المرحلة الثانية : وتضم اعماله في عام ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ وفيها اخرج « الجدران الباكية » ، و « رفيق العمر » ، و « قلادة من شوك » .

ولا ندري بعد ذلك ما يطويه له المستقبل من مفاجآت سارة في تطور القصة القصيرة ، وما سيخرج علينا به من ملامح جديدة في هذا الفن .

ونحن حين ننظر نظرة موضوعية فاحصة لاعماله القصصية في هاتين المرحلتين نلاحظ انهما تختلفان كل الاختلاف، وان كانت وجوه الاختلاف قد لا تبدو واضحة لغير المعمقين النظر في النقد القصصي .

فالاديب رستم كيلاني في مرحلته الاولى كان بمثابة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فترة المزاوجة والمواءمة بين الواقعية والرومانسية . كما كان يزاوج بين السمات الوجدانية والسمات الواقعية وكانت غلبة العاطفة عنده تحمله احيانا على الافصاح عن اهداف ما يقص علينا قبل ان تأخذ العقدة القصصية شكلها الذي يريده . ولعل ذلك يرجع الى انطباعات الاديب باعمال من سبقوه من رواد القصة ، ولانه كان لا يزال يمثل في عمله القصصي مرحلة المحاكاة الفنية وانطباعاته باعمال استاذه محمود تيمور ؛ وانت حين تقرا معي شيئا من هذه القصص الاولى تدرك عن كثب هذه الخيوط العاطفية التي كانت تظهر ما بين آن واخر في قصصه ، واقرا ان شئت قصة « الضحية » او « هكذا التقينا » فانك لا شك تلحظ معي بوضوح شديد الومضات العاطفية تلمع بين سطورها وتتألق احيانا الىدرجةتقرب من اللون الرومانسي الحزين .

اما المرحلة الثانية ، فان الأديب يخرج الينا بطراز جديد مكتمل من القصص القصيرة « الجدران الباكية » ؛ « رفيق العمر » ، « قلادة من شوك » .

لقد تحول الاديب في اقل من خمس سنوات تحولا عجيبا ، ذلك التحول ان دل على شيء فانما يدل على ما كنت احس به من صدق التجربة القصصية في نفس هذا القاص ، ومدى اعتمال هذه العوامل الفنية في نفسه في تطوير القصة القصيرة .

ولقد كان هذ التحول واضحا جليا على الرغم من قصر هذه الفترة وقربها من مطلع حياته القصصية ، وانما نراه يتحول من النسج التصويري والاهتمام البالغ برسم اللوحات وتجلية الشخصيات الى هذا النمط الجديدالذي عني فيه الاديب بابراز العقدة القصصية التي اخذنا نلحظ عنايته بها في المرحلة الثانية ، فظهرت جلية في مجموعاته القصصية « الجدران الباكية » و « رفيق العمر » و « قلادة من شوك » .

كما نلحظ في هذه الفترة جانبا اخر واضحا بارزا فيما استشق من صلات دموية بين فن القصة القصيرة وبين المذهب الواقعي ، ذلك المذهب الذي يرى ان الادب لا يتم له الاستواء ولا يكمل له البناء من حيث الاطار المضمون الا اذا كان الادب صورة حقيقية لانعكاس الواقع في نفس الاديب . عند ذلك راح قاصنا يقارب ما بين قصصه القصيرة وبين واقع الحياة ويحاول جادا فيالربط بينهما ، وانك لتقرأ مجموعته القصصية « قلادة من شوك » (١) فتلمس هذا الربط العجيب بين الاسلوب القصصي وبين واقع الحياة ، وتقرأ هذه المجموعة فتحس تماما كان القاص دائما يرد على قارئه احداثا وقعت بالفعل ، فان لم يكن وقعت بالفعل فلا اقل من ان تكون في عداد الواقع تماما . ومن هذا كان اديبنا رستم كيلاني واقعيا في هذه المجموعة .

وهو في هذه المرحلة من قصته الواقعية لم يكتف بالاطار الذي رسمه في مجموعته الاولى ؛ حين نراه يحاول في هذا النمط الواقعي الجديد علاج ما يمس حياتنا الاجتماعية من مشاكل يومية ، وهو عين ما نراه واضحا في قصة « قلادة من شوك » (٢) ، فهو في هذه القصة يصور تصويرا واقعيا يكاد يكون مباشرا : قصة الفتاة المثقفة التي تزوجت بمحامي الشركة ؛ واكتشفت ان زوجها خدعها حيث كان متزوجا باخرى قبلها وله اولاد ، وفي الوقت الذي حضها على اتمام تعليمها ، قبل ان يتكشف لها امر زواجه السابق وكيف وقف الى جانبها على الرغم مما خدعها به حتى اتمت تعليمها وشقت طريق حياتها ، فان مثل هذه القصة تعتبر من صميم حياتنا الواقعي ولا تخلو منها حياتنا اليومية ، والشيء الجديد في واقعية القاص في هذه المرحلة انه يرسم صورة الواقع ويحلل المشكلة ولا يكتفي عند ذلك بل يشير من طرف خفي الى حل المشكلة التي يعرضها .

ورستم كيلاني في هذه المرحلة يضيف الى ما ذكرنا العناية بالهدف ، ولسنا نقصد من كلمة الهدف مجرد المفهوم اللغوي من كلمتي (الادب الهادف) بقصد ما نعنيه من تحليل المشكلات في حياتنا ، فهو يحاول دائما ان يكشف عن الجانب المضيء ، او بمعنى اخر يحاول ان يبين في قصصه الواقعية ان اكثر ما ينجم من مشكلات اجتماعية دائما يجيء من سوء ظن الانسان باخيه الانسان ، وتفسيره الاحداث دائما على انها شر ما دام ظاهرها يدل على الشر ؛ فرستم كيلاني يستحثنا عن طريق القصة على الا نكتفي بظواهر الاشياء وان نتريث في الامور ونتعمق المشاكل قبل اصدار الحكم ، فربما كان خيرا ما كنا نظنه شرا ، وانت تلحظ ذلك الجانب الهادف في قصته « براءة .. ولكن » (٣) حين يعرض امامناقصة « سعاد » التي ادركها الاغماء المفاجيء ، وحين حملها « مراد » ذلك الشاب الماجن المستهتر سيء السلوك الى منزل ابيها ، وحين سبب هذا الموقف المزعج فسخ خطوبتها من « صلاح » ولا سيما بعد ان اعلن طبيبه ان شيئا قد حدث ، والكاتب الواقعي هنا بفضل صدقه ولباقته والتزامه حل المشكلات في قصصه استطاع ان يجعل من قصته درسا في الاخلاق والتريث في الامور حين ادار مجرى القصة الى الجانب المضيء ، وحول دفتها الى هذه النهاية الهادفة ، فجعل ـ في حبكته القصصية ـ والد الفتاة يرفع امر ذلك الماجن « مراد » الى القضاء والنيابة ، وهكذا يسوق حلقات القصة حتى

---

(١) صدرت عن دار الكتب الجامعية بالقاهرة ١٩٧٠ .

(٢) قصة قلادة من شوك ـ نشرت في مجلة الاديب (اغسطس١٩٦٩)

(٣) قصة براءة .. ولكن ـ نشرت في مجلة الاديب (ديسمبر١٩٦٩)

صنين

صنين يا شيخ الجبال وموئـــلا للخائفـــين
خشعـت لك الابصار من اشتات قوم غابرين
كم من عيون شاهدت كهفـــا لماوى الآمنـين
وطئـت صخـورك جند اشبال غزاة قاهرين
فهزئـت بالاجيـال والاقيال رأس الفاتحـين
ظلموا وجاروا وشتتوا وسبوا بيوت الهانئين
سفكوا الدماء وليس فيهم خشية كالراحمين
تركوا لنـــا خبرا وذكرا لا يسر الباحثـــين
فطوتهم الارض التي وطئـوا ثراها ظالمـــين
لو ينطـق الصخر الاصم لفشا بسر الغادرين
اشلاء جنـد بعثرت وغـدت طعام الآكلـين
ماذا ترى ريح الغزاة بقهر قـوم راغديـــن
تركوا لنا آثـارهم تتلوا حديـــث الظامعين
مـلاك بـلا عـدل هباء باطـل في العالمـــين
لا يبقى الا وجه ربـــك في بيـد الابديـــن
لا تظلموا يا قوم ان الله حق لا يجيب الآثمين
نطق الكتاب بحكمه بطل فعـــال الفاتحـــين

عيسى ميخائيل سابا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تنتهي الى الطبيب الشرعي الذي يثبت بعد الفحص الدقيق عفاف « سعاد » وان ما حدث لا يعدو تمزقا في غشـــاء البكارة تسبب عن وقوعها المفاجيء على درج السلم بعـد هذا الاغماء الشديد .

وهكذا نلحظ في قصص رستم كيلاني اللون الهادف من القصص الواقعي ذلك اللون الذي يشير الينا من طرف خفي الا نتعجل الاحكام في تفسير ما يقع من احداث الحياة اليوميـة .

ولامر ما قد يظن ظان بان القاص دائما يعمـــد في قصصه ان تنتهي بالنهاية السعيدة ، ولكن النهاية السعيدة ليست هدف الكاتب الاول في قصصه الواقعي ذلك لان اللون الواقعي لا يستلزم النهاية السعيدة او المحزنة لان الكاتب يتصور الواقع بجميع الوانه واشكاله ، والواقع محتوى واسع فيه الخير والشر ، ولكن محاولة «رستم» توجيه قصصه هذه الوجهة الهادفة والدعوة الى التريث في تفسير ما يقع من احداث الحياة هي التي تحمل الناقد السطحي الى ذلك التفسير فيظن ان الكاتب يعمـــد الى النهاية السعيدة عمدا وان يجعلها دستوره في ختـــام قصصه .

وملحظ سادس لا ننسى ان نشير اليه في هـذه المرحلة من حياته القصصية ذلك هو تحول الكاتب من الاسلوب المباشر الذي كنا نالفه في مجموعته « دمـــوع الذكرى » الى الاسلوب غير المباشر الذي ظهر بشكل ملفت في مجموعاته القصصية الجديدة : (الجدران الباكيـة ، رفيق العمر ، قلادة من شوك) ، فان رستم كيلاني في هذه القصص لا يستعجل النتائج ولا يذكر الحلول ذكرا مباشرا بل يترك لقارئه فرصة التطلع الى النتائج او يشير اليها من طرف خفي ، وهذه سمة بالغة الاهمية في الحبكة القصصية ولا يكاد يجيدها غير المتمرسين بهذا الفن .

واخيرا هذه عجالة موجزة احب ان اسجلها للاديب رستم كيلاني هي في نظري تعتبر نقطة تحول في اسلوبه الواقعي الملتزم الهادف في الوقت الذي اعتبر فيه هـذه الانماط الجديدة ـ باعتباري من مؤرخي الادب الحديث ـ من اخص السمات في اسلوب القصة القصيرة في ادبنا العربي المعاصر .

القـاهرة — حامد حفني داود



محمد العدناني

مقدمة «معجم عثرات الادباء»

بقلم محمد العدناني

* * *

ان انتشار «معجم الاخطاء الشائعة» ، الذي صدر عام ١٩٧٣ ، في جل بلاد العالم ، والاقبال الشديد على اقتنائه ، وتشجيع اعضاء المجامع العربية اللغوية لي ، وكبار ادباء الضاد والنقاد : ونظرهم اليه بعين الرضى في جميع ما كتبوه في الصحف والمجلات ، وما قالوه في الاذاعات العربية والاجنبية ، غمر نفسي بالغبطة ، وانطق لساني بالشكر ، وحفزني الى العمل ساعات طويلة متواصلة في النهار وبعض الليل ، لتاليف « معجم عثرات الادباء » هذا ، معتمدا على ٨٠ مصدرا جديدا ، عدا الستة والستين مصدرا ، التي اعتمدت عليها في تاليف « معجم الاخطاء الشائعة » : راجيا ان يفوز برضى امتي الخالدة ، ولغتي المحبوبة : ومجامعنا اللغوية الاربعة ، والمكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط ، وادباء العالم ونقاده من العرب والمستعربين .

وانا لست سوى حلقة صغيرة في سلسلة كبيرة وطويلة من رجال نذروا نفوسهم لخدمة لغتهم ، وتصحيح ما يجري على السنة الناس من اخطاء لغوية : حبا في ابقاء الحياة متدفقة بقوة في شرايين الضاد ، ومحاسبة من يلحن فيها : او يحاول الحط من شانها محاسبة عسيرة ، لان الاساءة الى الضاد هي اساءة الى قوميتنا وعروبتنا .

ورد في كتاب في احدى مكتبات مدينة (وليمسبورغ) الاميركية ، ان احد اعضاء مجلس النواب الاميركي (الكونغرس) . قال : « اننا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين الذين يسرقون ويقتلون ، فلماذا لا نضع القوانين لمعاقبة الذين يفسدون اللغة ؟ »

فاذا صدر هذا القول في بلد ، تكثر فيه المعامل والالات التي بنى عليها مجده الشامخ : فماذا يجب علينا ـ نحن العرب ـ ان نفعل ، ولم يبق لنا من ماضينا العظيم سوى هذه اللغة ، بعد ان اصبحنا اكثر من عشرين دولة عربية ، كانت في الماضي دولة واحدة ؟ فهل نترك اللغة العربية لاعدائها الكثر ، الذين يحاولون تحطيمها ؟

ان اهمية اللغة العربية ، وكونها من اهم العناصر الاساسية لتوحيد الامة العربية : هي التي جعلت المستعمرين والدول العنصرية يحاولون القضاء عليها : كما فعلوا في الجزائر المجاهدة ، خلال ١٣٢ عاما من الاستعمار الغاشم ، والتجهيل ، والابقاء على الامية وسلب الثروات ظانين انهم بما فعلوه في الجزائر ، وليبيا ، وتونس والمغرب ومصر ، وفلسطين وبقية الشقيقات العربيات ، يستطيعون السيطرة على امتنا الخالدة ، التي لا يكادون يغرقونها في غياهب محيطات الجهل والفقر ، حتى تظهر لهم من بعيد على سطح الخضم ، منطلقة نحو شاطىء السلامة والخلود والمجد .

وكل من يتحامل على اللغة العربية ، ويجحد فضائلها الكثر ، ومجدها الاثيل ، ليس سوى عدو لدود للامة العربية ، عليها ان تنبذه من بين ظهرانيها نبذ النواة .

لقد وضعت مقدمة « معجم الاخطاء الشائعة » في صدر هذا المعجم ، لانني اتبعت خطة تاليف « معجم الاخطاء الشائعة » نفسها ، في تاليف شقيقه التوام « معجم عثرات الادباء » ؛ هذا . وانا لا احب ان افرض على من يقتني هذا المعجم ان يقتني شقيقه ايضا ، ولا ارغب في ازعاج من يقتني المعجمين ـ حين يقرأ هذا المعجم ـ بالرجوع الى « معجم الاخطاء الشائعة » لقراءة مقدمته بين الحين والاخر ، فاوفر بذلك عليه عناء البحث في معجمين بدلا من معجم واحد .

وانا ممن يدعون الى استعمال الكلمات المولدة دون تردد : وهي الكلمات المستعملة بعد اواخر القرن الثاني الهجري في الامصار ، وبعد اواسط القرن الرابع الهجري في جزيرة العرب . وقد جاء في مختصر العين للزبيدي صاحب التاج : « المولد من الكلام هو المحدث » . وقسم كبير جدا من لغتنا مولد ، فاذا انكرنا استعمال المولد ، تكون قد انكرنا استعمال القسم الاكبر من الكلمات ، التي يستعملها اليوم كتابنا وشعراؤنا ، وتكون قد قتلنا الاف الكلمات التي عاشت على السنتنا اكثر من عشرة قرون .

ومن شاء، أن يقرأ بحثا وافيا عن المولد ـ عليه ان يرجع الى الباب الحادي والعشرين من المزهر للسيوطي (الجزء الاول ، صفحة ٣٠٤) .

اما الكلمات الاعجمية المعربة ، فانا اؤيد الجواليقي وابن الجوزي وسواهما من ائمة العربية ، الذين قالوا ان الكلمات الاعجمية، التي عربها العرب، وحولوها عن الفاظ العجم الى الفاظهم تصبح عربية .

من منا يستطيع ان ينكر على القرآن الكريم استعماله الكلمات الفارسية الاصل : كاباريق، وسجيل، واستبرق. والرومية كقطابى ، وصراط ، وشيطان ، وابليس . والحبشية كاراتك ، ودري ، وكفلين (نصيبين) . والسريانية كرادق ، ويم، وطور، وربانيين . والزنجيتين حصبا وسريا ؛ والعبرانية فوما ، والتركية القديمة غساقا والهندية مشكاة ، والقبطية : هيت لك .

وقد احصى السيوطي تسعا وثمانين كلمة اعجمية اخرى في القرآن الكريم . ويقول عبد القادر المغربي في كتابه « الاشتقاق والتعريب » ، ان كلمة مصحف ، التي سمي بها القرآن الكريم نفسه، معربة عن اللغة الحبشية، وهي مشتقة من صحف ، ومعناها بالحبشية : كتب . وكلمة القاموس التي اطلقها الفيروزابادي على معجمه هي اعجمية معربة ، ومعناها البحر او معظم مائه .

وقد اخرج ابن جرير بسند صحيح عن ابي ميسرة التابعي الجليل قوله (صلى الله عليه وسلم) : « في القرآن من كل لسان » .

وورد في الحديث والسنة الشريفة كثير من الكلمات الدخيلة المعربة ، منها : الكلمات الفارسية : سرقة (وهي القطعة من جيد الحرير) ، والطازجة ، والكركم (الزعفران) ، والماخور ، والمرزبان ، والقهرمان (الخازن والوكيل) ، والخربز (البطيخ) ، والقيروان (الجماعة والقافلة) . ومنها الكلمة الحبشية يدرقلون (يلعبون ويرقصون) : والنبطية دحل (خاف) . فهل نستطيع أن ننكر على النبي العربي(صلى الله عليه وسلم) استعماله هذه الكلمات الاعجمية ؟

اما النهج الذي سرت عيه في هذا المعجم ، فهو كالاتي :

لم احد عن الاسلوب : الذي انتهجته في تاليف « معجم الاخطاء الشائعة » : الا في امور قليلة ، ساذكرها في هذه المقدمة .

وانا في « معجم عثرات الادباء » هذا ، لم ارغب في حصر نفسي في نطاق صحة الكلمة وما تدل عليه ، بل جعلت انصرافي الى التحقيق اللغوي ، في السنوات الطويلة الاخيرة من عمري ، وسيلة الى صحة اللغة ـ قدر استطاعتي ـ في شعري ، ونثري الذي يضم النقد ، والقصة ، والاقصوصة ، والمقالات الادبية ، والاجتماعية، والقومية ، والتاريخية ، والتوجيهية ، وعثرات الكتب ذوات الموضوعات المتنوعة والمترجمة الى العربية .

قد يكون للحرف اكثر من حركة واحدة ، مثل : دجاجة ، فاكتفيت بذكر اكثرها شيوعا (دجاجة) بفتح الدال ، في بعض الاحيان .

واذا اجتمعت كلمتان فصيحتان ؛ تستعمل العامة احداهما ، وتهمل الاخرى ، فان التي تستعملها العامة هي العليا عندي .

واستشهدت احيانا بابيات ، دون ان اذكر اسم الشاعر ، لانني لا اعرفه ، ولان المصدر الذي اخذته منه لم يذكره .

وكتبت (المئة) دون الف بعد الميم المكسورة ، لانني لا اشجع على كتابتها بالالف . (راجع معجم الاخطاء الشائعة) .

وحاولت في معظم الاحيان ـ حين تستعمل في المادة الواحدة كلمتان او اكثر ـ ان اقدم الكلمة التي اراها افصح واعلى في عنوان البحث مثل : المعجمات ، والمعاجم والمعاجيم .

وحين يكون للكلمة معنيان ، احدهما اشهر من الاخر ، او اقوى منه ، اضع الاشهر والاقوى اولا في عناوين المواد ، مثل (ضربة لازب) التي قدمتها على (ضربة لازم) .

وهنالك مواد قليلة ترددها افواه المذيعين ، وتخطها اقلام كتاب الصحف كثيرا في هذه الايام ، رايت ان اذكر الخطأ فيها وتصويبه، حرصا مني على تصحيح جميع عثرات الافواه والاقلام ؛ واراحة لضميري ، وان كان عمالقة الادب عندنا يرونها هفوات بسيطة ، يجب ان لا يرتكبها مذيعونا ورجال صحافتنا .

اعدت في هذا المعجم كتابة مواد قليلة جدا ظهرت في « معجم الاخطاء الشائعة » بعد ان زدت عليها شواهد جديدة ، او بعد ظهور راي حديث عنها من احد مجامعنا .

واوردت في بحوثي المراجع اللغوية بحسب التسلسل التاريخي لوفاة مؤلفيها ، بادئا باقدمها ، ومنتهيا باحدثها.

كلما وجدت عدد المخطئين لاستعمال احدى المواد قليلا ، اقتصرت على ذكر بضعة مصادر لتصويب استعمالها . وحين يكثر عدد المخطئين لكلمة ليست خطأ، او المصوبين لكلمة ليست صوابا ، ازيد عدد المصادر التي تؤيد رأيي ، وتدحض آراءهم؛ حتى اذا رايت المصادر التي يعتمدون عليها كثيرة ؛ لذت بجميع المصادر المتوافرة لدي (وهي وافرة والحمد لله) والتي تدعم رأيي وتنقض آراءهم ، لاقنع القارىء بصواب رأيي ، وخطأ آرائهم . واكتفي احيانا بذكر قليل من المصادر، عندما اراها مجمعة على رأي واحد ، فاريح بذلك القارىء من مراجعة عدد كبير من المصادر ، دون ان يكون في حاجة الى ذلك .

وحاولت في هذا المعجم اللجوء الى الايجاز ـ ما

استطعت الى ذلك سبيلا ـ وذكر التعريف الواحد ، او المعنى الواحد مرة واحدة ، متلوا باسماء جميع ما لدي من المصادر التي ورد فيها : او جلها : او بعضها : وفقا لدرجة الشك والغموض اللذين يكتنفان تلك المادة : بدلا من ذكر خلاصة ما ذكره كل معجم ، لابتعد عن التكرار . فنا بوقت القارىء : الذي اصبح الان من الالماس ، بعدما كان من الذهب .

وتقيدت بما اجمعت عليه المعجمات ؛ وبعض ما اقرته المجامع ، دون ان آبه :

ا ـ لما نسب الى بلغاء العرب في صدر الاسلام عندما اشك في صحة الرواية عنهم .

ب ـ وما قاله ائمة الادب العربي في القرون العشرة الاخيرة ، اذا لم اجد معجما موثقا يدعم آراءهم .

ورايت من الحكمة اهمال جميع ما لم تذكره المعجمات ولم تقره مجامعنا الاربعة ، او احدها ؛ منعا للغوض من ان تضرب اطنابها في ميدان لغتنا التي نفديها بالنفس والنفيس .

ونقلت مادتي « لا يخفى على القراء » و « اعتقد » من معجم الاخطاء الشائعة الى هذا المعجم ، لان القارىء يحتاج الى الرجوع الى هاتين المادتين ؛ في المواد التي يجوز فيها ان يحل حرف جر مكان اخر ، والمواد التي يشرب الفعل فيها معنى فعل اخر . وهذا يجعلنا نحول دون تكرار ما جاء في القرآن الكريم ؛ والحديث الشريف ، وما قاله الكسائي ، واكثر الكوفيين ؛ وبعض البصريين ، وابن جني ، وابن سيده ، وابن السيد البطليوسي ، وابن مالك النحوي ، وابن هشام الانصاري ، ومصطفى الغلاييني .

هنالك مواد كثيرة مبهمة في معجماتنا ، يكتنفها التشويش والغموض في كثير من الاحيان . وقد حاولت جهدي ، في هذا المعجم ، جلاء الغموض الذي لفها باريديته الصفيقة ، بعد ان اذكر جل ما قالته المعجمات عنها من متناقضات ، لاخفف عن الادباء المحققين عناء البحث عن حقيقة المادة الواحدة ساعات طوالا ، او اياما ، واعرضها عليهم صحيحة واضحة ، دون لف او دوران ، ودون ان اترك بحب اجتهادي ادنى شك يساور الباب القراء .

لا اذكر خلاصة بحوثي في نهاية مادة ما : الا اذا كانت الاراء عنها متضاربة في المعجمات ؛ والخلاف شديدا بين ائمة اللغة ، لكي ابدد ـ قدر استطاعتي ـ سحب الغموض في سماء ذهن القارىء في نهاية المطاف .

ابحث عن المادة احيانا في عشرات المصادر ، التي قد تربو على خمسين مصدرا ، ولكنني لا اذكر الا اسماء المصادر التي اجد فيها جزء المادة الذي ابحث عنه ، وقد لا يزيد عددها على عشرين ، او بضعة عشر مصدرا : واكتفي احيانا بالرجوع الى مصادر قليلة ، حين ارى الاجماع منعقدا على الصورة التي انشدها .

هنالك معجمات عشراتها غير قليلة ، فاذا انفرد احدها ؛ او اثنان ؛ او ثلاثة منها بذكر مادة ما : لجأت الى معجم او اثنين من المعجمات الموثوق بها كالصحاح ؛ والاساس ، واللسان ، والمصباح ، والتاج . والمد ، والمعجم الكبير واشباهها . فاذا لم اجد تلك المادة في احدها ، انكرت صحة المادة ، ولجأت الى مجامعنا : مستشيرا برايها : او مقترحا عليها الموافقة على استعمالها ، اذا وجدت ذلك ضروريا .

ان القرآن الكريم ؛ والحديث الشريف الصحيح ؛ ومعجم الفاظ القرآن الكريم ، وخلق الانسان لثابت الكوفي ، والفاظ ابن الكيت ، وادب الكاتب لابن قتيبة والالفاظ الكتابية للهمذاني ؛ والاضداد لابن الانباري ؛ وامالي القالي ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، واسماء الاشياء للعسكري ؛ ومقامات الهمذاني ؛ وشرح الحماسة للمرزوقي ، وفقه اللغة للثعالبي وشرح المعلقات للزوزني ، وشرح الحماسة للتبريزي ، ومفردات الراغب الاصفهاني ، ومقامات الحريري ، واساس البلاغة للزمخشري ، ومغني اللبيب لابن هشام الانصاري ، وتعريفات الجرجاني ، ومزهر السيوطي ، وشفاء الغليل للخفاجي ، وكشف الظرة للالوسي الكبير ، ومستدرك المعجمات لدوزي وما شابهها من المصادر ، هي مصادر لغوية موثقة عندما استشهد بوجود احدى المواد فيها ولكنها ليست معجمات لغوية كاللسان والتاج تنشد فيهما وفي سواهما من المعجمات كل المواد اللغوية ، ونتوقع العثور عليها فيها . وهذا يحملني على اهمال اللجوء اليها احيانا ، لاثبات صحة ما اورده من المواد ، لانني لا اجد جميع المواد فيها ، دون ان تحق لي محاسبتها على اهمالها ذكرها ، كما حاسبت المعجمات الاخرى في معجمي المخطوط « عثرات المعاجم » .

واكتفيت في المعجم هذا بذكر اسماء المراجع ، دون ان اذكر ارقام الصفحات التي استقيت منها المواد ، لان هذا معجم لغوي وليس كتابا ادبيا .

وحملني احيانا حب توفير الوقت للقارىء : والتركيز على المعنى ، على ان اذكر مصادر كثيرة ، تورد معنى من المعاني ، سائدا في تلك المصادر جميعها ، ومرورا بالفاظ قد تختلف اختلافا يسيرا بين مصدر واخر : اذا كان المعنى هو هدف التصويب . اما اذا كان الخلاف على المبنى ، فانني اتقيد تقيدا تاما بالالفاظ التي انقلها ، والتي تكون متشابهة في المصادر جميعها .

وقد اضع ـ تجنبا لارهاق منفد الحروف ، وتلبية لرغبة الناشر ـ حركة واحدة على حرف ، يجوز ان تكون له حركة ثانية ، مثل : صبيان ، التي يجوز ان تكون الصاد فيها مضمومة ايضا ؛ ومثل : جمد الماء وجمد : والصبر والصبر .

وحين اقول : ويخطئون كذا ، او : ويقولون كذا ،

اعني ان بعض الادباء هم الذين يخطئون قول كذا . او هم الذين يقولون كذا : ولا اعني ـ طبعا ـ جميع الادباء .

وهنالك نصوص تستشهد بالايات القرآنيةالكريمة: دون انيذكر فيها اسم السورة ورقم الاية، اللذينذكرتهما في المتن ؛ وهو من حق المؤلف ، وكان علي ذكرهما في الحاشية ، ولكنني اثرت وضعهما في المتن ، اختصارا لوقت القارىء ؛ وابقاء على تركيز ذهنه .

وقد يطلق احد المجامع اسمين على مسمى واحد ، وانا قد اختار احدهما ، لانه مالوف ، ويسهل علىالذاكرة اختزانه ، واهمل الاخر لانه غير مالوف ، او لان هناك صعوبة في ايجاد صلة بين لفظه ومعناه .

واستشهد ببيت ، او جملة فيهما كلمة او كلمات : قد يجهل معناها ؛ دون ان اذكره في بعض الاحيان ، لانني اترك امر البحث عنه للقارىء الاديب ، اعتمادا على نشاطه واقتصادا في العبارة .

وبذلت اقصى جهدي لتزويد هذا المعجم بالمواد التي دار النقاش حول تخطئتها او تصويبها فيمجامعنا ، وخارج مجامعنا بين قمم رجال اللغة عندنا واشهد انني استطعت اقتناص جلها، لانالوصولاليها جميعها مستحيللكثرتها، وولادة اخطاء كثيرة جديدة دائما ، ككلمة تحجيم ، التي ولدت ابان الحرب الاهلية الطاحنة في لبنان عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ، لتقليص حجم القوة الفدائية الفلسطينية ، فاجهضت الالسنة والاقلام كلمة تحجيم ، التي خطأتها في هذا المعجم ، وذكرت ما رايت انه الصواب .

وهنالك كلمات في اللغة العربية ارى ان نجتنب استعمالها ، وقد اهملت ذكرها في معجمي هذا ، مع ان المعجمات تقول ان استعمالها صحيح لغويا ، كقولنا : جامعت فلانة على امر كذا . ومعناه : اجتمعت معها على ذلك الامر . فهنالك عدة افعال ، نستطيع ان نستبدلها بالفعل (جامع): ونعطينا المعنى الذي نريده، دونانتخجل من التفوه بها ؛ كقولنا : اتفقت معها ، وايدتها ، ورايت رايها ، ووافقتها الى اخر ما هنالك من افعال كثيرة في اللغة العربية ، تؤدي المعنى نفسه .

وفي اللغة العامية عدد كبير من الكلمات ، التي طرا على حروفها تغيير طفيف ابعدها عن الفصحى : فظنناها عامية ؛ ولو انعمنا النظر في اصولها ، او حروفها ؛ او حركاتها لرايتنا ان ذلك التغيير البسيط ؛ الذي طرا عليها ، جعلنا ننفر من استعمالها ، فكلمة سباط (الحذاء) مثلا ؛ ليست ماخوذة من الكلمة الاسبانية Zopatos بل هي عربية محرفة عن (السبت) ، وهو كل جلد مدبوغ .

فعلينا البحث عن تلك الكلمات ، واستعمالها بعد ارجاعها الى اصولها ؛ لنردم جزءا من الهوة التي تفصل بين الفصحى والعامية .

وانا في هذا المعجم ؛ وفي توامه « معجم الاخطاء الشائعة » لا اؤيد استعمال الكلمات العامية ، كما خيل الى بعض النقاد ؛ الذين قراوا مقدمة المعجم الاول، ولكنني اؤثر استعمال الكلمة الفصيحة ؛ التي تتفوه بها العامة على الكلمة الفصيحة ، التي تابى العامة استعمالها ؛ او لا تستحسنه .

وصححت حركات عدد قليل من اسماء البلدان ، واسماء الاشخاص ؛ التي يعثر كثير من خطباء المنابر ، ومذيعي التلفزيون والاذاعة ، حين يغبطون حركاتها ، متوخيا من وراء ذلك ، ارشاد بنيقومي الىسبل الكمال، مهما كانت ضيقة ومتشعبة .

وفي المعجم هذا بحث مفصل عن الاضداد ، دعوت فيه الى اختيار احد المعنيين المتضادين دون الاخر ، لاسباب وجيهة ذكرتها . وهذه الدعوة لا تعني انني اخطىء من يستعمل المعنى الاخر ؛ غير المختار ، وغير المالوف ، ويهمل المختار والمالوف؛ لان هذا منشان مجامعنا اللغوية التي ارجو ان تصبح مجمعا واحدا .

وعندما اذكر كلمة « التاج » اعني بها معجم « تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي » ولا اعني كتاب « التاج في اخلاق الملوك للجاحظ » .

وفي الختام لا بد لي من ذكر الامور الاتية :

انا لا اشك في ان بعض ادبائنا يعرفون قسما كبيرا من الاخطاء ، التي ذكرتها في هذا المعجم ، او يستطيعون الوصول الى ما وصلت اليه من حقائق لغوية، بعدالبحث في عشرات المعاجم ، والمصادر الادبية، اذا كانت فيمتناول ايديهم ، كما فعلت انا . ولكنني اعلم انني وفرت عليهم عناء البحث عن المادة الواحدة ساعات حينا ، واياما في اكثر الاحيان ، تاركا لهم تحقيق مواد اخرى كثيرة ، لم يتح لي تحقيقها ، او العثور عليها لتحقيقها .

ولا اشك ايضا في ان الكثيرين من كتابنا يجهلون صواب القسم الاعظم من الاخطاء التي صححتها . وفي الحالين ارجو ان يجد جميع القراء في هذا المعجم مادة، يفيدون منها في فترة قصيرة من الزمن ، في عصر السرعة المجنونة ، الذي نحن فيه الان .

ويقولون ان هذا المعجم ، وشقيقه معجم الاخطاء الشائعة : الذي الفته قبله . هما اول معجمين من نوعهما في اللغة العربية : فشكرا لله عز وجل ؛ الذي قدر لي ان اكون اول من الف معجما عربيا في الاخطاء اللغوية ، كما قدر لي ان انظم اول ملحمة شعرية عالمية في ديوان كامل عن الام (ملحمة الامومة) .

وانا لا ادعي اني احطت بجميع ما تصديت له فيهذا المعجم وتوامه ، فاللغة العربية بحر ، لا اتجاوز مياهه الاقليمية بعد ، وانا في الشطر الثاني من عامي الخامس والسبعين . وما على الذين يجيئون بعدي الا ان يصححوا هفواتي ؛ اذا كانت ثمة هفوات ، ثم يكملوا الطريق الوعر ، الذي سرت عليه ، واحدا بعد اخر ، كما يفعلون في سباق

جولة في الفجر

تعـــالي غـــادة الشعـــر ... نجـل في موكـب الفجـر
نسامر انجم الاشواق .. ... عنـد الشاطىء البحـري
فان الشط في الناظـــور ... مهـد الكوكـب الـدري
هنالـك ينسـج العشاق ... اخبـــار الهوى العـذري
هنـالك يكتبـون اغاني ... الاحـــلام .. والعمـــر
تعـــالي نسرق الاسرار ... مـــن ايماضـة البـــدر
ومـــن ايمـاءة الاجـفان ... او همـس عـلى الثغـــر
اعينيني .. اعينيـني .. ... لاكشـــف مكمـــن السر
لابحـث في بطـون الحوت ... عن خيـــط مـن الـدر
فاصنـــع منـه باقـــات ... مـن الاخـلاص والطهـر
تعـالي ، كـاد يخنقـــني ... فحيـح الزيـف والغـدر
وقامـت حـولي الجدران ... تسعى بي الى القهـــر
الا عـــودي الى الانـوار ... في شطـــآننا السمـــر

الناظور ـ المغرب الاقصى ... القمري الحسين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراوحة ، الذي يسـمونه سباق المواصلة : او سبـــاق البريـــد .

وانا اشهد ان اقتحام ميدان التحقيق اللغوي يحتاج الى جراة عظيمة ، ولا بد له من التعرض لاقلام النقاد ، الذين يمزج بعضهم مدادها بسم نقيـــع ؛ قد يسيء الى شهرة المحقق ، وينال قليلا من قدره ، الذي بنـــاه في عشرات السنين من الدراسة المتواصلة ، والبحث العميق والتحقيق الدقيق .

ولو بقينا نتهيب اقتحام هذا الحقل اللغوي الشائك لازداد الشوك فيه ، وازداد نزف لغتنا المحبوبة ، وقضينا في نهاية الامر على معالمها الاصيلة ، واستبدلنا بها لغـــة ممسوخة ، ليست منا ولسنا منها . وهذا حملني على ان اضع في كفة سمعتي اللغوية والادبية ، التي فزت بهـــا خلال اكثر من نصف قرن ، وما قد يحاول بعض طغـــاة النقاد ، ذوي الافاق الضيقة ، النيل منها ؛ واضع لغتي المحبوبة وعروبتي الخالدة في كفة اخرى ، فرجحت كفة اللغة والعروبة ، وشالت كفة الانانية والرهبة ؛ واقدمت على تاليف « معجم الاخطاء الشائعة » ؛ ثم هذا المعجم ، حبا بامتي التي فديتها ، خلال حياتي الطويلة ، بالنفس والنفيس ، معتمدا على صبري الطويل العنيـــد ، وعلى صداقة للمعجمات اربت على خمسين عاما ، وعلى اخلاصي الذي ليس له حد ـ لامتي ولغتي ؛ وثقتي بنفسي وبشعبي العربي النبيل الذي عود ادباءه وعلماءه انصافهم بعـــد موتهم دائما ، وقبل موتهم احيانا .

ليقل النقاد ما يشاؤون ؛ وليحكم التاريخ بيني وبينهم ـ اذا وجدوا ـ ؛ فحسبي انني اقدمت على تاليف معجمين من هذا النوع ؛ متوكلا على الله سبحانه وتعالى ، ومستمدا منه العون لاصدار المعجم الثالث : « عثرات المعاجم » .

والى اللقاء في ذلك المعجم ، الذي ارجو ان اكتب مقدمته ، وانا جالس في القدس ؛ في شرفة مطلة على المسجد الاقصى المبارك ، وقبـــة الصخرة المقدســـة ؛ وكنيســة القيامة الخالدة ؛ ولو كره المستعمرون .

محمد العدناني

الشاعر صالح جودت

بقلم الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

* * *

شاعر مصري اصيل : عاش مع الشعر وفي رحابه قريبا من نصف قرن .

وقد بدا نشاطه الادبي في نطاق جماعة ابولو التي اسسها الدكتور احمد زكي ابو شادي عام ١٩٣٢ ، وكان الشاعر صالح جودت احد اعضائها، واحدكتاب مجلتها الشهيرة، مجلة ابولو .. ومنذ ذلك الحين ظهر اسم الشاعر صالح جودتشاعرا رومانسي المذهبكلاسيكي الشكل، وجداني النزعة ، يترنم بالشعر ويؤثره ايقاعا جميلا ، وصورا حالمة . وشكلا فنيا ملتزما ، وخيالا محلقا ، وتجربة شعورية عميقة ؛ ورؤية حادة دقيقة .

كما لمع اسم صالح جودت في الصحافة ، وبخاصة الصحافة الادبية ، وفيمهرجانات الشعر وانديته ومواسمه وفي مجال الاذاعة والاعلام .

وصار صالح جودت يمثل الشعر المعاصر تمثيلا رائعا ، واصبح ثقلا ادبيا وفنيا كبيرا ، واضحى اسمه علما مرموقا بالحب والتقدير في جميع انحاء العالم العربي، وهو عضو في اللجنة العليا في المجلس الاعلى للفنون والاداب في القاهرة ، ورئيس لجنة الشعر في المجلس ؛ كما انه رئيس تحرير مجلات دار الهلال كذلك .

ومن نحو عام اخرج الشاعر صالح جودت كتاباعن الشاعر احمد فتحي ومنذ شهور نجح فيجمع شعر الشاعر الهنشري والذي ظهر في ديوان مطبوع طبعا جميلا على نفقة الهيئة العامة للكتاب .

وبين يدي اخر دواوين الشاعر صالح جودت وهو « الحان مصرية » الذي يشتمل على نحو ستين قصيدة من شعر الشاعر تمثل فنه وجميع اتجاهاته في الشعر ومذهبه .

وفي قصيدته « عمر الشاعر » يقول صالح جودت في عذوبة ونغم شعري جميل :

يا حلوة العشرين لا تلزعي ... من همسة الخمسين في سمعي
انا شباب مرمدي المدى ... انا ربيع دائم المطلع
لا يكبر الشاعر يا طفلتي ... فعمره في حسه الطيع
لا زلت بالروح قوي الرى ... كدفقة النهر من النبع
قلبي على العشرين فيدنه ... فعمر قلبي ليس يجري معي
اعيش بالشعر غرير الصبا ... امرح في فردوسه المترع
اهوى العصافير والمرى الدمى ... وافرش النوار في مخدعي
واشعل النور بقلب الدجى ... واثر الخفرة في البلقع

وابدع اللحن لكي ترقصي ... واغمز الطير لكي تسجعي
واصنع العطر لتروحي ... واعصر الفجر لتتمتعي
واحتوي حبك في خافقي ... فاملك العالم في اصبعي
وافتح التاريخ كي تدخلي ... ترفقه من بابها الاوسع

ولو كانت القصيدة مؤرخا لها لعرفنا عمر الشاعر حقا ، ولكنها تمضي دون ذكر لتاريخ نظمها مما يوقعنا في الحيرة التي قصدها شاعرنا .

والقصيدة تمثل موسيقى حلوة هي احد العناصر الاساسية في فن الشاعر ، كما تمثل كذلك الحوار الذي يدور في جمال ولوعة وحيرة وهو العنصر الثاني من عناصر المذهب الشعري عند الشاعر ، والى جانب ذلك اللغة الشاعرة المختارة ؛ والحب الذيتدور حوله القصيدة والحب موضوع رومانسي اذا تناوله الشاعر بلهفة المحب وعذابه وآشواقه، وتناوله بقلبه وجراحه وآهاتهوعبراته

وهذا هو الشاعر وفنه صفحة مفتوحة لا غموض فيها ولا التواء بحال من الاحوال فاذا ما جئنا الىموضوع وطني من مثل انشودة المعركة القادمة ـ التي نظمها الشاعر قبل ٦ اكتوبر طبعا ـ نجد الشاعر وفنه الرومانسي واضحين تمام الوضوح يقول الشاعر :

ارجعوا ايها الطغاة ... اطرقوا ايها البغاة
اطرقوا شعبا زحف ... فاحذروه فقد عرف
وحدة الصف والهدف ... ارجعوا ايها الطغاة
ان ان ترفع الجباه ... اطرقوا .. شعبنا الكبير
بدا الزحف والمسير ... غاضبا ثائر الضمير
مترنا وحدة المصير

وهنا نجداللغة الشاعرة، ونجد السهولةوالوضوح، ونجد الموسيقى والتصوير ، ونجد التحدي والاصرار ؛ والثورة الزاحفة ، والغضب من أجل ارادة الانتقام .

كل ذلك له مدخله في هذا التصوير الرومانسي المتميز الجميل .

وتكاد لغة صالح جودت تصل في باطنها وطبعها وجمالها وسلاستها الى لغة الشعب .. والى لغة النثر معا ، كما كان فن ابي العتاهية الشاعر العباسي الزاهد الكبير الذي قيل فيه ذلك ايضا .

وتسجل كثير من قصائد هذا الديوان احداث مأساة ١٩٦٧ .. كما تمثل نفسية الشاعر التي طغت عليها الاحداث قصيدته الجميلة « سراب » التي يقول فيها :

سراب وكل حياتي سراب ... وفي وهمه قد اضعت الشباب
سراب ... واسلمته خاطري ... فعللني بالاماني الكذاب
وتابعته رغم يأسي به ... وعرفتي انه لا يصاب
يروح كمقترب في ابتعاد ... ويغدو كمبتعد في اقتراب
واجهدني السير في اثره ... فلا القلب مل ولا العقل تاب

ان الشاعر الكبير صالح جودت قد عاش ـ بروحه

---

(١) من كتاب « الادب العربي الحديث ومدارسه » تحت الطبع. وقد كتب هذا المقال قبل وفاة الشاعر بقليل .

في وادي العرائس

غجرية سمراء يعشقها الندى ... حبت عصا الترحال والاسفار
رقصت على ضوء الفوانيس التي ... راحت تمور بخصرها الثرثار
ما بين موال وآه مرفق ... طبل ومزمار ورقصة نار
في خيمة غصت بكل مليحة ... يرنو الشباب بنظرة وحوار
الشاي نشربها كشارب ... لم يصح بعد من الهوى الغدار
راحت بعينيها تهيج صبابتي ... وبثغرها شفق من الاسرار
يا حلوة الليلات قد يكفي بنا ... رقص وغمز .. شاقني اعصاري
غجرية الرعشات من اي الدنا ... قدمت خطاك لنا فكان دماري
وادي العرائس كم وهبت جميلة ... تهوى الرحيل كعاشق الاشعار

سلمية ـ سورية

خضر عكاري

ورعشات فنه ووهج شاعريته وجلال احاسيسه وجمال ادائه وحلو نغمه ـ كل احداث الشعر ومدارسه ومذاهبه وتياراته بعد الحرب العالمية الاولى حتى اليوم .. وهو بصلته الوثقى اليوم بجميع تيارات الشعر والفن والفكر يعد علما من اعلام الشعر المعاصر ، وسلاحا شحذته ابولو منذ اربعين عاما ليناضل في معركة الشعر والشعب والحرية والحياة نضال الرواد المخلصين الاصلاء .

وقصيدته « القاهرة الجميلة » في ديوانه « الحان مصرية » تمثل حب الشاعر العميق لمصريته ولتاريخ بلاده :

لبيك يا امل العروبة
الديك لا ارجو مثوبة
اهواك قاهرتي الحبيبة

لبيك من اعماق عاطفتي ومن عمق قلبي
اهواك يا بنت الاكابر من قراعنة وعرب
يا ملتقى الوجهين يا وعد الحبيبة والمحب
لا زلت بوتقة الزمان يلين عندك كل صلب

والحب هو فلسفة شاعرنا صالح جودت .. حب الجمال ، وحب مصر ، وحب العروبة ، وحب التراب الوطني .. وحب التاريخ المصري الاسلامي العربي .. وحب كل مفاخر الوطن ونضاله وحريته .. فهو شاعر الحب وشاعر الشعب في عصرنا اليوم .

ولنا عودة الى الكتابة عن فنه من دواوينه كلها حينما تظهر مجموعة شعره كاملة في طبعة جديدة قريبة .

ويقول السحرتي عن رفيق كفاحه الادبي : كان صالح في شعره الباكر وعند اتصاله بمدرسة ابولو من اعذب اوتارها الشعرية ، وامتاز بشعره الغزلي وغنائيته الحلوة الخلابة ، وبعبارته الصافية العذبة في مثل قصائده: العيون الزرق ، ظمآن .

وقد نرى اليوم ان مثل هذه القصائد بعد مرور اكثر من ثلاثين سنة قصائد عاطفية خفيفة ، ولكنها كانت في ١٩٣٤ حدثا جديدا ؛ ان لم اقل : فنا جديدا في الشعر الغزلي الخالص ، لانها عبرت عن لهفات القلب في جراة ، ولانها اتسمت باسلوب عذب متحرك لا عهد لنا به .. ولقد مثل صالح جودت مع الموهوبين من مدرسة ابولو : الصيرفي : الهمشري ، السحراوي ؛ حسن حبشي ، محمد رجب ، وغيرهم من شباب جيل الثلاثينات ، ظاهرة تغيير الاسلوب ، من اسلوب رصين جزل او اسلوب غريب معقد الى اسلوب سهل لين مطواع عذب الموسيقى .

وكان صالح من رواد الموسيقى الحلوة الرخيمة والاسلوب الجذاب ، وهذا خطر صالح جودت في مرحلة الثلاثينات واهمية شعره . وقد زادت موسيقاه حلاوة ورصانة بمرور الزمن (٢) ، واذا كان لمدرسة ابولو ، ومن روادها صالح ؛ فضل ففضلها في هذه النقلة الفنية الجديدة من الشعر التقليدي الرتيب الى الشعر الابداعي الفني الجديد (٣) .

القاهرة

محمد عبد المنعم خفاجي

---

(٢) ٨٠ دراسات نقدية للسحرتي .
(٣) ٨٢ المرجع نفسه .



سليمان عواد

سليمان عواد
شاعر القصيدة النثرية

بقلم مصطفى النجار

* * *

لست هنا بصدد الحديث عن تاريخ قصيدة النثر في العالم ومن هو اول رائد لها ؟ وكيف وصلت الى ادبنا المعاصر ؟ ولست ابغي دراسة ابعاد هذه الظاهرة الادبية التي تشكلت بمرور الاعوام ؟ وكما ان احاور من هاجموها بشدة امثال (عبد الوهاب البياتي وشوقي بغدادي واحمد سليمان الاحمد) ولا من اشادوا بالدور الذي قامت به الى درجة تفضيلها على قصيدة الشعر الحر وذلك في فترة ما من مسيرة الشعر السوري مثل (الناقد خلدون الشمعة) .

وفي جميع الاحوال يمكنني ان اردد ما قاله احد الادباء : « ان اعظم فن هو الذي يوصل للانسان اعظم عدد ممكن من الافكار بأي وسيلة من الوسائل » كما ان بعضا من الشعراء المعروفين جنحوا اخيرا الى كتابة قصيدة النثر كمرحلة متطورة ومتأخرة في مسيرتهم الشعرية امثال (ادونيس والقباني ودرويش ، بينما آخرون بدؤوا بها وما زحزحوا عنها فكانوا رواداً في عالمها ومن ساهم في وضع حجر الاساس في بنائها وهو الشاعر سليمان عواد .

ولكنه بقي بعيدا في الصمت وفي دائرة الظل رغم انه طبع عدة مجموعات اذكر اني طالعتها في فترة الستينات مثل (شتاء وسحر نار واغان بوهيمية) بالاضافة الى بعض القصائد المنشورة هنا وهناك في صحف ومجلات تلك الفترة ومما زاد سليمان صمتا كفه عن النشر ايضا ما يقارب عشرة اعوام .

ولكن من يولع بسحر الكلمة وهو الذي قال في كتابه سحر نار ص ٩٥ : « ان لبعض الكلمات في نفسي نشوة السحر وسكرة الرضاب : (نهر الرين .. الدانوب .. بوهيميا .. باريس .. فلوريدا .. القوقاز .. الهند .. ايران .. جزر الهاواي ، ان كلمة من هذا النوع تلهب بشدة اخاذة مشاعري وتشعل النار في قلبي وتضعني في سفينة للاحلام كبيرة » .. لا بد ان يعود — وهو المحور — الى عالم الكلمة وقد عاد من جديد باشراقات ينشرها تباعا على صفحات مجلة « الثقافة » الدمشقية وكم نامل ان تظهر في مجموعة كاملة .

هذا وان من يطالع قصائد هذا الانسان سواء في فترة الستينات او في فترة السبعينات — مع وجود نسبة التطور في الفترة الثانية — يلمس انها تتميز بالباطنة والعمق ، بالجدة والفطرة ، بالتامل والواقعية ، هي خليط من المشاعر الانسانية ، ومزيج من الالام والاحلام ، والمثالية والتمرد .. وان في كلماته : زمزمات الندير . وهدير الامواج ، تغريد البلابل وفحيح الافاعي رفرفات الدوالي وتحدي العوسج .

ودائما من خلال صوره البسيطة يعلن راية العصيان على زيف المدينة والروتين وامراض التحضر الحديث برؤيا شمولية تتخطى بمضموناتها الانسانية حدود المكان والزمان معا ، وكما يصطدم كل مفكر وشاعر بمتناقضات العالم والمجتمع فيرتد متألما كذلك يصرخ عواد :

ان صراخي يضيع في زحمة الناس
وضجيج المدينة
كما يضيع العقل في الدخان
ان صراخي يتمزق كأغنية طير جريح في البرية
يتلاشى هباء في خرائب عقول المدينة !

اذا هي تجربة ريفي هاجر من قريته الى قلب الزحام في المدينة ، وتقمة شاعر على خرائب عقول المدينة ، وان مثل هذه الرنة لتتهادى في اغلب شعره وتتحول الى ندب ورثاء يذكرنا برثاء الشاعر الانكليزي المعروف : ت.س. اليوت لحضارة الغرب وها هو عواد يتمنى :

اتمنى لو اكون غجريا .. بدويا
ذئب الصحراء .. البراري .. الاكثر استقلالا

من شعاع الشمس فوق الرمال الذهبية
ولتذهب المدينة التافهة الى الشيطان ..؟
نتساءل لماذا كل هذا الرثاء على المدينة والمدينة نتاج حضارة يقوم على صنعها هداة القرن العشرين ؟

ويمكن تلخيص الجواب بعبارة واحدة من عباراته الرقة الصادقة :

ما المدينة .. اذا كان خبزي اليوم معجونا بدمي ؟

هي صورة مكثفة تلخص اسباب النفور من الحضارة المجحفة ، كما ان احساسه بالاهمال وعدم الاهتمام بشاعريته ـ وهذا احساس حق وواجب تؤديه الشعوب الراقية لموهوبيها ـ يولد عذابا في نفسه يتضخم الى ما يسمى بعقدة الشعور بالاضطهاد في علم النفس وها هو يقول :

وحياتي ..
هل حياتي الا عنقود من العنب
ينشد يدا تقطفه
وثغرا يروي ظمأه برحيقه ؟
واسفاه ان رحيقي ينطوي على ذاته
ورياحا شتائية قارسة
تجفف هذا الرحيق مع عنقوده
بانتظار حمله الى معاصر الابدية ؟

وان هذه النبرة لتزداد عنفا في قصائد عديدة ، والانسان هو سيد العالم والشاعر بما يتميز الا يستحق ان يعيش حياة سعيدة كمثل الاخرين (انا العالم والعالم انا ...) وعندما يصطدم بالحياة وتموت الازهار في عتمة الرطوبة يعلن بمقطوعة ـ تميزت بعنصر التشويق والتشويق الفني موجود بوفرة في اغلب قصائده ، يمد جناحيه على العالم فيردد :

(الا يستطيع ان يكون وردة جبلية .. شجرة في غابة عذراء ، عصفورا ، كناريا ..) ولماذا كل هذا ؟ (ليحيا دون قوانين الانسان ودستور البحار ؟) انه تعويض الفنان بفنه عندما يجابه الحياة ويطلب ما لا يتحقق ؟

وعندما ينفض يديه من حياة مرة يلتجيء الى الطبيعة ويندمج في حيواتها :

أيتها الطبيعة الرائعة ..
انا صديقك الوفي والشاعر الذي يحبك
افسحي لي مكانا صغيرا في قلبك ..
حتى اتلاشى نهائيا في احشائك ....
واغدو بحيرة ، نهرا ، غابة ،
عاصفة رعدية شتائية
ليلا مليئا بالثلج والنجوم ..

انها تتجلى في عالم الفطرة والصفاء لانه ضنين بكرامته وعزة قلمه ويأبى ان يكون رقما من الارقام او دمية عجماء؛

كما ان عوادا يعلن راية الحب للحسب والبراءة والامان والسلام :

من اجلك يا ولدي الحبيب، ومن اجل اطفال العالم
سنعمل على تدمير مصانع الاسلحة لتتخلص البشرية نهائيا
من قصص اعتداءات الاقوياء على الشعوب الضعيفة

وفي مقطوعة رائعة استطاع بعفوية ان يمزج الخاص بالعام بل ان يصبح الشعور العام ذاتيا فيقول مؤكدا على تقديره وحبه لانسان العمل بكرامة :

كان قلبي حزينا حزن عامل المخبز الصغير ..
الذي اضناه التعب وارهقه النعاس
حزن كاسر الحطب الذي يعمل والعرق ينبع ..
صرخة احتجاج من جبينه المتعب ..
وكان هذا العرق صلاة المتعب ..
وتسبيحة الفقر في صوفية متوحشة !

اذا كلماته الشعرية ليست شطحات ذاتية منغلقة بل ان جهازه يلتقط من الواقع شرائح يضفي عليها من فنه ماء الحياة ، وقد ينقلها الينا عارية وبصراحة :

الشعوب الجاهلة تسعى لتحطيم مواهب ابنائها
وتحطيم ابنائها الموهوبين انفسهم ؟

وانه ليؤكد على مجموعة قيم تتمثل في الحق والخير والجمال في واقع يحتدم بالمآسي ، وارض تتفجر ينابيع حاقدة ، وذئاب تسرح وتمرح تغتصب حدائق الحب والشمس ، ويلتجيء دائما الى الطبيعة عن اصالة وبعد تجربة لا كما يفعل بعض الرومانسيين الهاربين تقليدا ؟

مثل هذه القيم وغيرها تتماوج في تعبيراته وصوره وجمله دونما تعقيد وبلا وزن ولا قافية .. انه النثر الراقي والشعر الذي يبث في تلافيفه النثر ، وافرازات الذات منصهرة في زحام الحياة اليومية ، والمنطلقة الى « يوتوبيا » بعيدة كل البعد عن مطامع الادمي البهيمية واحقاده النرجسية ، وشوائبه السفلية ! والى صنع « المدنية الفاضلة » للفارابي في مدينة القرن العشرين !

وفي ختام هذه الكلمة استطيع ان اعدد بعض المزايا الفنية لقصيدة النثر عند عواد ـ وتحتاج الى دراسة منفصلة ـ وهي :

ـ كثافة التعبير بالصورة
ـ الوحدة العضوية ووحدة الموضوع
ـ النهاية الحاسمة والمدهشة الملائمة في كل قصيدة
ـ الاستفادة من ادوات القص كمثل الحوار
ـ توفر سمات التشخيص
ـ كثرة التشبيهات المغوية
ـ استغناؤه عن حروف العطف احيانا
ـ حداثة اللفظة وجمالية الصورة

كما لاحظت ما يلي :

١ ـ قد يجنح لواقعية الموقف وحدته الى نقل الموقف الحياتي باسلوب مباشر ونثري عادي مما يفقد من عنصري التخييل والجمالية التي يتميز بها الشعر المنثور

العش المهجور

اقفر العش من اللهو فما ... فيه من امس سوى اشباحه
وتولت ذكريات حلوة ... من نعيم الحب في افراحه

اقفر العش ، فما من صادح ... يتغنى وانطوى عهد الهوى
وانا ابكي شبابي وارى ... صرح آمالي تداعى وانطوى

اقفر العش سريعا ومضت ... يا حبيبي عاطرات الفكر
ورجعنا نبتغي آمالنا ... وهي اغلى امنيات العمر
فاذا كل الذي مر بنا ... قبض ريح في فراغ مقفر

اقفر العش وما عاد لنا ... فيه ما يغري ولا ما يرتجى
الترانيم التي قد ابنعت ... زمنا فيها تولاها الشجى

كيف مرت يا حياتي ليلة ... كنت فيها النور يجلو ظلمتي
اذهبت عيناك عن روحي الاسى ... وازالت عنه بقيا لوعتي

يا غراما شاع عطرا دافقا ... ولحونا ساحرات ملهمه
فاذا كل عروقي فجاة ... بصداها الحلو اضحت مغرمه

يا لها من غفوة شيقة ... كمراقي الخلد بين العاشقين
اثملتنا قبلة ساحرة ... فغدونا كالحيارى تائهين

ورجعت اليوم ابغي املا ... راحلا في مهمة الماضي البعيد
رقدت كل صباباتي به ... وتولت كسراب لا يعود

بغداد — عبد الخالق فريد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على غيره لفقدانه بالاساس عنصر الموسيقى التفعيلية واقتصاره على موسيقا الكلمات وسياقها الفني .

٢ ـ قد اكون مع اكثر احتجاجات الشاعر على الدنية الزائفة ولكن هذا لا يبرر جنوح الانسان الى المجتمع الزراعي .. وللحضارة وجهان ؟ مع يقيني ان هذه حالة سيكولوجية بحتة وقد افرد لها مقالا خاصا .

٣ ـ قد يعزو « عواد » اسباب الظلم على وجه الارض لسبب خفي غير الادمي الظالم على وجه الارض وهذا ما تبين في عدة اشراقات له واخص بالذكر تلك المنشورة في ٧ حزيران ١٩٧٥ من مجلة الثقافة الاسبوعية، والحقيقة ان الظلم هو من صنع الانسان لاخيه الانسان ولا نستطيع اتهام قوة اخرى مطلقا !

٤ ـ وكمثل الشعراء العاطفيين الذين يكتبون بعفوية تلمح عند عواد ظاهرة التعميمات في اطلاق الاحكام وفي تصوير الاحداث وغيرها .

٥ ـ الباطة عنده تنقلب في بعض الاحيان الى مسلمات :

بالصدق والاستقامة صعدت شعوب الى القمم
وبالكذب « والثعلبة » سقطت شعوب الى الهاويات !

وما هذه الملاحظات الا ما يؤكد على تمرد شاعر :

هذا انا شاعر متمرد .. طليق
كالنسر .. والريح .. وعطر البراري !

يتكلم عن الم وبعفوية غزيرة ، ويلخص في فنه اسلوبا شاعريا كاسلوب المشاهير في العالم امثال (لامرتين وعمر الخيام وطاغور والفرد دي موسيه) وتجربة انسان متألمين حتى النخاع الشوكي ، وحقيقة مطلقة للفن ، وديمومة لقيم الحب والخير والحق والجمال ..

وهو يغني في الختام :

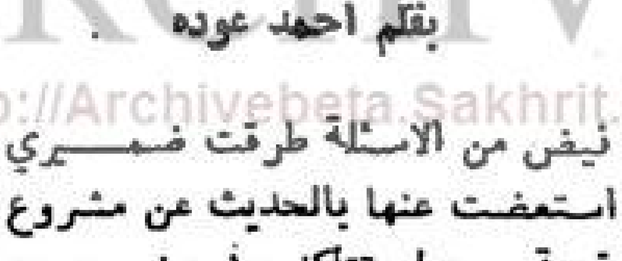
لن ادع اليأس الجهنمي
ينشب اظفاره المتوحشة في دنياك يا قلبي
لن اجعل التاعب تستبد بطهارتك ..!

حلب — مصطفى النجار

الظل العنوج

بقلم احمد عوده

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



لمحته من بعيد يجلس في ذات الركن من المقهى الذي تعرفت عليه فيه لاول مرة ؛ حين لفت انتباهي سحب من الدخان الازرق ، تغزو طاقتي انفي بكثافة قبضت على انفاسي باصابع حديدية خشنة . سيماوالمكان مغلق ، تتوالد فيه السحب وكذلك تموت وتدفن .

تطلعت الى مصدر تلك الغزوة ؛ وعلى لساني فيض من الشتائم بدات رؤوسها تتململ للانطلاق بيد انها ما لبثت ان ارتدت الى اعماقي ندما واسى حين طالعني وجهه كالح جامد النظرات ، تعض فتحة الفم منه على عقب سيجارة بين اصابع يد نافرة العروق، تمسك بسيجارة اخرى بكر، في طرفها لحرق اقرب الى مجزرة منه الى عادة التدخين .

تحسست جيبي بحركة عفوية ، واخرجت علبة السجائر ، وتناولت منها واحدة بلطف كانما اعتذر لها عن سوء التصرف الذي تصادفه بنات جنسها من الجالس في ذلك الركن. ولما لم اعثر على الولاعة وجدتها فرصة للتحدث مع ذلك الجالس ، غير انه لم يحول نظراته عن جهة لم استطع تحديدها ، بل امتدت اصابعه تغرس في فمه السيجارة ، ومن ثم دفع الي بالعقب الذي لم يبق منه سوى « فلتر » حفرته اسنان منهومة: فتعجبت من اين عرف قصدي ولم يحول نظراته الي ، فقلت وانا اجلس على كرسي قبالته .

ـ قاتل الله السجائر فانها جرذان العمر والمال .

القى علي نظرة من تلك التي يشبع المرء في اعتبارها ان كانت له او عليه فتلمست طريقا اخرى لاخراجه من الصمت فقلت :

ـ لست من رواد هذا المقهى ؛ فهذه اول مرة اراك هنا ؟

عاد ينظر الي تلك النظرة صعبة المعنى . وآخيرا قال بصوت واهن ، يقطر لوعة :

ـ بالعكس فانا زبون دائم منذ اكثر من شهرين .

وتذكرت اني انا الذي يدخل المقهى لاول مرة . فابتسمت ابتسامة تعثرت على وجهه بالف نتوء . فطرحت مشروع السرور جانبا .

وبدات امواج من الغم ترمي بهياكلها علي . فرى لذلك بيني وبينه تيار من التفاهم الصامت ما لبث ان جرى حديثا غير واضح المعالم بيد انه كان كافيا لان ادخل صناري في خيوط حياته : فهناك فتاة نثر في طريقها الزهر ففرشت قلبها على دربه . ثم اصابه مرض مفاجيء فتحولت عنه كما تحول اصحاب الصحة والشباب الفائر .

وحتى هذا القدر انغلق لسانه على فيض من الاسئلة طرقت ضميري استعفت عنها بالحديث عن مشروع قصة حب لم تتاكد بعد بيني وبين فتاة تبادلت واياها النظرات ثم ابتسمت لي . وظللت طوال شهر او يزيد ، لا احظى منها بغير الابتسام . ولم استرسل بذكر احلامي كلها : فقد قطعت علي تشنجات وجهه حلاوة الحديث ، تشنجات حاول اخفاءها بان طلب لي القهوة المركزة وطلب لنفسه اليانسون وقال وشفتاه تتقلصان على ابتسامة مرة :

ـ للكبار شرابهم وكذلك للصغار شراب .



سحقتني لهجته الحزينة فقلت مخففا :

ـ انت كبير القدر عظيم .

ابتسم ذات الابتسامة المرة وقال:

ـ بالعكس ، فالكل وتلك الفتاة منهم يرون ان ظلي اعوج وانقض على كوبه يحتسيه بمثل النهم الذي يعامل به سجائره. وامر على دفع الحساب قبل ان تمتد يده الى عكازة كانت نائمة اسفل الكرسي . قبض عليها فتقلصت عضلات جسمه بالضغط على مقبضها كي ينهض ، فانغرس طرفها المدبب بمعدن النحاس في الارض المتربة حتى توارى . واولاني ظهره وخرج فتعلقت عيناي على حدبة نبتت في اعلى الظهر لم الحظها طوال جلستي معه ، اخلت توازنه في المشي فطغت هيئته المتارجحة مع ما سبقها من تركه اياي على تلك الصورة المفاجئة ـ على لذة جنيتها بغسل وجهه المنضن بحفنة من سرور .

وجعلت استعرض ما دار بيننا من حديث، فحضرني تشنج قسماته حين اتيت على ذكر قصة حبي الوليد . فعلمتني هذه الحادثة ان اقصد المقهى حتى اذا ما رايته يحتل ذلك الركن اجلس قبالته وانتظر ان يبدا الحديث الذي يشتهي فاشاركه الهجوم على حواء فتنبسط اساريره ، فيداعب مقبض عكازته ويمسح على جرمها حتى تنتهي اصابعه الى طرفها النحاسي المدبب ، فيسالني بضحكة دفعت للغم ضريبة باهظة .

ـ وبعد الابتسامة ؟

وعندما اجيبه ان لم يتحرك قطار الحب عنها ، يسمح لنفسه بضحكة اخرى : يلتبس علي معناها . وتعود اصابعه الى المسح على جرم العكازة بحنان ثم يقول في همس :

ـ بعض المحبين يحملون سلم الغرام بالعرض . وهم الاشقياء .

ويبعث بعض انشراحه الى قلبي السرور ؛ فاقول متلمسا مخارج الحروف :

ـ انني كطحالب البحر لا اسعى

هفنة اشواق

في غلس الليل يعاني الضجر ودمعه يمتص عزف الوتر
فانه ذاك الهزار الذي يحيا بلا وكر ولا مستقر
يحمل نبض القلب في شدوه وشهقة الروح به تستعر
يشرب من نبع السنى شعره في لحنه العذب تفيض العبر
تلهب في الاحشاء اشواقه لهمسة الحب ، وحلو السمر
وعسعس الليل على كونه وانهار حلم الملتقى وانتثر
مرغ بالدمع مناجاته وما لشكوى قلبه مصطبر
قد هاجه شوق الى مرتع فيه الصبا يرشف خمر الوطر
والبدر ينشال بموج الضيا في شاطئ الاحلام عند السحر
ويورق الحب ، وتزهو الدنى يوم اللقا تخت شعاع القمر

بغداد — خضر عباس الصالحي

للنداء بل انتظره كي يسعى الي .

فيتخلى عن عكازته لفترة وجيزة وتنضم كفاه في تصفيقة خجلي ويهتف :

ـ عين الصواب ما تفعل ، فالسعي يذهب الهيبة .

وينشأ بعد ذلك يتحدث بعد ان تتخلى شفتاه عن سيجارته يتركها تموت بين سبابته والوسطى وينبه الكلام ان يشعل غيرها ، فاقيس بذلك مقدار سروره .

ونشداني له السرور ما جعلني اسرع في المشي عندما لمحته يجلس في ذات الركن من المقهى ، اردد الاجابة عن سؤاله الدائم « وبعد الابتسامة»؟ فقطار الحب قد غادر المحطة إلى موعد .

ثم في لقاء عند الماذون ماصحب حبيبتي اليه في الغد من بيتها الذي تقطنه وحيدة الا من صورة لي علقتها على الجدار .

وقد ساعدني الانبساط الذي لقيني به على ان اسرد القصة من اولها ؛ غير ناس ادق التفاصيل . فظلت اصابعه تمسح على العكازة بحنان ؛ فيما كان وجهه ملعبا للمد والجزر ، حتى اذا ما اتيت على ذكر اسم حبيبتي ردد الاسم وعيناه ترسلان بريقا مخيفا اشاع الصقيع في جسدي كله ولمحت الدم يسبح في كفه وراس العكازة المدبب منغرس فيها. فاشرت باصبعي اشارة خرساء ، فلم يظهر عليه انه يحس او يرى . ثم توسل للنهوض بكل اعضائه ، واولاني ظهره الاحدب فانغرست عيناي في الحفر العميقة التي تركتها عكازته في ارض المقهى المتربة ، فرايت حفنات السرور التي كنت ارشق بها وجهه ، ترتد في عيني رمادا باردا منبعه تلك الحفر التي تركتها عصاه فهاجمني شعور بالاسى فظيع لم اتخفف منه الا بتذكري الموعد الذي رتبته وحبيبتي في الغد . فقضيت ليلتي اضم هذا الموعد اقبله بشغف حتى اذا اتى صباح اليوم التالي انطلقت في جهة لو اغمضت عيني ما اخطاتها .

وهناك في البيت الذي زرعت احلامي بالجملة ـ ، وجدتها . وجدت حبيبتي جثة تدفقت منها الدماء من اكثر من موضع ، وتجمدت على جروح غائرة ، فانتحرت لمشاهدتها كل آمالي التي احتضنتها في الماء . وكانت عيناها مفتوحتين يطل منهما الرعب فانحنيت اسبلهما على طمانينة كانت ترجوها وفي انحناءتي استقبل انفي رائحة سجائر عطنة ، كانت اعقابها مبعثرة على ارض المكان تركت عليها اسنان منهومة حفرا بغيضة ، اختلطت بشظايا زجاج صورتي المحطمة . كما لحظت وانا خارج، حفرا عميقة، منغرسة في باطن الارض المتربة كتلك التي دفنت فيها ارتياحي بالحديث الى ذلك الاحدب .

عمان ـ الاردن — احمد عوده

ابو العتاهية بين القديم والجديد

بقلم لطفية الشهابى

* * *

حين نكتب دراسة او نجري بحثا تحت هذا العنوان لا بد ان نكون قد سلمنا مقدما بأن هناك قديما وجديدا في الشعر العربي . وغني عن البيان ان مسألة القدم والجدة مسألة نسبية ، فالذي نسميه جديدا عند ابي العتاهية انما هو قديم بالنسبة الينا . وذلك الجزء من التجديد الذي طرأ على الشعر العربي على يدي جميل بثينه وعمر بن ابي ربيعة واضرابهما كان قديما عند ابي العتاهية . وهكذا فكل جديد صائر الى القدم .

ونحن انما نتجه الى دراسة ابي العتاهية بين القديم الذي هو الشعر الجاهلي والاسلامي وما بعده بقليل ، والجديد الذي عاشه ابو العتاهية واقرانه وابدعوا فيه وابتكروا ، ان استطعنا ان نجد في شعرهم ابداعا وابتكارا .

وقبل ان اتحدث عن قديم الشاعر وجديده علي ان احدد النواحي التي تناولها هذا التجديد ، والمواضع التي كان يمكن ان يظهر فيها القديم اذا لم يظهر . وتلك هي : (اغراض الشعر — صوره ومعانيه والفاظه — اوزانه — هيكل القصيدة العربية العام) ومن المفيد ايضا ان اقدم لمحة موجزة عن تطور تلك القصيدة منذ صدر الاسلام حتى عصر الشاعر فأقول :

ان القصيدة العربية في صدر الاسلام لم ينلها من التغيير الا الشيء اليسير من حيث المعاني والالفاظ الاسلامية التي دخلتها . ذلك هو الشكل العام الذي لوحظ في التجديد الشعري ، ولكننا نلمس بعض الومضات القليلة من التجديد عند حميد بن ثور في قصائده ذات الاسلوب القصصي الذي يعد امتدادا وتطويرا لما اورده لنا امرؤ القيس من قصص مغامراته الجريئة .

ولم يكد الصدر الاول من الحياة الاسلامية ينقضي حتى جاء العهد الاموي وجاء الشعراء العذريون وعلى رأسهم جميل الذي وحد الغرض في سائر اشعاره تقريبا ، فلم يقل شعرا الا في الغزل وفي صاحبته بثينة بصورة خاصة . ثم كان هناك شعراء الفئة الاخرى التي تزعمها عمر بن ابي ربيعة ، وكاد يخلط في شعره القديم بالجديد ، فاستخدم حينا الاوزان الخفيفة ، وكان تارة يصدر قصيدته بالوقوف على الاطلال وتارة يترك لنا وصف ناقته الى آخر القصيدة كما فعل في رائيته المشهورة :

امن آل نعم انت غاد فمبكر غداة غد ام رائح فمهجر

واذا وجدنا جميل بن معمر يوحد الغرض في غالبية اشعاره ان لم نقل في كلها ، فذلك ربما عددناه جديدا لان احدا من الشعراء الجاهليين لم يسبق له ان قصر شعره على الغزل وحده . وقد نعده قديما الى حد ما ، ذلك ان هنالك شعراء جاهليين قد اكتفوا بغرض واحد في اشعارهم، او كادوا ، كما فعلت الخنساء واضرابها من اصحاب المراثي الذين صنفهم ابن سلام الجمحي في طبقاته تصنيفا منفردا . وكأنه راى انهم لا يمكن ان يوازوا طبقة الفحول بسبب اقتصارهم في اشعارهم على غرض واحد .

اما ما عدا تلك الملاحظات الموجزة فقل ان نجد خروجا على القديم . اذ ان الشكل التقليدي للقصيدة العربية بقي على حاله ولم ينله اي تغيير في الموضوعات ولا في الاوزان او سواها . ولم تظهر الاوزان الخفيفة على نطاق واسع الا في العصر العباسي .

واذا راينا بعض القصائد الاسلامية خالية من ذكر الاطلال فذلك لا يمكن ان نعتبره من الجدة في شيء . اذ انني اعتقد انه حتى في العصر الجاهلي كانت هنالك قصائد ليس فيها تلك المقدمات ، وذلك حين يكون الشاعر غير متمهل في انتاجه ، كما فعل النابغة في قصيدة (وادي اقر) حين ابتدأ ابياته قائلا :

لقد نهيت بني ذبيان عن أمر وعن تربعهم في كل اصفار

اما ان كانت تلك المقدمات قد فقدت من القصائد او نسيت فذلك امر آخر .

واذا وصلنا الى ابي العتاهية وذهبنا نتقصى القديم والجديد في اغراضه الشعرية لاحظنا في الحال انه قد ابتكر في الشعر العربي موضوعا جديدا ، وغرضا قصر عليه غالبية اشعاره . ولعمري ان مثل هذا الغرض لم يكن المجتمع الاسلامي الاول بحاجة اليه قبل العصر العباسي . وان ما بلغه كبراء ذلك العصر ووجهاؤه من غنى وترف دفع برجل بائع جرار ذي موهبة شعرية فذة الى ان يبتكر مثل هذا الغرض ، او يكثر القول فيه ان كانت له جذور سابقة . ذلك ان الحياة العربية الاسلامية قبل العصر العباسي لم تكن تستدعي شيئا من هذا الزهد ولا من ذاك التصوف . فالصحابة انفسهم لم يكن بينهم الزاهد المتصوف العازف عن الدنيا ، وانما كان منهجهم : (اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) .

والاسلام ذاته لم يحض على الزهد فضلا عن ان نفسية العربي بطبيعتها بعيدة كل البعد عن هذا اللون من التصوف . ولذا فربما كان لاصل شاعرنا الاعجمي اثر في هذه النزعة ايضا . وانني حين اعالج هذه الناحية اعالجها من حيث هي مبدأ دعا اليه ابو العتاهية في سائر زهدياته ولا يهمني ان كان طبقه على نفسه او لم يطبقه . فذلك

امـــر يتعلق بدراسة شخص الشاعر ومذهبه الدينـــي والفلسفي وهو ما لم اقصد اليه .

لذا اعود لاقول ان ديوان شاعرنا قد امتلأ بالدعوة الى الزهد والتفكر في مصير هـــذا الانسان الصائر الى الزوال والهلاك ، مهما طال به الامد وامتد امامه طريق الحياة . الا ان ذلك الغرض الذي ملأ على الشاعر اقطار نفسه لم يكن ليمنعه من ان يقول شعرا في المديح — وان كان قليلا — سواء اراد التعبير الحقيقي عن مشاعره ام كانت غايته التكسب والعطاء .

ولقد مدح ابو العتاهية الخلفاء العباسيين . وتقول اخباره انه كان مقدما ومفضلا عند الرشيد . وان ابن الاعرابي شهد لـــه بتقدمه في المديح امام بعض الادباء وقال : اوليس ابو العتاهية الذي يقول في مديح الرشيد :

جرى لك من هارون بالسعد طائره ... امـام اعتزاز لا تخـاف بوادره
هو الملك المجبول نفسا على التقى ... مسلمة مـن كـل سوء عساكره
اذا نكـب الاسلام يومـا بنكبة ... فهارون مـن بـين البرية ثائره

ومن مدائحه ايضا الابيات التي مدح بها الخليفة المهدي ومنها :

انتـــه الخلافـــة منقـــادة ... اليـــه تجـــرر اذيالهـــا
ولـم تـــك تصلـح الا لـــه ... ولـم يـــك يصلـح الا لهـــا
ولـو لـم تطعـه بنـات القلوب ... لمـــا قبـــل الله اعمالهـــا

ويروى ان بشارا كان حاضرا مجلس المهدي حين قالها ابو العتاهية وانه اعجب بها كثيرا .

ومهما يكن من امر المديح عنده فلا بد ان نحس بقلته نسبيا وكذلك شأن بقية الاغراض المعروفة من هجاء ورثاء وعتاب . .وغير ذلك اذ لا تتجاوز اشعاره فيها جزءا بسيطا من ديوانه بينما يشغل الزهد القسم الاكبر منه . وهذا يخالف ديوان ابي نواس مثلا ، حيث تتعدد اغراض الشعر فيه وتتشعب .

وظل الزهد طاغيا على لسان الشاعر يوجهه في كل مناسبة حتى مكنه من ان يحول شعر الاطلال الى شعر في ذكر القبور والاجداث . فبينما كان الشاعر الجاهلي يذكر لنا في موقفه المؤثر رحيل القوم والآثار التي دلت عليهم من نؤي واوار واثاف سفح ، ويذكر لنا الطير والوحش التي سكنت تلك الديار بعدهم جاء ابو العتاهية يصف دوائر الزمان ويقول :

ايـــن القـرون الماضيـة ... تركـوا المنـازل خاليـة
فاستبدلـت بهـم ديـا ... رهـم الريـاح الهاويـة
وتشتتت عنهـا الجمـو ... ع وفارقتهـا الفاشيـــة
درجـوا فمـا ابقـت صرو ... ف الدهـر منهـم باقيـة
فلئـــن عقلـــت لتبكين ... هـــم بعـــين باكيـــة
لـم يبـق منهـم بعدهـم ... الا العظـــام الباليـــة

فابو العتاهية يقف مع ابي نواس على طرفي نقيض من حيث تجد يد الشاعرين في اغراض الشعر بصورة خاصة . ذلك ان الاول تناول تجديده الزهد والتصوف والوعظ ، واما الثاني فقد جدد في اللهو والمجون والطرب والخمرة . واذن فان فكرتنا ستظل ثابتة بأن ابا العتاهية جدد في اغراض الشعر العربي اذ اوجد فكرة الزهديات ووضعها امام فيلسوفنا ابي العلاء لكي يفلسفها — كما يقولون — ويخرجها واضحة في شعره وفي نموذج الحياة التي عاشها مع الابقاء على ملاحظة الفوارق البعيدة بين الشاعرين .

واذا حاولنا البحث عن تجديد ابي العتاهية في معاني الشعر العربي فليس من حقنا ان نولي عنايتنا لما قاله في المديح والرثاء والهجاء وما الى ذلك لان تلك الاغراض لم تشغل من وقته الا يسيرا . وحين يروقنا جمال المعنى وجدة الصورة وقربها في قوله :

انتـــه الخلافـــة منقـــادة ... اليـــه تجـــرر اذيالهـــا

فاننا نذكر ان البيت لا يزيد عن كونه وليد لمحة خيالية عابرة مرت في ذهن الشاعر فصاغها لنا الفاظا بسيطة موزونة حفظت حتى عصرنا هذا . ولا نكاد نجد في مدائحه ما تعودنا رؤيته وسماعه من صور بلاغية مختلفة يوردها الشعراء بقصد وبدون قصد ، وذلك لان التصوير كان قليلا في سائر اغراضه الشعرية بالنسبة الى غيره .

اما المكان الذي يجب ان نتلمس فيه جدة المعاني فانه الزهديات فقط لانها الغالبة على ديوانه . واظن اننا لن نرى تلك المعاني جديدة على الاذهان .. وانما هي جديدة على الشعر فقط . فأنا لا اعتقد ان قول الرسول الكريم : (دع ما يريبك الى ما لا يريبك) قد صاغه احد في لفظ شعري قبل ابي العتاهية حين قال :

ودع مـا يريبـك لا تأتـه ... وجـزه الـى كـل ما لا يريب

فهذا الحديث معروف متداول ولكن شاعرنا تأثر بما فيه من معنى فعبر عنه بألفاظه ذاتها مع شيء من التقديم والتأخير لكي يستقيم الوزن .

واني لأجد زهديات ابي العتاهية تعج بمعنى او معان خاصة مكررة ربما كانت جديدة في عالم الشعر . فهو يلح على تذكير سامعه وقارئه بأن كثيرا ممن كانوا بيننا وكانوا من اعز الناس الينا قد طواهم الموت وابتلعتهم الارض :

الا كـل مـا هـو آت قريـب ... وللارض مـن كـل حـي نصيب
وللنـاس حـب لطـول البقـا ... ء فيهـا وللمـوت فيهـم دبيـب
وكـم مـن انـاس رأيناهـم ... تفانـوا فلـم يبـق منهـم عريب
وصـاروا الـى حفـرة تحتـوي ... ويسلـم فيهـا الحبيـب الحبيـب

وهو لا يبعد في معانيه كثيرا بل يدور فيها حول فكرة معينة ، وهي تنبيه الانسان الى انه صائر الى الفناء وذلك نحو قولـه :

الا كـل مولـود فللموت يولـد ... ولست ارى حيـا لشيء يخلـد

تجرد من الدنيا فانك انما سقطت الى الدنيا وانت مجرد

وشبح الموت لا يكاد يفارق ذهنه كما هو واضح ولذا فانه يكرر هذا المعنى كثيرا :

الموت لا والدا يبقي ولا ولدا ولا صغيرا ولا شيخا ولا احدا
للموت فينا سهام غير مخطئة من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

فهذا تشخيص جميل للموت جعل له سهاما صائبة ان عاجلا وان آجلا . ثم هو يدعو دعوة صريحة الى الزهد فيقول :

ما ضر من عرف الدنيا وغرتها ألا ينافس فيها اهلها ابدا

وكأنه يحاول ان يبقى شكل القبر ماثلا في شعره لكي يدعو الانسان الى التخفيف من ذلك الغرور الذي يسيطر عليه في حياته الدنيا :

انسيت القبور اذ انت فيها أنسيت الفراق للاولاد

ويجعل الانسان في قبره قبل ان يموت وذلك لادخال الرهبة عليه واشعاره بالوحشة والفزع ثم يصور طمع الانسان واقباله على الدنيا في ابيات قليلة مؤثرة :

تمسكت بآمال طوال بعد آمال
واقبلت على الدنيا بعزم اي اقبال
فيا هذا تجهز لفراق الاهل والمال

وفي هذا يقول مصعب بن عبدالله : ابو العتاهية اشعر الناس ذلك لان هذا الكلام (سهل حق ، لا حشو فيه ولا نقصان . يعرفه العاقل ويقر به الجاهل) .

ولو ذهبت ابحث طويلا في شعر هذا الزاهد عن امثال تلك الابيات لضاق المقام عن سرد ما اجده ، ولكنني اكتفي بهذا القدر ، ويمكنني ان اقول بعد ذلك ان ابا العتاهية في غالب الامر لم يكن ليأتي بمعان جديدة لا يعرفها الناس كما سبق ان اوضحت ، وذلك لان معانيه قد اغترفت من البيئة التي عاش فيها والمجتمع الذي تقلب بين ارجائه . ولكن تفرده في الزهد كان جديدا على الشعر العربي الذي لم يسبق لاحد من شعرائه ان جعل الزهد غرضا اساسيا بين اغراضه الشعرية فضلا عن ان يفرد له ديوانا كاملا . ولذا فان كثيرا من المعاني الزهدية لم تأت في شعر شاعر كما اتت في ديوان ابي العتاهية .

قلت في اول حديثي عن المعاني بأن الصورة كانت قليلة عند ابي العتاهية ، هذا بينما كان الشاعر الجاهلي يجعل التشبيه دعامته الاساسية في التعبير ، وكان التشبيه عنده جميلا دقيقا تبدو عليه علائم المهارة في الصنعة وفي ابراز الصورة وتوضيحها . فهذا امرؤ القيس يقول :

نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

ويقول :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويقول ذو الرمة :

ودوية مثل السماء اعتنقتها وقد صبغ الليل الحصى بسواد

كما استخدم القدماء ايضا المجاز والتشبيه القصصي المطول .

اما ابو العتاهية فقد خالف الشعراء الذين سبقوه والذين عاصروه ، اذ قلت لديه عناصر الصورة وتضاءلت وان لم تفقد تماما . راى مرة القبور فتخيل قبره بينها وقال :

وعظنك اجداث صمت ونعتك السنة خفت
وتكلمت عن اوجه تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك في القبو ر وانت حي لم تمت

فتلك ابيات جعلتنا نقف امام القبور ونسمع الاجداث تعظنا من غير ان يستعين الشاعر فيها بأي وسيلة من وسائل ايراد الصورة . وليس هذا دأبه دائما لانه ربما اورد لنا الصور المتحركة في شعره كما في قوله :

يضطرب الخوف والرجاء اذا حرك موسى القضيب او فكر

الا انه ما كان ليعمد الى شيء من هذا القبيل عمدا ، وانما يتركه للطبع والسليقة فقط دون ان يعاني اي جهد في ذلك السبيل . فهو اذا قال : (احمد الله على كل حال) لن يتبادر الى ذهن احد انه اراد شعرا ولكنه كما يروى عنه لو اراد ان يصوغ كلامه كله شعرا لفعل . واذا فلنستمع بعد ذلك الحمد الذي اطلقه الى شعره المرسل السهل الذي يتضمن شيئا من التشبيه :

احمد الله على كل حال انما الدنيا كفيء الظلال
انما الدنيا مناخ كركب يسرع الحث بشد الرحال

ونحس بأن تشبيهات ابي العتاهية لم تكن تخرج عن مستوى الكلام العامي العادي الذي يتناقله الناس فيما بينهم . فهو حين يقول :

ما نحن الا كركب ضمه سفر يوما الى ظل فيء ثمة افترقوا

لا يكاد يخرج عما قاله كل فرد من الناس منذ ان لاحظوا انه لا بقاء لاحد في هذا الوجود ولا استمرار لحياة اي انسان . ولكنه مع هذا كله يأتي بأشياء جميلة توقظ الاحساس وتنبه الشعور كما في قوله :

وبخت غيرك بالعمى فافدته بصرا وانت محسن لعماكا
كفتيلة المصباح تحرق نفسها وتنير واقدها وانت كذاكا

وكذلك حين يقول :

الباطل الدهر يلفى لا ضياء له والحق ابلج فيه النور يأتلق
متى يضيق حريص دائب ابدا والحرص داء له تحت الحشا قلق
يا من بنى القصر في الدنيا وشيده اسست قصرك حيث السيل والغرق
لا تغفلن فان الدار فانية وشربها غصص او صفوها رنق
والموت حوض كريه انت وارده فانظر لنفسك قبل الموت يا مذق
يبلى الشباب ويفني الشيب نضرته كما تساقط عن عيدانها الورق

الا نرى ان هذه الابيات رائعة جدا وجميلة حقا : فذلك هو الباطل مظلم قاتم ، وهذا هو الحق يتلألأ في ارجائه النور ، ولكن الحريص سادر ساه لان داء الحرص قد تغلغل تحت احشائه . ثم نصل الى روعة المشهد وتأثيره انها قصور الدنيا الزائلة ، قصور بنيت حيث السيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والفرق .. ثم نلتفت الى البيت الاخير لنرى الشباب يزول ويأفل كما تتساقط الاوراق عن اشجارها . انها لوحة فنية رائعة اوردها الشاعر بأسلوبه السهل المنطلق فكانت لديه السهولة الممتنعة حقا .

تلك هي لمحات موجزة عن الصورة عند ابي العتاهية كما انتزعها من واقع الحياة وعكس بواسطتها خياله وما كان يحسه .

اما الالفاظ ، فكلنا يعرف كيف كانت الفاظ الشعر قديما قوية جزلة مختارة منذ الجاهلية وصدر الاسلام حتى العصر العباسي . واذا كان بشار قد مال الى سهولة اللفظ في بعض اشعاره الغزلية كما في قوله :

وكـــان رجـــع حديثهـــا قطـــع الريـــاض كســـين زهـــرا
وكـــان تحـــت لسانهـــا هـــاروت ينفـــث فيـــه سحـــرا

فانه ما كان ليخرج عن سنة الاقدمين في مدائحه التي يتقرب فيها الى الخلفاء والامراء ، وكذلك في غالبية اشعاره . فها هوذا يهجو العباس بن محمد :

ظل اليسار على العباس ممدود وقلبـه ابـدا بالبخـل معقـود
ان الكريـم ليخفى عنـك عسرته حتـى تـراه غنيـا وهـو مجهود

ويقول في وصف معركة :

كـان مثار النقع فـوق رؤوسنا واسيافنـا ليـل تهـاوى كواكبه

ومثل هذه الجزالة التي صادفناها عند بشار بكثرة والتي نصادفها ايضا عند ابي نواس الى حد كبير ، يقل وقوعنا على نظائرها لدى ابي العتاهية ، اذ كان غالبا يميل الى سهولة اللفظ ، بل الى عاميته ، وقل ان تأتي قصائده مختارة الالفاظ . حتى لكأنه يبسط شعره للعامة لكي يقراه هؤلاء ويتداولوه . وكأني به لا يجهد نفسه مطلقا في قول الشعر وانما تأتيه الافكار فيصوغها بقوالب بسيطة والفاظ سهلة يفهمها كل احد ، وان كان ذلك ليس مضطردا دائما . فهذا ابو علي القالي صاحب « الامالي » يروي لابي العتاهية ابياتا في الزهد يظهر عليها الجمال والجزالة الى حد غير قليل ، ويقال انه شوهد واقفا في طرف المقابر وهو ينشد :

ننافس فى الدنيا ونحـن نصيبها وقـد حذرتناها لعمري خطوبهـا
ومـا نحسب الايام تنقص مـدة بلـى انهـا فينـا سريع دبيبها
كأنـى برهطـى يحملون جنازتـى الـى حفـرة يمشي علـى كثيبها
فكـم تـم مـن مسترجع متوجع ونائحـة يعلـو علـي نحيبهـا
وباكيـة تبكـي علـى واننـى لفى غفلة عن صوتها ما اجيبها

ولقد رأينا شيئا من قصيدته التي مدح بها الرشيد والتي مطلعها : (جرى لك من هارون بالسعد طائر) ، والجزالة واضحة في هذه القصيدة ايضا حتى انها لتحكي اسلوب البحتري المتأخر عن زمن شاعرنا ، وتوازي جزالة لفظه ورونق اسلوبه .

واذا كان لسهولة لفظ ابي العتاهية فضيلة تعود عليه بالخير اذ تميل العامة والمولعون بالسهولة الى اشعاره ، فان لها اثرا سيئا عليه ايضا ، اذ ان النقاد الذين يفضلون اللفظ على المعنى في الانتاج الادبي او الذين يوازون بينهما لم تكن اشعاره مما ينال اعجابهم ذلك اننا حين نقرؤها لا نجد فيها قوة ولا ملاحة حتى اذا اخذنا نتفكر في المعنى الذي اراده الشاعر وجدناه جميلا مقبولا .

وهكذا نجد شاعرنا قد جدد في الفاظ الشعر ومعانيه وطور صوره ، فأدخل في زهدياته المعاني الزهدية الجديدة على عالم الشعر ، ومال باللفظ الى البساطة والقرب ، واقتصد في الصورة فلم يأت بها الا الى حد ، وكان اذا اوردها اغترفها من واقع الحياة حوله دون اي محاولة للتنميق والزخرف . وبذلك يكون قد نزل الى مستوى العامة لكي يفهم هؤلاء مذهبه في الزهد فيتأثروا به ويخفف المترفون من غلواء طمعهم في الحياة .

اما الملوك والخاصة الذين تثقف الاشعار لاجلهم وتختار الجزالة لارضاء اذواقهم فما ابعدهم عن الزهد — كما كان يقول ابو العتاهية نفسه — ولذا فلن يحاول ان ينسق شعره وفق اهوائهم ، بل وفق اهواء الشعب الذي انبثق عنه وعاش بين احضانه ولم يرغب في الارتفاع عن مستواه لا بشعره ولا بشخصه .

ولم يكن اتجاهه هذا ليحط من قيمته المعنوية عند الجميع ، فظل بعض الخلفاء ممن يحبون ان توجه اليهم النصائح ، يفضلون ابا العتاهية على كل من عاصره من الشعراء كما فعل الرشيد . وهكذا فان تواضع هـذا الشاعر ونزوله بالشعر الى مستوى العامة لم ينقص من قيمته بـل زادها علوا وارتفاعا ، فبقي شاعر الزهاد والمتصوفة وشاعر الدنيا كلها الصائرة الى الزوال والفناء .

وعلى هـذا فاننا نقبل قول الدكتور محمد نجيب البهبيتي بأن شعر ابي العتاهية شعر معنى ، ولكن الى حد . فاذا سميناه شاعر المعنى فليس يعني ذلك انه كان يغوص على المعاني ويأتي بها جديدة مبتكرة او غريبة عما الفه الناس من مفهومات ، ثم يصنع ذلك كله على حساب اللفظ . بل اننا لو تحرينا حقيقة شعره لما وجدناه شاعر لفظ ولا شاعر معنى ، وانما هو شاعر الطبع وشاعر البساطة النفسية التي يعن لها الخاطر فلا تتحرج في ان تسكب بأي القوالب اللفظية شاءت ولو كانت سوقية ، وبأي القوالب الوزنية ولو خرجت على الاوزان المعروفة . حتى ولو كان هذا المعنى لا يستحق ان يصبح شعرا .

فهل مثل هذا الشاعر يمكن ان يسمى شاعر معنى ؟ الا واني لأجد هذه الكلمة واسعة جدا بالنسبة اليه ، وهي كالثوب الفضفاض فوق انسان نحيل هزيل . ذلك ان منتهى القول عندي هو ان شاعرنا لم يكن يبحث عن لفظ ولا عن معنى وانما كان يصدر عن طبع شعري بسيط منطلق من روح الشعب ، لا يفكر بالمعاني المبتكرة ولا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالصنعة اللفظية ولا البيانية . وذلك هو مبعث التجديد في شعره .

استخدم ابو العتاهية الاوزان الشعرية المعروفة في عصره والتي قيدها الخليل للشعراء . وقيل انه حين سئل هل يجيد العروض قال بأنه اكبر من العروض . ورأيه هذا هو الذي جعله يركب البحر المتدارك ـــ الذي استحدث في عصره ـــ وجاز له أو جوز لنفسه ان يقول :

هم القاضي بيت يطرب قال القاضي لما عوتب

وذلك ان شاعرنا مال الى الاوزان الخفيفة ، وكان له نصيب من الشعر المزدوج الذي لا يلتزم وحدة القافية الا في صدر البيت وعجزه ، وقد سبقه الوليد بن يزيد الى هذا الفن في مزدوجته التي منها :

الحمد لله ولي الحمد احمده في يسرنا والجهد
وهو الذي من الكرب استعين وهو الذي ليس له قرين

اما المزدوجة التي صنعها ابو العتاهية فقد سميت ذات الامثال وقيل انها طويلة جدا وان ما وصلنا منها ليس الا اقلها . ومن ابياتها المشهورة :

هي المقادير فلمني أو فذر ان كنت اخطأت فما اخطا القدر
لا تطلع الشمس ولا تغيب الا لامر شأنه عجيب
ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للعقل اي مفسدة
ان الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

وهذا البيت الاخير كان موضع اعجاب الكثيرين .

وكأن شاعرنا قصد ان ينظم كل ما يخطر في باله من هواجس وافكار اشعارا يرددها الناس في ابسط عبارة واخف وزن ، فكثرت لديه الاوزان القصيرة ، وقلت القصائد التي ترجع الى الاوزان الطويلة في ديوانه . ولذا فاننا نستطيع ان نعد هذا النهج الذي انتهجه لنفسه في الاوزان نهجا جديدا . الا انه لم يأت بصورة اعتباطية انما اتى متجاوبا مع الاحداث والتطور فمعاصروه جلهم ان لم نقل كلهم اخذوا ينظمون شعرهم وفق الابحر القصيرة ، وذلك خلافا لما عهدناه من نفس الشاعر الجاهلي الطويل الذي يكثر في شعره من التفصيلات والمدود والحركات الطويلة .

واذا كان الدكتور شوقي ضيف قد علل مسألة شيوع الاوزان الخفيفة في ذلك العصر بانتشار الغناء وازدهاره ، فبماذا نعلل نحن هذه الظاهرة في شعر ابي العتاهية الذي لم ينظمه لاجل الغناء والطرب . وهل نستطيع ان نقول انه سلكه في تلك الاوزان ليجعل تناول العامة له سهلا ، او ليردده الزهاد في حلقات الذكر ـــ ان كانت هنالك حلقات ذكر في عصره كما هو الحال عندنا الآن في بعض المجتمعات ـــ ؟ ام ان الشاعر مال مع طبعه فسار وفق ما توجهه نفسيته ويقوده ذوقه واحساسه ؟ مهما يكن من امر فان ابا العتاهية قد جدد في الاوزان الشعرية او بعبارة ادق طور تلك الاوزان وفقا لمقتضيات عصره وتجاوبا مع اصداء نفسه ومجتمعه . وكان له لون عجيب من الشعر تتصل فيه الابيات اتصالا يجعلها تتساند وتتآخذ حتى لتشبه الحديث العادي وذلك كله لم يكن شائعا ولا متداولا قبله .

اما بناء القصيدة العربية العام فلا حاجة للاسهاب في تعريفه ذلك اننا نعرف عمود الشعر القديم وكيف كانت القصيدة الجاهلية تبدأ بالوقوف على الاطلال وذكر ديار الاحبة .. ثم بعد ذلك تنتقل الى الغرض الاساسي منها امدحا كان ام اعتذارا ام رثاء ام هجاء .. ولقد اخذت تلك المقدمات تتضاءل ويمحو منها الزمن ويختزلها الدهر بين الجاهلية والفترة التي عاش فيها شاعرنا . الا انه لا يمكننا القول بأن تلك المقدمات كانت قد زالت تماما . وذلك لاننا نجدها بصورة موجزة غايتها التقليد وحده عند شعراء عاصروا ابا العتاهية كأبي نواس وبشار .

فأبو نواس ابتدأ بعض مدائحه ، ولا اقول كلها ، بذكر الاطلال وآثار الديار . ومن ذلك مطلع قصيدة قالها في مدح الرشيد :

لقد طال في رسم الديار بكائي وقد طال ترددي بها وعنائي
كأني مريع في الديار طريدة اراها امامي مرة ووراني

وقصيدة اخرى مدح بها الامين :

يا دار ما فعلت بك الايام ضامتك والايام ليس تضام

وثالثة مدح بها الفضل بن يحي البرمكي :

اربع البلى ان الخشوع لباد عليك واني لم اخنك ودادي

وكذلك كان يفعل بشار وان كان اكثر من ابي نواس ولوعا بوصف طريق الرحلة وما يصادفه فيه . وقد حاول حتى في ارجوزته الدالية ان يذكر الاطلال ويصف الطريق قبل ان يصل الى المديح وكان مطلعها :

يا طلل الحي بذات الصمد بالله حدث كيف كنت بعدي

ويجدر بنا ان نشير الى ان الوقوف على الاطلال ظل ماثلا في القصيدة العربية بشكله التقليدي حتى عصر ابي تمام والبحتري والمتنبي ايضا ، كما حاول السير على منهجه البارودي شاعر العصر الحديث .

اما ابو العتاهية فان ذكر الاطلال كاد يفتقد من شعره ، وقل ما كان يمهد لغرضه بنوع من الغزل البارد ـــ كما قال القدماء ـــ واكثر ما كان يفعل انه يباشر ما يريده من قول دون تقدمات ولا سوابق . واذا حاول مرة ان يطرق هذا الباب من الشعر جاء عمله الغني خاليا من التوفيق ، وخصوصا حين يخضع الاطلال لاوزانه القصيرة الخفيفة ومعانيه الزهدية فيستبدل القوم الذين كان يفارقهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشاعر الجاهلي بسبب رحلة القبائل العربية وتنقلها الدائم ، يستبدلهم ابو العتاهية بقوم بادوا وفنوا واهلكهم الدهر . وشتان بين الموقفين ! بين رجل يقف على طلل ويذكر اهله الذين رحلوا عنه وبين رجل يقف على جدث يبكيه ويناجيه . فنحن نرى في هذه الابيات :

لمن طلل اسائله معطلة منازله
غداة رايته تنعى اعاليه اسافله
وكنت اراه ماهولا ولكن باد آهله

نرى ان مشهد الاطلال والقبور قد اختلط على الشاعر حتى بدا غريبا من نوعه لم يسبقه احد اليه ولم يتابعه متأخر عليه . لان الاطلال والاجداث حقيقتان متغايرتان وليس من الذوق ابدا ان يخلط انسان بينهما .

وربما حاول ابتداء مدائحه بالغزل ثم اشار بصورة خاطفة الى الاطلال كما في قوله :

ألا ما لسيدتي ما لها ادلت فاجمل ادلالها
والا فيم تجنت وما جنيت سقى الله اطلالها

ومعروف ان صاحبة ابي العتاهية المقيمة على ضفاف دجلة ليست بحاجة الى ان يدعو لاطلالها بالسقيا ، ولكنها محاولة من الشاعر للتقليد ! ! . وزهديات الشاعر وطريقته تنافي الاساليب التقليدية ولذا فان اكثر محاولاته في هذا المجال — حين توجد — لا تكاد تعلو عن هذا المستوى . واكثر اشعاره قد خلا من كل تقدمة ، كما بينت ، ولذا فاننا يمكن ان نعد هذا السلوك من قبيل التجديد والخروج على القديم . ولكن الحق كل الحق مع الشاعر حين اقلع عن مثل ذلك النوع من الشعر ، لان اشعاره لم تكن من النوع المتأني الذي يبذل صاحبه من اجله وقتا وجهدا طويلين . وزهدياته لا تحتمل هذا اللون من الشعر ، ولذا فقد غاب من ديوانه شعر الاطلال او كاد يغيب .

وهكذا نرى اخيرا ان هذا الشاعر قد جدد في اغراض الشعر ومعانيه وصوره والفاظه واوزانه ، وفي بناء القصيدة العربية .

ونجد بذلك ان ابا نواس ثار على القديم ولكنه قلده في كثير من الاحيان . اما ابو العتاهية فانه لم يعلن ثورته على ذلك القديم كما انه لم يحاول التشبث بأساليبه ، بل سلك الطريق التي هيأتها له طبيعته . واذن فلن نعجب حين نرى له انصارا يعدونه اشعر الشعراء ، بل اشعر الجن والانس — على حد قولهم — وان كان لا بد ان نلاحظ ان مثل هذا اللقب كان مطاطا وواسعا جدا حتى انه استطاع ان يظلل غالبية الشعراء المشهورين منذ الجاهلية وحتى العصور العباسية المتأخرة ، فلا نكاد نجد شاعرا الا وقد اطلق عليه بعضهم لقب : اشعر الشعراء . ولكن في المسألة هنا عند ابي العتاهية امرا اهم من ذلك لان بعضهم قال عنه (انه اشعر الجن والانس) ! فما مصدر هذه التسمية وما هو الدافع اليها ؟ هل لانه جدد في كل ما ذكرناه من قبل ؟ .

اظن ان ذلك من الايغال في المبالغات . والخروج على الحق ، اذ لم يكن ابو العتاهية بكل هذه المنزلة الا عند اشخاص كانوا شديدي التلاؤم مع الموضوعات التي طرقها والخطة التي سلكها . وذلك ان للناس اذواقا في تقبل الشعر وتذوقه تختلف درجاتها ، فبعضهم لا يرى ان يسمى ابو العتاهية شاعرا فضلا عن ان يكون اشعر الناس . وقد يكون هؤلاء ممن اولعوا بجمال اللفظ الشعري ومحسناته المختلفة التي كادت تفتقد عند هذا الشاعر .

ونحن لن نستغرب احكام القدماء وتفاوتها بتفاوت اذواقهم ، لان لنا امثلة عنها في عصرنا الحاضر ، فشوقي مثلا قد بويع بأمارة الشعر ، ومع ذلك فان العقاد — رحمه الله — ضن عليه مرة بلقب شاعر ، فكيف بأن يكون امير الشعراء .

واختلاف الناس في اذواقهم الشعرية امر طبيعي يشبه الى حد غير قليل اختلاف تلك الاذواق بالنسبة للاطعمة والالوان . والشيء الذي يشتهر بحسنه وروعته هو الذي يلائم اذواق اكبر عدد ممكن من البشر . واذا ذهبنا نتقصى الكمية ربما حصلنا على اغلبية ساحقة تفضل ابا العتاهية ، وذلك ان شعره لاعم العامة وبعضا من الخاصة . والخاصة كلهم لا يضارعون بعددهم العامة . ولكن لكل فن خبراءه .

والحق كل الحق ان ابا العتاهية شاعر غنى احساساته بألفاظ بسيطة لا كلفة فيها فاستجاب له البعض واعجبوا به ، كما ازداره البعض الآخر ولم يتلاءم مع اشعاره . والشعر خاص بنفسية صاحبه ، ولا يمكن ان يعجب ناقد او متذوق بشعر شاعر الا اذا تمكن من ان يتصور الظرف الذي قيل فيه ذلك الشعر ، وان يمارس التجربة التي مارسها الشاعر ان حقيقة وان خيالا . وستبقى احكام الناس على الشعراء متفاوتة بتفاوت نظرتهم ، مختلفة باختلاف اذواقهم . ولقد جدد ابو العتاهية في الشعر ، ويبدو ان تلك النواحي التجديدية انما اتته من قبل عاميته ونشأته المتواضعة ، فحبذا الشعراء الذين ينبتون من الشعب ليعكسوا حياته ويغنوا مشاعره ويجددوا الفن الشعري وفق اهوائه ومتطلباته .

دمشق — لطفية الشهابي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشاعر الياس فرحات

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

* * *

ـ ولد في كفرشيما (لبنان) سنة ١٨٩٣
ـ توفي بالبرازيل سنة ١٩٧٦
ـ هاجر الى البرازيل سنة ١٩١٠
ـ اصدر مجلة (الجديد) مع توفيق ضعون .
ـ اصدر رباعياته سنة ١٩٢٥
ـ اصدر ديوان فرحات سنة ١٩٣٢
ـ اسس مع رفاقه (العصبة الاندلسية)
ـ اصدر ديوان (الربيع) و (الصيف) و (الخريف) سنة ١٩٥٤
ـ نشر (عودة الغائب) سنة ١٩٦٤
ـ نشر (قال الراوي) سنة ١٩٦٥
ـ نشر (فواكه رجعية) سنة ١٩٦٧
ـ سينشر ديوانه (الشتاء) عما قريب .

* * *

يحتل الادب المهجري في النفوس مكانة طيبة عالية ، لما له من ذاتية ادبية متميزة . استطاع بها ان يسهم في احياء حركة الادب العربي في المهاجر الامريكية وغيرها .

وبفضل الطلائع المتوثبة من ابناء العروبة هناك . نفض الشعر العربي عنه غبار الماضي السحيق ، الذي كان عالقا في جوهر الشعر ايام نكبة العرب بجيوش الغزاة الفاتحين ، بعد سقوط بغداد وزحف البرابرة المتوحشين .

ان حركة الادب المهجري ، هي حركة بناءة هزت بنغمات عنادلها المهاجرة نفوس ابناء الادب المشرقي . واستطاعت ان تحدث ضجة في اوساط المحافظين ، في جوانب القاهرة ، وبغداد ، وبيروت ، ودمشق .

وتصدى لها يومذاك طه حسين ، والرافعي ، والزيات ، والعقاد . ولكنهم بعد ذلك بسنين اعترفوا بريادتها وقيمتها واثرها الفني ، وتجديدها الفكري . وكانوا يعيبون على المهجريين الشماليين خصوصا ، بعدهم عن قواعد اللغة العربية ، وانطلاقهم من قيودها ، واعاريض اشعارها .

وليس هناك من حجة قوية عند الخصوم تثبت امام سيل الادب المهجري الهادر . الذي ايده الناقد الدكتور محمد مندور .

اما ابناء الجنوب في امريكا اللاتينية . فان السهام الناقدة قد قللت من تريثها نحوهم . فرددت اندية القاهرة ، وجوانب الازهر اشعارهم .

اما العراق ـ فكان السباق ـ دون فخر وادعاء ، بتلقي اشعار المهجريين ونشر بعض دواوينهم ، والدعوة لتمجيدهم ، ومعارضة اشعارهم .

ومن بين هؤلاء النوابغ الشاعر المهجري (الياس حبيب فرحات) ١٨٩٣ ـ ١٩٧٦ الذي سمت به همته من الامية والجهالة الى ذروة النوادي والمنابر والمجالس .

وقدر له ان يتعلم القراءة والكتابة ، ثم ينظم الشعر الزجلي العامي اولا ، ثم القريض ثانيا .

عرفناه اول مرة بقصيدته الشهيرة (خصلة الشعر) التي منها قوله :

خصلة الشعر التي اعطيتنيها عندما البين دعاني بالنفير
لم ازل اتلو سطور الحب فيها وسائلوها الى اليوم الاخير

وكان من مؤسسي (العصبة الاندلسية) في البرازيل ومن السنتها المعبرة عن قوميتها العربية . رغم بؤسه وشقائه ، ورغم كدحه ونصبه .

كان يترك المدن العامرة ، وينطلق في آجام الغابات بمجاهل (الامازون) وراء لقمة العيش التي مزجت بدماء قلبه ، وعرق جبينه ، ونور ناظريه .

وكان مثالا للرجل المفاخر بشخصيته العصامية التي كونها بذاته ، فلا جدود عظام ، ولا نسب شامخ ولا اسرة غنية . وهو ابعد الناس عن التحيز العنصري ، والمعتقد الطائفي . قال في صدر رباعياته :

فيما التباغض والاوطان تجمعنا قم نغسل القلب مما فيه من وضر
ما دمت محترما حقي فانت اخي آمنت بالله ام آمنت بالحجر

ان الشاعر المهجري الياس فرحات كان من حملة مشاعل العروبة في المهجر الجنوبي ، ومن الذين وقفوا ضد خصومها . ولقد جرت بينه وبين الشاعر فوزي المعلوف مناظرة شعرية حول البداوة والحضارة . ندد المعلوف فيها بالبداوة والجاهلية حيث قال :

خل البداوة نوقها وخيامها والجاهلية رمحها وحسامها

فعارضه فرحات بقوله :

هي البداوة نوقها وخيامها والجاهلية رمحها وحسامها
لولا الجذور المطمئنة في الثرى ما كانت الاغصان ترفع هامها

ومن خصائص هذا الشاعر العربي انه كان ابعد الشعراء عن موائد المناسبات والتهاني والتعازي والامداح . وهو في طليعة الشعراء المهجريين الذين صوروا حياة الهجرة الشاقة ، وغربة الوطن ، ووحشة المسالك ، وشظف العيش .

قال من قصيدته الرائعة (حياة مشقات) :

اغرب خلف الرزق وهو مشرق واقسم لو شرقت كان يغرب
ونشرب مما تشرب الخيل تارة وطورا تعاف الخيل ما نحن نشرب
حياة مشقات ولكن لبعدها عن الذل تصفو للابي وتعذب

سألوه مرة كيف درست الشعر ، ونظمت القريض ، وانت لم تتعلم بكلية او جامعة ، او في مدرسة عالية او معهد فقال :

يقولون : عمن اخذت القريض وممن تعلمت نظم الدرر
واين درست العروض وكيف تلقفت هذا البيان الاغر
وما كنت يوما بطالب علم فانا عرفناك منذ الصغر

فكان جوابه الرائع قوله :

فقلت : اخذت القريض صبيا من الطير وهي تغني السحر
وعن خطرات عليل النسيم يمر فيشفي عليل البشر
وعن ضحكات مياه الجداول فوق الجلامد تحت الشجر
وعن زفرات المحب الاديب يزاحمه الموسر المحتقر
وعن نظرات الحسان اللواتي يكدن يغلفنها في الحجر
وعن عبرات الحزانى الضعاف ففي عبرات الحزانى عبر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم يجيب عن دراسة المعاهد والجامعات بقوله :

لئن كنت لم ادخل المدرسات ... صغيرا ولا بعد هذا الكبر
فذا الكون جامعة الجامعات ... وذا الدهر استاذها المعتبر
ففي المبكيات بيان جميل ... وفي المضحكات معان غرر
وفي كل ما يبصر المبصرون ... دروس تنار بهن الفكر
فمن يحي يوما ولا يستفيد ... اعمى البصيرة اعمى البصر

اما مشاعره نحو العراق وابناء الرافدين فهي مشاعر نبيلة طيبة حورب من اجلها ، وكاد ان يموت برصاص خصوم العروبة يوم ان كانت غيوم الاستعمار تخيم على العالم العربي . وجيوشه تحتل تربته المقدسة . فقال من قصيدة (شباب العراق) :

قد اضاع الحق في الغرب دروبه
فأرانا ثغلب الغرب نيوبه
وثبة تنعش آمال العروبه
وتزيل الحيف عنا وكروبه
هكذا نغفر للدهر ذنوبه

وكان متلطفا علي باهداء مجموعة دواوينه التالية :

١ ــ الربيع ــ الذي اصدره في سان باولو البرازيل سنة ١٩٥٤ وقال في مقدمته :

هذا الربيع نظمته مترنحا ... والنفس تمرح في ربيع صبائها
فاذا بلغت شتاءها حدثتكم ... عن صيفها وخريفها وشتائها

٢ ــ الصيف ــ الذي اصدره في سان باولو سنة ١٩٥٤ وقال في مقدمته :

يا صيف انضجت مني ... ما كان بالامس فجا
فليأكل اليوم شهدا ... من ذاق بالامس فجا

٣ ــ الخريف ــ الذي اصدره في سان باولو سنة ١٩٥٤ وقال في مقدمته :

تمشى خريف الدهر في عمر دوحتي ... ولم تبق منها الريح نغما لعابر
وعما قليل يبلغ اليبس حده ... فتسطو عليها فأس مغنى المقابر

٤ ــ الرباعيات ــ التي صدرت في سان باولو سنة ١٩٥٤ وقال منها :

عجبت لمن يطوي لياليه ساهرا ... يفتش عن معنى غريب فيلقاه
فينظمه شعرا ولا فرق عنده ... اذا ما اهتدى قراؤه فيه او تاهوا
الا ان خير الشعر ما ساغ لفظه ... وما كان مما يسبق اللفظ معناه
اذا جاءني المعنى الغريب فمرحبا ... وان لم يجيء لا رد غربته الله

٥ ــ احلام الراعي ــ الذي صدر في سان باولو سنة ١٩٥٣ جاء منه قوله :

والجوع ما دام ساكنا ألم ... فان تحرك فانه غضب
اذا استحال الانين زمجرة ... تساقطت من سمائها الشهب
وثورة الجائعين ان نشبت ... فكل قصر لنارها حطب
عليك خوفي وليس منك فلا ... تنفح رمادا ورأءه لهب
وتلك امنيتي لديك فان ... ضحكت مني عليك انتحب

صور لنا (فرحات) في قصيدته (رثاء بلبل) قصة حياته المكافحة . وايام عمره المكدودة فقال ولعله يعني نفسه عن لسان ذلك الغريد الصيداح :

كتاب حياة البائسين طويل ... تليها حواش للاسى وذيول
قضى البلبل الغريد والناس حوله ... تقيس مديحا زائفا وتكيل
قضى شاعر يرثي له كل شاعر ... ويبكي عليه معشر وقبيل
هبوني حياة لا تروع بالاسى ... وسيان عندي شهرة وخمول
وداد بني الدنيا سراب لظامئي ... وما ابتل من ورد السراب غليل
اذا انت لم تحتج اليهم فكلهم ... صديق سخي الراحتين نبيل
وكل قصير الباع من الفضل والنوى ... له مقول في الادعاء طويل
وما العمر الا دمعة وابتسامة ... وما زاد عن هذي وتلك فضول

وختمها بقوله :

ولو انهم غذوه خفت ذنوبهم ... وكان لهم للاعتذار سبيل
ولكن لهوا عنه بشكواه منهم ... ويلهو بشكوى العبقري جهول

ويخاطب ابناء وطنه ، واخوان مهجره فيقول مصورا حياته ، وحياة اطفاله ، وكأنه قد رسم لوحة من الواح الشاعر الفرنسي (فيكتور هوجو) في روايته (البؤساء) اذ قال شاعرنا المهجري :

هنيئا لكم حول الخوان اجتماعكم ... وصاحبكم يطوي الليالي بلا زاد
وعندكم الماء النمير مسيله ... جزافا على وجه الثرى وانا صاد
واولادكم في الجوخ تدفا جسومهم ... فما همكم ان يقتل البرد اولادي
تمر على صدري الخطوب كانما ... بنته لها الايام جسرا على واد
وما شفعت بي نزعة عربية ... ولا ادب تاهت به لغة الضاد
ولا وطن ناء لنا في ترابه ... بقية آباء كرام واجداد

وهو بكل هذه الاحوال نراه ابي النفس ، صابرا على المكاره ، شموخا بعزته وابائه . اذ يقول :

اقول لنفسي كلما عضها الاسى ... فآلمها صبرا ففي الصبر مكسب
لئن كان صعبا حملك الهم والاذى ... فحملك من الناس لا شك اصعب
فلولا اباء مازج الطبع لم يكن ... لمثلي مجيء في البرادي ومذهب
ولا ترتجى الاخلاص من كل باسم ... ففي الباسمين البغض المتحبب
وما حين حق لا سلاح لربه ... واضعف انواع السلاح التأديب

انه يدعو الى القوة ، والثورة ، والانفلات من قيود الذل والخنوع ، ويرى ان استرجاع الحقوق المغصوبة لا يتأتى بالمسالمة والحديث الناعم . بل بالارادة ، والتضحية ، والبطولة .

ان الشاعر فرحات كما قال عنه بعض نقاد شعره في المهجر هو « تلك القطرة من الندى التي ذرفتها مقلة الفجر على ورقة الورد ، وغادرتها قلقة مترجرجة وجلة من ان تقبلها احدى نسمات الصباح ، او ان تبخرها ابتسامات ذكاء » . « واصبحت الحاسة قوية قاسية صلدة تشغل من تاج الادب العربي المقام السامي ، يتألق نورها لماعا يأخذ بالابصار ، ويخلب الالباب » .

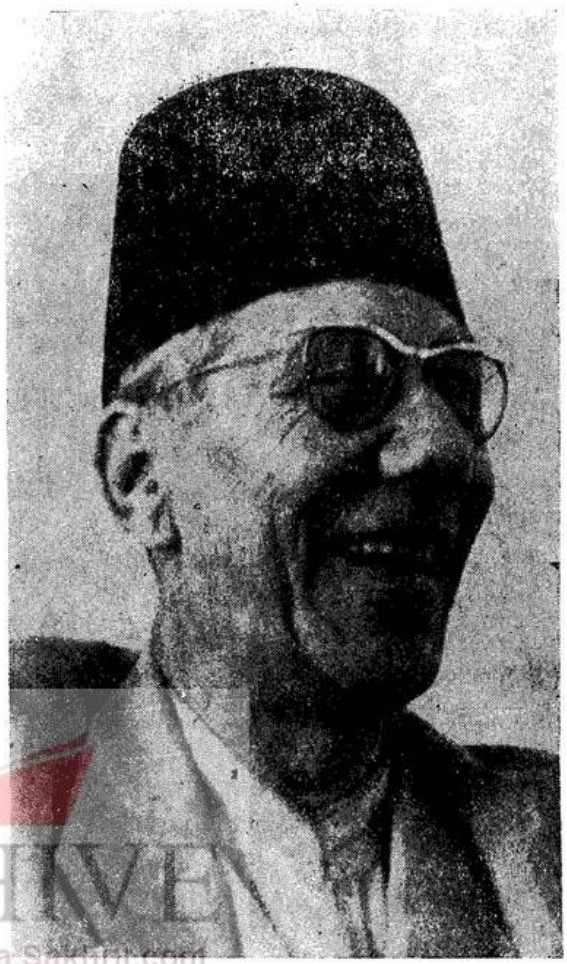
انني اذ اختم هذه المقالة عن الشاعر الراحل الياس فرحات . اتمنى مخلصا ان تلتفت وزارة الاعلام الى اخواننا الادباء والشعراء والصحافيين في المهاجر ، فتقيم لهم ندوة عربية او مؤتمرا قوميا ، يعيد الى نفوسهم الحب الذي فقدوه في مهاجرهم لتطاول غربتهم ، ويرجع اليهم الاعتزاز بعروبتهم التي تشن عليها وسائل الدعاية المغرضة . لكي تفقدهم احساسهم نحوها . ولكي تبعدهم عن حضيرة اوطانهم ، وتضعف فيهم مشاعرهم تجاه اخوتهم في العالم العربي .

بغداد ــ كلية الآداب **محسن جمال الدين**

اهم المراجع عنه :

١) دواوين الشاعر ــ الياس فرحات .
٢) الياس فرحات شاعر العروبة في المهجر ــ للناعوري .
٣) شعر من المهجر ــ محمد قره علي .
٤) اشعار وشعراء من المهجر ــ محمد عبد الغني حسن .
٥) جريدة الجمهورية ــ (بغداد) ــ عرب المهجر وقضايا المصير القومي ١٩/١٠/١٩٧٧ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com



محمود ابو الوفا

محمود ابو الوفا شاعرا

بقلم الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
رئيس جامعة الازهر بأسيوط
وعميد كلية اللغة العربية

* * *

مذهب الشاعر في شعره : محمود ابو الوفا علم من اعلام الشعر المعاصر في مصر والعالم العربي على مدى ثلاثة اجيال وقد عاش حياته الحافلة ، في ظلال ثلاث ثورات عظيمة : ثورة ١٩١٩ التي غذاها بشعره الثائر في شبابه الباكر ، وثورة يوليو ١٩٥٢ التي لباها في شيخوخته المثمرة النافعة فأكرمته وكرمته ، وثورة ١٥ مايو ١٩٧١ التي حياها وباركها في كهولته الحكيمة المجربة للناس والايام والحياة .

آثر الشعر للشعر واحبه واحب الجيد منه في جميع العصور من جميع المذاهب . ومن اي الالوان والاغراض ، محافظا على عمود الشعر العربي ، معتزا بالقيم الفنية الرفيعة ، في مجاله الابداع الشعري والعبقرية التعبيرية .

قرأ لكل المتقدمين والمتأخرين والعصريين والمعاصرين ، مؤمنا بروح التأثر ، نابذا قيود التقليد والالتزام والتبعية .

وحرص الشاعر في شعره على نزعة انسانية فريدة ، قوامها الحب والامل في سعادة الانسان ، فلحظ ذلك . في قصيدته « الايمان » التي كتبها عام ١٩٣٠ ، وقصيدته (امواج) وقد نظمها عام ١٩٥١ . وملحمته (عنوان النشيد) التي نشرت عام ١٩٥١ ايضا ، وقصيدته (النشيد) ، وقد كتبها عام ١٩٥٢ م. ، وفيها الدعوة الى الحب والانسانية والشفافية . وقد اجمل ابو الوفا هذه الفلسفة في بيت من شعره :

حبى اذا الحب اضنانى فمت هوى ان يذكرونى قالوا كان انسانا

ومن اجل ذلك عرفه الناس شاعرا فذا تغنى قصائده في غابات البرازيل والارجنتين كما تغنى في هضاب الجزيرة العربية وصحاريها . وتتناهى شهرته الى ديار الشام والى دنيا العرب من الخليج الى المحيط ، ويترجم شعره الى الاقطار الانكليزية والالمانية والايطالية والاسبانية واليونانية، كل ذلك لانه شاعر القيم الفنية الرفيعة ، وشاعر الموسيقى الحلوة العذبة ، وشاعر الحب والانسانية والانسان والداعي الى الاخاء والحرية .

وقد ارتفع الشاعر محمود ابو الوفا على آلامه ، وصعد بعصاميته وموهبته الى مجال المجودين والمجددين . ونظم الشعر النفسي والاغنية الانسانية والدينية والقومية والغزلية التي برز فيها حتى ليعتبر رائدا من روادها ، كما نظم الشعر الوطني والتأملي وشعره مرآة لنفسه وحياته ، فهو يكشف عن نفسه الحرة المتحررة ، ويعبر بصدق عن واقعه النفسي .

وابرز سماته الاباء وحرية التفكير وحب الصداقة — ويدور حول هذه السمات ديوانه « عنوان النشيد » ، الذي اراد منه بث القوة في النفس ، وتجديد الفهم ونشر الطموح والاعتداد والدعوة الى وجود انسان جديد سماه في قصيدته الطويلة « النشيد » : انسان الفصل الخامس .

وفي ملحمته « عنوان النشيد » روح ايجابية صاعدة جديدة واتجاه موضوعي يبشر بالحرية والاختيار والاستعلاء

والثقة بالانسان وبطاقاته الكامنة العجيبة في الدعوة الى القـــوة .

ويعتمد في اسلوبه التعبيري على حيوية اللفظ وعلى الموسيقى والعناية بالصور الجميلة التي تتجلى في طموح العزة ، والتي تنظر الى الضعفاء حيث لا تقترن بالقوة .

الشاعر والحياة : والشاعر محمود محمد مصطفى ابو الوفا ــ وشهرته : محمود ابو الوفا . من مواليد يوليو عام ١٩٠١ ــ بقرية الانشاصية مـــن قرى مركز اجا دقهلية ، عاش عصاميا يبني نفسه بنفسه ، ودرس علوم العربية والدين في معهد دمياط ، ثم جاء الى القاهرة وتردد على حلقات الازهر وتتلمذ على شيوخها ، ولم يلبث ان صار احد خطباء الازهر في ثورة عام ١٩١٩ منذ اكثر من نصف قرن ، وفرغ ابو الوفا للشعر وعاش له .

وسافر في يونيو ١٩٣٢ الى باريس وايطاليا للعلاج بعد ان بترت ساقه وصار يعتمد على عصاه في السير ، وذلك على حساب الحكومة المصرية .

وكرمه الشعراء والادباء في مايو ١٩٣٢ . فأقاموا له حفلا كبيرا ، وكانت لجنة تكريمه مؤلفة من داود بركات رئيس تحرير الاهرام ، احمد زكي باشا شيخ العروبة ، والعمروسي بك اول نقيب للمعلمين ، ابراهيم زكي مدير التعليم بوزارة الاوقاف ، يوسف احمد كبير مفتشي الآثار ، فؤاد صروف رئيس تحرير المقتطف ، الدكتور زكي مبارك ، اليعقوبي شاعر فلسطين ، الدكتور احمد زكي ابو شادي ، وتولى سكرتيرية اللجنة الاديب كامل كيلاني ، واشترك امير الشعراء احمد شوقي في حفل تكريمه بقصيدة جاء فيها :

البلبل الفرد الـذي هـز الربى ... وشجى الغصون وحـرك الاوراقا
خلف البناء على القريض وكأسه ... فسقـى بعـذب نسيبـه العشاقا
سباق غايات البيان جـرى بـلا ... ساق ، فكيف اذا استرد الساقا

وكان شوقي قد اوصى بأن لا ينشر شعره بعد وفاته الا بمراجعة وتحقيق محمود ابو الوفا اطمئنانا من هذا الشاعر العظيم الى ذوق ابي الوفا المرهف ، ومقدرته الادبية الفائقة ، وقام الشاعر في الثلاثينات بتأليف اناشيد شعرية لوزارة التربية والتعليم (المعارف آنذاك) ، محررا لباب المكتبة في مجلة المقتطف العتيدة ، كما عمل محققا في القسم الادبي بدار الكتب المصرية ، ومحققا بلجنة التأليف والترجمة والنشر ، حيث حقق لها بعض كتب التراث .

وكذلك اشرف لشركة مطبعة مصر على ما تنشره من كتب التراث والادب في الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٥٩ .

انتاجه الشعري : ١ ــ ديوان الحرية (١٩١٩) ــ مجموعة قصائد وخطب وطنية القيت على الجماهير في الازهر الشريف خلال ثورة ١٩١٩ . وقد طبع ووزع هذا الديوان سرا . ٢ ــ انفاس محترقة ــ طبعة اولى ١٩٣٢ ــ مطبعة دار الهلال . ٣ ــ انفاس محترقة طبعة ثانية مع اضافات ــ ١٩٥٠ ــ مطبعة مصر . ٤ ــ ديوان الاعشاب ــ ١٩٣٤ ــ مطبعة الوفاء بالقاهرة. ٥ ــ ديوان اشواق ــ ١٩٤١ ــ مطبعة مصر . ٦ ــ عنوان النشيد ــ ١٩٥١ ــ مطبعة مصر ــ ملحمة شعرية ممزوجة بتأمل فلسفي . شرح فيها الشاعر مفاهيمه حـــول القوة والحياة والدين والايمان والتعليم والسلوك ، والحب ، والعمل والثورة. ٧ ــ انسان الفصل الخامس ــ ١٩٥٤ ــ مطبعة مصر ــ يتضمن هذا الكتاب ملحمة : « عنوان النشيد » وملحمة « النشيد » التي رسم فيها الشاعر شخصية الانسان القادر على الحياة وسط المتضادات المختلفة ، والمساعي الى تحمل اعباء الحياة المادية والروحية معا ، ليكون دائما هو الانسان خليفة الله في الارض . ٨ ــ ديوان شعري ــ ١٩٦٢ ــ دار المعارف بمصر ــ يتضمن قصائد في الوطنية والقومية والغزل ، وفلسفة الحياة ، والغنائيات ، الى جانب بعض المسرحيات الشعرية . ٩ ــ ديوان شعري ــ ١٩٧٣ ــ مطبعة وزارة الاوقاف الاسلامية ــ وهو مجموعة مختارة من القصائد قدم لها وزير الاوقاف المصرية آنذاك الدكتور عبـــد الحليم محمود . ١٠ ــ مجموعة شعرية ــ تحت الطبع . ١١ ــ ديوان اناشيد دينية ــ ١٩٣٧ ــ مطبعة مصر ــ طبعة اولى . ١٢ ــ ديوان اناشيد دينية مـــع ألحانها الموسيقية في طبعتين ــ ١٩٥٤ ــ مطبعة مصر . ١٣ ــ ديوان اناشيد عسكرية ــ ١٩٣٩ ــ مطبعة مصر . ١٤ ــ ديوان اناشيد وطنية ــ ١٩٥٦ ــ مطابع دار الكتاب العربي بمصر . ١٥ ــ اناشيد للاطفال في موضوعات اختارتها لجنة من وزارة التربية والتعليم ــ وطبعت في كتاب المحفوظات المختارة الذي صدر للاستاذين : عباس حسن واحمد عباس ١٩٣٤ .

تحقيق التراث : ١ ــ ديوان الهذليين ــ القسم الثاني ــ ١٩٤٨ ــ مطبعة دار الكتب المصرية . ٢ ــ ديوان الهذليين ــ القسم الثالث ــ ١٩٥٠ ــ مطبعة دار الكتب المصرية . ٣ ــ ديوان الشوقيات ــ الجزء الثالث ــ ١٩٣٣ ــ دار التأليف والترجمة والنشر . ٤ ــ جمال المراة في القصيدة اليتيمة ــ ١٩٢٢ ــ مطبعة وادي الملوك .

القصص : ١ ــ قصة مملكة النساء ــ ١٩٥٠ . ٢ ــ قصة المصادفة للجميع او التلاميذ الثلاثة ــ ١٩٥٠ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ــ هؤلاء ابنائي ــ تحت الطبع ، وهو يمثل فلسفة الشاعر في الحياة من خلال سيرته الذاتية .

مقالات ومحاضرات : ١ ــ في يناير ١٩٣٥ فاز الشاعر بالجائزة الاولى في مسابقة نظمتها الاذاعة المصرية واشترك فيها اكثر من خمسمائة واربعين شاعرا واصبح الشاعر بمقتضى هذه المسابقة مذيعا بالقسم الادبي للاذاعة المصرية (١٩٣٥ ــ ١٩٤٠) حيث اذاع في تلك الفترة نحو ثلاثين محاضرة في الادب العربي ــ كما قدم برنامجا جديدا بعنوان شوارع القاهرة . ٢ ــ تعريب ومقدمة لرواية الكاتب الفرنسي اناتول فرانس وعنوانها : (جريمة سان سلفستر دي بونار) ــ ١٩٣١ ــ المطبعة العصرية . ٣ ــ مقالات ادبية ونقدية نشرت في مجلات : المقتطف ــ قافلة الزيت ــ السياسة الاسبوعية وغيرها .

اعمال اخرى : ١ ــ من مؤسسي رابطة الادب الجديد ــ واحد المؤسسين لجماعة ابولو الشعرية . ٢ ــ قامت على ملحمة انسان الفصل الخامس جمعية دار الرياضة النفسية المبنية على اسس نظرية (انسان الفصل الخامس) عام ١٩٥٥ بمدينة المقطم ، وهي جمعية تربوية تدعو للتربية الروحية .

وسام : وحصل الشاعر على وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى للفنون والعلوم عام ١٩٦٧ .

الحان : وقد غنى بشعر الشاعر الاستاذ محمد عبد الوهاب ، وزكريا احمد ، ورياض السنباطي ، وحليم الرومي ، ومحمد قنديل ، وعزيز عثمان ، والشيخ علي محمود وسواهم . واغنية (عندما يأتي المساء) مشهورة .

نقاد ودارسون لشعر الشاعر : وقد تناول اعمال الشاعر بالنقد والدراسة كبار النقاد والباحثين ومن بينهم : ١ ــ احمد زكي باشا شيخ العروبة ... راجع مجلة الاخاء ١٩٣٤ . ٢ ــ د/محمد حسين هيكل باشا (راجع افتتاحية جريدة البيان التومية ١٩٣٣/٤/٢) . ٣ ــ د/طه حسين راجع جريدة الوادي ١٩٣٥ ، وحديث الاربعاء الجزء الثالث . ٤ ــ د/علي العناني ــ راجع البلاغ ١٩٣٥ . ٥ ــ مصطفى صادق الرافعي ــ راجع الجزء الثالث من وحي القلم . ٦ ــ د/محمد مندور ــ الحلقة الثالثة من كتابه الشعر المصري بعد شوقي . ٧ ــ عباس محمود العقاد راجع صحيفة الاساس يناير ١٩٥٢ ، ومجلة قافلة الزيت . ٨ ــ البشبيشي ــ راجع البلاغ عام ١٩٥٧ . ٩ ــ حسن القاياتي ــ عبقرية ابو الوفا ــ الاهرام ١٩٣٢ . ١٠ ــ د/احمد زكي ابو شادي في مقالات عدة نشرها في مختلف المجلات . ١١ ــ ابراهيم عبد القادر المازني ــ البلاغ ١٩٣٦ . ١٢ ــ فؤاد صروف ــ رئيس تحرير المقتطف ــ وهو الذي قدم الطبعة الاولى من ديوان الشاعر (انفاس محترقة) ، عام ١٩٣٢ . ١٣ ــ مصطفى عبد اللطيف السحرتي في كتابه (شعراء مجددون) . ١٤ ــ د/محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه (الشعر العربي الحديث ومدارسه) . ١٥ ــ د/شوقي ضيف في كتابه (دراسات في الادب العربي المعاصر في مصر) . ١٦ ــ د/احمد الشايب . ١٧ ــ د/ماهر حسن فهمي . ١٨ ــ الاستاذ سيد قطب ــ الاهرام ــ مجلة الفكر المصرية ١٩٣٤ . ١٩ ــ الاستاذ كامل كيلاني . ٢٠ ــ الاستاذ كامل الشناوي . ٢١ ــ وديع فلسطين في مجلة الاديب البيروتية (عدد ١٩٥٢/٦/٢١) . ٢٢ ــ الاديب العراقي وحيد الدين بهاء الدين في كتابه (شخصيات معاصرة) . ٢٣ ــ الاستاذ شوقي امين . ٢٤ ــ الاستاذ عباس خضر . ٢٥ ــ الاستاذ محمد زكي عبد القادر . ٢٦ ــ الاديب حليم متري ــ جريدة الوادي . ٢٧ ــ الاستاذ احمد ابو العز سكرتير امير الشعراء في كتابه (اثنا عشر عاما في صحبة امير الشعراء احمد شوقي) . ٢٨ ــ احمد زيتون في كتابه انسان الفصل الخامس . ٢٩ ــ ابراهيم العريض من ادباء وشعراء ونقاد البحرين . ٣٠ ــ الشاعر المهجري ميخائيل نعيمه . ٣١ ــ المستشرق الانجليزي آربري . ٣٢ ــ المستشرق الاسباني د. خوان وتنيه في كتابه (الادب العربي) . ٣٣ ــ المستشرق المجري د. عبد الكريم جرمانوس . ٣٤ ــ المستشرق الفرنسي لويز ماكيرزن في مجلة الابحاث الاسلامية بباريس . ويضيق المقام هنا عن الاستشهاد بآراء كل من هؤلاء في الشاعر محمود ابو الوفا ومنزلته الرفيعة في الشعر العربي الحديث .

شعراء كرموا الشاعر بشعرهم : ١ ــ امير الشعراء احمد شوقي في قصيدته في الشاعر القيت في مهرجان رابطة الادب الجديد لتكريم ابي الوفا في عام ١٩٣٢ .

٢ ــ الشاعر الكبير محمد عبد الغني حسن ــ قصيدة له في الشاعر منشورة في ديوان (سائر على الدرب) .

٣ ــ الشاعر الكبير محمد الماحي ــ قصيدة له منشورة في ديوان الماحي .

٤ ــ الشاعر الكبير جورج صيدح ــ قصيدة له في ابي الوفا ــ نشرت في مجلة العالم العربي التي تصدر بالارجنتين في ١٩٦٨/٥/٨ .

هذا هو ابو الوفا الشاعر في حياته وشعره وشاعريته وتراثه الفني وناقديه .

والى مقام آخر لندرس جوانب شاعريته بالتفصيل .

اسيوط **محمد عبد المنعم خفاجي**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وليدة البحر والسماء

◎

ليلى السايح

◎

الكويـــت



بالامس كان الزمان
وكان الصمت الموحي بالضجيج
اي سر دفعني الى مناداتك
ايها المغلف بأساطير العشق والخلود

يقولون : جفت الارض
فجودي بأمطارك ايتها الغيمة المسافرة
عبر القرون
أمطرا اصطناعيا تريدون ؟ !
دعوا للغيمة حرية ادرارها
شرعوا ابواب العشق والوفاء
لتحنو وتنهمر .. وتسيل
نهرا سماويا فيه زخم الالتحام الالهي
أليست الغيمة وليدة مخاض الطبيعة ؟

حين تتبادل السماء مع البحر سر الحب
تنبثق الوليدة
لتعطي شهد الاستمرار والبقاء
ليس في الاسرة الحمراء
ولا في القيود الورقية
انما في انصهار الفصول
وتلاحم النقيضين ..
في التقاء عاشقين
في لمسة حب
في فيضان حنان
في تصعيد جسدي روحي
يسمو حتى على منبتها الاصلي
البحر والسماء !

ايتها الغيمة الآتية عبر السديم
لمن تدخرين عطاءك ؟
لمن هذه التنهيدة ..
المتفجرة .. القزحية في الافق البعيد
من قال : اني أدخر العطاء
انما شلالي لا يندفع الا
الى الارض التي احب ..
في حديقة حبيبي
في واحتي القدسية
حيث اقدم طقوسي الشمسية
الى صنوي الذي لولاه
لما كنت
ولا كان المطر
ولا العطاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يلفح الهواء البارد وجهه وانامله . النافذة المغلقة لم تفلح في حمايته من البرودة ، لكنه يستشعر الدفء بداخله . لم يؤذه جو طوبه ، رغم احاديث من حوله عن تثلج اطرافهم . اشعل لفافة دخان ، وتأمل اصابع يده اليسرى الممسكة بعلبة الكبريت ، ما زالت يده قادرة على اداء مهمتها .

جالت في خاطره موضوعات شتى ، وكلها لم يبت فيها منذ زمن طويل . واليوم ، يعود الى سوهاج في اجازة قصيرة لا تتعدى اليومين ، وعليه ان يحسم الامور حتى يستريح من القلق الذي يعانيه . يعود اليوم من سيناء ، والدم الساخن لا يزال يتدفق في عروقه . علمته الحرب اشياء كثيرة ، لكن الدرس الاكبر الذي استوعبه هو حسم الامور .

ان القلق الذي عصف على ربيع حياته ، فأفسد مزاجه ، قد زال وانمحى تماما . لقد صرفته معركة العبور عن كل شيء ، وتمنى ان يطول زمن الحرب ، واحيانا كان يتمنى ان يستشهد ، فتنتهي مشاكله الخاصة . لكنه بعد ايام من اشتعال المعارك ، تناسى هذه المشاكل تماما ، والهاه مدفعه صائد الدبابات عن كل شيء . استهواه منظر الدبابة المشتعلة . كلما اشعل دبابة هلل وكبر ، وتعلق بمدفعه على رمال سيناء العطشى .

الرجل المعمم الراس الجالس قبالته ، يمد يده ، يرجوه ان يشاركه التدخين ، وتمتد يده السمراء تتناول لفافة ، ثم يسرع الى علبة الكبريت ، ليشعل لفافات جيرانه في المقعد ، ينفث الدخان في راحة . ان يده اليسرى على ما يرام ، وليس هنالك ما يضير .

لم يعد يطيق صبرا ، لقد تعلم في الجامعة ، تخرج في كلية الحقوق ، ورغم هذا فمشاكله ظلت سنوات طويلة دون حل . نبيلة ، ابنة عمه ، تستحوذ جل اهتمامه . لماذا يمنى نفسه بها ؟ .

منذ ست سنوات ، استشهد مصطفى . تألم الجميع ، والجرح الدفين لم تشفه كل هذه السنين . ظلت نبيلة تلف جسمها الرقيق بالسواد ، ولم تفارق الطرحة السوداء راسها . لشد ما تعلق بعينيها السوداوين النجلاوين ، وكأن ما يربطه بهما اعمدة رجاء ، فاذا ما رنت اليه بهاتين اللؤلؤتين ، يستشعر حلاوة الامل ، وروعة اللقاء . لكنها ابدا لم تحن على آماله ، وافق عمه على زواجه منها ، لكنه بعد ايام قال له :

ـ حين فاتحتها في الزواج ، قالت انها عازفة . انها لا ترفض ، لكن استشهاد مصطفى لا يزال جرحا

جراح دفينة

بقلم حسني سيد لبيب

ساخنا لم يندمل بعد ، فاترك للايام مداواته .

وصدق عمه ، وأيقن ان الايام كفيلة بمداواة الاوجاع ، والزمن خير علاج .

تجاذب رفقاء السفر اطراف الحديث معه . يقعد امامه الرجل المعمم ، وامراة تتجلبب بجلباب اسمر ، وبجانبه شاب في الثلاثين . في جعبتهم اسئلة كثيرة ، ودوا ان يعرفوا كل شيء عن المعارك ،



وتفاصيلها . حكى لهم بطولات زملائه ، وكيف ارتفعت الراية فوق المواقع المحررة .

تمنى ان تجلس نبيلة معه ، وتسأله عن تفاصيل المعركة ، فيحكى لها عن بطولات زملائه ، وعن معان جديدة .. ثم تتجمد ملامحه ، ويقطب ما بين الحاجبين ، متذكرا ما انتواه . الم يوطد العزم على حسم الامر ؟ . وماذا بعد صبر ست سنوات وهو يمني النفس ، دون فائدة ؟ . ربما لا تريده شريكا لحياتها ، ولعل عزوفها عن الزواج ، نوع من الرد المهذب على شيء اسمه الرفض . فلماذا يتشبث بها كالطفل ؟ . وعيناها السوداوان ، نافذتا امل تشعان الفرحة وقت التلاقي . هل يطيق البعد عنهما ؟ . يطن في اعماقه صوت متمرد ، يؤكد له ان حبه من طرف واحد ، وعليه ان يئده في سويداء قلبه ، ويتلظى بناره ، ويترك نبيلة تملى ارادتها كما تشاء .

والثأر ، تلك النغمة النشاز التي عكرت صفاء حياته . ان اعمامه يحثونه على الثأر لابيه . قصة قديمة عمرها عشرون عاما . كان وقتذاك في الخامسة من عمره ، كان طفلا لا يعي امور الحياة . وقتل ابوه ثأرا لمقتل احد افراد عائلة السلاموني . نزاع قديم يمتد في اغوار الماضي الى عهود غابرة ، وكان اعمامه يتحفزون للانتقام من القاتل ، لكن المنية عاجلته ، قضاء الله الذي لا يرد ، ولم يجدوا من يطفىء الحريق الملتهب في صدورهم سوى ابنه الذي لا يتعدى سنه العام الواحد ، وطبعا لا يجدر الانتقام من رضيع . ومنذ الصغر ، بدأوا يرضعونه لبن الثأر من الوليد المسمى احمد السلاموني ، ابن القاتل . وشب حمدي عن الطوق ، وتعلم ، ودرس مع ابن عمه مصطفى في كلية الحقوق ، وتباعدت المسافة بين القاهرة وسوهاج ، فتعاهدا على انهاء قصة الثأر بين العائلتين . تحمس حمدي ، ووجد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان تنازله عن الانتقام سيكون مضرب مثل في انهاء عادة قديمة يستهجنها المنطق .

واليوم ، ماذا انت فاعل لانهاء نداء الثأر المدوي في آذانهم ؟ . منذ ست سنوات ، استشهد مصطفى الذي كان يلازمك كظلك ، وتركك تعصف بك زوابع القلق ، ونوازع العنف . الكل من حولك يطالبونك بالثأر ، وانت تماطل وتسوف ، دون ان تفصح عن نيتك المسالمة . واليوم ، يجدر بك حسم القضية ، وتعلن دون خوف انك لن تقتل احمد السلاموني .. انه لا ذنب له فيما اقترفه ابوه منذ عشرين عاما .

ويعود طيف نبيلة ، كحلم سرمدي . آن له ان يفيق الى واقعه . يشرد به الذهن الى سنوات الدراسة ، متذكرا تلك الليلة الشتوية ، كهذه الليلة تماما ، منذ اكثر من سبع سنوات . حين باح لمصطفى بأمنيته التي طواها بين جوارحه . اعلن له رغبته في الزواج من نبيلة . تعانقا ، وقرآ الفاتحة ، وامضيا الليل يخططان للمستقبل .. كيف يمهدان للزواج ، وكيف يفاتحان الاب ؟ .

وافقت نبيلة ، وتشاء الظروف ان يتخرج الاثنان ، ثم يجند مصطفى ، ويؤجل تجنيد حمدي . وتجيء حرب يونيو ، وانكسارة الجيش ، والحزن الذي غطى قسمات وجه مصر ، وغلف لياليها بالانين .. استشهد مصطفى .. فتأجل زواجه من نبيلة ، التي اتشحت بالسواد وعزفت عن كل شيء ، زهدت في الكلام ، وانطوت على نفسها ، تلوك حزنها ليل نهار . وابتهل حمدي الى الله كي تلتئم الجراح ، وتطمئن النفس .

واليوم ، بعد صبر ست سنوات ، علمته الحرب ان يحسم كل اموره ، ويبدأ حياة جديدة . كيف يرضى بابنة عمه التي عزفت عنه ؟ . يجب ان يئد حبه الجريح ، ويرضى بما كتبه القدر . ان يده اليسرى على ما يرام ، بعد الجراحة التي اجريت له في مستشفى الميدان ، لكنه سيجعل منها سببا ، ويحل نبيلة من اتفاق تم رغم انفها ، او هكذا تبدى له .

وسيعلن للجميع رفضه للانتقام ، مهما تكن العواقب . حتى لو ادى ذلك الى موته . لقد مرت عليه احايين كان يتمنى خلالها شرف الاستشهاد ، وما ايسره في اتون المعركة ، وزعيق الموت يصرخ في كل اتجاه ، وبات ملازما له كظله ، حتى فقد الاحساس بطعم الموت ، لكثرة ما تجرع غصصه . كانت عيناه يقظتين على كل هدف معاد يلوح من بعيد . ابعد كل هذا يتردد في مواجهة العائلة بقراره ؟ .

يقف القطار عند محطة اسيوط ، يتفرس ملامح الوجوه .. اقترب موعد الوصول ، ولا شك في ان البرقية التي ارسلها اول امس قد وصلت ، الا انه تأخر عن الموعد الذي حدده ، ظروف خارجة عن ارادته .. ولا شك ان امه قلقة ، وعمه ، و ... هل نبيلة قلقة ؟ .

دنا منه الرجل المعمم وسأل عن حال الاولاد في الجبهة ، فطمأنه خيرا . والتفت الرجل الى زوجه هامسا :

— اطمئني .. ما دام الجيش بخير ، يبقى ولدنا بخير .

وابتسمت الام ابتسامة ارتياح .

بدأ يشغل نفسه بسماع احوال الدنيا من الرجل المعمم الراس ، حتى وصل القطار الى سوهاج ، فيهرع نازلا ، تحتضنه الام ، والعم ..

— لم نترك المحطة منذ البارحة .

وفوجيء بأحمد السلاموني يعانقه، يلتفت الى عمه الذي ابتسم :

— عفا الله عما سلف يا حمدي .

— كدت اقولها ..

واعقب احمد هامسا :

— فضلت استقبالك ، ولو ادى هذا الى قتلي ! .

يد رقيقة تمتد في استحياء ، ترنو اليه بعينيها السوداوين ، كانت عيناها رائعتين حقا ، ضحك حمدي من اعماقه :

— خلعت السواد يا نبيلة .

— اليوم فقط والنبي يا حمدي .

وحين انبجست دموع الفرح من عينيه ، قالت نبيلة :

— احس ان روح اخي مصطفى رجعت النهاردة .

اشار حمدي الى مكان الاصبع الناقصة ، وحكى لها قصة الشظية التي اصابته ، وهو يهم بانقاذ جريح .. قالت مبتسمة :

— حمدا لله على السلامة ..

ورغم حلقة السواد التي تحلقت حول عينيها ، اطل شعاع امل من عينيها الضاحكتين .

القاهرة **حسني سيد لبيب**

سعر بيع مجلة الاديب :

الكويت	٢٠٠ فلس
الاردن	٢٥٠ فلس
مصر	٢٥٠ مليم
عدن	٤٥٠ فلس
قطر	٤ ريالات
البحرين	٤٠٠ فلس
السعودية	٣٥٠ ريال
ليبيا	٣٠٠ درهم
تونس	٣٠٠ مليم
المغرب	٣ دراهم
السودان	٣٠٠ مليم
العراق	٢٥٠ فلس
الامارات العربية	٤ دراهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



جعفر الخليلي

جعفـر الخليـلي

بقلم عجاج نويهض

* * *

لاول مرة في ايامنا هذه ، على ما نعلم ، نرى اديبا عالما ، في ريان الشباب ، ينتمي الى الحضارة الاميركية ، كتب له ان يعيش ردحا من الزمن في الشرق العربي (العراق) ويدرس العربية باتقان ، ويتكلمها ويكتبها كأبنائها ، ثم يختط لنفسه خطة من شأنها التقريب عن طريق الادب بين الشرق والغرب ، وذلك بأنه رام اختيار شخصية عربية رائدة ، من شخصيات العصر ، تعنى بالادب عامة وبالقصة والرواية خاصة ، ليضع في صاحبها اطروحة بالانكليزية ينال بها درجة الدكتوراه من احدى جامعات اميركا ، فوقع اختيار هذا العلامة الاميركي جون توماس هاميل على العلامة جعفر الخليلي ، الشخصية الادبية المنيرة في العالم العربي ، والخليلي ، كما هو معروف عنه ، جم المجاني المشتهاة ، وحوضه مورود في ميادين الادب على اوسع الآفاق العربية ، وفي الصحافة والقصة خاصة ، والشعر والتاريخ والتراجم وغيرها .

واعتقد ان بمثل هذه الخطى الموفقة الرائقة التي شق طريقها العلامة الدكتور هاميل بأطروحته التي وضعها بالانكليزية وترجمت الى العربية (كما سيجيء) واشير اليها في باب « برقيات ادبية » في عدد يناير ــ اكتوبر ١٩٧٧ من « الاديب » ، تفتح نوافذ فكرية عقلية بين الشرق والغرب ، وللعرب في القرن العشرين حظ من هذا ، فاذا كان شوقي على جدارته ، لم ينل هو ولا غيره من اساطين ادباء الشرق ، الا رابندرات طاغور ، جائزة نوبل للآداب ، واذا وضعنا هذا في الكفة السلبية ، ففي كفة الايجاب عندنا نحن العرب رصيد راجح مكين بجبران خليل جبران وامين الريحاني وميخائيل نعيمه ومن على دربهم وعلى تفاوت . هذا ونذكر شاعر الاسلام محمد اقبال (ت ١٩٣٨) وهذه الاطروحة التي نحن بصددها شيء جديد في الصلات الفكرية بيننا وبين الغرب . نعم لنا في مدارس الغرب وجامعاته عشرات الالوف بل مئات الوفها من الطلاب ، ولكن ارتشاف العلوم شيء وذيوع كتب جبران والريحاني في الغرب لسنة واحدة فقط ، شيء آخر .

يتضح لنا ان قول شاعر الامبراطورية والتاج البريطاني « رديارد كبلنغ » (ت ١٩٣٦) ان الشرق شرق والغرب غرب ، قد انتهى بانتهاء الاستعمار . ولا نريد التعريج في هذا المقال على مناح سياسية ، ولكننا ، والحديث عن كبلنغ وشرق وغرب واستعمار وحضارة وما الى ذلك ، نشعر بوجدان حار اننا مضطرون لنقول جهرة ، ان حضارة اليوم في خطر يقترب منا بطريقة لا حسابية بل هندسية ، واننا نصيح بملء فمنا ان تبني اميركا لاسرائيل بالسلاح والمال والسياسة ، والعهد اثر العهد بأن تركض اليها وتنشلها اذا عثرت ، واسرائيل ماضية في العصيان وباقية على الارض العربية المحتلة ، معتدية ، كل هذا سيجر آسيا وافريقيا الى تقليم اظافر اسرائيل . والسبب الذي مع الاسف لم يفهمه العرب بعد ، شيء اسمه لا اسرائيل بل « بروتوكولات حكماء صهيون » التي خبرها عند « اللوبي الصهيوني » في اميركا .

ونرى قبل الكلام عن العلامة الخليلي موضوع الاطروحة ، كما هو موضوعنا الآن في هذا المقال ، انه من المفيد للقارىء الكريم ان نضع بين يديه مزيدا من المعلومات المتعلقة بواضع الاطروحة نفسه الدكتور هاميل ، وبمترجميها الاثنين وهما صدران من صدور الترجمة الى الضاد : العلامة الاستاذ وديع فلسطين (القاهرة) والعلامة الدكتور صفاء خلوصي (اكسفورد) وبواضع المقدمة النفيسة للترجمة العلامة الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، وجميعهم فرسان ميادين ، سيماهم في وجوههم ، وكأنهم كانوا في حطين ، تحت لواء صلاح الدين .

اما الدكتور هاميل ففي الحادية والخمسين ، وهو الغاية في رضى النفس والدماثة وغزارة التهذيب . وهو من ولاية ماساتشوستس ، ونال درجة بكالوريوس في الآداب سنة ١٩٤٨ من كلية بوسطن ثم نال درجة الماجستير في الفلسفة سنة ١٩٥١ من الكلية المذكورة . وكان من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نصيبه ان يضطلع بالتدريس في كلية بغداد من سنة ١٩٥١ — ١٩٥٥ ثم في جامعة الحكمة من ١٩٦٤ — ١٩٦٦ وكان بين ١٩٥٥ و ١٩٥٨ نال درجة الليسانس في اللاهوت. وفي اثناء تعاطيه التدريس في بغداد ، اقبل على درس العربية حتى اتقنها تكلما وكتابة وقراءة كأحد ابنائها . ثم امضى مدة بعد ذلك في مدرسة اللغات والدراسات اللغوية في جامعة « جورج تون » وتخصص بالدراسات العربية .

وفي سنة ١٩٦٨ انتقل الى جامعة مشغان وانتمى الى دائرة لغات الشرق الادنى وآدابه . وفي سنة ١٩٧٢ احرز درجة دكتوراه الفلسفة في موضوع « جعفر الخليلي والقصة العراقية الحديثة » . هذا بايجاز ما يتعلق بواضع الاطروحة .

اما المترجمان العبقريان ، وحقا ثم حقا هما فرسا رهان ، فقد جاءت شركتهما في ترجمة الاطروحة بسبب : ذلك ان العلامة وديع فلسطين كان قد بدأ الترجمة متبرعا لخله الخليلي ، وهو في موطنه الحصين في القاهرة ، واجتاز في الترجمة شوطا ، ثم استغرقته واجبات رسمية جمة انتاشت وقته انتياشا بحيث لم يعد بوسعه المضي في عمل الترجمة على رغبته الملحة ، فتناولها منه الصفي الآخر للخليلي ، الدكتور صفاء خلوصي (اكسفورد) وتم العمل بحسن التوفيق وحرمة البيت العتيق . ثم توج هذا العمل كله ، بمقدمة كالانجم الزهر ، او باقة من عاطر الزهر ، وضعها سيد النظم والنثر ، وحجة البيان في هذا العصر ، العلامة الاستاذ محمد عبد الغني حسن شاعر الاهرام ، المترنم بشعره في القصور والخيام ، وكل مصر وشام . وفي الاطروحة ما عدا هذه المقدمة ، تمهيد وجيز للدكتور صفاء خلوصي يبين فيه كيف وقعت شركة الفضل والعون بينه وبين الاستاذ وديع فلسطين .

الاطروحة في ما يقرب من ٣٢٠ صفحة ، من القطع الذي هو الى الكبير اقرب . وهي منهجية الاسلوب ، حسنة التقاسيم داخل نطاقها ، محكمة ، مستوفية حقها من كل ناحية . يسير القارىء بمطالعتها سيرا امامه نور وضياء ووراءه اشراق وسناء . طباعة وضاءة . ولكن هناك في راينا المتواضع ، ملاحظة ان كانت خفيفة المبنى فغير خفيفة في المبنى . وهو خلو الاطروحة من رسوم هذا الرهط المبارك كله ، من وضعت له الاطروحة والمترجمان وواضع المقدمة . اما الدكتور هاميل فرسمه على الغلاف من خارج . ومن واجبنا قبل ان نحط برحالنا بساحة الخليلي الرحبة ، وآل الخليلي في النجف الاشرف وبغداد ان نعرب عن خالص الشكر ، ولا ريب ان جمهرة القراء شركاء في هذا ، لهذا الرهط الذي حلت عليه البركات وهم متفرقون في الآفاق بين بغداد والقاهرة واكسفورد واميركا . وما اجمل التعاون بين عصبة من اهل العلم هذا طرازها ، احرزت خيرا ونفعا ويا نعم ما احرزت وانجزت انجازا .

وعلي شكر آخر من اعماق الصدر ، اوجهه الى اخي العلامة الاستاذ البير اديب ، الذي بحراسة الله تحمل عناء « السنتين » تحمل الجبار الصبور ، لما يقذف به التنور ، اخذ الله بيده في استئنافه اصدار هذا « الاديب » الذي اعتلى من سلم بريد العرب مكانة عزيزة مقدسة . ولا شيء من المشاركة في الشعور افضل من الاقبال على الاشتراك ، وكل قارىء في القاصية والدانية يعلم ما حل بلبنان وادارة « الاديب » ، خاصة من فادح الضرر والخسارة والضياع .

والآن هيا بنا الى الجعفر الخليلي ابي فريدة : آل الخليلي في النجف الاشرف اسرة من اوتاد البلاد ، قديمة المنبت والارومة ، في العلم والفضل وجليل التراث ، جيلا فجيلا ، وبيوتاتها من اكرم بيوتات العرب في العراق . « المرجعية العليا » ، هي القمة في الزعامة الروحانية الشيعية . بعد كلمتها لا كلمة ، بضعة اعلام من صدور العلماء من آل الخليلي تولوا مقام المرجعية . وهم جدود مترجمنا جعفر الخليلي الذي عليه الآن مدار الكلام حتى النهاية . من هؤلاء الجلة الكرام جد المترجم المولى الحاج ملا علي الخليلي ، وعم ابيه الحاج مرزا حسن الخليلي ، وبعده جاء السيد مرزا حسن الشيرازي الذي كان من تلاميذه موقظ الشرق السيد جمال الدين الافغاني . واما والد جعفر فهو الشيخ اسد الخليلي ، وكان حاملا مميزات آله في سعة الفضل والادب ، وحسن الخلق والتهذيب . صقلته التجارب والايام فازداد حكمة . كان مضافا الى جميع حسناته ، الطب العربي القديم ، وحذقه لعلم المنطق . والدة الاستاذ جعفر من فضليات السيدات العاملات على سنن الخير والفضيلة ، وكثيرات من سيدات آل الخليلي في النجف ما كن يقفن في التعلم عند حد القراءة بل يتقن الكتابة ايضا .

كانت بيئة النجف في اول هذا القرن ، لم تزل على معالم البيئات السابقة : مجالس عامرة بالفضلاء ، اعشاش كريمة محشوة بهم وهم اوعية الادب وحفاظه ، يروون الاخبار والسير والحوادث . وحلقات مدرسية مكتظة ، يؤمها الشاعر والناثر والمنشد ، وطالب الاستفادة جاء يستمع ويلتقط الدرر المتناثرة من هذا وذاك . الشيوخ الينابيع والعيون الثرة . عادات اجتماعية وان يكن سننها قديما غير انها منطوية على جوهر ولباب من روح العروبة الغضة . الرياضة البدنية ، ودور الضيافة ، والفروسية والذب عن الحياض ، لا سيارة تدب ولا تلفاز ينطفي ثم يهب ، ولا اذاعة ولا سينما ولا تلفون ولا « كاميرا كوداك » ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا قلم حبر ، ولا ساعة زند ، ولا شفرة حلاقة جيلات . ولكن السماء تمطر خـــيرا وبركة والناس بالله مؤمنون معتصمون .

وليسمح لنا القارىء ان نقول ان الهجرة في هذا المقال وان كانت الى الاستاذ جعفر وهو مدار الكلام ، غير ان عملنا يكون مبتورا ناقصا اذا لم نضع شيئا آخر يتم به القصد ، ويصح ما لنا على الفرات من ورد ، وهو ان نعقد باذن الله ومنه فصلا آخر ، في عدد مقبل عن فقيد الشعر والادب والاريحية والالمعية الاستاذ عباس الخليلي ، اخي الاستاذ جعفر ، رحم الله العباس واطال في عمر الجعفر ، والعباس (مولده ١٨٩٦) اكبر من اخيه بثماني سنين ، وتوفي العباس في طهران سنة ١٩٧٢ وثلثا حياته هناك ، وهـــو فريد في الرجال وحسن الفعال والمقال والخصال . كان مدبر ثورة النجف سنة ١٩١٨ على الانكليز (ثورة النجف هذه هي غير ثورة العراق الكبرى سنة ١٩٢٠) فلما احاط الجيش البريطاني بالمدينة وحاصرها حصارا ضيقا ، استطاع العباس ان يفر الى ايران بطريقة لعب فيها القضاء والقدر دورهما العجيب . وبقي في ايران حياته كلها في خبر رائع من الالف الى الياء . فاذا قصرنا كلامنا على ترجمة الاستاذ جعفر فكأننا وقفنا في وسط الطريق لان عمل كل من الاخوين كان في بلد ، وعلا العباس في عبقريته علوا كبيرا . فعسانا نستطيع ما وعدنا به وبالله التوفيق . وفضلا عن ذلك فان جعفر يقول ان فضل اخي عباس علي الى ان وقعت ثورة النجف لا يقل عن فضل والدي ووالدتي .

نعود الى الاستاذ جعفر : نعم تعلم العلوم الميسورة وقتئذ ــ ما عدا القرآن الكريم واللغة ــ شيئا من التاريخ والجغرافيا والحساب ، فأول ما لوحظ عليه انه يحب القصة والحكاية ، او ذات النكتة او العبرة التي تدعو الى التأمل . ويروي عنه اخواننا الافاضل في بغداد ، وهم الذين درسوه في هذه الحقبة المبكرة ، انه اول ما مال ، مال الى قصص الانبياء في القرآن الكريم ، ومعلوم ان القصص القرآني المراد به الزجر والعبرة لمن يعتبر ، شديد الوقع في النفس محرك للعقل . وقـــال دارسوه ايضا ، ان الناشيء المتطلع جعفر من هنا تابع يروي عطشه الى هذا النوع من القصص ، بانتقاله الى مطالعة التوراة (العهد القديم) الحافلة بهذه المادة . ويستنتج من هذا ، ان هذا الميل القصصي الاول فيه ، راح ينمو مع نمو مداركه ، مدارجا تطوره ، فلما بلغ الثامنة عشرة او ما حواليها ، واشتد ساعده وصار في دنيا العمل العالمي ، وكانت بريطانيا امست بطاشة بالعراق ، وشبت ثورة العراق الكبرى سنة العشرين ، وجندل من الانكليز في بطائح العراق وسائر مواطن السيوف ستون الفا على ادق احصاء والمجندل اثنان : رصاص الثورة الصماء من يمين العراقي الثائر الباسل ، وضربات الشمس الكاوية المحرقة (ولله در رصاص رجاله علـــى الارض ، وشواظ شمسه في السماء) ــ فلما وافى جعفر على هذا العراق ، ولعل الشيوخ في الامة يذكرون هذا جيدا ، وجد نفسه كأنه على موعد مع رسالتين : رسالة وطنه تحت حراب الانكليز ، ورسالة نفسه عـــن طريق استثمار مداركه ومواهبه . ومتى ما ثارت الساحات ، حينئذ لا تسل عن المدارس والشهادات .

فأول ما كتب من نوع البواكير ، وهو في اول الطريق ، واقتسمت البلاد العربية بعد الحرب وعمها الغليان وقذف الحمم ، قصة « التعساء » و « حبوب الاستقلال » ، فالاولى مدارها ناحية انسانية كما يدل عنوانها عليها . واما الثانية فيكاد عنوانها يوحي الينا انها شيء من وصفات الاطباء للمرضى ، وهي حقا كذلك ، فكان جعفر كأنـــه الطبيب ، وراح يستصرخ بني وطنه ان هناك ما يشفيهم من الاستعمار ، هو هذه « الحبوب » ولكنها لا توجد الا في صيدليات معينة ، ففي العراق في صيدلية جعفر ابو الثمن (احد الثائرين ومن اركان الحركة) وفي مصر في صيدلية سعد زغلول (ومصر وقتها تصارع الثورة) وفي الهند عند غاندي (في ابان حركته) وفي ارلندا في صيدلية دي فاليرا (في حركة الشن فين المشهورة) فكان جعفر يستقي من النبعتين : نبعة هواه في القصة ، ونبعة حب الوطن ، وما ابدع اشاراته الى طريق الثورات . وكلا « التعساء » و « حبوب الاستقلال » طبعتا في النجف . ولكن نبعة هذه الحبوب كانت هي الاكثر استيلاء عليه ، فجعل يهيء المناشير الثورية المستصرخة ويطبعها بطريقة ما ويلصقها على ابرز جدران المدينة لتظل حماسة الشعب متقدة ، والبندقية هي

اشتركوا في مجـــلة

الاديـــب

تساهموا في نشر الثقافة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

النشيد ، ومشى يوما في مظاهرة شعبية حمراء العين والخنجر مشدود الى وسطه كأنه مقاتل .

برح العباس النجف الى ايران فارا من حبال مشنقة الانكليز ، كما تقدم ، سنة ١٩١٨ تاركا في البيت لاخيه جعفر الذي في الرابعة عشرة ثروة لا يعد لها ثروة : « المقتطف » و « الهلال » و « العرفان » ومجموعات من الصحف المختارة ، وهذا كله تتألف منه « مدرسة » لجعفر ، وهو لوذعي المتابعة والمطالعة والامتصاص . فصارت آفاقه تتسع ، وهو في الوقت نفسه عاكف على بشار بن برد ، وابي نواس والمعري ، ولمعرفته الفارسية اضاف الخيام وحافظ وسعدي ، واستطاع أن يقرأ لمترجم من شعر موباسان الفرنسي . ولا ننسى ان ننبه العربي الناشىء ، الى ان العقد الثالث من هذا القرن (١٩١٩ — ١٩٣٠) كان حافلا بالثورات والانتفاضات العربية من الريف المغربي حيث الثائر المنصور الامير محمد بن عبد الكريم الخطابي ، الى سويداء جبل العرب حيث سلطان الاطرش وصحبه . فأينما نظرت فالدخان والصواعق في العراق وسوريا وفلسطين والمغرب وشبه الجزيرة .

* * *

في سنة ١٩٣٢ دخل العراق « عصبة الامم » . وتطورت امور العراق الى حد ما . ونرى مترجمنا جعفر الآن في الثامنة والعشرين ، مستويا في كل شيء : في النضج العلمي والسياسي والادبي ، والقصة رأس الرمح . والقصة هو رافع لوائها او من رافعي لوائها . وقال دارسوه ان القصة عنده هي حكاية الواقع ونقل الصورة الذهنية ، وهو يعتبر توفيق الحكيم والدكتور سعيد عبده والدكتور عبد السلام العجيلي صدور كتابها (لا ندري لماذا نسي زعيم القصة محمود تيمور) وروي عن لسان الخليلي قوله ان القليل من قصصه واقعي والكثير خيالي البس لباس الواقع . وسألوه هل له مغامرات في الحب فقال ان هذا الامر لم يشغله كثيرا . وسألوه عن رأيه في ما يسمى بالشعر الحر فنبذه نبذ النواة . والاستاذ الخليلي يقول الشعر الممتاز ولكنه من المقلين فيه ، وله من الاراجيز المتنوعة ما يبلغ فيه التفوق . وهو يحسن الفارسية احسانا تاما لتحصيله لها في النجف ، وقد انتدبته جامعة طهران منذ سنوات هو والدكتور مصطفى جواد لالقاء محاضرات مدارها ما اخذ الشعر الفارسي من العربي والعربي من الفارسي وهذه المحاضرات نسقتها الجامعة اللبنانية وطبعتها وقررت تدريسها . واتماما لوصف هذه الزوايا من ذهن الخليلي جدير بنا ان نذكر ان له نظرية مهمة وهي ان العراق كان مهد القصة العربية منذ الزمن القديم . وله راي آخر وهو ان لبغداد من اصل كتاب كليلة ودمنة نصيبا كبيرا ، وهذا الراي افرغه في كتاب لم يزل ضمن كتبه المخطوطة .

* * *

حياته الصحافية : اما في المدرسة فقد اصدر صحفا توزع داخل نطاق المدرسة ، وهذا احيانا كثيرة ما نراه في الطلاب امثاله الذين تضج صدورهم بالاشواق الى ممارسة الكتابة الصحفية المبكرة . والخليلي وهو في النجف ، وربما كان يتعاطى التدريس في بعض المدارس ، اصدر ثلاث صحف ، اثنتان منهما لم تعيشا سوى فترة قصيرة اكثر من سنة بقليل ، وهما « الفجر الصادق » و « الراعي » واختيار هذين الاسمين يدل على نزعاته ومطامحه . ففي سنة ١٩٣٠ اصدر الجريدة الاولى وسنة ١٩٣٤ الثانية والراجح ان كلتيهما اسبوعية . واما الاولى فأوقفها الخليلي من نفسه واما « الراعي » فأوقفتها الحكومة وجعلت تطارده عدة اشهر لانه كان يساند سماحة الامام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الذي كان صخرة معارضة لا يلين .

ولكن في سنة ١٩٣٥ (هذه سنة حركة الشيخ عز الدين القسام وصحبه الثوار في شمالي فلسطين رحمهم الله) اصدر (الهاتف) في النجف ايضا وثابر عليها وذب عنها فعاشت حتى ١٩٥٤ ، وفي ١٩٤٨ ، سنة حلول الكبائر في فلسطين ، انتقل « بالهاتف » الى بغداد وتوطنها حتى اليوم . واصدار « الهاتف » في بغداد غيره في « النجف » آفاقا وانطلاقا ، ومعاركة تيارات ومساندة تيارات . ولذلك ثقل على السلطة ان تطيق اكثر مما بوسعها ثم انقلبت الى الشدة المرة فأغلقت « الهاتف » ١٩٥٤ وهنا القى الخليلي عصا الترحال صحافيا وتحول بجهوده الكلية الى القصة والكتب المختلفة والتاريخ والتراجم على ما سنوجزه للقارىء الآن . ولكن يجدر بنا ان نقول ان جريدة «الهاتف» استطاعت في السنوات الست او السبع التي عاشتها في بغداد ان تبلغ من سعة الانتشار والنفوذ ما مكنها من ان تكون عاملا له شأنه في تقوية النهضة الادبية في العراق وخارج العراق ، في القصة ، وفي الشعر ، وفي النقد الاجتماعي . وهذا كله وفق رغبات الخليلي النظرية وهو يرعاها منذ الصغر . قال الاستاذ ميخائيل نعيمه في الخليلي وهاتفه : « الاستاذ الخليلي صاحب جريدة « الهاتف »

العراقية التي خدمت الادب العربي في وادي الرافدين سنوات طويلة وهو من كبار القصاصين في العراق ومن ادقهم في وصف الحياة الاجتماعية ومعالجة مشاكلها وتصوير واقع المجتمع العراقي بصدق وفي براعة » .

* * *

الخليلي في كتبه وانواعها ووصفها : مجموع مجلدات كتبه المؤلفة المطبوعة لغاية ١٩٧٢ (٤٣) كتابا وهذا تقسيمها حسب موضوعاتها الكبرى :

١ ــ « هكذا عرفتهم » وهي سلسلة بلغ فيها الجزء الرابع حتى ١٩٧٢ وهي تراجم لمن عرفهم الخليلي وخالطهم ، وهذا بعبارته : « خواطر عن اناس افذاذ عاشوا بعض الوقت لغيرهم اكثر مما عاشوا لانفسهم » وهذا كناية عن تراجم مشرقة الاسلوب والمعنى والتصوير حتى تشعر كأنك انت كنت والخليلي معا شاهدتما المشاهد كلها على غير افتراق .. مجموع صفحات المجلدات الاربعة (١٢٤٣) صفحة انطوت على نحو خمسين شخصية عربية عراقية ، فيهم « الاخطل الصغير » من لبنان ونظير زيتون من سوريا .

٢ ــ موسوعة العتبات المقدسة : بهذه الموسوعة تمتلك الحضارة الاسلامية لاول مرة هذه الثروة الثقافية الممتازة الفريدة ، والغريب ان قد مضى العصر الاموي والعباسي والفاطمي والايوبي ، وعلى كثرة التفنن في طرق ابواب العلوم واستحداث موضوعاتها ، فلم يقرب احد من هذا الباب الا جعفر الخليلي في النصف الثاني من القرن ١٤ للهجرة . و « العتبات » التي ضمها المشروع هي : مكة المكرمة ، المدينة المنورة ، القدس الشريف ، كربلاء ، النجف الاشرف ، الكاظمين ، سامرا ، خراسان . ولكل عتبة مجلد واحد او اكثر حسب الاقتضاء ، ومجموع المجلدات حتى اليوم (١٣) . والعمل انتدب له ارهاط من اهل الكفاية والعلم ، وللخليلي المشارفة العامة على التحرير . ولا يخلو المجلد من بعض الصور والخرائط .

٣ ــ كتب القصة وغيرها : كتب نوع (١) و (٢) مجموعها (١٧) كتابا ، تخرج من (٤٣) والباقي (٢٦) كتابا في القصة وما اليها . وكتب القصة الحديثة هذه هي التي ارتفعت بصاحبها الى مرتبة الصف الاول من رواد القصة وكتابها في العالم العربي المعاصر . ولذلك كان الدكتور هاميل مصيبا لما وقع اختياره على الخليلي ليتخذه نموذج كاتب القصة الحديثة في العراق . ودارت قصة الخليلي مدارات مختلفة ، وهي وان كانت فكرتها المركزية العراق ، وجذور القصة العراق ، غير اننا نعلم ان امراضنا الاجتماعية العامة تكاد تكون واحدة ، فاذا عالجت هذه الحالة في العراق فكأنك عالجتها في العالم العربي . هنا نقطة البيكار في قصص الخليلي . ولكننا هنا نحب ان نشير الى كتاب واحد من كتبه لانفراده بميزة خاصة وهو « كنت معهم في السجن » ، فهذا الكتاب صدرت طبعته الاولى سنة ١٩٥٦ وهو دليل على الغريزة العلمية المغروسة في فطرة الخليلي . فخطر له ان يتعمق في دراسة نفسية المجرم الذي حوكم وزج في السجن ، وهنا يلعب علم النفس دوره في الجناية ، فطلب من الحكومة ان تسمح له ان يدخل السجون في بغداد ويخالط ويجالس المسجونين ، ويحادثهم محادثات حرة . فتم له هذا . ولذلك فأنت ترى ما افيد مطالعة كتاب « كنت معهم في السجن » .

الخليلي خارج اطار الاطروحة : هو اليوم ، بارك الله بعمره ، في الثانية والسبعين . منطلق الوجه بقسماته المتوهجة بشائر وابتسامات وانسانيات . اذا جسم الوفاء في الاصدقاء كان في الخليلي ارقى مثاله . رقة معشر ، وعلو جانب . اذا جالسته الاربع والعشرين ساعة فكأنك في الدقائق اللقائية الاولى معه . حديثه غذاء للعقل والقلب . نكاته البارعة المختارة سواء اكانت من التراث العربي ام من العصري الحديث . اعتاد ان يصطاف في لبنان منذ اربعين سنة ، ولم يخرم معه الاصطياف في « فندق فاروق » الا سنة (١٩٧٦) وكانت هذه في لبنان قطعة من جهنم . وجاء السنة هذه ١٩٧٧ فمكث في الفندق عينه بضعة اشهر وليس في الفندق الا جعفر الخليلي ، ولكن ، نعم ، انه لمصطاف يساوي الفا ، دون انتقاص ذرة من كرامة غيره من النزلاء الغياب .

* * *

فاذا يسر الله لنا ان نضع فصلا في اخيه العباس ، نكون بهذا قد اقمنا بواجب نحو قراء « الاديب » في الآفاق العربية ، اذ نجد في آل الخليلي الفضل مشدودة اطنابه ، والادب عريقة في العراق انسابه ، وكأني بهذين الاخين تقاسما الميادين ، فالعباس كتبت له ايامه في طهران ، وبقي الجعفر في النجف وبغداد ، غير ان جعفرنا الذي فيه هذه الاطروحة ، يلوح لنا بأدبه انه اكثر من جعفر بل انه شيء من دجلة والفرات . للاستاذ جعفر ثلاث كريمات فيهن الادب والعلم ، والخلق الكريم والتهذيب العالي : الاستاذة فريدة والدكتورة ابتسام والسيدة امتثال . ونحيل القارىء على الاطروحة .

وبقي لنا رجاء وامل : نتوقع ان نسمع ان اهل الفضل في العراق طوقوا عنق الخليلي بمهرجان تكريم ، ويتلفت اهل الادب في امة العرب الى حكومة العراق متوقعين منها اكرام من وضعت فيه هذه الاطروحة بتخصيص مرتب له مدى الحياة . والعرب امة المستقبل .

راس المتن ــ لبنان **عجاج نويهض**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اهديك .. ما تملك

عبد الشافي داود

القـــاهـــرة

أبحث عن ذاتي
أسكرني الحلم
والكوخ الساحر فوق جناح الغيم
أحلم بالانسان العاشق
فوق شراعات الزنبق
يترقرق
ويصلي

فابحث عني
لو أنك أصغيت لأهدابك برهة
وشدوت لترنيمة خفقتها
ودنوت من المرآة
وتطلعت الى عينيك
وسمعت أناشيد ضوئية

*

تطلق كاللحن الطائر
ورأيت على شرفات الاهداب
زهرة عشق بيضاء
فاعلم اني في ينبوع السحر أضاء
وتهدهدني خمرة عينيك السكرى
تغسلني بقصيدة حب بكر

أبحث عن ذاتي
فابحث عني عبر خلاياك
ان طال البحث صديقي
ووجدت شعاعا مولودا
ينساب رقيقا بين حناياك

*

ووجدت على القلب ازاهيرا ..
تعشق في النبض صباك
ووجدت بأعراقك نبضة حب ..
تتلو صلوات النساك
ووجدت على ثغرك قطرة عطر ..
تتغنى .. الحب ملاك
ووجدت على خدك تذكار حنان ..
يتطهر في ضوء محياك
فلتذكر أنك أنت رفيقي
وعرفت طريقي
ولتذكر أني عنقود من زهر الليلك
نمت على صدرك في مخمل عشق
غبت بأضلاعك كي أتملك
لكني عبر الرحلة أهديتك ذاتي
أهديتك .. ما تملك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



محمد العدناني

عثرات الادباء

بقلم محمد العدناني

* * *

هذه نموذجات انشرها على صفحات مجلتنا « الاديب » ، رغبة مني في تلقي ملحوظات الادباء الاجلاء ، لأفيد منها في الطبعة الاولى ، او في الطبعة الثانية اذا حملت الي على ظهر سلحفاة :

هو الآخر ، هي الاخرى

يخطئون من يقول : هو الآخر ، وهي الاخرى ، ويرون ان الصواب ان نقول : هو ايضا ، وهي ايضا .

ولكن :

وافق مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في دورة عام ١٩٧٣ ، على قرار لجنة الالفاظ والاساليب الآتي :

« شاع في كتابات بعض المعاصرين استعمال : هو الآخر ، او هي الاخرى في مكان ايضا ، او كذلك ... فيقولون : هو الآخر يؤدي واجبه ، او هي الاخرى تذهب الى المدرسة .

« درست اللجنة هذا الاسلوب ، وناقشته من شتى نواحيه ، ثم انتهت الى انه لبيان المماثلة ، وقد يكون للتبكيت ، ولهذا ترى اللجنة ان التعبير صحيح » .

آسيا ، أسيا

ويطلقون على القارة الكبرى ، التي يقع فيها جزء كبير من العالم العربي ، اسم آسيا (بالمد وتشديد الياء) او آسية (بياء خفيفة) ، والصواب :

(١) آسيا (بياء خفيفة) : ابو الريحان البيروني ، ومعجم البلدان ، ومستدرك التاج ، ومعجم بادجر ، والمعجم الكبير ، والوسيط .

والنسبة اليها : آسي (بكسر السين) وآسيوي (بفتح الياء الاولى) .

(٢) واسيا (بفتح فسكون) : هذا هو لفظها في الآرامية اليهودية ، وذكر الوسيط ان مجمع اللغة العربية بالقاهرة وافق على استعمالها .

والنسبة اليها اسيوي (بفتح فسكون ففتح) .

اما اسمها في اليونانية فهو : اسيا (بفتح فكسر) .

وقد اخطأ معجم متن اللغة حين اطلق عليها اسم آسية (بمد فكسر ففتح) ، لان من معاني هذه الكلمة :

(١) الخاتنة .

(٢) الدعامة . قال النابغة الذبياني :

فان تك قد ودعت غير مذمم أواسي ملك أثبتنها الاوائل

الاواسي : جمع آسية .

(٣) الاسطوانة .

(٤) البناء المحكم اساسه .

(٥) آثار القوم اذا ارتحلوا .

ظلة المصباح لا ابجورته

الغطاء الذي يوضع فوق المصباح وحوله ، لتركيز نوره ، وتوجيهه شطر ناحية ما ، يسمونه ابجورة المصباح . والصواب : ظلة (بضم فتشديد) المصباح ، وهو الاسم الذي اطلقه عليه مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في جلسته العاشرة ، بتاريخ ٢٧ آذار ١٩٦٢ (الصفحة ١٢٩ من المجلد الرابع ، من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي اقرها المجمع ، الرقم ١ ، قاعة الاستقبال) .

وجاء في النهاية في غريب الحديث والاثر ، لابن الاثير : وفي حديث كعب بن مالك « انه ذكر فتنا كأنها الظلل (بضم ففتح) » هي كل ما اظلك ، واحدتها : ظله (بضم فتشديد) . اراد كأنها الجبال او السحب .

وفيه ايضا : عذاب يوم الظلة . وهي سحابة لجأوا الى ظلها من شدة الحر ، فأطبقت عليهم واهلكتهم .

وفيه ايضا : رايت كأن ظلة تنطف السمن والعسل . اي شبه السحابة يقطر منها السمن والعسل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومنه الحديث : البقرة وآل عمران كأنهما ظلتان او غمامتان .

الابالة واخواتها

ويخطئون من يسمي الحزمة من الحطب او الحشيش ايبالة ، ويقولون ان الصواب هو : ابالة (بكسر فتضعيف) ، ويستشهدون بالمثل المعروف « ضغث على ابالة » والضغث هو : قبضة من حشيش مختلطة باليابس ، ويعتمدون على ما جاء في التهذيب (حطب) ، والصحاح (حطب) ، ومعجم مقاييس اللغة (حطب) ، والعباب (حطب) ، واللسان (حطب او حشيش) ، والقاموس (حشيش) ، والتاج (حطب او حشيش) ، والمد (حطب او حشيش) ، ومحيط المحيط (حطب) ، واقرب الموارد (حطب) ، والمتن (حطب او حشيش) ، والمعجم الكبير (حطب او حشيش) ، والوسيط (الحزمة من الاعواد ونحوها) . واعني بالحطب والحشيش الحزمة الكبيرة منهما .

ولكن :

نستطيع ان نقول (ايبالة) ايضا ، اعتمادا على الازهري ، ومعجم مقاييس اللغة ، واللسان ، والتاج ، وذيل اقرب الموارد ، الذين قالوا ان معناها هو الحزمة الكبيرة من الحطب . وعلى القاموس ومحيط المحيط اللذين قالا ان معناها هو الحزمة الكبيرة من الحشيش . وعلى شفاء الغليل ، والمد ، والمتن ، والمعجم الكبير الذين قالوا انها تعني الحزمة الكبيرة من الحطب او الحشيش .

وقد خطأ الصحاح والعباب من يقول : ايبالة .

وهنالك كلمات اخرى تحمل معنى الابالة (بكسر فتضعيف) :

(١) الابالة (بكسر الهمزة) : قال اسماء بن خارجة :

لي كل يوم من ذؤاله ضغث يزيد على ابالة

(الذؤالة : الذئب) .

والازهري ، والصحاح ، والعباب ، ومحيط المحيط الذين قالوا انها تعني الحزمة الكبيرة بين الحطب .

واللسان ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، واقرب الموارد ، والمتن (مجاز) ، والمعجم الكبير الذين قالوا انها تعني الحزمة الكبيرة من الحطب او الحشيش .

والوسيط الذي قال انها الحزمة من الاعواد ونحوها .

(٢) والابيلة (بفتح فكسر) : المحكم ، واللسان ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، وذيل اقرب الموارد ، والمتن ، والمعجم الكبير ، والوسيط . وهؤلاء قالوا ان معناها الحزمة الكبيرة من الحطب او الحشيش ، ما عدا القاموس ومحيط المحيط اللذين قالا ان معناها هو الحزمة الكبيرة من الحشيش ، والتاج الذي قال انها الحزمة الكبيرة من الحطب ، والوسيط الذي قال انها الحزمة من الاعواد ونحوها .

(٣) والوبيلة : اللسان ، والتاج ، واقرب الموارد ، والوسيط الذين قالوا ان معناها هو الحزمة من الحطب ، والقاموس ومحيط المحيط اللذان قالا ان معناها هو الحزمة من الحشيش ، والمتن الذي قال انها حزمة الحطب او الحشيش كليهما .

(٤) والوبيل : الصحاح ، وابن خروف (في شرح الديوان) ، والصاغاني ، واللسان ، والتاج ، والمتن . وجميعهم قالوا ان معناها هو الحزمة الكبيرة من الحطب .

(٥) والابالة (بضم الهمزة) : القاموس ومحيط المحيط اللذان قالا ان معناها هو الحزمة الكبيرة من الحطب ، والمتن الذي قال انها من المجاز ، ومعناها الحزمة الكبيرة من الحطب او الحشيش .

(٦) والموبلة (بفتح فسكون فكسر) : التهذيب ، واللسان ، ومستدرك التاج ، وجميعها تقول انها تعني الحزمة الكبيرة من الحطب .

(٧) والابيل (بفتح فكسر) : المحكم ، واللسان (الحطب والحشيش) ، والمد .

(٨) والبلة (بضم ففتح) : التاج (الحطب) ، والمتن (الحطب والحشيش) .

وانفرد الصحاح بذكر الموبل (بفتح فسكون فكسر) ، ومعناه : الحزمة الكبيرة من الحطب ، وانفرد المتن بذكر :

(أ) الابيل (بكسر فتضعيف الباء المكسورة) .

(ب) والابيل (بكسر فتضعيف الباء المفتوحة) .

(ج) والابول (بكسر فتضعيف الباء المفتوحة) .

(د) والايبال .

وجميعها تعني الحزمة الكبيرة من الحطب او الحشيش .

احب ابا بكر او ابو بكر

ويخطئون من يقول : احب ابو بكر ، واعجبت بأبو بكر ، ويقولون ان الصواب هو : احب ابا بكر ، واعجبت بأبي بكر . والحقيقة هي ان الجمل الاربع صحيحة . وقد درج الناس على التسمية ببعض الاسماء الستة ، وهي : (أب ، وأخ ، وحم ، وفم ، وهن (بمعنى شيء) ، وذو . . . بمعنى صاحب) مثل : ابو بكر ، ابو الخير ، ذي النون ، ذي يزن . فاذا سمي باسم مضاف من تلك الاسماء الستة ، جاز في العلم (بفتح اللام) المنقول منها احد امرين :

(١) اعرابه بالحروف ، كما كان يعرب اولا قبل نقله الى العلمية ، مثل : ابو بكر عظيم ، ان ابا بكر عظيم ، اعجابي بأبي بكر عظيم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢) ان يلتزم العلم صورة واحدة في جميع الاوضاع الاعرابية ، وهي الصورة التي سمي بها واشتهر . نحو : كان ابو بكر اول الخلفاء الراشدين ، ان ابو بكر اول الخلفاء الراشدين ، ايمان ابو بكر عظيم . فكلمة (ابو) ونظائرها من كل علم مضاف صدره من الاسماء الستة ، يلتزم حالة واحدة لا يتغير فيها آخره ، ويكون فيها معربا بعلامة مقدرة ، سواء اكانت العلامة حرفا ام حركة على حسب اللغات المختلفة .

ويرى النحو الوافي ان الامر الثاني انسب واولى لمطابقته للواقع الحقيقي ، البعيد عن اللبس ، ولان بعض المعاملات الرسمية لا تجري الا على اساس الاسم الرسمي المعروف .

اما انا فأوثر الامر الاول ، لكي تعرب الاسماء الستة دائما اعرابا واحدا (بالحروف) ، ولنضع سدا بيننا وبين الجملة المألوفة : « في المسألة قولان » .

آتاه على الامر مؤاتاة واتاه على الامر مواتاة

يقول الصحاح والمختار ، ان الفعل : واتاه على الامر يواتيه مواتاة ، بمعنى : وافقه وطاوعه هو من استعمال العامة ، ويقولان ان الصواب هو : آتاه على الامر يؤاتيه مؤاتاة .

والحقيقة هي ان كلا الفعلين صحيح ، والهموز (آتيته) اعلى ، لانه الاصل . اما الفعل الآخر (واتاه) فهو لغة اهل اليمن وحدهم .

وممن ذكر الفعل آتاه يؤاتيه مؤاتاة : الخليل بن احمد الفراهيدي ، والتهذيب ، والصحاح ، والمحكم ، ومعجم مقاييس اللغة ، ومفردات الراغب الاصفهاني ، والحريري في هامش المقامة التفليسية ، والنهاية ، والمختار ، واللسان ، والمصباح ، ومستدرك التاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، ودوزي الذي اكتفى بذكر المصدر (المؤاتاة) ، واقرب الموارد ، والمتن ، والمعجم الكبير ، والوسيط .

وممن ذكر : واتاه يواتيه مواتاة : جاء في الحديث : « خير النساء المواتية لزوجها » وروي الحديث مهموزا (المؤاتية) .

وممن ذكر الفعل (واتاه) ايضا : معجم مقاييس اللغة ، والحريري في المقامة التفليسية ، والاساس ، والنهاية ، واللسان ، والمصباح ، ومستدرك التاج ، والمد ، وذيل اقرب الموارد ، والمتن ، والمعجم الكبير ، والوسيط .

وذكر معجم مقاييس اللغة ان (واتاه) لغة قبيحة في اليمن .

وقال المصباح ان (واتاه) يمنية ، وهي المشهورة على السنة الناس .

وذكر مستدرك التاج ، والمد ، والمعجم الكبير ان الفعل (واتاه) هو لغة اهل اليمن .

لصيقة لا اتيكيت

البطاقة التي تلصق بالشيء ، وعليها من الكتابة والرسم ما يعرف (بضم الياء وتشديد الراء المفتوحة) به ، ويشير الى قيمته ، يطلقون عليها اسمها الفرنسي معربا : الاتيكيت . ولكن :

جاء في المجلد الرابع عشر من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية ، التي اعدتها لجنة الحضارات القديمة والوسطى ، بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في البند (ب) ، ووافق عليها مؤتمر المجمع ، في جلسته الرابعة ، بتاريخ ١٠ شباط ١٩٧٢ ، في المادة رقم ٣٥ ، ان المؤتمر اطلق على تلك البطاقة اسم : اللصيقه (بفتح فكسر) .

محاذير لا تأثيرات جانبية

ويقولون : ان لبعض العلاجات تأثيرات جانبية في اجساد المرضى . وفي ترجمة حرفية للاصطلاح الطبي الانكليزي . والصواب : ان لاستعمال بعض العلاجات محاذير .

والمحاذير جمع : محذور ، وهو ما يتقى ويحترز منه . وفعله : حذره (بكسر الذال) يحذره (بفتحها) حذرا (بفتحتين) . والرجل حذر (بفتح فكسر) ، وحذر (بفتح فضم) ، وحاذورة ، وحذريان (بفتح فسكون فكسر) كما يقول اللسان . والشيء محذور ومحذور منه كما يقول الوسيط . وقد قلت في حرب الطائرات :

ويحتشها ربانهـــا ، فتطيعـــه وتصبح من جاراتها الانجم الزهر
تطير به عرشا ينيف على السها وان وقع المحذور ، فهي له قبر

مأثورات شعبية ، تراث شعبي ، فولكلور

ويخطئون من يطلق على ما يتركه السلف مـــن الفنون والآداب الشعبية ، اسمه المعرب : الفولكلور .

جاء في المجلد الرابع عشر من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية ، التـــي اقرتها لجنة الفـــاظ الحضارة « الفاظ الفنون » ، بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ووافق عليها مؤتمر المجمع ، في جلسته الثانية عشرة ، بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٧٢ ، في المادة رقم ٣٤ ، ان المؤتمر اطلق على ما تركه السلف من الفنون والآداب الشعبية ، اسم : المأثورات الشعبية والفولكلور .

وعندما ظهرت الطبعة الثانية من المعجم الوسيط ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عام ١٩٧٣ ، جاء فيها : « فلكلور : مأثورات شعبية ، او تراث شعبي (مجمع) .

تأثـم

ويخطئون من يستعمل الفعل تأثم (بفتح الثاء المضعفة) بمعنى : وقع في الاثم ، ويقولون ان معناه :

(١) كف عن الاثم وتجنبه .

(٢) تاب من الاثم واستغفر .

ويعتمدون على ما يأتي :

(أ) جاء في حديث ابن عباس : « كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز اسواقا في الجاهلية ، فلما كان الاسلام تأثموا من التجارة فيها ، اي : تجنبوا التجارة فيها » .

(ب) تأثم فلان : تحرج عن الاثم وكف (التهذيب ، والصحاح ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ، والمحكم ، والنهاية ، والمصباح ، والقاموس ، والمد) .

(ج) تأثم : تاب من الاثم (المحكم والقاموس) .

(د) يتأثم من كذا : يعتزله ، يتحنث منه (الصحاح والقاموس في مادة « حنث ») .

وفي الحديث انه كان يأتي غار حراء فيتحنث فيه .

وجاء في المد ، ومحيط المحيط ، والمتن ، والمعجم الكبير ، والوسيط .

(هـ) تأثم فلان : (١) كف عن الاثم وتجنبه .

تأثم من الشيء : (٢) تاب منه واستغفر .

ولكن : قال ابن الانباري في كتابه « الاضداد » : قد تأثم الرجل :

(١) اتى ما فيه المأثم (بفتح فسكون ففتح) .

(٢) تجنب المأثم .

والفعل تأثم عنده من الكلمات التي تحمل معنيين متضادين .

وانفراد ابن الانباري بقوله : (تأثم : اتى ما فيه المأثم) ، يجعلني انصح بعدم اللجوء الى استعمال الفعل تأثم بهذا المعنى ، دون ان نخطىء من يضطر الى استعماله ، لان ابن الانباري من اعلم اهل زمانه .

اخذت الكتاب ، اخذت بالكتاب

ويخطئون من يقول : اخذت بالكتاب ، ويقولون ان الصواب هو : اخذت الكتاب من فلان . وكلتا الجملتين صحيحة . والمعنى : تناولت الكتاب وامسكت به . ونقول :

(١) اخذ بيد فلان : اعانه وساعده .

(٢) اخذ بنفسه : غلبه وقهره . وفي حديث بلال يخاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، حين غلبه النوم : « اخذ بنفسي الذي اخذ بنفسك ، بأبي انت وامي يا رسول الله » . وقال جرير :

اذا اخذت قيس عليـك وخندق باقطارها ، لم تدر من اين تسرح

(٣) اخذ على يده : منعه عما يريد ان يفعله . وروي عن ابي بكر رضي الله عنه انه قال : « اني سمعت رسول الله يقول : ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، اوشك الله ان يعمهم بعقابه » .

(٤) اخذ على فمه : منعه من الكلام .

(٥) اخذ فيه الشراب : اثر فيه .

(٦) اخذ في العمل : بدأ فيه .

(٧) اخذ فلان يفعل كذا : جعل .

(٨) اخذ الشيء : حازه .

(٩) اخذ الحديث : نقله ورواه .

(١٠) اخذ العدو : اسره .

(١١) اخذ الداء فلانا : اصابه .

(١٢) اخذ مقعده ومضجعه : قعد ، ونام . وعن ابي سعيد الخدري في حديث له ، قال : « خذوا مقاعدكم ، فأخذنا مقاعدنا » .

(١٣) اخذ فلانا بلسانه : نال منه .

(١٤) اخذ فلانا بذنبه : عاقبه وجازاه .

وفي الحديث : « من اصاب من ذلك شيئا اخـذ (بضم الهمزة) به » . وقال كعب بن زهير :

لا تأخذني باقوال الوشاة ، ولم اذنب ، ولـو كثرت في الاقاويل

(١٥) اخذ على فلان الارض : ضيق عليه سبلها . قال جرير :

اخذنـا عليكـم عيـون البحـور وبـر البـلاد وامصارهـا

(١٦) اخذ عليه كذا : عده عليه وعابه .

محمد العدناني

في مطلع كل شهر
اطلبوا
الاديب
من الباعة والمكتبات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



محمد سليم رشدان

شاعر عبقر في اثاره الخالدة

بقلم محمد سليم رشدان

★ ★ ★

في تاريخنا الطويل ..

اشفق رجل من اعلامنا في الماضي على ما كان للعرب من تراثهم الاسطوري ان ينقرض ، فأقدم على تأليف كتاب سماه : « اصنام العرب » ، وهذا الرجل الغيور من اعلام ماضينا هو ابن الكلبي .

وشاء الله ان يتكرر ذلك في تاريخنا على نحو اجدى .

ويكون ذلك على يد الشاعر العبقري شفيق عيسى اسكندر المعلوف(١) ، وفي ملحمته الخالدة التي احتواها ديوانه « عبقر » في اناشيده ، التي بلغت اثني عشر نشيدا ، ومقدمته الشاملة الضافية ، عن : « الاساطير العربية » .

وفي هذا السفر القيم :

برزت الاسطورة العربية تراثا خالدا له وزنه ، وله قيمته التي لا تنتقص ، فاذا نحن مثل غيرنا لا نقصر في السبق عن اولئك الذين لهم تراثهم الخالد في علم الاساطير (الميثولوجيا) ، وتراثهم الذي طالما اعتدوا به ، وفاخروا به غيرهم من الاقوام .

ولن يضيرنا في حال من الاحوال :

ان يكون ميراثنا هذا يتكيء في كثير من المواقف على ما كان للامم المجاورة من ميراث . فيقتبس من الفرس واليونان والرومان والمصريين والفينيقيين والبابليين والهنود .. وغيرهم . فالمعرفة ملك الناس جميعا ، وفي شرعة الوجود ان يقتبسها الناس من بعضهم .

وكان الجهد الذي بذل في ملحمة (عبقر) عظيما ..

فلقد استطاع شاعرنا العبقري ، ان يغوص في اعماق الماضي على قلة ما بين يديه من المراجع ، في هذا المجال بوجه عام ، ثم على قلة ما تصل اليه يده من المراجع العربية وغير العربية ، وهو في مغتربه البعيد في اميركا الجنوبية . وان يلتقط بالمشقة البالغة جذاذات متفرقة من هنا وهناك ، كثيرا ما تتضارب من حولها الرواية ، وكثيرا ما تضطرب المسميات ، وكثيرا ما يجيء النص مبتورا مشوها ، لا حافز يستدرجه ، ولا دافع من ورائه ، ولا وازع يستحث منه الخطى ، ولا هدف واضح المعالم يمتد بين يديه ..

ورغم ذلك كله ..

وبفضل شاعريته المجنحة الخيال ، استطاع ان يضفي على تلك الجذاذات — بكل ما سلف من صفاتها — من وحي الهامه المبدع ، ما جعلها معه اناشيد رائعة اخاذة ، لا تقل في روعتها عن ذلك الذي نقراه في اساطير : الالياذة والاينيادا والشاهنامه وغيرها ..

فاستمع الى شفيق المعلوف في نشيده الاول ، وهو ينطلق بصحبة شيطان شعره ، ليزور معه وادي عبقر . فيرى فيه عالما من الجن والشياطين تسوسه عرافة ساحرة ، ترى بزجر الطير ما لا يرى ، وتؤجج المندل والعنبر لتمارس سحرها فيمن حولها .. الى ان يقول :

عبقر لغز الغيب ، ما وطئت ... اكنافها ، الا لاربابها
فقم وخض لجة ديجورها ... واعمل على تمزيق جلبابها
قم فترى كيف شياطينها ... تطل في عينيك من بابها
وكيف من فيك ثعابينها ... تنسل من فوهة سردابها
وانظر الى الغيلان في وجرها ... تصم اذنيك بتصخابها
حشد من الوحش كاتى به ... ترتع من نفسك .. في غابها

ويمضي مع شيطانه ، وقد حلق به في الجو ، ووجهته ذلك العالم المجهول بكل ما فيه من عجائب وغرائب الى ان يقول :

وانطلق الشيطان في الجو بي ... كانه النيزك او اسرع
حتى تهاوى بي الى موضع ... ما راقني من قبله موضع
غمائم زرق على متنها ... منازل .. جدرانها تسطع
تثور في ابراجها ضجة ... بها يضيق الافق الاوسع
فقال هذي عبقر ما ترى ... وضجة الجن الذي تسمع
جهاتها الاربع مرصودة ... تحرسها زعازع .. اربع

ثم يمضي في انشاده ليصف كيف رأى الابراج الهائلة ،

(١) ألقيت هذه الدراسة في المهرجان الادبي الذي اقيم في زحلة بلبنان في بداية صيف هذا العام في ذكرى الشاعر شفيق المعلوف .

وقد غص بها السهل والجبل هناك ، وكيف راى العفاريت هناك وهي كالنمل كثرة ، وبينهم اقزام الجن وهم يملأون سفوح الربا ، وجيشهم جرار قوي ، لا يغلبه غالب ، واذا ما ارادوا زحفا ركبوا اغرب المطيات ، وحملوا من السلاح كل عجيب غريب .

وينتقل الى النشيد الثاني ، وفيه يصف عرافة الجن في عبقر ، وفي اي وضع كانت هناك ، فيقول :

حوم شيطاني على عبقر ... يؤذنها بعوده .. وانحدر
وحط بي فيها .. فالفيتني ... امام شمطاء ، طواها الكبر
تلف ثعبانا على وسطها ... يكمن في نابيه .. كيد الغدر
مجامر الصندل من حولها ... نائب الجن عليها .. زمر
ودمدمت سخطا وقد هالها ... ان يقلق الارواح مرأى البشر
فيا لصوت .. خلت لما دوى ... ان اديم الارض تحتي انشعر

ويمضي يتحدث عن مشاهد عجيبة غريبة في وادي عبقر ، حيث يصف اميرة الجن ويطول به الوصف بما يستغرق معه النشيد الثالث كله ، وذلك خلال اغنية الجنية ، التي يبدع فيها ايما ابداع ، واخيرا ينتهي الى النشيد الرابع ، وفيه يتحدث عن (سرحوب) الاعمى صاحب السرداب ، الذي ينتهي منه الى سجين .. وبذلك يقول :

لوح (سرحوب) لنا بعد ما ... غادرنا في الضفة الثانية
وسرت في دربي مستشرفا ... وادي سجين .. على رابية
واد يمص الحر جدرانه ... كانما شبت به الغاشية
جهنم اختارته بابا لها ... واطلعت فيه على الهاوية
لاحت على القاحل من جرفها ... غراس زقوم بها نامية
تقوت ابليس واولاده ... فيصرفون الدهر في عافية

ثم يصف الوانا من الشياطين في سجين ، ومنهم (داسم) شيطان النقائص ، ثم (اعور) شيطان الشهوة ، ثم (زلنبور) شيطان المال ، ثم (مسوط) شيطان الكذب .

ثم ينتقل الى الحديث عن (الهوجل) و (الهوبر) واولهما شيطان الشعر الخبيث ، وثانيهما شيطان الشعر الصالح ، ويطول به الحديث عنهما وعما يمارسانه من ضروب الشعر ، ويستغرق ذلك منه النشيد السادس بأكمله .

وينتقل بعد ذلك الى النشيد السابع ، وفيه يتحدث عن رؤيا (امية بن ابي الصلت) ، الذي كان له قلب نبي ولسان شاعر ، وذلك ان طائرين شقا صدره ، وغسلا قلبه ، ولكنه استعصى على النبوة ، فأعاداه الى حيث كان ، واستفاق من ذلك الحلم ، دون ان يجد دما ولا جرحا .

وفي النشيد الثامن يتحدث عن حكمة الكهان ، ويبدأ بالكاهن (سطيح) ، الذي تقول عنه الاساطير بأنه كان جسما بلا عظم ، فيصفه قائلا :

في هوة الغيلان هل وقفة ... ارهب منها .. بين غول وجان
يهبط بي الشيطان بينا انا ... مشرد الابصار .. واهي الجنان
انى تلفت بغيطانها .. ... تحدجني عينان .. ناريتان
بسحنة غامضة تدقها ... عن انيب محددات السنان
فلم نزل حتى نزلنا على ... كهفين في بابيهما كاهنان
كانما اكسب جلديهما ... دم الضحايا صبغة الارجوان
الكاهن الواحد في وسطه ... مدية نار غمدها من دخان
مخلع جرد من عظمه ... مذ ربه قال له : كن .. فكان
رخو لو انف على نفسه ... لظلله فوق الثرى .. افعوان

وبعد ان يفرغ من الكاهن (سطيح) ، ينتقل الى الكاهن (شق) الذي كان نصف انسان ، فكان بذلك اعجوبة اخرى من عجائب الاساطير ، وقد اطلع على الغيب مثلما اطلع (سطيح) ، وفيه يقول :

والكاهن الاخر ذو خلقة ... لم يحبس الخالق فيها احد
قد شق من اعلى الى اسفل ... ولم يزل هيا بشطر الجسد
يمجد الله على خلقه .. ... بشق وجه ... مثل ويد
ما الدهر الا عبث خلده ... وليست الاجيال الا بدد
يا كاهن عبقر هل حكمة ... اعددها لضد بين العدد

ثم يمضي يسرد لنا نشيد الكاهن (سطيح) ثم نشيد الكاهن (شق) ، وفي النشيدين يتحدث كل واحد منهما عن حقيقة ذاته ، ويعلل هذه الحقيقة بما يظهر معه الرضا بقضاء الله فيه .

وينتقل الشاعر الى النشيد التاسع ، وفيه يتحدث عن (غابة الحور) ، ثم عن (ثورة في الجحيم) ، ثم عن نشيد هؤلاء الثائرات من حوريات الغابة ، ويعرض في هذا النشيد من الوصف الرائع لجمال الطبيعة ، وجمال الخلق والابداع في صنع اولئك الحوريات ما تتجلى معه شاعريته الملهمة .

وفي النشيد العاشر ، يتحدث عن العنقاء في خلقها الهائل ، وحجمها العظيم الذي يتجاوز في عظمه كل وصف ، ثم يتحدث عن طائر الرخ وشجرة النبوءات ، وفي ذلك يقول :

ودوحة باسقة خلتها ... ان لها الشهب وريقات
مناة والعزى تحوطانها ... وهبل الاكبر واللات
في عبقر مادت فمادت لها ... في عالم الانس .. خيالات
الرخ مشدود الى جذعها ... فما له هيهات .. افلات
كانما جذورها في الثرى ... لمخلب الرخ .. حبالات

ثم يمضي في وصفه لمحرقة الفينق ، الذي يحرق ذاته اذا افرخ ، ثم ينبعث ثانية من خلال الرماد ، ثم يصف تلك الاوكار الهائلة التي تعيش فيها تلك الطيور الهائلة كما تصفها الاساطير .

ويصل الى النشيد الحادي عشر ، وفيه يسرد اسطورة (نصر بن دهمان) ، الذي اعادته الاساطير بعد ان ادرك الشيخوخة الى الشباب ، فنبتت اسنانه ثانية ، وعادت اليه فتوته ، وكل ذلك بلمسة من (الشعرى الغميصاء) اخت (الشعرى اليمانية) التي عبرت المجرة لحاقا بحبيبها ، فسميت بذلك (العبور) وسميت اختها (الغميصاء) لبكائها الطويل حزنا على فراقها ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي هذا النشيد كذلك ، يتحدث عن اناهيد ، الفاتنة الحسناء التي احبها ذات يوم هبل الاكبر ، فاحتملها معه الى السماء ، لتطل على الناس من هناك ، باسم كوكب الزهرة . وفي ذلك يقول :

كانت اناهيد فتونا متى ... غفا بفرعيها الفتى يسكر
مر على خيمتها فارس ... تبارك الطيب الذي ينشر
فاختلجت للحب اعماقها ... واهتز منها الغصن المثمر
ثلاث ليلات نقضت كما ... لو هن ظل الرمح او اقصر
حتى اذا مالت باجفانها ... يد الكرى لطول ما تسهر
ايقظها ركض جواد جرى ... من بابها محمحما .. يدبر

وتهب على اثره مذعورة ملتاعة ، وتعدو لاهثة خلف جواده لعلها تلحق به ، وظلت تضرب في البيداء على اثره ، حتى انهكها السير ، وعند ذلك :

لاح لها من جانب المنحنى ... مارج نار ضوءه يبهر
وسيد كان محبوبها ... اطل من مقلته ينظر
صاح بها : ويك كفى وارجعي ... ما انا لا هبل الاكبر

ومضت اناهيد تستعطفه حتى رق لها قلبه ، وعند ذلك مال عليها قائلا :

حبك يا هذي كما شئته ... قلب السموات به اجدر
وغل في صدر العلى حاملا ... روح اناهيد لظى مسعر
وشع من بعد خلال الدجى ... على البرايا كوكب نير
تلك اناهيد لها من عل ... عين على اهل الهوى تسهر

وافتقد الناس بعد ذلك اناهيد الجميلة ، فاذا هي جثة هامدة وعيناها شاخصتان الى السماء ، واذا هي كما قال الشاعر :

يشخص في نجم العلى جفنها ... كانه بالنجم معقود
صاحوا : اناهيد .. وراح الصدى ... يزقو : اناهيد .. اناهيد
وكان في الارض لها ماتم ... وفي مقاصير العلى عيد

ثم يتحدث بعد ذلك عن نسور لقمان السبعة ، التي عاش بمقدار اعمارها حين حقق له رب الكعبة طلبته بها ، وكان آخرها (لبد) ومعناها الدهر . كما يتحدث بعدها عن شكاة خرافة ، الذي ضربت بحديثه الامثال لما فيه من افراط في الخيال .

ويصل اخيرا الى النشيد الثاني عشر ، وفيه يقف بالقارىء على حدود عبقر ، ثم يصف له رفات العبقريين هناك ، ثم يقف طويلا مع همس الجماجم ، ويصف ما تتحدث به عن احلام اولئك الشعراء ، التي ما زالت تحمل الى الناس الامل والاحلام العذاب .

ذلك هو ديوان عبقر ..

الذي حوى تلك الملحمة الخالدة ، فدون فيها لأمته ما غفل الناس عنه ، وابقى لهم فيها تراثا خالدا ، كان يحيط به من ضباب الاهمال ما يوشك ان يطمس آثاره ويخفى معالمه ، ويذهبه بددا دون ان يلتفت اليه احد .

وبهذا الجهد القيم

استطاع ان يسبق غيره الى انجاز له قيمته ووزنه ، فاستحق عليه من امته كل ثناء وتقدير .

ولم يكن ديوان عبقر هو كل ما وقع بيدي من آثار هذا الشاعر ، فلقد وصل الي ديوانه : « سنابل راعوث » ، وفي هذا الديوان طالعني شفيق المعلوف في معظم دواوينه : (نداء المجاذيف) و (لكل زهرة عبير) و (على سندات الخليل) و (عيناك مهرجان) . فقد اختار من هذه الدواوين كلها . وضمنه ديوان : « سنابل راعوث » ، مضافا اليه قصائد جديدة ما بين مترجم وموضوع ، وذلك الى جانب ما اختاره من ديوان (عبقر) .

وفي هذا الديوان تطالعك في صدره قصيدته : « نداء المجاذيف » التي يصف فيها الراحلين عن الوطن فيقول :

مجاذيف عبر اليم طاب لها صدى ... يرجعه صفق من الموج هادىء
متى رحن يشققن العباب تصاعدت ... من القعر تجري خلفهن اللآليء
يدفعن فتيانا تذريهم النوى ... على كل افق والرياح تناويء
فوالله ما ادري أعند وداعهم ... تئن الصواري أم تئن المرافىء
اطلوا بوجه من كوى السفن واجم ... كأني بهم دمع بكته الشواطىء

وفي هذه الصورة يسجل فيها اروع مشاعر الحنين التي يحس بها المواطن النازح ، وهو يغترب عن وطنه الى بعيد الآفاق ، وقد اطل على شواطئه الحبيبة من كوة السفينة بوجهه الواجم ، فكان في نظر ذلك الشاعر دمعة ذرفها الشاطىء ، فسالت بها مياه البحر . وهو في « غمامة هيروشيما » يسجل اروع مشاعر الانسان .

وفي قصيدة « نداء البعيد » يعتز بأمجاد لبنان ، من الملك (حيرام) ، الى (صيدون) وهي تشهر سيف الفتوح ، الى (ملكار) ينطلق من قلب (صور) يجوب البحار ، الى معاطف برفير صور مصبغة بالارجوان ، الى نور الحرف الذي شع من لبنان ، ودق علما عند كل بحر ..

وفي قصيدة (غرناطة) يفخر بأولئك البدو من ربيعة ومعز ، الذين انشأوا هناك من الحضارة ما تحدث عنه اشبيلية وقرطبة والمعاهد الزهر ، وطليطلة وغرناطة وسواها ، بل يحدث عنه قصر الحمراء والسقوف والجدر والفسيفساء الرائعة الى ان يقول :

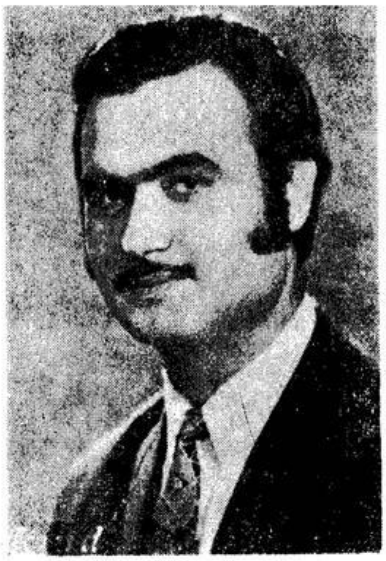
ابوابك الزهر من فتوحهم ... خطت عليها الآيات والسور
حروف مجد في رقوك اعتنقت ... كأنهن الرماح تشتجر

انه شفيق المعلوف الشاعر اللبناني العربي الانسان . الذي افتخر بلبنان ، كما فاخر بعروبته ، وبرزت مشاعره الانسانية الى جانب ذلك في كل مناسبة . ولسوف تبقى آثاره الخالدة ، وآثار امثاله من ادباء لبنان وفيهم والده واخوته ، سوف تبقى حاجزا منيعا في وجه كل دعوة الى غير سبيلهم الذي سلكوه .

فرحم الله شفيقا وطيب ثراه ، وله الخلود والبقاء فيما ترك من آثار قيمة ، وانها لجديرة بأن تخلد ذكره على الدهر .

عمان ــ الاردن (ص.ب ١٧٥٥) **محمد سليم رشدان**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



فوزي عطوي

القضاء الدولي والاقليمي

في ضوء تطور فكرة المسؤولية الدولية

بقلم فوزي عطوي

* * *

تمهيد : القضاء والمسؤولية الدولية

في عصر ما برح المجتمع الدولي فيه ينتهج سياسة السمك الكبير والسمك الصغير ، فيزرى اقوياؤه بحقوق ضعفائه ، ويجعلون لحوار المصالح والغرائز القدح المعلى على كل حوار صادر عن العقل والقلب ، يتساءل المرء حقا : الى اي مدى ترسخت فكرة المسؤولية الدولية ، ناهيك بقواعد الحقوق الدولية العامة ، في اذهان الدول ، حتى يستطيع ابناء البشر ان ينظروا بعين التفاؤل والامل الى المستقبل الآمن الذي طالما وعدتهم به المواثيق والعهود الدولية ، وحتى يعتقدوا بالتالي بجدوى القانون في مجال التعامل بين الدول ، او في مجال البحث عن حل سلمي عادل لفض المنازعات التي تنشب فيما بينها .

ولئن كان الانسان المعاصر يشعر بتلك الزئبقية المخيفة التي ترين على العلاقات الدولية ، فتعرض المجتمع الدولي لحرب باردة حينا او لحرب ساخنة حينا آخر ، او لحرب من النوعين معا في بعض الاحوال ، فهو رغم كل شيء ما يزال يحيا على امل ان تحل قوة الحجة محل حجة القوة ، وان تتعزز سيادة القانون الدولي عن طريق تعزيز فعالية القضاء الدولي والقضاء الاقليمي ، انطلاقا من حجر الزاوية الذي لا غنى عنه ، في علاقات الدول ، عنيت به الالتزام الكامل بالمسؤولية الدولية .

اننا ، اليوم ، نتطلع الى اعلى مستويات القضاء في لاهاي ، حيث تقوم محكمة العدل الدولية فنحس ذلك الاحساس الممتزج بلون من المباهاة الانسانية الرفيعة بأن دول العالم استطاعت ، ولو على الصعيد النظري ، ان ترسخ فكرة اللجوء الى القانون في حل منازعاتها ، بالطرق السلمية ، لكننا لا نلبث ان نشعر ، بعد قليل ، بغصة من يصدم الواقع المرير احلامه العذبة الكثيرة ، فنرانا منساقين انسياقا الى اعادة عجلة التاريخ القضائي الدولي القهقرى ، لنتبين مراحل تطوره ، والشوائب التي اعترت قيام مؤسساته ، والاسباب العميقة التي لا تزال تحول دون المزيد من فعاليته ، بحيث لم تستطع نداءات الحق في العالم ان تخرس ، في مكان ، اصوات المدافع .

فعلى ضوء ما تقدم سوف نلتزم في بحثنا هذا خطة دقيقة واضحة ، نحرص فيها على الايجاز قدر الامكان ، فنتناول بالبحث :

١ ــ فكرة المسؤولية الدولية .
٢ ــ المسؤولية الدولية والحلول السلمية التحكيمية للمنازعات .
٣ ــ المسؤولية الدولية والقضاء الدولي .
٤ ــ المسؤولية الدولية والقضاء التحكيمي : محكمة العدل العربية .
٥ ــ مستقبل القضاء الدولي .

اولا : فكرة المسؤولية الدولية

يتألف المجتمع الدولي ، بصورة رئيسية ، من الدول التي تتمتع بالحقوق وتلتزم بالواجبات ، من خلال تعاملها فيما بينها . وهي ، لهذا السبب ، تعقد الاتفاقيات وتبرم المعاهدات ، حرصا منها على حسن انتظام العلاقات الدولية ، ولا سيما متى استقر في قناعة كل منها ضرورة التلازم المطلق بين اقتضاء الحق واداء الواجب . لذلك كان كل اخلال من احدى الدول بواجباتها تجاه اشخاص القانون الدولي العام . وكل انتقاص من حقوقها ، الشرارة الاولى التي قد تؤدي الى قيام منازعات وحروب ، ان سهل تحديد بدايتها ، فمن الصعب جدا تحديد تاريخ لنهايتها ، وتجنيب العالم محاذيرها ومخاطرها ، فضلا عما تتركه من نتائج رهيبة ، وما تتسبب به من خسائر جسام في ارواح البشر وممتلكاتهم ، وما تصدعه من قيم مثلى جهدت الانسانية الجهد كله لتكريسها وتأكيد معانيها في ضمائر الشعوب .

الحقوق والواجبات الدولية

ومن المتفق عليه ان من اهم حقوق الدول : حق البقاء (الذي يشمل حق الدفاع الشرعي وحق منع التوسع العدواني) ، وحق الحرية ، وحق المساواة ، وحق الاحترام المتبادل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما ان من المتفق عليه كون اهم الواجبات القانونية للدول ، هي على العموم تلك التي اشير اليها في مشروع اعلان حقوق الدول وواجباتها الذي وضعته لجنة القانون الدولي التابعة لهيئة الامم المتحدة :

١ ــ مراعاة احكام القانون الدولي في علاقة كل دولة بغيرها .

٢ ــ تسوية الخلافات الدولية بالوسائل السلمية ، وطبقا لاحكام القانون والعدالة .

٣ ــ الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية او الخارجية للدول الاخرى .

٤ ــ الامتناع عن مساعدة اية دولة تلجأ الى الحرب او الى اي استخدام آخر غير مشروع للقوة ، وكذلك اية دولة تتخذ الامم المتحدة ضدها اجراء من اجراءات القسر .

٥ ــ الامتناع عن الاعتراف بأية زيادات اقليمية قد تحصل عليها احدى الدول نتيجة للحرب او اي استخدام غير مشروع للقوة .

٦ ــ الامتناع عن تشجيع الثورات الاهلية في اقاليم الدول الاخرى .

٧ ــ ضمان ان تكون الاحوال في اقليم كل دولة على نحو لا يهدد السلام والنظام الدولي .

٨ ــ معاملة جميع الاشخاص الخاضعين لولاية الدولة على اساس احترام حقوق الانسان والحريات الرئيسية لهم جميعا دون تمييز بسبب الجنس او اللغة او الدين .

٩ ــ تنفيذ الدولة بحسن نية لالتزاماتها الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي .

١٠ ــ عدم الالتجاء الى الحرب او اي استخدام غير مشروع للقوة .

يضاف الى ما تقدم ان ثمة واجبات ادبية تلتزم بها الدول ، وتقوم على فكرة العدالة او الانسانية او المجاملة ، ومنها :

١ ــ معاونة الدول التي تصاب باحدى النكبات الطبيعية كالوباء والزلازل والطوفان .

٢ ــ التعاون في مجال تحسين الاوضاع الصحية ، لتخفيف محاذير الاوبئة والامراض .

٣ ــ التعاون في مجال تحسين مستوى معيشة الافراد ، من الناحيتين المادية والروحية .

٤ ــ التعاون لصد موجات الاجرام وتسهيل عملية تبادل المجرمين .

٥ ــ ايواء السفن الاجنبية ، في حال هبوب زوابع واعاصير بحرية ، او في حال اصابتها بعطب ما .

٦ ــ مراعاة مبادىء الاخلاق العامة والايفاء بالوعود التي تصدرها الدول ، والاعتدال في ممارسة حقوقها او استخدام نفوذها .

ترتب المسؤولية الدولية

ونبادر ، بادىء ذي بدء ، الى التأكيد على ان اخلال الدول بواجباتها الادبية لا يؤدي الى اكثر من استهجان الراي العام العالمي ، او الى معاملتها بالمثل . ومن هنا انتفاء فكرة المسؤولية القانونية الدولية في حال الاخلال بمثل هذا النوع من الواجبات الادبية ، وبالتالي انحصارها في حالة الاخلال بالواجبات القانونية التي ذكرناها منذ قليل .

في ٢٦ تموز ١٩٢٧ ، اصدرت محكمة العدل الدولية الدائمة حكما جاء فيه(١) : « من مبادىء القانون الدولي ان كل اخلال يقع من دولة بأحد تعهداتها ، يستتبع التزامها بالتعويض الملائم ، وان هذا التعويض امر متلازم مع عدم القيام بالتعهد ، والالتزام به قائم من نفسه ، دون حاجة الى ان يكون منصوصا عليه في الاتفاق الذي يحصل الاخلال به » .

وبهذا الحكم انهى القضاء الدولي مسألة الخلاف الذي دار بين فقهاء الحقوق الدولية العامة حول التناقض بين سيادة الدولة ، بصورة مطلقة ، وبين تحملها للمسؤولية القانونية عن اعمالها .

لقد ذهب بعضهم الى ان الدولة ، بما لها من السيادة هي المرجع الصالح للفصل فيما يترتب على تصرفاتها ، وان اصلاح الاضرار او التعويض عنها ، مرده الى رغبة الدولة وحدها ، فهي التي تقوم به بمحض اختيارها .

بينما ذهب آخرون الى ان السيادة المطلقة غير واردة في المجتمع الدولي ، وانها فكرة تتناقض مع تنظيم الحياة الدولية ، اذ يصبح مؤداها السماح للدول بأن تفعل ما تشاء ، وتعتدي كما تشاء ، وتنتهك حرمة القانون وحقوق الغير كما تشاء ، دون ان يكون لاحد حق مناقشتها ، الحساب عن ذلك ، ودون ان يوقفها عند حدها سوى استعمال القوة .

والحقيقة التي لا شك فيها ان الدولة في مجال تحمل مسؤولياتها هي كالافراد سواء بسواء . ومسؤولية الفرد لا تترتب الا اذا توفرت له حريته ، وبالتالي فلا تكون مسؤوليته مترتبة الا بمقدار ما يكون حرا في تصرفاته . وكذلك الدولة ، فان مسؤوليتها لا تتناقض مع سيادتها ، لا بل هي على العكس نتيجة منطقية لتمتعها بالسيادة ، في حين ان الدولة ناقصة السيادة لا تترتب عليها المسؤولية الا بمقدار ما يكون لها من الحرية في اجراء التصرف .

ومن هنا ، افضاء المسؤولية عن الضرر الى الالتزام بالتعويض عنه . وقد تأكد هذا المعنى في نص المادة الاولى من المشروع الذي اعدته لجنة القانون الدولي التابعة للامم المتحدة اذ ورد فيها(٢) :

---

(١) الحكم الثامن ــ المجلد أ ــ ب من مطبوعات محكمة العدل الدولية الدائمة ، ص ٢١ .

(٢) الكتاب السنوي للجنة القانون الدولي ١٩٥٨ جزء ٢ ص ٧٣ الصادر عن هيئة الامم المتحدة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ان المسؤولية الدولية للدولة ، بسبب الاضرار التي تصيب اشخاص الاجانب واموالهم في اقليمها ، مؤداها الالتزام بتعويض هـذه الاضرار متى كانت نتيجة افعال ايجابية او مواقف سلبية منافية للالتزامات الدولية ، اتخذتها سلطاتها او موظفوها . ولا يجوز للدولة ان تحتج بنصوص قانونها الداخلي لكي تفلت من المسؤولية الناتجة عن الاخلال بالتزام دولي او عن عدم تنفيذه »(٣) .

عناصر المسؤولية الدولية

نستنتج مـن النص السابق ، ومن نصوص كثيرة غيره ، ان ترتب المسؤولية الدولية يقوم على اساس ارتكاب الدولة لعمل غير مشروع Acte illicite بالنسبة للقانون الدولي ، وهذا هـو اول عنصري المسؤولية الدولية . وارتكاب العمل غير المشروع قد يكون نتيجة افعال ايجابية ، اي القيام بعمل مخالف للقانون الدولي Commission ، وقد يكون نتيجة افعال سلبية ، اي الامتناع عن عمل كان يجب على الدولة ان تقوم به omission ، وهو ما يطلق عليه ، قانونا : « الارتكاب عن طريق الاهمال او الامتناع » .

واما ثاني العنصرين ، فهو ارتكاز المسؤولية الى الارتكاب غير المشروع بالنسبة للحقوق الدولية العامة ، لا بالنسبة لاي قانون آخر . ولا بد من الاشارة هنا الى انه لا عبرة للقانون الداخلي في هذا الصدد ، اذ قد يكون عمل الدولة متفقا مـع احكام قانونها الداخلي ولكنه مخالف لاحكام القانون الدولي . وفي هذه الحال ، يتفق الفقهاء على ان ذلك لا ينفي المسؤولية الدولية للدولة المرتكبة .

شروط المسؤولية الدولية

ولكن ، ما هي القاعدة القانونية التي تستند اليها المسؤولية الدولية ؟

ونسارع فنجيب : انها القاعدة ذاتها التي تستند اليها المسؤولية في القانون الخاص : ان هنالك ، اولا ، قاعدة فقهية شهيرة تقول : « لا ضرر ولا ضرار والضرر يزال » وان هناك ، ثانيا ، قاعدة قانونية خاصة تقول « ان كل فعل غير مشروع يتسبب عنه ضرر للغير ، يوجب التزام فاعله باصلاح هذا الضرر » .

على ضوء ذلك ، ينبغي قيام ثلاثة شروط لاجل ترتب المسؤولية الدولية :

١ ــ ان يكون ثمة ضرر جدي بحق دولة ما ، لا فرق في ذلك بين الضرر المادي ، كالاعتداء على حدود الدولة او احدى سفنها ، وبين الضرر الادبي ، كانتقاص احترامها ، او امتهان احد ممثليها .

٢ ــ عدم مشروعية العمل ، ايجابيا او سلبيا ، كما ذكرنا في موضوع عناصر المسؤولية ، اما اذا كان الضرر نتيجة لمباشرة الدولة احد حقوقها الطبيعية ، دون مـا تعسف ، وفي حدود القانون الدولي ، فلا مسؤولية دولية عليها آنذاك ، واما ما تقوم به الدولة ، اعمالا منها لفكرة الضرورة فالغالب هو القول بترتب مسؤوليتها والتزامها بالتعويض عما سببته من اضرار .

٣ ــ ان يكون ثمة خطأ صادر عن الدولة المشكو منها ، لا فرق في ذلك بين الخطأ المتعمد او الخطأ الناجم عن اهمال . واما اذا انتفى هذا الخطأ وكان الضرر بسبب قوة قاهرة ، او نتيجة خطأ من الدولة الشاكية نفسها ، فـلا تقوم المسؤولية على الدولة المشكو منها ، في تلك الحال(٤) .

اسناد العمل للدولة المسؤولة

وغني عن البيان انه لا فرق في قيام هذه المسؤولية ، وعند تحقق الشروط المذكورة ان يكون العمل صادرا عن الدولة من جراء اعمال تشريعية ، او اعمال قضائية ، او اعمال تنفيذية :

أ ــ اما مسؤولية الدولة من جراء الاعمال التشريعية ، فتتحقق كما في قيام المجلس التشريعي بسن قانون داخلي مخالف للقانون الدولي او الالتزامات الدولية ، او في احجامه عن سن قانون يلغي القانون الداخلي المخالف . وقد اشرنا في هامش سابق الى رأي محكمة العدل الدولية الدائمة بتاريخ ٤ شباط ١٩٣٢ بهذا الشأن .

ب ــ اما مسؤوليتها من جراء الاعمال القضائية ، فلأن استقلال القضاء هو مبدأ يشكل قاعدة داخلية وحسب ــ فليس لمحاكم دولة ما ان تخل بالمساواة في معاملة المواطن او الاجنبي ، طالمـا انهما يمثلان امامها ــ ويخضعان لاحكامها ، والا عد ذلك استنكافا عن الحق Deni de justice يعرض الدولة للمسؤولية الدولية(٥) .

وتأكيدا لهذا المعنى ، فقد جاء في المادة السادسة من قرار مجمع القانون الدولي في اجتماع لوزان ١٩٢٧ :

« تكون الدولة ايضا مسؤولة ، اذا كان في الاجراءات التي اتبعت امام قضائها او في الحكم الصادر منه ، اخلال ظاهر بالعدالة وعلى الاخص اذا كان الدافع على هذه الاجراءات او هـذا الحكم ، شعور الكراهية بالنسبة للاجانب بوصفهم كذلك او باعتبارهم رعايا دولة معينة بالذات » .

ج ــ واما مسؤولية الدولة ، اخيرا ، من جراء الاعمال التنفيذية ، فهي اهم واشهر انواع المسؤولية المترتبة على الدولة . وقد تترتب ، كما اوضحناه غير مرة ، بسبب القيام بعمل غير مشروع دوليا ، او الامتناع عن

(٣) في الرأي الاستشاري الصادر بتاريخ ٤ شباط ١٩٣٢ عن محكمة العدل الدولية الدائمة (قضية معاملة البولونيين المقيمين في دانزيغ) ورد ما يلي : « ولا يحق لدولة ان تتسلح ازاء دولة اخرى بدستورها الخاص كي تتملص من الالتزامات التي تفرضها عليها قواعد الحقوق الدولية او المعاهدات المرعية الاجراء » .

(٤) المرجع السابق : الكتاب الاول ــ ص ٥١٦ ــ ٥١٧ .

(٥) يراجع بحث بعنوان Charles de Visscher «Le déni de justice en droit international» في مجموعة محاضرات لاهاي (اكاديمية القانون الدولي) ١٩٣٥ ــ ج ٢ ــ ص ٤٠٣ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القيام بعمل متوجب ، دوليا ، متى ارتكبه احد موظفيها المدنيين او الدبلوماسيين أو العسكريين او احدى اداراتها او احدى مؤسساتها ، وذلك ايا كان مستوى الموظف المرتكب ، وسواء كان مرجعا مختصا او غير مختص ، وسواء كانت الحكومة فعلية او قانونية ، معترفا او غير معترف بها ، والشرط الوحيد هو كون العمل غير المشروع وظيفيا ، وليس شخصيا . اما النظرية القديمة فكانت توجب ان يكون العمل صادرا عن موظف كبير ، او عن مؤسسة ذات مستوى رفيع .

حالات المسؤولية الدولية

وسواء كان الضرر ناجما عن سلطة تشريعية او قضائية ، او تنفيذية ، وعن موظف كبير او صغير ، وعن مرجع صالح او غير صالح ، فيبقى ان للمسؤولية الدولية كما للمسؤولية الفردية ، حالتين اثنتين :

اولاهما : المسؤولية التعاقدية .

وثانيتهما : المسؤولية التقصيرية .

١ ــ اما المسؤولية التعاقدية ، فتكون نتيجة لاخلال الدولة بأحد التزاماتها التعاقدية التي التزمت بها مع الدول الاخرى ، بموجب المواثيق والمعاهدات الدولية . وقد سبق ان اشرنا في سياق هذا البحث ، الى الحكم الثامن الصادر عن محكمة العدل الدولية الدائمة والذي يتضح منه صراحة ان الالتزام بالتعويض يترتب حتى ولو لم ينص على ذلك في الميثاق او المعاهدة التي جرى الاخلال بأحكامها .

هذا بالنسبة لما تعقده دولة مع دولة .

اما ما تعقده الدولة مع الافراد ، فينبغي النظر فيه للصفة التي اتخذتها الدولة ، عند ابرامها العقد : فان كانت ارتبطت بالعقد ، بصفتها شخصيا معنويا عاديا ، فلا تثار مسؤوليتها الدولية ، ويبقى القضاء العادي هو المرجع الصالح للنظر في الخلاف بينها وبين الافراد . اما اذا ارتبطت الدولة بالعقد بصفتها سلطة عامة ، فمسؤوليتها الدولية مترتبة حكما .

وقد تأكد هذا المعنى في نص المادة ٧ من مشروع لجنة القانون الدولي (وقد اشرنا اليه من قبل) ، اذ ورد في فقرتها الاولى :

« تسأل الدول عن الاضرار التي تصيب الاجنبي نتيجة عدم تنفيذ الالتزامات المتفق عليها ، في عقد مبرم مع هذا الاجنبي او في امتياز منحته اياه الدولة ، اذا كان عدم التنفيذ هذا يصل الى حد اعتباره فعلا او امتناعا مخالفا للالتزامات الدولية للدولة » .

٢ ــ واما المسؤولية التقصيرية ، فتكون نتيجة الافعال التي تقع من احدى السلطات او الهيئات العامة في الدولة ، اخلالا بأحكام القانون الدولي العام ، حتى ولو تعارضت كما اوضحنا من قبل ، مع احكام القانون الوطني .

واذا كان من المتفق عليه ان هذه المسؤولية مترتبة ، عند ثبوت قيام الموظفين او المؤسسات بالعمل غير المشروع . فما هو مدى ترتب هذه المسؤولية على الدولة اذا قام بالعمل ذاته ، بعض الافراد الذين لا صفة رسمية لهم ؟ .

بديهي ان امثال هؤلاء لا يعملون باسم الدولة ، ولا لحسابها وارتكابهم يكون شخصيا لا وظيفيا ، وبالتالي فلا مسؤولية دولية على الدولة الا اذا ثبت ان تشريعها يخلو من نصوص تعاقب على القيام بالاعمال المشكو منها او اذا كان في تشريعها نص صريح ، ولكنها اهملت البحث عن الفاعل لمحاكمته ، او لم تيسر للجهة المجني عليها سبيل الوصول الى التعويض عما لحقه من اضرار(٦) .

ولكن على الرغم من ان المادة العاشرة من مشروع لجنة القانون الدولي التابعة للامم المتحدة تنص على ان « تسأل الدولة عن الاضرار التي تصيب الاجانب نتيجة افعال الافراد اذا كانت سلطاتها او موظفوها قد اهملوا اهمالا ظاهرا في اتخاذ الاجراءات التي تتخذ عادة لمنع او عقاب مثل هذه الافعال » .

فان المادة الثالثة من قرار مجمع القانون الدولي (لوزان ١٩٢٧) نصت على انه « لا تسأل الدولة عن الاعمال الضارة التي تقع من الافراد الا اذا كان الضرر ناشئا عن تقصيرها في اتخاذ الوسائل المناسبة التي يلجأ اليها عادة في الظروف المماثلة لمنع مثل هذه الافعال او للعقاب عليها » .

وايا ما كان موقف فقهاء القانون الدولي العام بهذا الشأن ، فيبقى ان نشير الى ان ثمة حالة خاصة ، بالنسبة للمسؤولية التقصيرية المترتبة على الدولة ، وهي حالة قيام ثورة او قيام الحكومة بقمع الثورة ، ومن جراء ذلك ترتب ضرر على الاجانب المقيمين فيها او المارين بها . وقد اتفق الاجتهاد على ان الدولة لا تسأل عن هذه الاعمال لان الثوار لا يرتبون على الدولة مسؤولية ، وقمع اعمال الثوار حق طبيعي للدولة في المحافظة على بقائها ، ولا يجوز ان يتمتع الاجانب بامتيازات لا يتمتع بها رعايا الدولة انفسهم . لكن ذلك لم يمنع الدول من دفع بعض التعويضات في مثل تلك الاحوال بدافع الانسانية والرحمة(٧) .

غير انه ، اذا اعترفت الدولة للثوار بصفة المحاربين ، فيصبحون هم المسؤولون تجاه الدول الاجنبية عما يصدر عنهم من اعمال مخلة بقوانين الحرب ، وكذلك الامر اذا صدر الاعتراف لهم بتلك الصفة من جانب دولة او دول اجنبية .

لا مسؤولية دولية قبل استنفاد طرق المراجعة القضائية

وفي كل حال ، فقد استقر الرأي على ان ثمة اجتهادا

---

(٦) القانون الدولي العام للدكتور علي صادق ابو هيف ــ منشأة المعارف بالاسكندرية طبعة ١٩٦٠ ــ ص ٢٥١ ، بند ١٤٠ .

(٧) وهذا ما فعلته الولايات المتحدة الاميركية بعد حرب الانفصال الاهلية ــ وفرنسا واسبانيا في المغرب عام ١٩٠٧ ومصر بعد حوادث الاسكندرية عامي ١٨٨٢ و ١٩٢١ .

دوليا ثابتا يرسخ القاعدة القائلة بأن الادعاء بالمسؤولية الدولية هو ذو صفة احتياطية ، بمعنى ان هذا الادعاء يكون مرفوضا في الشكل ، اذا لم تكن الجهة المدعية قد عمدت الى استنفاد كافة الطرق القضائية التي تخولها القوانين المحلية ولوجها من اجل الاعتراف بحقوقها(٨) وقد تكرس هذا الاجتهاد في كثير من القرارات الدولية ، نخص بالذكر منها قرار اللجنة التحضيرية لتقنين الحقوق الدولية المجتمعة في لاهاي عام ١٩٣٠ .

آثار المسؤولية الدولية

اما وقد تحققنا من كون الاتجاهات الفقهية جميعا تصب في مكان واحد ، وهو تأكيد المسؤولية الدولية ، فيبقى ان نشير الى ان اهم آثار هذه المسؤولية هو اصلاح الضرر والتعويض عنه ، وقد يتم ذلك باحدى وسيلتين :

١ ــ اما اعادة الحال الى ما كانت عليه قبل وقوع الضرر .

٢ ــ واما بدفع التعويض المناسب وفقا للقواعد العامة للموجبات .

وفي حال عدم الاتفاق بين الدولتين المعنيتين على مقدار التعويض ، امكنهما عرض القضية على التحكيم الدولي او القضاء الدولي . وفقا لاحكام المواد ٣٣ و ٣٦و ٩٤ من ميثاق هيئة الامم المتحدة .

وفوق التعويض المادي ، تعمد الدولة المشكو منها عادة الى تقديم تعويضات ادبية اذا صح التعبير ، ومنها :

١ ــ الاعتذار الى الدولة المتضررة بالطريقة الديبلوماسية .

٢ ــ التصريح علنا بعدم اقرارها للعمل المشكو منه ، اذا كان صادرا عن احد موظفيها .

٣ ــ فصل الموظف المرتكب للعمل غير المشروع ومحاكمته .

وعلى هذا الاساس ، تستقر العلاقات الدولية وتنتفي اسباب قيام المنازعات او الحروب بسبب التضارب بين المصالح ، او الانتقاص من الحقوق المقررة لها ، وفقا لقواعد القانون الدولي العام .

ثانيا : المسؤولية الدولية والحلول السلمية التحكيمية للمنازعات

لا ريب في ان انتظام دول هذا العالم الواسع في هيئات دولية او اقليمية ، هو ظاهرة مشجعة تؤكد حرص المجتمع الدولي على توثيق افضل روابط التعاون والعمل المشترك في سبيل تحقيق الامن والعدل والرفاهية بين الشعوب ، عن طريق مختلف انواع الاتفاقيات والمعاهدات والمواثيق التي تعتبر الاداة الطبيعية للعلاقات الدولية ، كما تعتبر من اهم مصادر الحقوق الدولية العامة الى جانب العرف الدولي ، والبيانات الدولية ، ومقررات الهيئات الدولية وتوصياتها ، واجتهاد المحاكم الدولية والاقليمية ، واجتهاد المحاكم الداخلية ، وآراء الفقهاء ، ومبادىء العدل والانصاف .

لسنا هنا لنبحث في مصادر القانون الدولي العام او في تصنيف المعاهدات والمواثيق الدولية ، وان تكن كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بموضوع دراستنا . لكننا نحب ان نخلص من ذلك الى القول بأن نشر السلام في ربوع هذا العالم هو مطلب حيوي لكافة الشعوب ، وهو يقوم على اساس الاحترام المتبادل لسيادة كل دولة ، والحرص الكامل على قواعد التعامل فيما بينها ، بهدف تحقيق العدالة والمساواة والخير المشترك .

لذلك كله ، ترتبت للدول حقوق ، وترتبت عليها واجبات ، وكان من جراء تلك الحقوق والواجبات معا ، ترسيخ فكرة المسؤولية الدولية ، في عصر خطا التنظيم الدولي فيه خطوات واسعة لم تترك مجالا للحديث على السيادة المطلقة للدولة ، بحكم كونها عضوا من اعضاء المجتمع الدولي .

ولو كانت دول العالم تحترم توقيعاتها على العهود والمواثيق والمعاهدات ، وتلتزم بما يفرضه انتشار السلام في ربوع الدنيا من احترام لقواعد العدالة والمساواة والخير المشترك ، لتحققت « ارض الاحلام » السعيدة التي داعبت خاطر افلاطون في « الجمهورية » والفارابي في « المدنية الفاضلة » وصموئيل بتلر في « ارون » وتوماس مور في « يوتوبيا » وهربرت جورج ولز في « يوتوبيا الحديثة » ووليم مورس في « ابناء الارض التي لا وجود لها » وخليل رامز سركيس في « ايام السماء » و « ارضنا الجديدة » .

لكن المجتمع الدولي ما يزال ، مع الاسف الشديد ، ينتهج سياسة السمك الكبير والسمك الصغير . ما يزال هذا المجتمع ، رغم معرفته بواجباته ، يعمي عينيه الا عن حقوقه وعما يتعدى تلك الحقوق . ما تزال قوة الحجة فيه دون مقام حجة القوة . ما تزال شرائعه وتشريعاته ، وقوانينه ، ومثله ، ونداءات العقل فيه تتهاوى عند انطلاق اول قذيفة من مدافعه ، ودباباته وسفنه ، وطائراته ، وصواريخه . حتى لقد اصبح انسان هذا العصر ينظر الى ما تواضع المجتمع الدولي عليه من قوانين ونظم ، فلا يستطيع ان يقنع نفسه ــ وليته يستطيع ــ بأن تلك القوانين والنظم المكرسة في نصوص دولية لا تعدو كونها حبرا على ورق ، او اكاذيب واضاليل تصدقها الدول الصغيرة المستضعفة وشعوبها المغلوبة على امرها ، بينما تضرب بها الدول القوية عرض الحائط ، بل هي تتحدى بها وجه الارض والسماء .

الميثاق والدعوة الى الوسائل السلمية لحل المنازعات

ومع كل هذا ، فقد حاول المجتمع الدولي ان يتلمس الطريق السوي الى مواجهة ما يقوم بين الدول من منازعات تختلف دوافعها وبواعثها ، لكنها ان لم تحل بالطرق السلمية

(٨) الحقوق الدولية العامة للدكتور فؤاد شباط ــ منشورات جامعة دمشق ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ ــ الطبعة الخامسة ــ الصفحة ٢٢٩ .

ادت كلها الى الخراب والدمار ، وعلى ضوء ذلك ، نصت المادة الثانية من ميثاق الامم المتحدة على ما يلي : « يفض جميع اعضاء الهيئة منازعاتهم الدولية بالوسائل السلمية على وجه لا يجعل السلم والامن والعدل الدولي عرضة للخطر » .

ولم يترك الميثاق حبل « الوسائل السلمية » على غاربه ، بل حددها في المادة ٣٣ منه بما يلي : « يجب على اطراف اي نزاع من شأن استمراره ان يعرض حفظ السلم والامن الدولي للخطر ان يلتمسوا حله ، بادىء ذي بدء بطريقة المفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية او ان يلجأ الى الوكالات والتنظيمات الاقليمية ، او غيرها من الوسائل السلمية التي يقع عليها اختيارها » .

التوفيق : واذا كان لا يهمنا ، في نطاق بحثنا هذا سوى الوسيلتين الاخيرتين : التحكيم والتسوية القضائية ، فاننا لا نستطيع ان نتجاهل بأن « التوفيق » يعتبر نوعا حديثا من انواع الوساطة ، وطريقا وسطا بينها وبين التحكيم والقضاء . وقد راج لدى العديد من الدول ، بعدما نبهت اليه عصبة الامم عند بدء تكوينها ونص عليها كثير من المعاهدات الثنائية والعامة(٩) .

وتتولى التوفيق لجان خاصة اطلق عليها اسم « لجان التوفيق » تشبه في تكوينها « لجان التحقيق » وتشمل مهمتها فضلا عن تحقيق المسائل التي يقوم عليها النزاع ، اقتراح حل لهذا النزاع يمكن ان يرتضيه الطرفان المتنازعان(١٠) .

وقد تناولت موضوع التوفيق هذا ، احكام ميثاق التحكيم العام الذي وضعته « عصبة الامم » في ٢٦ ايلول ١٩٢٨ ، والمعروف باسم « ميثاق جنيف العام » .

والملاحظ ان لجان التوفيق ، وان كانت عظيمة الشبه بهيئات التحكيم او القضاء ، من حيث مهماتها ، الا انه ليس لقراراتها اية صفة الزامية للدولة صاحبة العلاقة التي يبقى لها مطلق الحرية في انفاذه او رفضه ، وذلك خلافا للقرار التحكيمي او للحكم القضائي وكلاهما ملزم لاطراف النزاع .

ومع ذلك ، فيرى بعضهم ان اسلوب التوفيق اتاح امكانات اوسع مدى من القضاء لكنها تبقى بعيدة المتناول .

الحلول القضائية : واما الحلول القضائية ، فانها تنقسم الى نوعين :

١ ــ قرارات التحكيم الدولي .

٢ ــ الاحكام القضائية الصادرة عن محكمة دولية .

التحكيم الدولي : يمكننا اولا تعريف التحكيم الدولي بأنه النظر في نزاع بمعرفة شخص او هيئة يلجأ اليه او اليها المتنازعون مع التزامهم بتنفيذ القرار الذي يصدر في النزاع(١١) .

ويهدف التحكيم الدولي الى تسوية المنازعات بين الدول على يد قضاة تنتخبهم هذه الدول ، وعلى اساس احترام الحق(١٢) .

والفرق بين التحكيم والتوفيق يعود الى ان الموفق او الوسيط تقف سلطته عند حد العرض والاقتراح ، اما المحكم ، فسلطته هي كسلطة القاضي وقراره له ما للحكم القضائي من صفة الفرض والالزام .

اما الفرق بين التحكيم والقضاء ، فيعود الى ان الدول المتنازعة تختار المحكمين بينما لا خيار للدول في تسمية القضاة الذين يفصلون في المنازعات التي تقوم بينها .

ويعود التجاء الدول الى التحكيم لتسوية ما يثور بينها من منازعات الى تاريخ قديم ، اذ كان للمدن اليونانية القديمة مجلس دائم للتحكيم يدعى Amphyetion كما نجد الدول المسيحية تلجأ في القرون الوسطى ، الى تحكيم البابا فيما يثور بينها من منازعات ، او الى تحكيم امبراطور « الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة » ، باعتبار ان الامبراطور والبابا كانا يعتبران ، في ذلك الزمان ، رئيسين لا منازع لهما ، لبقية رؤساء الدول .

وبعدما قامت سلطة امراء الاقطاع ، واصبح كل امبراطور اميرا لمملكته ، في القرن السادس عشر ، اصبح الامير هو المرجع الذي يعهد اليه بالتحكيم .

هيئات التحكيم الخاصة : وفي مرحلة تالية ، بدأت الدول المتنازعة تلجأ الى هيئات تحكيم خاصة ، بدلا من اللجوء الى الافراد ، مثلما حصل بالنسبة لحسم الخلافات بين انكلترا والولايات المتحدة الاميركية على الحدود الفاصلة بين هذه الاخيرة وكندا .

واخيرا قام التحكيم القضائي بمناسبة ارسال الانكليز الباخرة الحربية « الاباما » لمساعدة ثوار الجنوب في حرب الانفصال الاميركي ، فأقامت الولايات المتحدة الدعوى امام محكمة التحكيم في جنيف استنادا الى نص معاهدة واشنطن التي وقعتها في ٨ ايار ١٨٧١ ، فحكمت هذه المحكمة على بريطانيا باداء تعويض مادي جسيم .

محكمة التحكيم الدائمة

وعندما انعقد مؤتمر لاهاي الاول عام ١٨٩٩ اتفقت الدول المؤتمرة على تأسيس « محكمة التحكيم الدائمة » التي يرمز اليها بحروف C.P.A. وجعلت مقرها في مدينة لاهاي . ثم جرى تنظيم المحكمة وتحديد اصول العمل لديها ، في مؤتمر لاهاي الثاني عام ١٩٠٧ .

واذا رجعنا الى النصوص المنظمة للمحكمة المذكورة ، وجدنا انها لا تؤلف « محكمة » ولا هي « دائمة » وانه ليس

---

(٩) القانون الدولي العام للدكتور سامي جنينة ، القاهرة ١٩٣٨ ــ ص ٥٧٣ و ٥٧٤ .

(١٠) القانون الدولي العام للدكتور علي صادق ابو هيف ــ الاسكندرية ١٩٦٠ ــ ص ٦٤٦ ــ بند ٤٠٨ .

(١١) القانون الدولي للدكتور علي صادق ابو هيف : ص ٦٤٨ .

(١٢) المادة ٣٧ من معاهدة لاهاي لعام ١٩٠٧ .

لها من صفتي المحكمة والدوام غير الاسم(١٣) وسبب ذلك :

اولا : ان اختصاصها اختياري بحت وللدول المتنازعة ان تحتكم الى اية هيئة اخرى تختارها ، دون هذه المحكمة .

ثانيا : ان تكوينها ليس على سبيل الدوام والانتظام ، كما هي حال « المحكمة » فهي ليست مكونة من عدد معين من القضاة ، موجودين على الدوام او خلال فصل قضائي محدد في مقر المحكمة ، بل هي مجرد قائمة بأسماء اشخاص من رجال القانون تنتخبهم الدول الموقعة على اتفاقية لاهاي الاولى لمدة ست سنوات قابلة للتجديد .

قواعد التحكيم الدولي

ثمة قواعد منبثقة عما استقر عليه التعامل الدولي ، ينبغي ان يخضع لها التحكيم الدولي ، وهي تتلخص فيما يلـي :

١ ــ من حيث الاساس : يستند التحكيم الى الارادة التي تبديها الدول في صك خاص ، يسمى « اتفاق التحكيم » والا اعتبر الحكم باطلا ، لان ما يبنى على الفساد فهو فاسد .

٢ ــ من حيث الموضوع : ينحصر التحكيم الدولي في رؤية المنازعات الحقوقية كتفسير المعاهدات ، وتنفيذ او تحديد صحة الوقائع او تعيين قيمة الضرر الناشيء عن العمل غير المشروع الذي ارتكبته احدى الدول .

٣ ــ من حيث اختصاص المحكمين : ان اتفاق التحكيم ذاته هو الذي يحدد اختصاص المحكمين ، ويكون لهؤلاء المحكمين حق البت في اختصاصهم ، من دون تجاوزه والا كان حكمهم باطلا .

٤ ــ واخيرا من حيث الاصول المتبعة في التحكيم ، فهي الاصول الخطية ، ونادرا ما تكون شفهية ، ويصدر القرار التحكيمي وفقا للاشكال القضائية وللمخالف ان يدرج مخالفته للقرار المتخذ .

الزامية قرار التحكيم

ان القرار التحكيمي يصدر بالاغلبية (ومن باب اولى يمكن صدوره بالاجماع) .

ويجب ان يكون قرارا معللا ــ وهو يتلى في جلسة علنية ، بعد النداء على الخصوم وان لهذا القرار قـوة الاحكام القضائية ، فيكون حكما نهائيا ، وملزما للطرفين ، ولا يجوز طلب اعادة النظر فيه الا في حالة واحدة فقط هي حالة ما اذا استجدت ظروف كان من شأنها ان تجعل القرار يصدر بشكل آخر لو انها كانت معلومة للمحكمين ، قبل اصداره ، وبشرط ان يكون قد نص على ذلك في اتفاق الاحالة على التحكيم .

وهذه الاحالة هي شبيهة باحدى الحالات التي يجوز فيها الطعن بقرار مجلس شورى الدولة في لبنان ، عن طريق طلب اعادة المحاكمة ، او كمـا يسميها القانون اللبناني : فتح المحاكمة .

واما تنفيذ القرارات التحكيمية ، فهو خاضع لشرف الدولة المحكوم عليها ، وهذا الامر وارد ليس بالنسبة للقرارات الدولية ، بل لاحكام المحاكم الوطنية التي تصدر بحق الدولة فقط .

تقييم التحكيم الدولي

ان التحكيم هو في الاصل عمل اختياري ، تلجأ اليه الدولة المعنية بملء اختيارها ، وبما لها من سيادة ، فلا يتيسر والحال هذه ان يفرض عليها اللجوء الى هذه الوسيلة السلمية القانونية لفض نزاعاتها مـع الدول الاخرى ، بصورة الزامية . لكن رواج التحكيم ، خلال القرن التاسع عشر ، وما اسفر عنه من نتائج طيبة ، جعل الباحثين في الحقوق الدولية العامة يتجهون وجهة توسيع دائرة التحكيم الدولي وتعميمه ، وجعل الالتجاء اليه ذا صفة الزامية بمعنى ان تبادر الدول الى الاتفاق مقدما (ودون ان يكون هناك نزاع فعلي بينها) على اللجوء الى التحكيم ، في حالة قيام مثـل هذا النزاع ، وعـدم امكان تسويته بالطرق الديبلوماسية ، فمثل هذا الاتفاق يكون بمثابة تعزيز للتحكيم الالزامي والتزام الدول به يكون التزاما تعاقديا تقبله بمطلق ارادتها .

وهكذا نصت الدول في الكثير مـن المعاهدات التي تبرمها على الالتزام بالتحكيم الالزامي في كل نزاع ينشأ عن تطبيق او تنفيذ تلك المعاهدات .

ثـم ما لبثت ان خطت خطوة جديدة ، اذ ابرمت معاهدات خاصة بالتحكيم في جميع المنازعات ذات الصبغة الحقوقية . وبعد ذلك ، بذلت جهود كبرى في مؤتمري لاهاي الاول (١٨٩٩) والثاني (١٩٠٧) لتقرير التحكيم الالزامي . لكن بعض الدول لم يكن متحمسا للفكرة . فلم يسفر الامر الا عن تصريح تضمنته مقدمة البروتوكول الختامي للمؤتمر الثاني ، اعلنت فيه الدول المشتركة في المؤتمر :

١ ــ الاعتراف بمبدأ التحكيم الالزامي .

٢ ــ تقرير وجود منازعات معينة ، وخصوصا ما تعلق منها بتفسير وتطبيق الالتزامات التعاقدية الدولية ، جديرة بالعرض على التحكيم الدولي دون اي قيد وبهذا الموقف سجلت الدول المشتركة في مؤتمري لاهاي خطوة تراجعية ، في مجال الاعتراف بضرورة تحمل المسؤولية الدولية الكاملة ، وبالتالي الالتـزام بالقرارات التحكيمية الدولية .

فهل كان حظ القضاء الدولي اوفر من حظ التحكيم الدولي ، في مجـال ترسيخ الالتزام الجدي بالمسؤولية الدولية ؟

هذا ما سوف نجيب عليه في المباحث التالية .

فوزي عطوي

---

(١٣) الحقوق الدولية العامة للدكتور فؤاد شباط ص ٥٨٩ ، والقانون الدولي العام للدكتور علي صادق ابو هيف .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فـــــراق

◎

آه سافرت ! ! فاستفامت جروحي وادلهم الظلام في عمق روحي
وتنزى لدى الفراق فؤادي كاختلاجات طائر مذبوح
آه سافرت ! لم تودعك عيناي بدمع من مهجتي مسفوح
لم أكحل عيني بالنور أنداء ترشينها ، فتبرا قروحي

لم سافرت ؟ فيم خلفت قلبي يتلظى أسى ، يذوب هياما
يزرع الكون باحثا عنك يعدو في لهاث يسابق الاعواما
حائرا ، والها كأم توارى طفلها في الدجى فخرت حطاما
أين سافرت يا بحيرة آمالي علام ارتحلت آه علاما ؟

كيف لم تنثري على افق روحي نغمات من الوداع الاخير
رحت .. لا بسمة تبرد آهاتي ، وترسي الضياء في ديجوري
فاذا القلب صرخة رجعتها شهقات الارواح عبر الدهور
واذا الكون صفحة من دموع سطرتها رعشات قلبي الكسير

واشقائي ! لقد تحولت ذكرى تحتسي من صميم روحي الدماء
همسك الناعم الطريب أأنسى دفئه ، والفؤاد منه أضاء
وجفون نواعس أي سر في حنايا رفيفها يتراءى
وابتسام كأنما صب من قدس طهور ، كأن فيه السماء

أي ذكرى خلفت يا فجر أحلا مي ، ويا ليل شقوتي وشجوني
أحنين يهز أعماق أعماقي ، فاعدو اليك كالمجنون
أنحيب يؤج في غور قلبي أصراخ يقتات ضوء سكوني
أضباب من الهموم يغشي مقلتي .. يا لبؤسي المشحون

كيف في لحظة تريق كؤوسي الطافحات الرؤى أكف الفراق
ويخط الزمان في صفحة البؤس سطورا عن قلبي الخفاق
آه لم أرتشف من الحب الا حسرات وأدمعا في المآقي
وحنينا كالموج يهدر في قلبي ، ويذرو اللهيب في أعماقي

سفر حبي دقائق كومتني مزقا فوق راحة الاعوام
نظرات ، سلافة عصرتها شفتاها من بسمة وكلام
ووداع كانه حشرجات الروح تسري في لجها أيامي
وفراق كانه الموت يجتاح سكوني المصبوغ بالآلام

آه سافرت ! هل تعودين للقلب ضياء مخضوضر البسمات
هل تعودين أحتسي من سواقي مقلتيك الحياة والامنيات
هل تعودين تزرعين حنايا مهجتي بالكلام والهمسات
هل تعودين ؟ ان روحي تناديك ، فعودي لموئلي ، يا حياتي

درعا ــ سورية غازي الناصر

عبد القادر عياش المؤرخ والفولكلوري

بقلم حسان الكاتب

* * *

فقدت سورية في الثامن من شهر حزيران ١٩٧٤ بحاثة فولكلوريا ومؤرخا فراتيا فذا ، نذر حياته كلها للتعريف بمسقط رأسه دير الزور (عام ١٩١١) وخصها بكتاباته ودراساته وجل مؤلفاته التي بلغت حوالي /١٤٠/ مؤلفا وكراسا وبحثا ودراسة ، كما اوقف على دراسة وادي الفرات مجلته « صوت الفرات » منذ عام ١٩٤٥ حتى رحيله عن هذه الدنيا . كما انشأ متحفا للتقاليد الشعبية في بيت ضم آثارا وتحفا فراتية . ولقد كان هذا المتحف موضع اعجاب وتقدير الزوار القادمين لمنطقة الفرات .

واذا كان البحاثة الراحل لم يلق تشجيعا في حياته ، فنأمل من المسؤولين في سورية ان يرعوا آثاره بعد وفاته ويتبنوا هذا المتحف رسميا ويوسعوه ويطلقوا اسمه عليه .

كما ان البحاثة الراحل ترك اثرا مخطوطا هاما بعنوان « معجم الكتاب السوريين في القرن العشرين » وقد ذكر لي قبل وفاته بأنه ضم ترجمة حوالي (٣٠٠) كاتب عربي سوري ولقد توطدت صلته مع الكتاب والمؤلفين السوريين عن طريق هذا المعجم ، لانه تعرف على معظمهم لدراسة تراجمهم كما تعرفوا عليه بهذه الطريقة . ولقد مضى عليه ثلاث سنوات وهو يعد هذا المعجم . وحبذا لو عمد اتحاد الكتاب او وزارة الثقافة في القطر العربي السوري الى طبع هذا الاثر القيم .. لانه ضم جهدا ضخما للبحاثة الراحل .. كما انه يعتبر من المراجع الهامة عن الحركة التأليفية السورية في القرن العشرين .

ولو استعرضنا حياة البحاثة الراحل لوجدناها مليئة بجلائل الاعمال . فقد تخرج في كلية الحقوق بجامعة دمشق عام ١٩٣٥ وعمل في الادارة والقضاء ، وحرص على الاسهام بنشر الثقافة في بلده فكان يلقي المحاضرات في النوادي والمتنزهات العامة ، واسس نادي « البيت الثقافي » بدير الزور سنة ١٩٤٤ واداره ، وكان يلقي فيه محاضرات في تاريخ دير الزور ووادي الفرات .

والاستاذ عياش من هواة زيارة الآثار القديمة ، فقد زار العديد من المعالم الاثرية في البلاد العربية والعالم ، واسس جمعية العاديات في دير الزور سنة ١٩٥٨ وانشأ مركزا للدراسات التاريخية والجغرافية بدير الزور بنفس السنة ، كما كان عضوا في مركز الابحاث التاريخية والاثرية التابع للمديرية العامة للآثار بدمشق وعضوا في اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، وقد اشترك بالمؤتمر العربي الثاني للآثار الذي عقد ببغداد سنة ١٩٥٧ ، وتلقى دعوات للاشتراك بمؤتمرات الآثار العربية وتلقى دعوة للاشتراك بالمؤتمر الخامس للآثار في البلاد العربية الذي تقرر عقده في القدس بين ٣ ــ ١٣ حزيران ١٩٦٧ واشترك بمؤتمر الآثار الكلاسيكية التاسع الذي عقد بدمشق عام ١٩٦٩ . كما اشترك في المؤتمر الدولي للتاريخ والآثار بدعوة من الجمعية العراقية بتاريخ ١٩٧٣/٣/٢٥ والقى فيه محاضرة واشترك بالندوة التاريخية العالمية عن بلاد الشام التي عقدت في الجامعة الاردنية بعمان بين ٢٠ ــ ٢٥ نيسان ١٩٧٤ وكان البحث الذي قدمه بعنوان « مشاركة المدن الفراتية السورية بالحركة العلمية في العصور الاسلامية » . وقد نظم عددا من المعارض في دير الزور ، نذكر منها على سبيل المثال معرض الصور عن البلاد العربية عام ١٩٤٦ في نادي « البيت الثقافي » والثاني معرض الكتاب الفراتي سنة ١٩٦٠ بمناسبة ١٧ نيسان . وفي عام ١٩٧٣ اقام له المركز الثقافي بدير الزور معرضا لكتبه ومؤلفاته التي بلغ عددها آنذاك ١٣٢ كتابا وكراسة ودراسة كلها عن وادي الفرات وفولكلوره . ونذكر اسماء بعض هذه المؤلفات التاريخية اولا ثم الفولكلورية :

المؤلفات التاريخية عن وادي الفرات :

١ ــ رحالة عرب وافرنج زاروا الفرات ٢ ــ الزاد الحضاري في دير الزور ٣ ــ مناضل من الفرات ٤ ــ عبدالله بن طاهر حاكم الرقه ومصر ٥ ــ القرية في وادي الفرات ٦ ــ دير الزور حاضرة وادي الفرات في كتابات الكتاب العرب والاجانب في العصور الاخيرة وهو آخر كتاب طبعه الفقيد .

المؤلفات الفولكلورية :

١ ــ الخبز في دير الزور ٢ ــ الحلي والوشم والتبرج ٣ ــ هواية الطوابع في دير الزور ــ البئر في حياة العرب ٦ ــ الاعياد الشعبية في دير الزور ٧ ــ الفنون الشعبية في دير الزور ٨ ــ الآنية والمواعين في دير الزور ٩ ــ ديارات الفرات ١٠ ــ قصص من دير الزور ١١ ــ تقاليد الوفاة في دير الزور ١٢ ــ مصطلحات في لغة الديريين .

وقد ارخ البحاثة الراحل لنفسه بكتابين الاول بعنوان « انا والفرات » اصدره في دير الزور عام ١٩٦٧ والثاني بعنوان « اهتمامات » اصدره في دير الزور ايضا عام ١٩٧٣ وطبعته له مطبعة الاديب بدمشق .

ونقدم فيما يلي نص الكلمة التي القاها في الجامعة المستنصرية ببغداد بتاريخ ١٩٧٣/٣/٢٨(١) خلال ايام

(١) انظر صفحة (٥ ــ ١٤) من كتابه « اهتمامات » الصادر في دير الزور عام ١٩٧٣ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المؤتمر الدولي للتاريخ والآثار المنعقد في بغداد ٢٥ — ٣٠ آذار ١٩٧٣ حيث كان مشاركا فيه بدعوة من الدكتور حسين امين رئيس الجمعية العراقية للتاريخ والآثار الداعية للمؤتمر والمنظمة له .

وذلك لاهمية هذه الكلمة بالنسبة لنشاط البحاثة الراحل في مضمار البحث التاريخي . وهي بعنوان « دور الهواة في كتابة التاريخ وحفظ الآثار ونشر التراث » :

« لست استاذ تاريخ ، ولا معلما ، ولا احمل رايا في التاريخ ، ولم اعد بحثا ولم اكون منهجا في التاريخ احرص على طرحه .

اني مجرد واحد من هواة التاريخ الكثيرين ، الذين وجدوا في القديم ، ويوجدون في مختلف البلدان .

لم تكن هوايتي التاريخ على هامش تخصصي في القانون ، وممارستي المحاماة . وانما كانت الى جانبها . ومتغلبة عليها . كان اهتمامي بالتاريخ ، وما فتىء اكثر من اهتمامي بالقانون . وحوت مكتبتي من كتب التاريخ ، اكثر مما حوت من كتب القانون .

توقفت عن ممارسة القانون ، لاحالتي على التقاعد ، لكني ، لم اتوقف عن ممارسة هوايتي التاريخ وما تفرع عنها من هوايات .

لم ينشأ حبي للتاريخ وولعي به من الفراغ ، كانت صلتي بالتاريخ في كل مراحل تعليمي . لكنني ، كنت اتجاوز المادة التاريخية المقررة ، واقرأ بنهم في اثناء الدراسة ، كتبا ومجلات في التاريخ ، حتى تمكنت مني هذه العادة الى اليوم .

اهتممت بصورة خاصة بتاريخ وادي الفرات الاعلى ، منطقتي — فجعلت اتلمس مصادره . واحرص على ان اعمق اطلاعي عليه وما يتصل به .

تكونت لي ، خلال اربعين سنة تجربة محدودة مع التاريخ ، في منطقة محدودة ، ذات سمات ومميزات خاصة وظروف صعبة .

تجربة اغنت ثقافتي ، وعمقت اطلاعي ، واثمرت عندي هوايات ، افادتني كثيرا في حياتي ، كانت وما برحت بديلا من السأم والوحدة والخمول والعقم ، وافادت الآخرين ، وكسبت منها منطقتي .

فمن حق التاريخ علي ، ان انوه بفضله الكبير . وبأثره في حياتي ، وفي انتاجي الادبي واهتماماتي ، التي خدمت بدورها التاريخ والآثار والتراث .

هذه هي المناسبة الطيبة ، لذكر فضل التاريخ علي ، واعلان التزاماتي برد جميله بما هو اجمل واوفر . وليكن ذلك باستعراض موجز لجانب من جوانب حياتي ، كعامل في ميدان التاريخ والآثار والتراث . ومشارك بهذا المؤتمر الجليل الذي يعقد في بغداد العظيمة وارثة الحضارات .

واعوذ بالحق من ان اكون قصدت فخرا او مغنما ، ليس غير الواقع .

حفزني حبي للتاريخ على مواصلة القراءة لمادته ، وللادب والفنون والعمارة وسائر فروع المعرفة .

الادب عندي تاريخ العواطف والاخيلة وتطور الاسلوب . ووصل الماضي بالحاضر .

اكاد انظر الى المعارف والعلوم على انها تاريخ وآثار . ان المحب لا يكاد يرى غير حبيبته ولا يفكر بسواها .

فتحت قراءاتي التاريخ — امامي — آفاقا رحيبة . رأيت في اللغة اكبر مساند التاريخ والفكر والمدنية . فلا عجب ان برز الاهتمام بدراسة اللغات ، وصار لها علوم متعددة ، يزداد الاهتمام بها من يوم ليوم .

واللغات منذ القديم . مختزن الحضارات . تتعارض العطاء والاخذ من بعضها بعض ، لا تتعرف على الحدود . وتبقى لكل لغة خصائصها .

اني احب الحياة . ولقد رأيت المؤرخين المحدثين ، قد ارخوا لمختلف نواحيها ، لم يفضلوا ناحية . شاقني ذلك الى تتبع تاريخ هذه النواحي ، واولعت بالاطلاع عليه والاحتذاء به .

لم تعد كتابة تاريخ امة وقفا على المؤرخين من ابنائنا ، وانما اصبحت منذ القديم ميدانا يلجه المؤرخون على اختلاف قومياتهم ، وفي ذلك فائدة وطرافة . حيث تتعدد وجهات النظر والآراء وتبرز الصور .

مؤخرا عرض المستشرقون للتاريخ العربي ، فكان لهم فضل كبير ، فيما نشروا من المخطوطات العربية المحققة ، وفيما كتبوا ، واتبعوا من المناهج ، وما توصلوا اليه من النتائج . وقد افاد المؤرخون العرب المعاصرون من كل ذلك . ولكل مجتهد نصيب .

ان حبي للتاريخ ، لم يقيدني . فلم يجعلني ، اتعصب لفترة تاريخية او لمذهب او طريقة او منهج معين . او لمؤرخين معينين .

علمني التاريخ ان اشك في كل ما اقرأ . لا اقبل روايات التاريخ كما هي . وعلمني ان ارفض الروايات الضعيفة ، والمخالفة للواقع والمنطق .

علمني ان امقت التعصب للتاريخ ولكل تعصب ، وان احب تاريخ كل الشعوب ، كما احب الشعوب . وان امقت الحرب الهجومية والتعدي والاغتصاب .

كان نمو النزعة الانسانية في عصر النهضة في اوربا ، يعود في اكبر اسبابه الى تأثير الاقبال على دراسة تاريخ اليونان والرومان .

علمني التاريخ ان اكون على الدوام طليقا ، انسانا قبل كل شيء مع الشاعر العربي في قوله :

اذا كان اصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين اقاربي

حفزتني هوايتي قراءة التاريخ ، على ان اهوى التاريخ .

بدأ عندي بمحاولات التأريخ لالعابنا المحلية وتقاليدنا ، ولفنون ادبنا الشعبي في منطقة الفرات الاعلى . منذ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اربعين سنة .

كل ذلك هيأ مني فولكلوريا فراتيا متخصصا ، من حيث لم اقصد ، ولم اتخرج من معهد فولكلوري . ومن غير ان تعهد الي جهة بذلك . او ان اكون مأجورا عليه .

ما لبثت ان احببت الفولكلور بصورة عامة حبا زائدا ، وحرصت على طلب كتب فيه ومقالات ، اندفعت اقرؤها بنهم ومتعة . ولقد زودتني قراءة كتب الفولكلور ومجلاته بمناهج دراسته وطرق جمعه وتدوينه . وبصرتني بجدواه واهميته الكبرى في دراسة التأريخ والتراث والآثار واللغة وفهم حياتنا اليومية وسلوكنا ومعتقداتنا .

ما لبثت هوايتي للفولكلور ، ان اسلمتني الى هواية الآثار ، وقراءة ما وصلت اليه يدي من كتب الآثار ومجلات الآثار في اللغة العربية ، وزيارة الآثار ومتاحفها في عدة اقطار من آسيا وافريقيا واوربا وهو اول ما اقصد من رحلاتي .

انشأت مجلتي « صوت الفرات » عام ١٩٤٥ في دير الزور حاضرة وادي الفرات لنشر محاولاتي في تاريخ وادي الفرات ، وجغرافيته ، وفولكلوره ، واقتصاده وعمرانه ، ما زالت تصدر حتى اليوم بنفقتي فقط ، ودون ان يكون له مردود مادي . تشكل اعدادها مع مؤلفاتي التي نشرتها بنفقتي فقط عن مختلف شؤون وادي الفرات : الدراسات الفراتية — اول مرة . هي المرجع لمن يريد ان يتعرف على وادي الفرات . او ان يدرس تاريخه وشؤونه .

ان هوايتي الفولكلور والتأريخ جعلت مني صحفيا ومؤلفا ودارسا مختارا وغير مأجور .

اسست جمعية العاديات في دير الزور عام ١٩٥٨ ، ما زالت قائمة تمارس نشاطها واتعهدها . وهي الثانية في سورية بعد جمعية العاديات في حلب . لا سواها في سورية حتى اليوم .

واسست مركز الدراسات التاريخية والجغرافية في دير الزور ، عام ١٩٥٩ ما زال قائما يمارس نشاطه .

ولقد كان لي شرف المشاركة ببعض المؤتمرات العربية للآثار . منها : المؤتمر الثاني الذي عقد في بغداد بشهر كانون الاول عام ١٩٥٧ . والمؤتمر الدولي التاسع للآثار الكلاسيكية الذي عقد في دمشق صيف عام ١٩٦٩ .

تتابعت هواياتي . فما ان جذبتني هواية ، وخطوت معها خطوات ، حتى اسلمتني الى هواية جديدة . كأن بين الهوايات اتفاقا ، على ان لا تستأثر بي واحدة دون الاخرى.

وفي الواقع ان هذه الهوايات يتمم بعضها بعضا ، لا اتخلى عن واحدة منها . اني ازيدها ، ولا انقصها .

على اني لا اقبل عشوائيا على هواية من غير مناقشة خدمتها للتراث وللتأريخ والفولكلور . وهل هي متيسرة ، وفي حدود امكاناتي .

لقد صارت هذه الهوايات مصدر متعة لي ومحور نشاط ادبي امارسه . لم اعد اشعر مع هواياتي بأي سأم او فراغ او وحدة . ازداد معها حبي للحياة .

اسمحوا لي ان اوردها شاهدا قريبا على اهمية الهوايات ودورها الكبير في كتابة التأريخ . وحفظ الآثار . ونشر التراث ، واغناء الحياة الاجتماعية .

كان اولها : هواية طوابع البريد . بدأت عندي في العشرينات . اتخذت ادواتها وكتلوكاتها ، وتتبعت تاريخها واخبارها ، وانشأت علاقات مباشرة وبالمراسلة مع هواة ، وانضممت الى عدة جمعيات ونواد للطوابع .

ورغبت بنشر هذه الهوايات الجميلة في بلدي ، الذي يخلو من الهوايات الجميلة المفيدة . فنشرت مقالات وكراسا عنها . ونظمت معرضا في دير الزور عام ١٩٦١ ، مدة اسبوع . كان اول معرض للطوابع تشهده دير الزور . هذه الهواية ما زالت لدي . ومجموعتي الطوابع في نمو مستمر .

واولعت بجمع قطع السلاح القديم ، مما استعمله ابناء منطقة الفرات وهويت جمع الآنية القديمة على اختلاف مادتها ، مما وجد في دير الزور . والحلي الفضية الشائعة في المنطقة ، والعصي ، وادوات الصيد ، وادوات تدخين التبغ ، وادوات صنع القهوة العربية ومشربها ، وادوات الالعاب الاهلية ، وساعات الجيب القديمة . والاختام على اختلاف موادها واشكالها .

ونشرت في بعض هذه الاشياء مقالات ومؤلفات . هويت جمع المخطوطات العربية ، حصلت بعضها . وحققت ونشرت مخطوطتين ، تقع كل واحدة في اربع وخمسين صفحة من القطع الكبير . كلاهما من وثائق تاريخ وجغرافية وادي الفرات الاعلى . هما مذكرات المهندس الزراعي احمد وصفي زكريا ، وتقرير المهندس وجيه الجزار .

التقت هذه الهوايات لتشكل متحف دير الزور للتقاليد. اقمته في بيتي وبنفقتي فقط . ولو كان بي خصاصة . ذلك انه : اذا عظم المطلوب قل المساعد . اسبلت زيارته في كل وقت . لقد زاره كثيرون من ابناء دير الزور وغيرهم ، منذ تاريخ تأسيسه في عام ١٩٥٧ حتى يومنا . كتبت عنه الصحف والمجلات السورية . وورد وصفه في بعض المؤلفات . منها كتاب « آثارنا » تأليف محمد ابو الفرج العش — محافظ المتحف الوطني بدمشق صدر في دمشق عام ١٩٦٠ .

شغل هذا المتحف الصغير فراغا كبيرا في حياة دير الزور الفكرية . فليس فيها ، ولا في كل وادي الفرات في سورية حتى اليوم غيره . لم يلق من الرسميين ولا من اية جهة مساعدة . مع ما للمتاحف من اهمية كبيرة في الحقل السياحي .

ما زلت اوالي جهدي وانفق المال من جيبي مع خصاصتي لرعاية المتحف . وانماء محتوياته وتنسيقها . وحسبي اني اؤدي بذلك خدمة لمسقط راسي وللتاريخ ، سيكون من ثمار وآثار هذا المتحف متاحف رسمية واهلية في دير الزور ، وفي قصبات وادي الفرات في المستقبل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القريب . يحتم تأسيسها التقدم الاقتصادي والحضاري والفكري . اني منذ ان انشأت متحفي ، اكتب المقالات بطلب تأسيس متاحف في قصبات وادي الفرات . والاحق من اعرف من الوزراء السوريين مطالبا بهذا الشأن .

اني اكتب في وسط متحف دير الزور للتقاليد فصولا من تاريخ دير الزور وشؤونها يوحيها لي .

هل كان الحكماء والمؤرخون والجغرافيون والعلماء القدامى ، من مختلف الاقوام ، الا هواة ؟ فلم تخرجهم جامعات ولا معاهد . يدينون التاريخ والتراث بأكبر الفضل .

قامت علوم التاريخ على مؤلفات المؤرخين القدامى . وقامت علوم الآثار على هواة الآثار . بما بذلوا من الاموال ، وما قاموا به من الرحلات ، وما نشروا من مقالات ومؤلفات . وما زال التاريخ والآثار هواية الكثيرين .

كانت مجموعات تحفهم اساس متاحف الآثار . وكانت هواية القراءة والكتب ، وما فتئت اساس تقدم وانتشار الطباعة والوراقة والمكتبات .

وكانت مجموعات هواة اللوحات الفنية والتماثيل والقطع الفنية ، اساس متاحف الفنون في العواصم . وهي من اعظم ما تفاخر به هذه العواصم .

وكذلك كانت مجموعات مختلفة متنوعة لهواة عديدين، اساس متاحف عديدة . او انها اغنت متاحف عديدة .

لم تنكر بعض الحكومات الراقية فضلهم ، فأسمعت بعض المتاحف بأسماء اصحابها .

كان جمع المخطوطات ، وما زال هواية بعض الناس. نشأ عنه من صيانة المخطوطات وعلم تحقيقها ونشرها . وكان وما زال للهواة فضل جمع المخطوطات وحفظها واتاحة نشرها . الذي افاد التراث واغناه .

لقد تتابع ظهور الهواة في كل الشعوب منذ القديم . وتنوعت هواياتهم لم تنحصر في اشياء معينة . ان ظهور الهوايات حاجة من حاجات الحضارات والتطور والتقدم .. فضلا عن دورها الرفيهي وعنصر المتعة . افاد منها الفن والعلم والثقافة والتراث فوائد جمة .

عندما كان الناس يؤدون معظم اعمالهم بأيديهم طول ساعات اليوم ، لم يجدوا وقتا للتسلية حتى الاطفال ، كانوا يعملون ١٥ ساعة في اليوم . اما اليوم . فقد توفرت ساعات الفراغ والعطل وخاصة لتلاميذ المدارس . ولذا فان كل انسان يجد من وقته متسعا يقضيه فيما يشاء . وكثير من وقت الفراغ يقضي في مزاولة الهوايات .

قامت الحركة الرياضية في العالم والتي اكتسبت اهمية بالغة في حياة الشعوب على هواة الرياضة في اشكالها العديدة والمتزايدة .

واذا اعتبرنا المؤرخين المتخصصين والمحترفين جيشا نظاميا ، فان الهواة بمثابة فرق الانصار . لهم مهماتهم واماكنهم ودورهم واهميتهم .

كان الهواة وحدهم الرواد والطليعة ، وما زالوا في بعض المناطق ، ينهضون وحدهم بمهمة التأريخ لمناطقهم والتعريف بها ، ودراسة شؤونها على ما هي هذه المهمة من المشقة والتكاليف والتطوع وعدم التشجيع ، الا ما ندر .

ان الحق وواجب الاعتراف بالجميل يقضياني ان اعلن ، كهاوي تاريخ ومؤرخ هاو ، بأني نلت من الجمعية العراقية للتأريخ والآثار في بغداد والتي يراسها الدكتور حسين امين بدعوتها اياي للمشاركة بالمؤتمر الدولي للتأريخ والآثار الذي دعت اليه والذي يعقد في بغداد بين ٢٥ ــ ٣٠ آذار ١٩٧٣ . ما اعتبره بحق اكرم تشجيع واكبر تقدير لي . اشكره لها اجزل الشكر واقدره اوفر التقدير ولا انساه .

تنتشر الهوايات المتنوعة اليوم في اوربا وامريكا ، وتنشر وسائل الاعلام اخبارها . وتلقى رعاية وتشجيعا من الدولة والمؤسسات والهيئات . ولهاجمعيات ونواد ونشرات . تنظم معارض ترعاها الدولة وترصد لها المكافآت المالية السخية والمستمرة . لانها تعود على المجتمع بالفوائد الجزيلة .

لا شيء من ذلك عندنا . باستثناء هواية جمع طوابع البريد . وهي محدودة جدا . تقتصر على قلة قليلة من الناس في العواصم .

لا اعرف لاحد في منطقة الفرات ولا في سورية هواية تذكر . ولم اقع على كتاب في اللغة العربية عن الهوايات . وقلما تنشر صحفنا شيئا عن الهوايات . فان هي نشرت ، فجزء صغير منقول عن الصحافة الاجنبية .

ليست الهواية وقفا على فئة من الناس . او على مرحلة معينة من العمر . وليس العلماء بمنأى عنها . فقد عرفنا لعلماء وساسة شيوخ من قوميات مختلفة ، هواياتهم التي يرتاحون الى ممارستها في اوقات فراغهم ويستمتعون بها .

ان الهواية ــ في ابسط واوجز تعريف ــ هي ان يقوم الانسان بنشاط ما فردي ، يدوي او فكري ، مختارا . عملا اضافيا لذات العمل ، وليس ابتغاء شيء آخر ، يمارسه في وقت فراغه ، لتزجية الوقت او لتعلم شيء او للترفيه . وكل هواية يمكن ان تكون عملا اذا فرض على الانسان الا يمارسها .

ان اقتناء المجموعات من اشهر الهوايات ، واكثرها انتشارا . وكثير من الناس يجمع اشياء كثيرة مختلفة . والرسم هواية مفضلة عند كثير من الناس . وكذلك تربية الازهار واشغال الابرة ، والقيام بالرحلات ، والعزف على آلات الموسيقى ، والخياطة ، وصنع قطع الاثاث ، وصنع الآنية الفخارية ودراسة النجوم وتعلم اللغات ، وتربية الطيور ، وهوايات غريبة اخرى .

واحيانا تنقلب الهواية الى حرفة ، فقد يهوى انسان تربية الازهار فيربيها ليبيعها . وقد تهوى امراة خياطة الثياب ، فتحترفها لتكسب منها قوتها . وربما تنقلب هواية الطفل حرفة يلازمها ويعيش منها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان الهوايات الى جانب دورها الترفيهي ، قد تحقق اغراضا نفسية وثقافية واقتصادية واجتماعية .

يقول الاطباء : ان الانسان اذا اشتد اهتمامه بشيء ما ، كان ذلك مما يساعده على بقاء عقله في حالة جيدة . ولذلك كان الافضل للانسان ان تكون له هواية ، وربما يتخذ الانسان لنفسه اكثر من هواية واحدة .

حين يذهب الطفل الى مدرسة جديدة ، او يبحث الرجل عن عمل جديد ، فغالبا توجه اليه طائفة من الاسئلة ليجيب عليها . واجابته عن هذه الاسئلة تكشف كثيرا عن شخصيته . وهنالك سؤال لا بد ان يوجه في مثل هذه الحالة هو : ما هوايتك ؟ فلقد صار للهواية شأن هام يحسب حسابه .

ليس في وسعي ان انصرف الى دراسة الهواية ، وتعريفها تعريفا حديثا . لان علماء الاجتماع لم يوردوا لها بعد تعاريف . ولم تقع لي دراسات تعرضت لهوايات ، مع انها جديرة باهتمام علماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الاقتصاد .

عندي ان الاهتمام بالهوايات هو اهتمام بالحياة وبالناس ووقت فراغهم وهو مشكلة يعيرها علماء التربية اهتماما زائدا ، وتوليها الدول عناية كبيرة .

اتوقع ان تتناول العلوم التاريخية والاجتماعية والنفسية ، عما قريب دراسة ظاهرة الهوايات . واقدر انها ستحظى بعلم مستقل ، هي به جديرة ، يقف الى جانب العلوم الانسانية ، التي ظهرت مؤخرا ، ولما تستكمل بعد مقوماتها وترسي اساساتها وتتضح معالمها وطرقها .

سيكون لها علماؤها ، يدرسون نشأها وحوافزها ، ومختلف آثارها ، ودلالاتها ، ويحيطون بأنواعها واشكالها . سيخططون لنشرها وتأصيلها ، وسيعقدون لها المؤتمرات الدولية . كما هو شأن العلوم الانسانية الاخرى .

لا يوجد مجتمع بلا هوايات ، ولا توجد هواية انسانية بلا جدوى ومدلول واثر على صاحبها وعلى المجتمع .

يندفع الهاوي غير مدخر جهدا ولا مالا في ممارسة هوايته ، واشباع حاجة في نفسه ، قد لا يتبينها بوضوح . الا ان مردودها يعود بالنفع عليه وعلى التراث ، ما لم تكن غير انسانية .

الهاوي في الغالب ، اوفر نشاطا ، واشد حماسة ، واكثر انطلاقا من المتخصص ، الذي يقيده ، ويحد من نشاطه وآفاقه الروتين ، واداء الوظيفة والتخصص نفسه ، وما ترسم له هيئة عمله من حدود لا يتعداها .

اقنعتني تجربتي ــ خلال اربعين سنة ــ بجدوى الهوايات البريئة واهميتها ونفعها الكبير للافراد وللمجتمع ، في كل مراحل العمر وللجنسين . وبخاصة في المراحل المتقدمة في عمر الانسان . وبمردودها غير القليل على التاريخ والتراث والعلوم الانسانية وعلى الصحة النفسية لاصحابها .

لقد اثبتت الهوايات ، وما زالت تثبت فوائدها ، منذ القديم . لقد خرج من الهواة علماء في سائر فروع العلوم والمعارف والفنون .

ان خلو حياة الافراد من الهوايات ، لا سيما في الشيخوخة ، هو مأساة اليمة حقا . وخلو المجتمعات من هواة هو نكبة . تشهد فصول هذه المأساة وهذه النكبة في مقاهينا المنتشرة في مدننا ، وفي ريفنا . والتي تدمر اعصابنا وتشل عقولنا . وفي افتقارنا الى الفنون والى الابداعات الانسانية ، وانواع الرياضة وملاعبها والمسارح واشكالها .

اننا نشهد جريمة ، لا مأساة فقط . نعاقب العامل والموظف الذي يتأخر بضع دقائق عن عمله بغير عذر مقبول . ولا نعاقب المواطنين الذين يهدرون ساعات فراغهم ، ويئدون قدراتهم ، ويهملون بيوتهم واطفالهم ليتكدسوا في المقاهي ببلادة ، يحرقون اعصابهم بضوضاء المقاهي ، ويتعرضون للامراض الجسيمة والمفاسد التي اتخذت من المقاهي بؤرا وبيئات .

لا افتأ اردد بأن الهواية اعطتني شيئا كثيرا مفيدا وممتعا لي وللآخرين .

لا اتصور حياتي بغيره . هو اهتماماتي الادبية والانسانية المتعددة ، ومجلتي ومؤلفاتي ومتحفي ، ورحلاتي ، وقراءاتي المتنوعة المستمرة ، واندفاعي في كل ذلك من غير ابتغاء اي غرض مادي .

ولذلك اراني ملزما بالعمل من اجل التبشير بأهمية الهواية لجميع الناس وحثهم ، بلساني وكتاباتي ومتحفي ، على ان تكون لهم هوايات انسانية متعددة . لكي يفيدوا انفسهم ومجتمعاتهم ، وليفيدوا التاريخ والتراث .

لقد اعددت دراسة مطولة عن الهوايات وضروبها واهميتها . آمل ان اتمكن من نشرها .

اني اطالب المسؤولين عن الثقافة عندنا ، والمسؤولين عن سلامة اعصاب المواطنين وصحة نفوسهم بتشجيع الهواة ورعايتهم ، وببذل المكافآت المالية السخية لهم . وان لا يتركوا وحدهم ، حتى لا نبخس الناس اشياءهم .

ان انتشار الهوايات في شعب ، ورعاية حكومته للهواة ، هو احد المقاييس ، التي نقيس بها تقدم هذا الشعب » .

وهكذا فقد كان البحاثة الراحل شعلة من النشاط والحيوية والطاقة الخلاقة وقدوة للباحثين والدارسين ليس في وادي الفرات فحسب ، بل في الوطن العربي قاطبة .

دمشق ــ الجسر الابيض **حسان بدر الدين الكاتب**

القـــرد

بقلم محمد امـــام



في الايام الاولى من شهر الريـــاح البـــاردة ، والشمس الهادئـــة ، التي لا تجدي حرارتها في صقيع المشير الذي وافق نهاية السنة المالية ، التي جعلتني اترك بلدتي اسوان بسحرها ودفئهـــا ، واحضر الـــى القاهرة لانهاء بعض الاعمال بالمركز الرئيسي للشركة ...

ولم ابذل جهدا كبيرا في البحث عن المنزل الذي اقضي فيه قلائل ايامي ، فبالقرب مـــن الشركة نزلت بأحـــد الفنادق ـــ بشارع ٢٦ يوليو . الذي تطل نوافذه على مبنى احد المحلات التجارية ، فكلما رفعت بصري خلف زجاجي وجدت نوافذ الطابق الاعلى مغلقة اتقاء البرد والضوضاء في ذلك الشارع التجاري الصاخب ...

وذات صباح احسست برغبة في تناول افطاري في حجرتي ، بعيدا عن النزلاء ... فقد كانوا جميعا مـــن عجائز الاجانب .. ممن لا يروق لي مجالستهم .. او حتى رؤياهم فما يتمتعون بـــه مـــن نشاط ورشاقة يجعلني اذوب حسرة علـــى كرشي ـــ المترجرج ـــ امامي مثل قربة معلقة تهتز في كل حركة تبدر مني .. واكره دهشتهم وتطلعهم لـــي عندما اقـ بافطاري في القربة ..

وفضلت تنـــاول افطاري داخـــل حجرتي عملا « بمن خرج من داره قل مقداره » .. وجلست خلف زجاج نافذتي التهم الطعام الشهي وارفع عيني .. واجول البصر بين النوافذ المقابلة ثم ابحث عن لقمة اخرى ... وهكذا ..

ورفعت عيني كالمعتاد .. ولكن شيئا شد بصري وجذب انتباهي .. فقد فتحت النوافذ المقابلة كلها ... واطلـــت رؤوس كثـــيرة متزاحمـــة تدافعت لتقصي امرا مـــا يحدث في الشارع ...

ورغم تمسكي بالطعام .. انتصبت مكاني .. وما ان فتحت النافذة واذا بأصـــوات تتلاطـــم لأناس تتمـــاوج اجسامهم .. وابصرتهم نحو الثلاثمائة او اكثر ... وامعنت النظر ... ورحت ابحث تحتي في قلب الزحام عن مركز الدوامة ...

يا الهي .. انه قرد صغير ... يقفـــز فتهتاج الجموع ... يـــروح ويغدو في اقل من مترين ، فيسبب هياجا وفزعا .

وقلت لنفسي لا بد انه هارب من مكان مـــا ... حديقة الحيوان او الســـيرك او لعلـــه هـــارب مـــن صاحبه ... وكان آخر ما توقعت ولكنه ليس هاربا ، فقد رأيت تحت اقدامه في موجة عارمة اهاجت ما حوله واوضحت ما تحته ... شيء عزيز عليه ، يحميه ويدفع من حوله المعتدين ... نعم فقد تبينت من اعلى ان هناك اربعـــة او خمسة رجال يركلون القرد وصاحبه الذي حاول مرارا الوقوف لحماية القرد الـــذي اتقن وثاقه في معصمه .. ولكـــن هيهات ... فالرجال اعتـــى مـــن التغلب عليهم وقهرهم .. فقد اوسعوه ركلا حتى بدا لي انهم لم يتركوا مكانا في جسده الا وكان له نصيب من حذاء احدهم ... وان نعالهم تلطخ ترابها بدماء ذلك المسكين ، ولكنني تداركت كلماتي واسترجعت كلمـــة المسكين وقلت .. قد يكون فعل فعلة نكراء حكمها في القانون اكثر من الاعدام مما دفعهم للتنكيل به بهذه الصورة البشعة الغير انسانية ، على مراى ومسمع هؤلاء جميعا ...



انه بعد تلك ـــ العلقة ـــ اصبح الحكم عليه بالمؤبد اخف الف مرة من هذا العذاب الذي لم ينله فأر خبيث حمل في ثناياه مرض السرطان ... ومن هم هؤلاء ؟ الذين اعطوا لانفسهم حق الحكم والتنفيذ بما هو اقصى من اعدام .. اهم قضاة ؟ لا .. لا . اهم من الشرطة لا .. لا اظن ولكن ايـــن امناء الشرطة المنتشرين هنـــا وهنـــاك ؟ فهنـــا تتجلـــى خدمتهم للشعب ...

سحب العتاة الرجل من الذراعين مـــرة .. ومن الرجلين مرات .. بطول الشارع وعرضه ... وعدت اسأل نفسي ـــ فما من احد يسمعني غيرها ـــ سألتها : اكل هؤلاء دون خطيئة ؟ شرفاء نبلاء مـــن عليـــة القوم ... اهم ارقى من في الارض وذاك من اقل المخلوقات .. ام ان الجميع من ارقى خلق الله ... كلهم ســـواء ، وهممت ارفـــع صوتـــي وانادي ..

يا خلق الله ... من منكم دون خطيئة فليركله ... وانـــا اعلـــم تماما ... ان صوتي لم يصل لاحد وان حـــدث ... فسيبتعد الجميع مطأطيء الرأس ، وينصرفون متخاذلين مدحورين ..

ولم اشأ .. واذا بأمناء الشرطة يبرزون بغطاء رؤوسهم وسط المئات التي تضاعفت وهنا ابتلعت ثورتي ، واستقر قلبي مكانه بعد ان كاد يقفز من حلقي ، وبدأت ابصر من حولي والرؤوس قـــد اعتدلـــت بعـــد ان اشرأبت ، وبـــدت الراحـــة علـــى الوجوه .

ووجدت بيضة قد نسيتها في يدي ، كادت تذوب انفعالا ، فأودعتها فمي ولم اهنأ بمذاقها ، فقد احاط الامناء بمركـــز الدوامة وافسحوا للرجـــال الطريق الى سيارة « بوكس » حاملين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نجي القوافي

الى روح ابي الطيب المتنبي

كاظم محمد حسين

الكوت ــ العراق

نجي القوافي ظل ذكراك خالدا ... فعشت على المجد المؤثل رائدا
بك الشعر في عرس الخمائل مزدهي ... على غرر قد صفت منها قلائدا
وما الدهر الا من رواتك لم يزل ... يردد من سحر البيان شواهدا
وأنت بها طير يهيم اذا شدا ... وغيرك صوت كالصدى حين عاودا
تنام على الاحلام والخلق ساهر ... وتصطاد منها ما تريد شواهدا
وكم جاهل اغراه فيك تضاحك ... على ما ترى حتى تمزق حاقدا
وما زلت من دنياك تضحك ساخرا ... وتبقى عليها في الملمات ساهدا
وجربتهم حيث الخداع نصيبهم ... ويعجز عن تطبيبه الشعر راشدا
وناموا على الليل المباغت نومة ... تطول فلا تلقى الكريم مجاهدا
ولن يفلحوا ان الملوك اعاجم ... على عهدهم بات الزمام مواردا
فلا الشرق مسؤول عن الغرب بعدما ... تفرقت الابناء ، فيما توارثا
وكل تناهى في الامارة وحده ... على رغم احداث البلاد محايدا

*

نجي القوافي ان مسراك حافل ... فهل كنت من فيض اللذاذات واردا
نزلت بأرض الشام فيك تطلع ... الى الملك، او ترقى على الجيش قائدا
وجئت بني حمدان بعد مرارة ... تصوغ القوافي كالقلائد حامدا
وباعدت كافورا لبغداد سادرا ... تودع احلاما ، وتطوي فدافدا
وتسعى الى ارجان سيرا وتنتهي ... خطاك الى شيراز في الدرب صاعدا
ترحلت عن قوم وكانوا كغيرهم ... على ارضهم جهلا اضاعوا المحامدا
تشاهد اصناما على الذل ترتمي ... وليلا على آفاقهم كان سائدا
وما العيب والنقصان فيك وانما ... هو العيب في عصر تكالب جاحدا

*

نجي القوافي ما ارتويت بنهلة ... ولا رغبت نفس لديك الموائدا
عفيف اذا رق الحديث تغزلا ... حكيم اذا جاء الكلام فرائدا
سعيت الى الآمال وهي بعيدة ... وجبت بها البلدان حتى الاباعدا
وكم كنت تشقى في الحياة تلفتا ... وتأسو اذا صار المرام معاندا
اذا كنت لم تحصل الى المجد سلما ... فقد نلت كل المجد تعلو الفراقدا
فقد جددت بغداد ذكراك فاستمع ... اليها بما تختار فيك القصائدا
ومن كل قطر وافدون يهزهم ... يراعك ، والفكر الذي ظل خالدا
وفاؤك يا بغداد حلم مراود ... وكم حققت بغداد حلما مراودا
خطى الالف قد احيت اباك محسد ... تلفت ، فهلا قد تصيدت حاسدا
ومن كان ذا فكر حصيف فانه ... يعيش على المجد المؤثل رائدا

المغلوب على امره وصديقه القرد واطاحوا بهما في السيارة وقفزوا خلفهم واثنين من الامناء وقاموا آخرين بتفريق الجمهور ... وافساح الطريق للسيارات التي تعطلت وبرز من نوافذها رؤوس سائقيها في انتظار انقشاع الضباب .. حتى يستأنفوا السير ... ولا يهم احدا منهم ما يحدث ..

وجفلت لحظة ... ثم اسرعت ولم يسعفني المصعد ... فهبطت الدرج حيث صدمت وجهي نسمة باردة ... جعلتني اتمهل الخطوات في الممر المؤدي الى الشارع الكبير .

ويا للمفاجأة .. لا اصدق عيناي .. اين الشغب ؟ اين ؟ اين ؟ لا شيء لا شيء وقفت كالمجنون بجوار محل الاحذية اسفل الفندق ... اكل الذي رايته حلم ؟

وحملقت في اعلى المبنى الشاهق لاجد النوافذ هادئة وكأن شيئا لم يحدث من دقائق كاد عقلي يذهب وراء القرد وصاحبه ... وزاغت عيناي تبحث عن شيء .. اي شيء .. رجل .. امراة . ارض الشارع قد تنطق بما وقع عليها وشهدته ... ولم تدم حيرتي طويلا فقد انقذني صوت هادىء لرجل تعدى الخمسين ، يبدو انه من العاملين بمحل الاحذية . كلماته اثلجت صدري واعادت لي عقلي .. قال : انتهى كل شيء ... كأن شيئا لم يكن ... ذهبوا جميعا .. الرجال والقرد الذي نشل من احدهم حافظة نقوده ... ومعلم القرد .. .ذهبوا جميعا .

القاهرة — محمد امام



رشيد الذوادي

من اعلام التونسيين

محمد علي العنابي

بقلم رشيد الذوادي

★★★

لقد احتار عند وصوله الى باريس .. فأي معهد سيلتحق به ؟ ان ابناء الذوات قد جاءوا من اغلب مدن البلاد التونسية واكثرهم قد اختار متابعة المحاماة ، او الطب ، او الصيدلية .

أترى ماذا يفعل ؟ أيلتحق باحدى هذه الكليات وآنذاك يضمن العيش الحسن والمستقبل الارغد .. ام يختار كلية الهندسة فيخط لنفسه اتجاها واضحا ويمضي مع ذلك الاتجاه رغم الصعاب التي ستعترضه ورغم قلة عدد طلاب هذه الكلية ؟

ترى ماذا يفعل ؟

واخيرا صمم .. انه عزم على ان يلتحق بعدة معاهد كي يجرب طاقته الذهنية وينمي معارفه ، ويغترف من مناهل الثقافة العذبة .

لقد كان رائده التحصيل على المعرفة ليخدم بلاده وينفع شعبه ، اما ذاته فيكفيه ما عند والده من سعة ثراء ، ورخاء عيش .

تابع اولا دراسته في معهد « سان لوي » فتعلم العلوم الحسابية في هذا المعهد ، ثم التحق بمدرسة : « البوليتيك » وفيها قام بتحليل نظرية لم يقع تحليلها من قبل تحليلا محكما ، ثم انخرط في سلك تلامذة المدرسة القومية للمناجم لمدة سنتين وتحصل فيها على كثير من المعارف ، كما انه حلل مشكلة هامة تتعلق بالمرونة والتمطط نالت اعجاب اساتذته واستحق عليها الشكر والثناء ، كما التحق « بالسربون » واحرز منه على الاجازة في الآداب ، كما فاز بالاجازة من كليتي «العلوم والحساب» و «بالديبلوم» من المدرسة الحرة للعلوم السياسية .

وتطلع طلبة المغرب العربي الى هذا الشاب الذي فاز بكل هذه الشهائد ، وتسابقوا الى استقصاء كل اخباره ...

أفليس هو واحد ممن انجبتهم بلاد المغرب العربي وممن ينبغي ان يفخروا به لاستقامته وجديته وذكائه وبعد نظره ؟

ودفعهم الشوق الى التعرف على هذا الشاب الجامعي التونسي المنبت الذي ينحدر من مدينة بنزرت الكائنة بأقصى شمال البلاد التونسية .

كانت ولادة هذا الشاب بهذه المدينة في ١٥ ديسمبر ١٩٠٦ وبعد ان تعلم بمدرستها الابتدائية ، التحق بالمدرسة الصادقية بالعاصمة وفيها أحرز على « الديبلوم » ثم انخرط في سلك تلامذة المدرسة العليا للغة والآداب العربية واحرز على كل شهائدها الثانوية بتفوق قبل ان يلتحق بباريس .

عائلته : وتنحدر عائلة هذا الطالب الالمعي من بلدة راس الجبل التي تبعد عن بنزرت ٣٢ كلم وقد مضى على استيطان هذه العائلة بهذه البلدة ما يقارب المائة والخمسين عاما وليس ادل على هذا من الحديث الذي افرده المؤرخ احمد بن ابي الضياف عن احد افراد هذه العائلة وهو العالم الفقيه الشيخ محمد العنابي قاضي راس الجبل في عام ١٨٤٦ عند تعرضه بالكلام عن احمد باشا الاول .

لقد ذكر هذا المؤرخ ان الفقيه الشيخ محمد العنابي التجأ الى مقر السفارة البريطانية وذلك عندما اصر صالح شيبوب أمير عسكر غار الملح على اخذ ابني القاضي المذكور للعمل بسراية غار الملح عنوة رغم عدم علم احمد باي بهذا الامر ، اذ كل ما يعلم هذا الباي هو ان المهندسين وصالح شيبوب نفسه اعلموه وحدثوه كثيرا بأن هذا المرفأ الجديد سيكون اول مرفأ في حوض البحر الابيض المتوسط .

اما والد هذا الباحث الكبير فهو السيد البشير العنابي من مواليد بلدة رأس الجبل وبها زاول تعليمه الابتدائي ثم انتقل الى المدرسة الصادقية ، وبعد ان تحصل على « الديبلوم » منها باشر العمل الاداري كمترجم في المراقبات المدنية وقد ذكر مؤلف « النزهة الخيرية » ان البشير العنابي قد تولى هذه الخطة عام ١٨٩٧ بجندوبه ، كما وان آخر مركز عمل فيه في نطاق هذه الخطة هي مراقبة بنزرت قبل ان يصبح كاتبا عاما لبلديتها .

لم يقض السيد البشير العنابي مدة طويلة بهذه البلدية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اذ سرعان ما استقال منها بسبب نشوء خلاف بينه وبين الكاهية المفوض للبلدية المعروف بحب سيطرته وبطشه وبعدم احترام التونسيين مهما كان الوسط الذي ينتمون اليـــه .

ومرت الايام كالبرق الخاطف ويقترح عليه ان يترشح للمجلس الكبير عام ١٩٢٢ وفعلا لبى هذا الاقتراح فانتخب كاهية لرئيس القسم التونسي من ذلك المجلس .

وحسب توصية تلقاها من زملائه قدم في ذلك العهد مذكرة الى المقيم العام الفرنسي ضمنها رغبة سكان الجهة وشوقهم الشديد لاجراء اصلاحات في الميدانين الاقتصادي والاداري .

وقد اغضبت لهجة المذكرة السلطة الفرنسية حيث اعتبرتها منافية لمهمة المجلس (الاستشارية) ومما يؤكد لنا هذا هو تعقيب صحيفة « الديبيش » على هذه المذكرة بعددها المؤرخ بيوم ١٩٢٥/٢/٢٢ مما اضطره الى الرد عليها بمقال نشرته لـــه النهضة تحت عنوان : « اظهار حقيقة » .

ان الذي ينبغي ان يستنتجه كل باحث نزيه من خلال جولة مع صحافتنا التونسية القديمة هـــو ان السلطة الاستعمارية قهرت شعبنا وكبلته بأقسى القيود ، ولن يردها رادع ان هاجمت التونسيين حتى ولو كان من ابناء الذوات الموالين بعض الولاء اليهم خاصة حينما تلاحظ بعض المظاهر التي تدل على انه من بين ابناء اولئك الذوات من ينوي ان يحل محلهم في اي ميدان كان .

ومما يثبت كل هذا بوضوح انه وحتى في هذه القضية بالذات ان حملة جريدة « الديبيش » على والد محمد علي العنابي ليست العريضة فحسب بل هناك ايضا سبب خفي ايضا يتمثل في شرائه لمزرعة كانت ملكا لاحدى الشركات الفرنسية .

فهذه المنافسة اعتبرتها السلطة الحاكمة تتنافى مع الاختيارات الاستعمارية ومع القوانين الفلاحية التي سنتها وحتى مـــع النصوص الملحقة التي صدرت عقب امضاء معاهدتي باردو والمرسى .

عصره : نشأ الفقيد محفوفا برعاية والديه وعاش في الفترة التي تمتد بين عام ١٩٠٦ و ١٩٦٢ وهي الفترة التي عرفت فيها البلاد ضعف دولة البايات وازدياد النفوذ الاجنبي بمقتضى القوانين الجائرة والاوامر والقرارات التي عرفت في مجموعها فيما بعد باسم « النصوص الملحقة » .. لقد شاهد عملية تطبيق هذه القوانين التي مكنت فرنسا من التدخل في شؤون البلاد ومن الاستيلاء الكامل على خيرات الشعب والانفراد بأجهزة الحكم ، وبجانب هذا امكن له ان يرى المحاولات المبذولة من طرف مثقفي بلاده للابقاء على الشخصية التونسية والحفاظ على اصالتها امثال : علي باش حامبه ، وعلي بوشوشه ، وعبد العزيز الثعالبي ، ومحمد علي ، والحبيب بورقيبه ، وفرحات حشاد .

كما تتبع ما كان ينشر في صحف ومجلات عصره مثل : «الحاضرة» و «الترقي» و «سبيل الرشاد» و «الصواب» و «الزهرة» و «العمل» و «النهضة» و «الحرية» و «لواء الحرية» و «المباحث» و «العالم الادبي» و «تونس المصورة» و «الزيتونة» و «الافكار» و «الندوة» و «الفكر» .. انه اطلع على كل ما كان ينشر وقارن بين حال التونسيين من فترة الى فترة ، فأحب ان يكون جنديا من جند هذه البلاد يغار عليها ، ويدفعها الى الامام ، بانكبابه على المعرفة ، والتطلع الى المستقبل البسام .. لقد انخرط في عدة كليات وتلقى فيها الكثير من المعارف وبز فيها اقرانه ، ثم بعد هذا شارك اخوانه التونسيين والمغاربة في نشاطهم الثقافي وتعرف على مشاكلهم وحاجيات بلدانهم .

انه عاش كل احداث عصره وتتبع اخباره وتفاعل مع ابناء بلاده سواء ايام اقامته بفرنسا او في « جمعية نجم شمال افريقيا » التي انتخب لرئاستها عدة مرات او في « قدماء الصادقية » لما اختير لادارتها والاشراف عليها .

كما كانت له مشاركات ذات بال ايام الازمات التي يتعرض لها الوطن فيعقد ندوات صحفية بالخارج ويعرف بقضايا وطنه ، ويبلغ صوت بلاده عاليا في المحافل الدولية .

واثر تحقيق انتصارات الشعب التونسي ساهم بجد في كل مشروع للتنمية قدم اليه فأضفى عليه من خبرته وتجاربه ومعارفه كل ما يؤمله كل تونسي للبلاد التي انجبته وهو بهذا الجهد يكون قد عاش كل اطوار امته وعمل في المنهج السوي الذي ارتضاه ضميره .

عاش محمد علي العنابي في فترة مضطربة شاهد فيها الشعب كل الوان المظالم والتعديات فراى سوء تصرف الشركات وقمع محاولات الاصلاح الاجتماعي ، وتقمص الحركة الوطنية في شكل كتـــل تجمعت حـــول جرائد : « الحاضرة » و « المنتظر » و « المبشر » و « سبيل الرشاد » و « الرشدية » و « الزهرة » ، كما عاش فترة الوعي بالزيتونة وتأسيس الجمعيات الرياضية ، وثورة ابن عسكر عام ١٩١٥ وتأسيس الحزب الحر الدستوري عام ١٩٢٠ وانبعاث الديوان السياسي في ٢ مارس ١٩٣٤ والمقاومة التونسية التي اندلعت ايام ٩ افريل ١٩٣٦ و ١٨ جانفي ١٩٥٢ و ١٩ جويليه ١٩٦١ .

ومن الطبيعي ان يتأثر هذا المثقف بمثل هذه الاحداث وان يساهم بمجهود لا بأس به في بعضها كما سنبينه فيما يلـــي :

انه درس في عدة كليات وتحصل على شهائد جامعية كثيرة ، وقدم عدة بحوث علمية ، وشارك في كثير مـــن المؤتمرات الدولية ، وكتب مجموعة من المقالات والدراسات الدسمة في عدة مجلات عالمية ، وقد استلفت هذا النابغة الافريقي انظار كبار اساتذة باريس فأصبح نبوغه حديث

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كل النوادي الثقافية الامر الذي قرر بموجبه « معهد السربون » في عامي ٣٢ و ٣٣ ان يكلفه بالقاء محاضرات في كليات الفلسفة والعلوم والتاريخ فنال بهذا الشرف العلمي صدى كبيرا في كل الاوساط .

وامام هذا النجاح الذي احرز عليه في هذه المحاضرات طلبت منه جامعة « السربون » ان يتخلى عن جنسيته التونسية ليصبح استاذا رسميا بهذه الجامعة حسب قانون الوظيفة العمومية الفرنسية في هذا الشأن لكنه ابى قائلا لعميد هذه الجامعة : « اني تعلمت لانفع بلادي لا لانتفع شخصيا ولو بأسمى الوظائف في اعظم دولة من دول العالم(١) » .. ولا شك انه عبر بهذا الموقف عن وطنية صادقة ، وعن حب عميق للارض التي انجبته ، وللشعب الذي ينتمي اليه .

واثر عودته من فرنسا ظل يناضل في صلب جمعيتي « قدماء الصادقية » و « احباء الطلبة » ويسعى بكل جهد لنبعث عقلية علمية في البلاد تكون خير باعث على رقيها وازدهارها .. انه يفعل كل ذلك دون خشية او خوف لانه آمن : « بأن للمثقف رسالة وقد خلق لادائها مهما كان الثمن » .

كما لم يبخل بأي جهد عن الاجانب الذين يحلون بالوطن كلما حدثت ازمة سياسية فيقتبلهم باسم « قدماء الصادقية » او « جمعية المهندسين والفنيين التونسيين » ليقص عليهم ما تقاسيه تونس من قهر وظلم وقد استمر على هذا المنوال الى عهد المقيم الطاغية : « دي هوتكلوك » الذي حل بتونس عام ١٩٥٢ .

نشاطه الاجتماعي : لقد ساهم الفقيد محمد علي العنابي مساهمة فعالة في عدة مشاريع اجتماعية وثقافية سواء بباريس او بعد عودته لتونس وقد ابتدأ عمله الاجتماعي هذا حينما التأم مع جموع الطلبة المغاربة بباريس ايام دراسته هناك ، فكان يتصل بهم ويعمل معهم في ميادين الثقافة والمعرفة ، ولعل من ابرز مظاهر مساندته لزملائه الطلبة مشاركته في تأسيس جمعية « طلبة شمال افريقيا » بفرنسا عام ١٩٢٨ فقد ساهم في بعثها ثم كان عضوا عاملا في مجلس ادارتها .

وقد دفعه واجبه الاجتماعي حينما انتبه الى النقص الموجود في عدد الطلبة التونسيين الذين يتلقون الدراسات الفنية بمعاهد فرنسا فقام بعمل كبير واقنع الكثير من هؤلاء لكي ينخرطوا في كليات « الهندسة » و « الميكانيك » و « المعادن » ، ولم يكتف في هذا الشأن بالاتصالات فحسب بل تجاوز كل هذا فنشر تحريضا في نشرة الجمعية في سنتي ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ناشد فيه الطلبة لكي يقبلوا على هذه الاختصاصات ويندفعوا نحوها .

(١) محمد الصالح المهيدي : ١٩٦٣/٤/١٨ جريدة الصباح .

واثر عودته الى ارض الوطن استأنف هذا النشاط من جديد ولكنه ليس في « جمعية طلبة شمال افريقيا » هذه المرة بل في جمعية اخرى هي جمعية « قدماء الصادقية » .

ومن المعلوم ان هذه الجمعية منذ ان تأسست عام ١٩٠٥ على يد المرحوم علي باش حانبه : (١٨٧٩ — ١٩١٨) الى عام ١٩٣٠ اقتصر عملها على القاء بعض المحاضرات ، وانشاء مكتبة صغيرة ، واقتبال بعض الوفود العلمية ، كما ان ناديها الادبي كان نشاطه هو ايضا مقصورا على تونس العاصمة فحسب فلم يتجاوز هذه المدينة قط سوى مرة واحدة قام فيها برحلة الى سوسه عام ١٩٢٥ حيث انشأ هناك فرعا لهذه الجمعية ، فلما باشر محمد علي العنابي رئاسة هذه الجمعية عام ١٩٣٤ ، غير هذا المنهج ، واحدث ثورة عظيمة بها .. انه قام بتشريك بقية طبقات التلاميذ بمختلف المعاهد العلمية مثل جامع الزيتونة ومدرسة اللغة والآداب العربية ، كما جعل من هذه المنظمة مركزا من مراكز الاشعاع الفكري ، فقامت في تلك الفترة بعدة اعمال في مختلف ميادين الحياة التونسية ومنها الميدان السياسي وبتمثيل ذلك في المظاهرات التي كان يقوم بها الطلبة عندما يصاب هذا الشعب بنكبات الاستعمار كنفي الزعماء او ابعادهم او ايقافهم في السجن(٢) .

كما وجه هذه الجمعية نحو اعداد الاطارات العلمية والثقافية والفنية خاصة فيما تحتاجه البلاد من اختصاصات في العلوم الفعلية لتقوم الاطارات المتخرجة من التونسيين مقام الفنيين الفرنسيين .

والتفت الامة حول هاته المنظمة فكان عيد المعلم ، وكان نصف شهر الطالب ، وكانت الاعانات والتبرعات تعطى بسخاء لاولئك الذين تغربوا من اجل العلم(٣) .

لقد شاهد كل من كان ينتمي الى هذه الجمعية او ينتسب اليها من بعيد ان روحا جديدة تسري فيها ، وان عملا هادفا قوامه اعداد الاطارات الفنية للبلاد يغزو نشاطها للاسهام في معركة تنمية طاقات الامة ودفعها نحو التحرر والبناء .

فكان انشاء النوادي التالية مثل :

نادي البحوث الفلسفية والاجتماعية الذي ترأسه بنفسه ، ونادي الشؤون الاقتصادية الذي ترأسه المرحوم الطاهر صفر ، ونادي البحوث التشريعية الذي ترأسه الاستاذ الهاشمي السبعي ، بمثابة الركائز القوية التي دعمت عمله الثقافي هذا ومهدت اليه .

كما ان المواضيع والدراسات والبحوث التي وقع الخوض والنقاش فيها مثل : تطور المذاهب الاقتصادية ، ونظرية التقدير وتطور القوانين ، والاسنان والقانون ، وتأثير التطور الفكري على التطور الاقتصادي ، وصلة

(٢) راجع مجلة الندوة ص ١٠ جانفي — فيفري ١٩٥٧ .

(٣) راجع مجلة الندوة ص ١٢ جانفي — فيفري ١٩٥٧ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الروح بالجسد ، والمعرفة ، وقوانين الصدفة ، بمثابة المنابر الحرة التي يلتقي فيها الطلبة برجال الفكر والعلم في تونس قصد استقصاء كنه المعرفة والتعرف على مدى نضج الفكر في تونس وقدرته على توجيه الراي العام نحو العلوم التقنية التي تحتاجها البلاد .

اذن فالذي يمكن ان استنتجه من خلال الجو الفكري الجديد الذي شع في ارجاء نادي « قدماء الصادقية » وفي فكر كل من كان يؤمها في تلك الفترة ، هو ان محمد علي العنابي مثقف ملتزم للمواد التقنية والعلمية وقد فكر كثيرا في النقص الذي تشكوه البلاد مدة اقامته بباريس في العلوم وفي الاطارات الفنية فأراد ان يخلق جوا علميا ومجموعة كبرى من البحاثين والعلماء لكي يساهموا في توجيه الفكر التونسي وجهة علمية وفلسفية فتضاف حصيلة جديدة في سلم الثقافة التونسية تنهار امامها كل المضايقات التي كانت تسنها السلط الفرنسية آنذاك .

ولم يقتصر نشاطه الاجتماعي عند هذا الحد ، اذ ساهم ايضا في جمعية « احباء الطلبة » التي تأسست لجمع الاعانات والتبرعات لفائدة التلاميذ المعوزين الذين ليس في امكانهم تحمل اعباء ومصاريف التعلم في الخارج وكان يعاضده في ذلك المرحوم الدكتور محمد التلاتلي رئيس هذه الجمعية .

ومن لا يثني على هذا المفكر حينما يتذكر مساعيه الخاصة وجهوده العظيمة لاعانة طلبتنا اثر توقف نشاط الجمعيات على اثر حوادث ٩ افريل ١٩٣٨ .. فقد بذل الفقيد محمد علي العنابي جهودا عظيمة في سبيل اعانة الطلبة فنظم نصف شهر الكتاب لاعانة الطلبة وفتح اكتتابا لفائدتهم بداية من غرة مارس سنة ١٩٤٦ ، ولما اتسع نطاق عمله في هذا المشروع في عام ١٩٤٧ طبع بطاقات باسم « يوم العلم » وزعت في كامل الجمهورية بمساعدة المنظمات القومية .

محمد علي العنابي .. العصامي : لقد جاهد محمد علي العنابي من اجل خلق نهضة علمية في بلاده ، وضحى سنوات عديدة لبعث هذه النهضة .. انه ابتداها منذ ايام اقامته بفرنسا واثناء تعلمه في « السربون » فأراد ان يهيء لهذه النهضة جيلا من الشباب المثقف ليتعاضد معهم من اجل تحقيق هـذه الامنية .. هيأ لهذه النهضة اسباب الانطلاق اولا بفرنسا اثناء نشاطه في « جمعية طلبة شمال افريقيا » ثم بتونس عند رئاسته لجمعية قدماء الصادقية على اثر عودته لتونس .

لقد شاهد المهندس محمد علي العنابي ما يعانيه المثقف التونسي من امتهان وحقارة من الاجنبي رغم اهمية الشهائد التي يكون قد تحصل عليها فالاستعمار يقف حائلا لكل تونسي ويحاربه بكل سلاح .. وهذا ما حدث لـه بالذات ، فعند عودته الى تونس بدل ان يجد مكانته في المجتمع كمثقف يحمل شهائد جامعية كبرى الحق بادارة الاشغال العامة كموظف بسيط فقامت الصحافة التونسية بضجة كبرى في هذا الشأن(٤) وفضحت سياسة المستعمر ، وشهرت بتعنت مدير الاشغال العامة الذي لا يحمل شهائد عليا كما يحملها المهندس : (محمد علي العنابي) .

وامام هـذا الجو المهرب صدر الامـر المؤرخ في ١٩٣٣/٧/٣ يقضي بتشريك المثقفين التونسيين في الوظائف السلمية لكن طبق رغبة مديري الادارات من الفرنسيين فقبل الفقيد هذا الحل المنقوص ، وبموجب هذا عين مهندسا مساعدا لرئيس مصلحة المناجم وفتح الباب لاول مـرة للتونسيين منذ الاحتلال عام ١٨٨١ .

لكنه وعلى الرغم من هذه المضايقات التي اصطدم بها ظـل صابرا وواجـه الصعاب برباطة جأش وشجاعة نادرة .. فأوقف حياته في خدمة مشاريع بلاده وخاصة الثقافية منها ونشر عديد البحوث الفلسفية والعلمية في كبريات مجلات العلوم في شتى البلدان بل ان اغلبها كانت تتسابق اليه لينشر فيها بحوثه وتعاليقه وآراءه ، ولعل من اهم البحوث التي نشرها بحث طويل حول : « استعمال الذرة في الاغراض السلمية » ، نشر هذا البحث على اثر انفجار قنبلة « هيروشيما » التي اطاحت باليابان .

فقد دفعه شعوره الانساني الى التشهير بهذه الجريمة والى اضاءة الطريق للبشرية لكي تستفيد مـن الذرة في الاغراض السلمية .

وقد بلغ بفضل هذه الدراسات قمة المجد العلمي فعد من اعلام الذرة ومن مشاهير المهندسين في العصر الحديث .

ولكي يزيد من انتاجية عمله الهادف هذا ، انخرط في الوكالة الدولية للطاقة الذرية التي كان مقرها مدينة « فينا » عاصمة النمسا بصفة شخصية .

وابتداء من ذلك التاريخ دهش العالم بما وصل اليه هذا المفكر من سعة معرفة في ميدان الابحاث الذرية ، ونتيجة لهذا كانت فرنسا تفاخر بما يقدمه هذا العبقري من موضوعات ودراسات فتعزو ذلك الى ان الفضل فيه يعود الى المهندس محمد علي العنابي من خريجي مدارسها وقد تناست انه يحذق عدة لغات وان ذكاءه وفطنته هما من اسباب تفوقه وتضلعه في هذه الابحاث .

نشاطه اثر الاستقلال : واثر حصول تونس على استقلالها عام ١٩٥٦ اندفع الفقيد في كل عمل رأى فيه نفعا لمواطنيه اندفاعا لا نظير له وبالاخص في ميادين الذرة والتكنولوجيا .. فقد سعى الى تشريك تونس في « الوكالة الاممية للذرة » وحضر مؤتمرها المنعقد « بفينا » في اكتوبر ١٩٥٧ ، فاطلع على وضعها العام وقدم تقريرا هاما لانجاح

(٤) راجع : الزمان : محمد الصالح المهيدي .

في هوى بنغازي

حي « بنغازي » والهوى بهواها ... وسنا الحب نوره غطاها
قد أتى الحب في عشية يوم ... وصحا الشوق في الحشا فشواها
فعيوني مكحولة بسهاد ... عاشقا ليلها محبا ضحاها
ملكين رأيت جاءا حلالا ... يوم جالا بأجنح في سماها
يبعثان الجمال والصحو فيها ... يودعان الاسرار في أولياها
يصعدان السماء والارض تطوى ... في سكون الزمان قد تركاها
وصرفت السنين صبا مشوقا ... في هواها مضيعا في رباها
وذرفت الهتون لا ادمعات ... كالمحبين سكرة وانتباها
وانعتاقا وبسطة وانقباضا ... وائتلافا وصحوة واشتباها
وجفاني الرفاق فردا معنى ... سحرتني بحسنهن نساها
قاتلات باللحظ او عابثات ... بقلوب شبابها اسراها
نظرة من خريدة تتثنى ... في حنايا الزقاق ما احلاها
يقظة الحس يقظتي حيرتني ... وجراح العيون لا انساها
وسرى الود في القلوب مشعا ... قمر الحب والهوى اضواها
اجر يا ماء من عيوني شئونا ... كالسواقي تسيل في مجراها
فمن الغيب قد اطلت حيالي ... روح شيخ بمقلتي اراها
قد تجلى الشريف غوثا ويكنى ... بالشريف (الزوام) سبع حماها
هو كنزي وعدتي وملاذي ... ومعيني وقدوتي في هداها
هو روح كبيرة نورتني ... وهدتني الى السما وعلاها
اي سر من روحه يتجلى ... اي نشر يضوع من مرآها

بنغازي ــ ليبيا — صلاح الدين جبريل

عمل هذه « الوكالة » ، كما بلغ احتياجات تونس لهذه المنظمة في ميدان الطاقة ، كما نادى في عام ١٩٥٨ ــ وفي مؤتمر هذه الوكالة بالذات ــ بأن تونس في حاجة اكيدة للتحصيل على مساعدات دولية لتستطيع مواجهة حاجياتها الاقتصادية .

واثر هذا كلف بانشاء مصلحة للابحاث العلمية والطاقة الذرية وتراس عدة وفود تونسية في مؤتمرات دولية للذرة ، مثل مؤتمر عام ١٩٥٨ الذي انعقد في شهر سبتمبر « بفينا » .

وعلى ضوء هذا النجاح الذي احرز عليه في المؤتمر الثاني للذرة عام ١٩٥٨ اختير لادارة « كوميسارية الطاقة الذرية بتونس » التي تأسست سنة ١٩٥٩ وقد ركز هذه الادارة وجلب لها المخابر والمعدات لكي تقوم بدورها في تنمية الاقتصاد ونشر بحوث السيطرة على المناخ فقوبل عمله هذا بالاكبار والاجلال وبقي في هذه الوظيفة الى ان توفي يوم ١٩٦٢/٤/٤ ودفن بتونس .

وهكذا قضى محمد علي العنابي حياته في الانكباب على المعرفة والتضلع فيها ، ثم في نفع مواطنيه في عدة مشاريع تحمل مسؤولياتها ، ورغم المظالم التي لحقته من جراء الاستعمار فقد صبر وتحمل المشاق في سبيل خلق « عقلية علمية » فعاش ملتزما لهذا الهدف الى ان فارقنا الى دار الخلد .

بنزرت ــ تونس — رشيد الذوادي



رستم كيلاني

الشاعر قاسم مظهر

بقلم رستم كيلاني

* * *

هل اذا مت ووريت الترابا ومضت روحي الى حيث الخلود
هل ارى في القبر ذلا وعذابا مثلما كانت حياتي في الوجود
قاسم مظهر

في ٢٨ يونيو ١٩١٦ وفي ليلة النصف من شعبان ولد شاعرنا المرحوم قاسم مظهر في حي الخليفة بالقاهرة من اسرة تمتد جذورها الى الاصل العربي والتركي ، واكثر اجداده تقلدوا مناصب كبيرة في الجيش ، وكان منهم طاهر باشا مظهر الذي كان محافظا بالاسكندرية ، وابراهيم بك مظهر الذي كان قائدا للمدفعية في عهد ابراهيم باشا ، ووالده المرحوم محمود مظهر من محبي الخط العربي ، وشقيقه المرحوم عبد الحميد لطفي مظهر الذي كان استاذا بكلية علوم جامعة عين شمس ، ورغم حصوله على اكبر درجاته العلمية من جامعات لندن كان محبا للشعر ومن ناظميه وقد اسهم في الحركة العلمية بالكثير من مؤلفاته التي قامت بطبعها وزارة التربية والتعليم ومؤسسة فرانكلين . وكان عمه المرحوم امين مظهر مديرا للمطبوعات وشاعرا من الشعراء البارزين في عصره وكان يقدر شعره الشاعر محمود سامي باشا البارودي ، وخاله احمد زكي الكاشف من كبار المهندسين المعماريين ، وكان كاتبا روائيا ، ومن حبه للادب اصدر جريدة (الوفاء) التي لم تستمر طويلا .

التحق شاعرنا المرحوم قاسم مظهر بمدرسة السلحدار الابتدائية ، ثم بالمعارف الثانوية ، ثم بجامعة عين شمس حيث حصل على بكالوريوس التجارة .

وقد تقلد عدة وظائف مختلفة ما بين وزارة الحربية ، ووزارة الارشاد القومي ، ووزارة المالية ، واخيرا وزارة التجارة (وكالة الوزارة لشؤون البحوث الاقتصادية) .

ورغم اتجاهه الواضح نحو دراسته العلمية فقد شغف بالادب الذي ظهر على مسرح حياته ، وساعدته على الاندماج في الاوساط الادبية مجموعة كبيرة من الرواد الاوائل الذين كان لهم الفضل والاثر الطيب في توجيهه ، وتثقيفه ، فقرأ الادب الاتباعي الاصيل على ايدي الاساتذة الاجلاء المرحومين : كامل كيلاني ــ محمد صادق عمبر ــ الدكاترة زكي مبارك ــ طه حسين ــ عباس محمود العقاد ثم الشيخ حسن القاياتي الذي رواه من منبع الادب العربي والذي كان يعرض عليه شعره لينقحه وليهديه سواء السبيل .

نشر شاعرنا المرحوم قاسم مظهر شعره في اكثر الصحف والمجلات المصرية والعربية خلال الفترة من ١٩٣٤ ــ ١٩٧٤ وكان من بين هذه الصحف والمجلات التي اهتمت بنشر قصائده الشعرية :

ــ جريدة الاهرام في عهد الاستاذ انطون جميل
ــ جريدة الجهاد في عهد الاستاذ توفيق دياب
ــ جريدة روز اليوسف في عهد الاستاذ عباس محمود العقاد
ــ جريدة الوادي في عهد الدكتور طه حسين
ــ مجلة الثقافة في عهد الاستاذ احمد امين
ــ مجلة الثقافة الجديدة في عهد الاستاذ محمد فريد ابو حديد
ــ مجلة الثقافة الشهرية في عهد الدكتور عبد العزيز الدسوقي
ــ مجلة الرسالة في عهد الاستاذ احمد حسن الزيات

وكذلك مجلات : المقتطف ــ ابو الهول ــ الصباح ــ الراديو ــ الشعر ــ الاديب (اللبنانية) ــ الجديد ــ منبر الاسلام ــ المسلم ــ البيان .

اما بالنسبة للاذاعة سواء المسموعة او المرئية فقد بلغت مقطوعاته الغنائية اكثر من خمسمائة اغنية تغنى بها الكثير من المطربين والمطربات في عصرنا هذا .

وفي عام ١٩٥٠ صدر لشاعرنا قاسم مظهر ديوان (حفيف الغابة) بمقدمة لفقيد القصة العربية الكاتب الكبير محمود تيمور نجتزىء منها هذه النبذة :

« ان من كسب الشعر هذا الديوان الذي يقدمه الشاعر الاديب قاسم مظهر فاذا قلت انه ينحو في كثير من طريف موضوعاته منحى التجديد في الشعر فانك على حق ، وان قلت انه شعر عربي صريح العروبة في متانة نسجه ولطف اخيلته وشغوف معانيه فلست تجانب الحق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وانت على اية حال مستمتع بما يبسط لك من عواطف رقيقة تنتقل بك بين الوجد والطرب ، فتحمد للشاعر تعبيره ، وتقاسمه شعوره » .

وبهذا الديوان استطاع قاسم مظهر بجدارة ان يقف في مصاف كبار الشعراء ، كما له اكثر من سبعة دواوين مخطوطة معدة للطبع تمثل طاقته الكبيرة فيما اخرجه من عشرات القصائد التي تتناول عدة موضوعات مختلفة وفي الحقل الاسلامي ومحيط الاسرة التي تتكون من ولدين وسبع اناث .

وقد قام شاعرنا قاسم مظهر بكتابة عدة مقدمات للمؤلفات الشعرية والزجلية منها مقدمة (ديوان الاسمر) ، و (الشرارة) لشيخ الزجالين عبد الفتاح شلبي وغيرها .

كما اسهم واشرف في تقديم الكثير من الندوات الادبية منها: جمعية الادباء ـ نادي القصة ـ الرابطة الاسلامية ـ العشيرة المحمدية ـ ندوة القباني الادبية ـ الشبان المسلمين ـ الشبان المسيحيين ـ رابطة الادب الحديث ـ هيئة خريجي الجامعات .

وتوفي الى رحمة الله في ١٧ من رمضان ١٣٩٥ هـ ـ ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٥ م .

مختارات من شعره : وفيما يلي نقدم بعض القصائد والمقطعات الشعرية لشاعرنا قاسم مظهر الذي امتاز بمتانة الاسلوب الادبي من حيث الجزالة والاصالة واحياء الكثير من الالفاظ المجهولة ذات الدلالات الطيبة ، كما كان شاعري النفس ، شاعري التعبير ، حاد الاحساس ، مرهف العاطفة هكذا قال فيه « محمود تيمور » .

الى فنانة

هات قيثارة الغرام وغني ... اغنيات الهوى فروحي لديك
داعبي العود بالحنان فيسمو ... بفؤاد يصبو ويهفو اليك
داعبي العود يا منى القلب حتى ... ترتوي النفس من جمال يديك
داعبي العود فالحياة غناء ... عبقري يفيض من شفتيك
كل لحن سمعته ما شجاني ... غير لحن يذوب من اصبعيك

لقاء خاطف

ظفرت برؤياها على غير موعد ... فسلمت لكن في تردد مجهد
وقاومت نفسي كي تقاوم وجدها ... فلم تستطع صبرا وجنت تجلدي
واطرقت مما رابني خوف نظرة ... تثير خفايا النفس بعد التهجد
وخفت على قلبي يصارعه الاسى ... فيرتد خفاقا ويسقط في يدي
وما حيلتي والحب ليس بمنطو ... وما حيلتي والقلب ليس بمهتد

هذي الحياة

هذي الحياة سفين ضل رائدها ... ودوحة نبتت في ظل اشجان
لا تستقر على حال فنتبعها ... كانها كرة في كف نشوان
والكون مهما تراءى في مباهجه ... فانه صورة من حلم سكران

اخي

اخي ما قيمة الدنيا ... وفيها كل مجروح
شقي كل من يحيا ... اسير العقل والروح

وفي ١٩٧٣/٨/٢٥ فقد الادب العربي الاستاذ محمود تيمور الذي كان صديقا حميما لشاعرنا الراحل ، فقال فيه مرثية طويلة بعنوان (دمعة وفاء) نشرت في مجلة (الجديد ـ اول اكتوبر ١٩٧٣) نقتطف منها الابيات الآتية :

قضت السماء بان يفارق جمعنا ... « محمودنا » واستشهد المصباح
عبر السنين فما تراخى جهده ... يوما ولا مل الصعود جناح
خط الكثير من الروائع وحيه ... ونماره طابت بها الارواح
والى البيان قديمه وجديده ... وله على متن السحاب براح
يهوي ويؤثر كل لفظ مشرق ... وفي على رحباته الافصاح
قد كان « محمود » العظيم نموذجا ... والصدق من صفحاته ينداح
اصفى القلوب مودة ومحبة ... يغدي به صفو المنى ويراح
يا للتراب يضم تحت لوائه ... هذي الشمائل والشذا فواح
هيهات يا هذا التراب تروعه ... ورصيده فوق السنا ارباح
اضفى الخلود على الخلود بفنه ... وجه على افق الهدى وضاح
هذا التراث وانه عند الحجى ... قيم على شفة الحياة فصاح

تعبت دموعي كل يوم نازح ... والموت غدا بنا رواح
في كل يوم راحل عن دربنا ... لم يبق بعد على الظلام صباح
عش في جوار الله واسعد عنده ... فسلامة للواصلين متاح
واخلد حبيب العمر واغنم هانئا ... بنصيبك الموفور فهو رباح

وبمناسبة الاحتفالات بالذكرى الثانية لمعركة اكتوبر العظيم صدر عن مكتبة دار الشعب ديوان (مصر اكتوبر) يضم سبع عشرة قصيدة لشعراء العرب المعاصرين من بينها قصيدة لشاعرنا الراحل قاسم مظهر بعنوان (بطل سيناء) نقتطف منها بعض الابيات التالية :

يا ايها الجندي انك بالهدى ... اهل لكل مخلد وممجد
ان شئت اسلحة الدمار قذفتها ... ترمي فتحصد كل قلب انكد
وعلى يديك النور مؤتلق الضحى ... للسالكين وهاله للمقتدي
كم خضت في الماضي البعيد معاركا ... واليوم خضتها بالضياء الارشد
واجعل عدوك للذي تختاره ... واسلك سبيلك للاله الاوحد
فالكل في شرف الجهاد موفق ... والكل بين مسبح وموحد
ان الدفاع عن البلاد امانة ... وحملتها بشجاعة وتجلد

وحسبي من كلمتي هذه المختصرة ان اكون قد وفقت في عرض بعض الجوانب من حياة فقيدنا العزيز الشاعر قاسم مظهر مع تقديم مختارات من شعره ذات اللمسات الشاعرية الرفيعة ، وهذا غير ما تركه من المخطوطات العديدة المعدة للطبع من شعره ، ودراسات مستفيضة للشعراء والادباء ، وكم كنا نأمل ان نراها مطبوعة قبل ان يودعنا ذلك الوداع المحتوم .

طابت ذكراه .. وأسأل الله ان نلتقي واياه على الايمان واليقين .

القاهرة — رستم كيلاني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انتقام عانس

بقلم جمعة محمد جمعة

منذ جلست نجوى وهي ترمق ليلى بنظرات الحسد والغيرة ، ومشاعر الحقد تمور في قلبها .. تمسح بعينيها بقايا الزينة العالقة بوجه ليلى رغم انها بقايا زينة الا انها اضفت على وجه ليلى جمالا يشد الانتباه .. ربما من سحر المناسبة — خاصة — بالنسبة للفتيات فهي ليلة من ليالي العمر التي تتوق كل فتاة اليها ، وتنتظرها بفارغ الصبر ، وربما لان ليلى دون زينة تتمتع بجمال هادىء اصيل حبتها به الطبيعة من حولها ، وربما لان التناقض في موقف حساس كموقف الامس .. اصاب دمها بالتجمد ، على لونه الاحمر القاني .. التناقض الذي انتفض فيه الدم نشوان بالسعادة ، وانتفض نفس الانتفاضة شعورا بالتعاسة .. كان الموقف عصبيا للجميع .. فلا التهاني تليق بالمقام ، ولا المواساة ايضا تليق به .. احتارت ام ليلى حيرة عايدة في مكان آخر من الدار .. هل تقدم للزائرتين الشربات ام تقدم لهما القهوة السادة .. ؟ ..

هزت عايدة راسها ، لا تدري هل تقول لعروس ابن عمها : « الف مبروك وعقبال الزفاف » ام تقول كما سمعت من افواه بعض الذين شاهدوا الحادث : « قدر ولطف .. كانت الرصاصة ستصيب شعبان في راسه » ..

لكن الصمت لم يدم طويلا .. فالنساء فنانات في اختلاق مجالات للثرثرة — بمناسبة وبدون مناسبة — اخذت عايدة تنقل مشاعر زوجها رجب الى ليلى .. تصف كيف اصابه الحزن فلم يتناول عشاءه ، ولم يغمض له جفن طوال الليل .. يتقلب في فراشه .. يضرب كفيه مندهشا مستغربا .. ومن خلال كلامها لمحت الى تهكم امها عن شعبان ، وعن انه طوال عمره منكود الطالع .. يلازمه سوء الحظ .. لولا ذلك لقبلها زوجة له بدلا من رجب الذي استحوذ على كل ممتلكات ابيها .. ومع ذلك فهو يذلها ويهينها ويرى نفسه كبش الفداء الذي لولاه لما تزوجت ، ولما وجدت من يتزوجها .. ولظلت عانسا حتى الآن مثل نجوى ..

مصمصت عايدة شفتيها وهي ترمق نجوى ، والكلمات تسقط داخلها : « كان المتعوس اولى بلحمه ودمه » ..

نظرت نجوى الى عايدة وهمست في نفسها : « ها هي ابنة عمه تنتقم منه على طريقتها الساذجة ، وكل اهل البلدة يعرفون كم بذل ابوها ماء وجهه من اجل تزويجها من ابن اخيه .. شعرت بمشاعر افتخار وعزة لم تلبث ان ماتت .. كانت تود ان تكون قصة رفضها لشعبان مثار فخر لها على مدى الايام لو تزوجت ..

لكنها تأسف لعدم زواجها حتى الآن واعتبار اهل البلدة رفضها لشعبان منذ سنين طويلة تمردا نالت عليه جزاءها باعراض كل راغبي الزواج عنها .. تشعر بالرغبة في الاطباق على عنقه وخنقه اذ خيل اليها ان سوء الحظ انتقل اليها بالعدوى ، وقد بذلت امها المستحيل لفك عقدتها .. صحبتها معها تجوب القرى والبنادر الى المشايخ ، وامتلأ صدرها بالاحجية والتمائم ، ولجأت الى الخاطبة ، والسنون تكر وتفر حتى شارفت على الثلاثين من عمرها ولم تتزوج ..

هزت نجوى راسها لتبعد تلك الخواطر القديمة ، ونفث شيطان الشر في صدرها رغبة متعطشة للانتقام .. تستعرض في راسها كل الوسائل والطرق بحثا عن ثغرة ينفذ منها سمها الزعاف الى جسد الحياة الجديدة بين ليلى وشعبان ، وفجأة برز في ذهنها ما سمعته عن المرض الذي اصابه .. قالت متوجهة بحديثها الى عايدة :

— هل برأ ابن عمك شعبان من مرضه الذي قيل انه معد ؟

قالت عايدة في سذاجة الريفية التي لم تنل اي قسط من التعليم او الثقافة، ولا اقل القليل من الوعي :

— برأ والحمد لله .. وان كان المرض ينتابه اذا تعرض للبرد الشديد او الحر الشديد ..

مسكين .. كان على شفا الموت لولا عناية الله ..

نقلت ليلى عينيها بين ضيفتيها وعلى لسانها يقف سؤال اخرس تود النطق به .. لكنه بدا ملتصقا بلسانها التصاقا شديدا .. اخذت انفاسها تتلاحق ، ونبضات قلبها ترتفع ، وتدوي في الخواء الذي ملأ راسها ..

نظرت ليلى الى الزائرين في غضب وثورة .. انتابها توتر عنيف .. توشك ان تطرد ضيفتيها وتصب فوق راسيهما غضبها .. تدفعها رغبة اخرى الى الصراخ بالنداء على شعبان .. تريد ان تعرف منه كل شيء عن نفسه .. شعرت بالدوار وهي تستعيد ما سمعته وكأن دوامة عنيفة تدور وتلقي بها في غياهب الهاوية ..

هبت واقفة.. تبعت نجوى وعايدة اللتين قبلتاها قبلات النفاق والكذب.. شيعتهما حتى باب القاعة .. استدارت عائدة الى مجلسها والقت بنفسها في انهاك وارهاق ..

دخل شعبان ورآها منكفئة على

الملاح والعاصفة

تتقاذف الامواج قاربه الصغير
ويداه بالمجداف تضرب
دون جدوى
فالبحر حين هياجه وحش خطير
وعليه مهما اشتد لن يقوى !
والجو اصبح مكفهرا وجهه
والليل جاء فضاعف البلوى
يا ايها الملاح يومك عاصف
ويد الطبيعة بأسها عات شديد
والريح تزأر في الفضاء كأنها
قطعان آساد تفر من القيود
وتسوق ارتال الغيوم امامها
كالقائد المنصور يزحف بالجنود
والبرق يقتحم الظلام وميضه
فتردد الاصداء قهقهة الرعود
والبائس الملاح
يسأل ما المصير
والبوم تعزف فوقه اللحن الاخير
وشراع قاربه التعس ممزق
كلواء جيش خاسر مدحور
وقفت يدا الملاح عن تجديفها
ورنا اليه الموت من بين القبور
وطغى عليه الماء بعد ضياع قاربه
فهوى الى الاعماق
بعد افول كوكبه
فتلقفته جحافل الاسماك
في شوق كبير

عمان ــ الاردن — رياض العزة

مساند الكنبة تبكي .. قال منزعجا وهو يحاول رفع راسها :

ــ ماذا بك يا ليلى ؟

قالت وهي ترفع اليه وجها مغرقا بالدموع :

ــ من ؟ .. شعبان .. ؟

قال شعبان وهو يجلس بجوارها :

ــ اجل يا ليلى.. ماذا حدث ؟.. ماذا قالتا لك .. انني اعرفهما .. كلتاهما عدوة لي ..

قالت ليلى وهي تجفف دموعها :

ــ لا شيء يا شعبان ..

قال شعبان :

ــ لا يمكن .. دموعك تقول : حدثت اشياء كثيرة .. قولي يا ليلى .. لا بد ان اعرف ..

قالت وهي تشيح عنه بوجهها :

ــ لا .. ليس الآن ..

قال شعبان غاضبا وقد نفذ صبره :

ــ لا يمكن ان احتمل ذلك .. لا بد ان اعرف ما حدث .. لا شك انهما اساءتا الي ..

قالت ليلى مجهشة بالبكاء :

ــ شعبان ارجوك دعني الآن .. لا احتمل اكثر من ذلك ..

قال شعبان متضايقا :

ــ لماذا تزوجتني ؟ .. اكنت تعرفينني ؟

قالت وهي ترمقه حزينة :

ــ لا .. انا ايضا قبلت الزواج منك .. اكنت تعرفني ؟

ــ لا ..

هبت واقفة وقالت وهي تجز على اسنانها :

ــ شعبان .. لن يكون بيننا زواج الا اذا عرف كل منا الآخر ..

وغادرت القاعة مسرعة .. شيعها وهو يهز راسه ويتمتم : « انهما افعيان .. لقد افسدتا حياتي .. لكن لا بد ان افعل شيئا .. » ..

دق الارض بقدميه واندفع خارجا من القاعة .. اسرع دون ان يلقي بالتحية على حماه الذي هب خائفا وهرول وراءه مناديا عليه :

ــ استاذ شعبان .. شعبان ..

لم يلتفت شعبان وراءه .. ظل على اندفاعه كفرس جامح .. لكنه يدرك انه سيقف حتما من تلقاء نفسه ليعاود التفكير فيما حدث .. كان حرا .. ماذا دفعه الى الزواج ؟ .. لماذا تقدم الى ليلى ! لماذا اقترن بها.. لم يعد في استطاعته الفكاك .. ولا بد ان يعالج الامور بحكمة وصبر .. كان في الزمن الماضي يهرب من مثل هذه المشاكل .. لا يهتم .. لكنه الآن مضطر الى احتمال المكاره .. فكر في العودة ثانية .. لكنه آثر ان يذهب الى البيت ويرسل في طلب عايده ليقف على جلية الامر ..

القاهرة — جمعة محمد جمعة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الانسان والشيطان

مجموعة قصصية تأليف ابراهيم المصري ـ ١٣٦ صفحة ـ العدد ١١٨ من سلسلة « كتاب اليوم » ـ ديسمبر ١٩٧٦ .

في اقاصيص الكاتب الكبير والقاص المبدع ابراهيم المصري ، احس للوهلة الاولى انه ينتصر للفكرة اولا . فالفكرة هي العمود الفقري الذي يبني عليه هيكل القصة . وقد يسأل سائل : وهل هناك قصة بلا فكرة ؟ . نعم لكل قصة فكرة او مضمون او مغزى . لكن ابراهيم المصري حين ينتصر لفكرته ، فان الفكرة تستحوذ على لبه ، وتسيطر على مقدرات شخوص قصصه ، فاذا بهم جميعا مربوطون بخيوط كعرائس المسرح ، والمحرك للخيوط كلها هو الفكرة المهيمنة على ذهن القاص . ولا عجب في هذا ونحن بصدد مجموعة قصصية تحت عنوان « الانسان والشيطان » ، تدور قصصها حول الشيطان المعربد في نفوسنا . وقد انتصر الاستاذ ابراهيم المصري لفكرة تسلط الشيطان على الانسان ، ووجوب الفكاك من غوايته ، واستنهاض الارادة الكامنة فينا . اقول انتصر المصري لهذه الفكرة ، فهو لم يكتب قصة واحدة ، وانما نسج خيوط مجموعة قصصية يجمعها نسيج الفكرة الواحدة ، وان تنوعت وتبدلت المتغيرات والمضامين من قصة لاخرى . لكن لا مشاحة في ان الكاتب قصد من المجموعة كلها هذا الشيطان المعربد في دخائلنا ، والذي نستعيذ بالله منه في كل صلاة وفي تلاوة القرآن .

الشيطان الذي يتقمصنا يتشكل في صور مختلفة ، فيقلب اوضاعنا ، ويجعل امور حياتنا تختل . وشياطين المصري تتوزع بين الحب والطمع والغـدر والحسد والمقامرة والكهولة والدهـاء والاستبداد والتعصب والعبقرية . وربما اكتفى بهذه الشياطين كأمثلة لشياطين اخرى . ووجد فيما دبج يراعه الكفاية للانتصار للفكرة .

والحديث عن انتصار الفكرة عند ابراهيم المصري ، يدفعنا الى الحكم عليه بانه كاتب ملتزم . ولعل هذا ابرز ما يميز كتاباته . والالتزام نجده جليا واضحا في قصصه باسلوبها القاطع الحاسم ، وفي الصياغة القوية قوة الفكرة ورسوخها ، وفيما يكتب من مقالات تلتزم بالنصح المباشر وشحذ الهمم والطاقات الانسانية نحو الارادة والعزيمة وغيرها من الفضائل .

والحديث عن ابراهيم المصري ، هو حديث عن مفكر ناضج ، ومصلح قويم ، واديب انسان ، وقاص مبدع ، وكاتب مخلص لفنه . لا يترخص في الاداء ، ولا ينساق وراء شائع القول . وانما ـ كما اتخيله ـ هو صامد في صومعته ، مثابر في كتاباته ، لا يني ولا يتوقف عنده المدد والمداد . وقد وجه جل كتاباته نحو الفضائل والقيم الرفيعة ، لذا فلا غرابة اذا قلنا انه كاتب ملتزم ، التزام الاديب برسالته النابعة من وجدانه وفكره ، المستقلة عن غيره . هو نوع من الالتزام الذاتي ، وهو التزام محمود طالما نبع من نفس الاديب السمحة ، ولم يفرض عليه من خارجها . ولا غرابة ايضا اذا قلنا انه كاتب منتصر للفكرة ، يخلص لها ، من اول كلمة حتى آخر كلمة . والقصة عنده وعاء لتجسيد الفكرة ، او هي الثوب الذي ترتديه ، وفي ضوء هذا المفهوم يكون التقويم او النقد .

نتعرف في قصة « شيطان الحب » على عبد الغفار ، المحامي الناجح الذي انجذب الى امرأة لعوب ، واهمل شؤون بيته . ويدفعه الحب « الاحمق » الى تطليق امرأته ثلاثا . ثم يصدم بتصرف صديقه ، الذي عمل على تزويج من يحبها ، من احد الاثرياء ، حتى يصرف عنه وهم الحب لامرأة تغرر به . ولكن نفذ السهم ، وفات اوان الحل والربط . وقد شاء الكاتب ان يوضح كيف ينزلق الانسان وراء وهم الحب او شيطانه فيهوى الى الهاوية . واذا نوقشت القصة بهذا المفهوم ، تكون قد نجحت في نقل الفكرة الى الاذهان . لكن الحديث عن المعالجة القصصية يأخذ اتجاها آخر . وما اعترض عليه في هذا هو شخصية عصام الصديق الوفي الحريص كل الحرص على حماية صديقه عبد الغفار ، وأراد ان ينقذه من التردي في علاقة ضارة فيتهدم بيته . والى هنا ودور عصام الصديق واضح ومفهوم ولا غبار عليه. لكن عصاما ـ من اجل حرصه على عبد الغفار ـ يعمل على اقناع امينة ـ المرأة التي يلهث عبد الغفار وراءها ـ بالزواج من احد الاثرياء ، لتبتعد عن طريق عبد الغفار . وكانت قبل ذلك تسعى للزواج من ثري آخر . فهل امرأة لعوب كامينة ، يسهل اقناعها او فرض زوج ثري لتقترن به ؟ . اعيب على الكاتب رسمه لشخصية عصام ، المثالية جدا علاوة على تصرفها البعيد عن الواقع . والقصة في اطارها العام ، الى جانب الفكرة الجيدة والمعالجة الفنية ، ينبغي ان تكون منطقية وواقعية الاحداث .

وهذا شيطان آخر اسمه « الطمع » ، يتقمص نجوى وهي في مفترق الطرق . فمن اجل المال قضت نجوى عشرين عاما زوجا لعجوز مريض دميم . ثم اقترنت بشاب طامع لاه عاما وبضعة اشهر ، ثم آل بها الحال الى الاقتران بعجوز آخر وهو في الاصل حبيبها الذي كان يود ان ترافقه رحلة العمر من بدايتها ! .

واذا ما تملك الانسان شيطانه ، لا يتركه الا حطاما ، فلا مغنم له ، وتفقد حياته طعمها الحلو ، ولونها البهيج .

وفي قصة « شيطان الغدر » ، تفسر الزوجة حب زوجها المفرط ، وترجعه الى شبابها وصحتها ! . واغلب شخصيات الكاتب ناضجة وواعية لخوافي الامور . وتتيقن الزوجة من هذا ، اثر اصابتها بالسل الذي اوهن صحتها وصيرها من النقيض الى النقيض . ولعل اصابتها بالمرض من لزوم صنعة الكاتب القصصية ، لكنها صنعة متكلفة ، فالزوجة قبل مرضها ، قلقت من شدة تعلق الزوج بها ، وايقنت ان السبب يرجع الى صحتها . واذا بالكاتب ـ ليؤكد هذا ـ يسوق مرض الزوجة ، وكان الاجدر به ان يترك الاحداث تسير في طور طبيعي لا تكلف فيه . فالوساوس التي لعبت بعقل الزوجة ، كانت سابقة لاوانها ، فعلام القلق وهي زوجة شابة جميلة ، تحظى بحب الزوج ؟ . اما كان الاجدر بها ان تفاجأ حين داهمها المرض ، بتحول زوجها عنها الى صديقتها يسرية ؟ .

لكن الكاتب في غمرة احتفائه بالفكرة ، يقع في المحظور ، وتكون القصة مجرد تحليل منطقي لفكرته من خلال احداث قصة . فالخط الواضح للكاتب ان الفكرة تغلب المعالجة ، بينما من سمات الفن الناضج الموازنة بين الفكرة والمعالجة ، بين المضمون والشكل ، ومن خلال التناسق بينهما تبرز القيمة الجمالية .

ولنعد الى قصة « شيطان الغدر » . فقد طلق الرجل امرأته من اجل يسرية . وازاء وقوف الزوجة على حقيقة الامر ، ثار ثائرها ، واقبلت على الاكل بشهية حتى زايلها المرض وارتدت ثوب العافية . ويبدو ان الكاتب هنا يؤكد على ان علاج الادواء له شقان : الاول الادوية والثاني العوامل النفسية . وحين تماثلت للشفاء ، عرض عليها العودة ، ولا ادري المبرر وراء ذلك ، وقد تزوج امرأة غيرها . توافق على طلبه اذا هو طلق يسرية . وبعد الطلاق الذي لا رجعة فيه ، تنقض العهد ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتعرض عنه . لقد تملك شيطان الغدر من الاثنين ، تملك الزوج حين مرضت زوجته فطلقها ، وتملك الزوجة حين قبلت العودة اليه بعد تطليق الزوجة الجديدة ، ثم غدرت به .

ومن سياق قصص المجموعة ، نجد المصري يلجأ الى مساحة زمنية واسعة لتعطيه حرية تطويع الاحداث لفكرته ، مما يجعل قصصه اشبه بسيرة حياة . ولا يحق لاحد ان يعترض ويسميها روايات . فالمساحة الزمنية الواسعة لا تقلب القصة القصيرة الى رواية ، فالكاتب هنا يهمه في المقام الاول عرض فكرة اساسية . فاذا تحدث مثلا عن شيطان الغدر ، فانه يستعجل الاحداث فتكسر كشريط سينمائي ، متجاوزا الجزئيات والتفاصيل ، نازعا نحو الكليات والنتائج ، فكاتبنا صانع فكرة بالدرجة الاولى . وما دامت القصة تعبيرا عن فكرة اساسية واحدة ، فلنسمها قصة قصيرة ، ولا يعيبها الطول الزمني ، وان كان فن القصة القصيرة اعمق من ان يكون مجرد تعبير عن فكرة ما . لكن هذا هو مفهوم القصة القصيرة عند ابراهيم المصري .

ومن استقراء قصص المجموعة ، نجد ان العلاقة بين الانسان والشيطان تحكمها قوة الارادة عند الانسان . ويكاد يكون عنصر الارادة هو سر عبقرية ابراهيم المصري . فاذا ما تجاوزنا هذه المجموعة ، وبسطنا الرأي على اغلب كتاباته ، نجده كاتبا ذا رسالة اخلاقية ، لا يبني في الكشف عن ارادة الانسان وقوته الذاتية سواء بالقصة القصيرة او المقال . فنحن اذا ما قومنا ادب المصري في شموله ، وجدناه ادبا اخلاقيا بالدرجة الاولى ، وعلى دارس هذا الادب الاسترشاد بهدي هذا الجانب ، الذي يكشف شخصية المصري ويبرز عبقريته .

اعود الى حديثي عن عنصر الارادة الذي يحكم العلاقة بين الانسان وشيطانه . فمن خلال استقراء هذه القصص ، نجد الشيطان في حرب سجال مع ارادة الانسان . احيانا تنتصر الارادة ، كما نرى في « شيطان الكهولة » حيث تغلبت عاطفة الامومة فانتصرت على شيطان الكهولة الذي وسوس للام بالاحتفاظ بشبابها ، ثم تدرك في النهاية ان مصلحة بناتها اهم من الانقياد وراء الوسواس الخناس ، فتفيق ، وتصلح ما اتلفه الشيطان. واحيانا اخرى ينتصر الشيطان ، كما نرى في «شيطان المقامرة» . فالمقامر هنا ، يقاوم ثائره الذي يزين له المقامرة ، لكنه يضعف ، حتى يأتي الشيطان على ماله كله ، فيستدين ، وتنفصم العلاقة بينه وبين زوجته الحانقة .

ولكن المصري استثنى شيطانا من شياطينه ، والبسه ثوبا خيرا ، هو « شيطان العبقرية » ، حيث قص علينا عبقرية بيتهوفن الذي قاوم الصمم الذي عانى منه ، وكانت عبقريته الفنية اقوى مما اصابه . وانا اخالفه في ارجاع العبقرية الى وازع شيطاني طيب . نعم ، العبقرية تدفع الفنان او المفكر الى الاجادة والاصالة . وهي تنم عن موهبة دفينة . لكن المصري ارجعها الى « ثائر داخلي » يستوطن نفس صاحبها . ولا غضاضة في هذا ، لكننا ينبغي ان ننزهها عن افعال الشيطان . ولا يمكن التساهل هنا ، ونستثني شيطانا واحدا ونخلع عليه ثوب الفضيلة او الفن او الاصلاح . فالشيطان ، كما ورد في القرآن الكريم ، هو الرجيم ، وهو الوسواس الخناس . ونحن نستعيذ بالله من شروره . والشر ألصق بالشيطان ، حكما مطلقا ، لا رجعة فيه او مهادنة . ويمكن ان نقول « ثائر العبقرية » بدلا من « شيطان العبقرية » ، صونا للعبقرية التي تسعى لاسعاد البشرية والارتقاء بها في شتى المجالات .

وقولي هذا يجعلني اقف ايضا عند « شيطان الحب » ، تنزيها لصفة الحب . فالحب يسمو بالنفس ، والشيطان يدفعها الى الحضيض . وما ساقه الكاتب في احداث القصة ، يصور غواية امرأة لرجل ، فيتوهم انه يحبها ، وشتان الفرق بين الحب والوهم .

واذا جنبنا الحب والعبقرية ، وبرأناهما من غواية الشيطان ، ثم قلبنا في صفات الطمع والغدر والحسد والمقامرة والكهولة والدهاء والاستبداد والتعصب ، نجد فيها من الشر او الافساد او الاتلاف ما يحق ان ننسبها الى وسوسة الشياطين المعربدة في دخائل النفوس ، والتي تتطلب ارادة وعزيمة وجهاد النفس من اجل السيطرة عليها وقهرها .

ويعد ابراهيم المصري علامة بارزة في تاريخ القصة القصيرة المصرية . ولشد ما يبهرنا اخلاصه ووفاءه لهذا الفن الشائق ، حيث وقف عمره في الكتابات القصصية . وهو في كل ما كتب ، يبرز استاذا رائدا في القصة التحليلية النفسية ، ومن خلالها ، يتألق مفكرا ناضجا ، صاحب رسالة يخلص لها في المقام الاول ، وهو ما يغفر له زلاته في المعالجة الفنية ، او ترديه في صنعة متكلفة احيانا ، او رسم شخصيات نمطية .

يقول في تقديمه لقصص المجموعة : « لكل انسان شيطانه ، ورذائل الناس وشهواتهم هي شياطينهم ، تتربص بهم ، وتوسوس لهم بالشر ، وتحاول ان تجذبهم وتغريهم . فهم لو اسلسوا لها قيادهم ، واستعذبوا سحرها وسلطانها ، فهي لا بد ان تستبد بهم . فتلهب اطماعهم ، وتخنق ضمائرهم ، فيتمكن الشيطان منهم ، ويحيلهم في النهاية هم انفسهم الى شياطين » .

وفي هذه السطور تبرز الفكرة التي حفزت الكاتب وألهمته بهذه القصص الثرة العطاء . أسأل الله ان يصد عنا غواية الشيطان ، وان يمدنا بعون منه سبحانه وتعالى ، كي نحرر ارادتنا ونستنهض ضمائرنا ، وان يقينا شرور الشياطين الموسوسة في صدورنا ، وان يعمر قلوبنا ايمان بالفضائل واستهجان للنقائص .

القاهرة — حسني سيد لبيب

* * *

نغم من الخلد

ديوان شعر ــ للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ــ ٢٠٥ صفحات

ديوان « نغم من الخلد » هو الديوان الرابع للشاعر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، اصدرته رابطة الادب الحديث بالقاهرة في مائتي صفحة وخمس من القطع المتوسط ، يشتمل هذا الديوان على اثنتين واربعين قصيدة ، وملحمتين شعريتين ، اولاهما بعنوان : « ملحمة النشيد » وثانيتهما بعنوان « زاهد يحترق في النور » .

والشاعر يلتزم في تلك القصائد جميعها بالوزن والقافية ، ما عدا ملحمتيه السابقتين التي نوع في نغمها الشعري على نحو واضح ، وكان هذا التنويع نفسه ــ فيما اعتقد ــ سببا في اطالة النفس الشعري ، وبخاصة في هذا اللون من الشعر ، شعر المطولات والملاحم ، الذي يقتضي الطول والموضوعية والخيال المسرف ، وما الى ذلك ، وكذا قصيدته التي عنوانها : « الوداع الاخير » التي يعود تاريخها ــ على حد تعبير الشاعر نفسه ــ الى اربعين عاما مضت ، وهي من الشعر المقطوعي الذي يتفق فيه الوزن من اول بيت في القصيدة الى آخر بيت فيها ، مع تغير القافية كل عدة ابيات ، وهذا التنوع الواضح في النغم الشعري سواء في ملحمتيه السابقتين ، او في قصيدته السابقة ايضا يذكرنا بصنيع شعراء مدرسة ابولو الشعرية الذين درج معظمهم على تنويع النغم في القصيدة الواحدة حتى تستوعب شتى الانفعالات والعواطف ، ومختلف النبرات والخواطر ، فالشعر الجيد ــ عندهم ــ انما يكون بارتعاشاته وهمساته ، وايحاءاته وايماءاته ، وما فيه من خلجات الافئدة ، ونبضات القلوب ، ووحي العاطفة ، وتحفز الشعور والوجدان .

وقارىء هذا الديوان يحس بالاسلامية النقية ، والايمانية الواضحة تتدفق في جل قصائده ، وتترقرق بين ادواحه وخمائله ، وبخاصة في قصائده : (يا عيد) و (موكب علوي) و (انسان القرآن) و (انسان الاسلام العظيم) و (يا دار حبي) وغيرها .

وهو في قصيدته الاخيرة يوهمنا بانه انما جعلها في بكاء دار احبابه ، والتفجع على مفارقته لها ، ونأيه عنها ، بيد ان نظرتنا اليها لا تلبث ان تتغير سريعا كلما امعنا في القراءة بيتا بعد بيت ، اذ لم تكن دار حبه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على الحقيقة سوى ارض مكة المكرمة التي زارها ، ووصل في اثناء اقامته بين ارجائها بين ماضي الاسلام وحاضره ، وبين اسلاميته القوية وايمانيته الفوارة وتلك البقاع الطاهرة ، ومواطن الذكريات العامرة ، حيث يقول :

يا ارض مكة طبت من ارض مبا ... ركة وطال على الهوى اسعادي
فيك المنى، وبك الرؤى، ولك الهوى ... يـا ارض مكة منك كان سهادي
ما ذقت يا ارض الهوى طعم الهوى ... ابـدا بغيرك يـا منـى آمادي
انت التـي اسعدتني انت التي ... بهواك كـل هواك كـان جهادي
في الكعبـة الشماء والحرم الامي ... ن وزمزم والحجر طـال رقادي
والى الصفا والمروة البيضاء والـ ... حجر الاثـم حججت في اعيادي
والركـن يبسـم والمقـام منـور ... والحشـد والحجـاج كالآبـاد
ان كان يحسدني الحسود فقد تضا ... عف في هوى دار الهوى حسادي
ودعهتـا وبقلبـي المكلـوم نـا ... ر كاللظـى شبـت بـلا ايقـاد

هذه العاطفة الحارة التي يحسها القارىء وهي تتدفق في ابيات القصيدة يستعين الشاعر في سبيل ابرازها بذلك الاسلوب المتدفق الفوار في غير انقطاع حين يقول :

فيك المنى، وبك الرؤى، ولك الهوى ... يـا ارض مكة منك كان سهادي
انت التـي اسعدتني انت التي ... بهواك كـل هواك كـان جهادي

ثم بذلك الحشد الهائل من الكلمات التي تشير الى اروع ما على ارض الحرم المبارك من مشاهد ومزارات ، لها قداستها ومنزلتها في نفوس المسلمين في شتى البقاع من امثال : (الكعبة) (الحرم) (زمزم) (الحجر) (الصفا والمروة) (الركن) (المقام) (البيت الحرام) .

وهو حين يذكرها انما يجد في هذا الذكر لذاته ، ومنى نفسه وخاطره ، فقلبه ينبض بحبها ، ولسانه يترجم عن جليل قدرها ، وعواطفه مشدودة دوما اليها ، حتى انه ليتمنى ان يقضي البقية الباقية من عمره بين افيائها :

يـا ليـت ايامي هنـاك وليتني ... في ارض احلامـي ودار تـلادي

ذلك لانها على حـد قول الشاعر :

كل السنا من نورها ، كل السنا ... في قربها ، كـل الهوى بفؤادي

وفي نهاية القصيدة يشتعل قلبه حماسة وتضج روحه وفاء للرسول الاسلام العظيم ، نحس ذلك في قوله :

قدس من الاقداس في دار الهوى ... نعمت بـه روحي وطاب فؤادي
وشريعـة مـن احمـد ومحمـد ... صلـى عليـه الله في الآبـاد
صلـى عليـه الله في الآحـاد ... صلـى عليـه الله في الاشهـاد
صلـى عليـه الله اكـرم مرسل ... سمت الحياة بـه وعـز الوادي

والشاعر في جل قصائد الديوان يمزج بين الروح الدينية والنزعة الوطنية الخالصة ، وهو في ربطه بين الاتجاهين ، ومزجه بين الفرضين لا يتورط في عيب يزري بقيمة شعره ، او يغض من شانه ، فلا فجوات ظاهرة ، ولا انقطاع فجائي في روحه الشاعرة ، بل اتصال والتحام ، وتواؤم واتزان ، ففي قصيدته : (انسان القرآن) المتشحة بثوب خالص من الشفافية الدينية ، والمتزرة بغلالة رقيقة من الايمانية القوية يقول :

يـا ليلـة البعث الجديد تحدثي ... عن كل ماض في العلا لـم يهزم
طويـت صحائفـه وغاب صباحه ... ومضـت مفاخـره بطـول تنـدم
وتحدثي يـا ليلتـي عـن حاضر ... بالهـون بالالـم المضاعف مفعـم
والمسجد الاقصى هنـاك وقدسنا ... باتـا بمأدبـة اللئـام اللـوم
ونقيم نحن علـى الشجا وكانما ... نحيـا ونحـن بأرضنـا بجهنـم
لا لن ننام عن النضال عن الكفاح ... عـن التراث وكـل فخر المسلم
ولسوف نشعلها لظـى متاججـا ... ونقـول للبطـل المدجج اقـدم
قومي الالى استولوا على الدهر فتى ... ومشوا الـى الآمال فوق الانجم

وبامكاننا ان نعثر على انماط اخرى من هذا الصنيع الفذ في قصائده : (الى عرفات) و (امم تطوى) وغيرهما ، بل ان هذا الصنيع نفسه يتعدى قصائده المطبوعة بطابع الدين ، او التي تظهر عليها مسحة من التصوف الى قصائده الرائية الباكية ، التي لا يرثي فيها صديقا ولى ، ولا يبكي فيها خلا وفيا ودع الدنيا ، وانما يبكي فيها جده وحظه ، ويومه وامسه ، ونهاره وليله ، ففي قصيدته : (سراب) التي تكتنفها روح عالية من الرومانطيقية المحلقة المبدعة يقول :

وي لامسـي ولأيامـي وي ... ولليلـي ونهـاري العبقـري
المنـى كـل المنـى قـد ذهبت ... وتـلاشت بـددا مـن راحتـي
وبقايـا الحلـم كانـت بيـدي ... ايـن مـا كـان قريبـا بيـدي
ايـن امس الصفو ولى ومضى ... ثـم ابقى لي الاسى في وجنتي
والـرؤى اضحت خيـالا ودجـى ... بعـد مـا كانت سنى في ناظري
وسـراب كـاذب يخدعنـي ... كلمـا سـرت ويغشـى ناظـري

تجربة وجدانية لا احسبها الا صادقة ، تجربة حية نابضة ، عاشت في نفس الشاعر ، وغشيت روحه ، واستقرت في وجدانه ، وطفت على احاسيسه ومشاعره ، وفجاة طفت على سطح شاعريته ، بعد ان سبحت طويلا في اعماقه المثخنة بالجراح ، المفعمة بالآلام فكانت تلك الابيات وغيرها ترجمة صادقة عنها ، وبيانا واعيا لكل ما يكتنفها ، ويجلل جوانبها من شعور واحساس .

بيد انه وهو في قمة الانفعال الكآبي ، والاسى الشاجن يعود الى ماضي امته ، امة الاسلام العريقة فيعدد صورا من امجادها الذاوية وآمالها المحطومة ، واحلامها المضيعة ، ثم يرسل اناته الخالصة ، وتوجعاته الآلمة حين قال :

يـا لماضي امتـي ايـن مضـى ... ايـن ولى ذلـك الماضي الزكي ؟

ويفيق الشاعر على حقيقة هذا العصر ، وما تنطوي عليه سرائر اهله من تفريط في الدين ، وتضييع لكتاب الله ، وهي حقيقة مرة بلا شك لذا اخذت الابيات تنساب من جديد في بحر لجي من المآسي والاحزان والهموم والاشجان ، وهو نفس البحر الذي سبحت فيه ابيات القصيدة طويلا ، ثم كانت اجابته على السؤال الذي طرحه آنفا :

حطمتـه امتـي حـين رمـت ... بكتـاب الله بالنـور السنـي

وفي قمة اليأس الذي سيطر على روحه من كل اصلاح تنتظره الامة يعود الى الشاعر الامل من جديد ، ويعبث بذهنه وخاطره نور يلوح من بعيد في غضون المستقبل الزاهر الذي تنتظره امة الاسلام التي لا تقهر ولا تذل ، ولا تهان ولا تضام :

امتـي لا تيأسـي لا تيأسـي ... معـك العـزة مـن وحـي نبـي
ومـع اليـوم غـد يصنعـه الـ ... ـلـه بالديـن وبالهـدى السـوي

وتطغى الروح الوطنية التي خصها بعدة قصائد من بينها : (وطن الخلد) و (انتصار الشعب) و (شهيد العروبة) و (هي الاحلام) و (الى الشباب) وغيرها ، تطغى هذه الروح على باقي قصائد الديوان على نحو واضح اكيد .

والديوان — بحق — يتحول في جانب كبير منه الى سجل حافل بالمكرمات والذكريات الاسلامية الخالدة ، والنماذج الوطنية الفارهة ، التي ترفد الشاعر فيها ثقافة عالية منوعة الروافد ، ولا غرو فالدكتور الشاعر او الشاعر الدكتور مكتبة عامرة متنقلة ، وهي تشبيه اسمح لنفسي باثباته في هذا المقام ، يشهد على ذلك اعماله التي تراوحت بين التاليف والشرح والتحقيق ، والاشراف على العديد من الرسائل الجامعية ، وغير ذلك .

اقرا له مثلا قصيدة (يا عيد) او قصيدته (صوت من التاريخ) او غيرهما من قصائد هذا الديوان من امثال : (امم تطوى) و (دارها الشمس) لتحس بان الشاعر قد تحول فيها جميعها الى موسوعة ضخمة ترفد القارىء بمدد لا ينقطع من الامجاد الاسلامية الذاوية ، والمفاخر العربية المطوية في سجل الزمن ، والمكفورة في تربة الايام والدهور .

والشاعر فوق هذا يحسن استخدام الصورة في شعره ، وهو لا يقنع في ذلك بالواقع المحس كان تاتي صورته صورة مكرورة لنظيرتها في الحياة ، ولكنه يضفي عليها من رهيف حسه ، وصادق عاطفته ما يجعلها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جديرة بالبقاء والخلود ، ففي قصيدته (الحلم الكبير) يترجم عن اسمى معاني الحب والوفاء للبلد الحرام مكة ام القرى ، بعد ان شارفت رحلته اليها على الانتهاء حين قال :

ولمت اثوابي وعدت بعبرتي ... والدمع والاحزان تملأ رحلنا
ونظرت والنور المشعشع رائدي ... ويغيب حينا ثم يبدو خلفنا
وتسير بي سيارة مذعورة ... مثلي اكفكف بالتعلل شجونا
تعسا لها وكأن صوت زئيرها ... نعب الغراب الشؤم او تعسا لنا
وتصدني قمم الجبال وانثني ... بيدي على كبدي وامسح جرحنا
واقول : يا للدهر فرق بيننا ... وغدت ليالي الوصل تندب حظنا
وانا الجريح وعادت الايام تة ... طع بالفراق وبالتشتت شملنا
واطل الدمع الهتون وصورة ... الماضي الجميل.. وآه من هذا الضنا

هذه الصورة الكاملة فوق ما اضفاه عليها الشاعر من رهيف حسه وصادق عاطفته يحشد لها جملة كبيرة من الالفاظ ، التي تعين على اعطاء الصورة حجمها الطبيعي ، وابعادها الحقيقية التي ارادها لها من امثال : (عبرة) (دمع) (الاحزان) (مذعورة) (اكفكف شجونا) (تعسا لها) (نعب الغراب الشؤم) (امسح جرحنا) (فرق بيننا) (الدمع الهتون) الخ ...

ثم يوازن بين تلك السيارة المذعورة وبين نفسه التي نكاها الدهر بالفراق ، وما جره من جراح وآلام تارة ، وبينها وبين الغراب الناعق الذي يضرب به القوم المثل في الشؤم وسوء الطالع تارة اخرى ، وهي مقابلة ما اظن الشاعر قد افتعلها ، ثم دسها في شعره ، وجعلها احدى مكونات صورته عبثا ، وانما هي في الحقيقة وليدة احساس صادق ، وعاطفة قوية جياشة ، وانفعال واضح اكيد فجره في نفسه ، ثم بين السطور التي نقل من خلالها تجربته ما كان يحس به من مرارة الرحيل وألم الوداع .

ويفرق الشاعر في احزانه واشجانه في بعض قصائد الديوان ، ويترجم عما يلاقيه من معاناة صحيحة ، نابعة عن مجاهدته للحياة ، ومجاهدة الحياة له ، فالحياة التي قد يكون لها وجهها المشرق في بعض الاوقات ، لا تلبث ان تتحول في غيرها الى مخلوق له ألف وجه عابس ، يعلوها الوجوم ، وهنا يكون الانفعال وتشتد وقدة العاطفة في نفس الشاعر الذي يبلي في مجالدة الحياة ، ومجابهة الزمن ، وتحدي رياح العدم ، فيكون الصدق وروعة الاداء .

يبدو ان شاعرنا في عراك دائم مع الحياة ، ينتصر عليها مرة وتنتصر عليه مرات ، وهكذا شأن الحياة مع الناس ، ان هذه المعركة الحامية المتصلة في نفسه على غير انقطاع مع الحياة ينطبع اثرها على نفسه ، ومن هنا كانت قصائده السابحة في اجواء خالصة من الرومانطيقية المحلقة المبدعة ، ان البسمات عنده تتحول الى عبرات تعصر اعماقه ، وتهز وجدانه وخافقه :

بسماتي عبرات عصرت ... كل اعماقي وهزت خافقي

وان الفيد لينفرن منه بعد ان رأين الشيب يزحف نحو هامته ويغشى عارضه ولمسته ، ولهذا يرى نفسه عزبيا في دنيا المغاني والغواني والمنى ، حتى الطيف يجنو به كالمال ، ويهجره في غير وصال ، نطالع هذه المعاني وغيرها في قوله :

نفر الفيد لرأي الشيب في ... هامتي في لمتي في عارضي
ما امر البين كم اشقى به ... يا لزمان الغادر الحر الشقي
يا اخلاء شبابي والصبا ... انا بعد الوصل بالناي قصي
المغاني والغواني والمنى ... انا منهن غريب اجنبي
واجتواني الطيف حتى الطيف به ... جرني كالمال يا لي من شجي

صورة حزينة راثية ، وواقع أليم مر ، لا يقل عنها في صداها القابض ، ووقعها الآلم ، ونبضها الحزين قصيدته (اين الصدى ؟) التي يقول فيها :

كل احلامك عادت سدى ... لا تقل لي : اين الصدى
ذهبت كل المنى بددا ... ومع اليوم كرهت الغدا

وتستمر ابياته على هذا النمط الشاجن الساهم ، والنحو الحزين الراثي حتى انه ليتمنى انه لو كان جمادا ، او زبدا على امواج اليم ، أو موعدا حلوا على فم العذارى ، او بلبلا غردا على الدوح ، او قطرات حلوة من الندى تترقرق على الزهر في رعشة عذرية في وقت السحر ، ثم يقول :

لا تقل لي لم هذا ؟ فا ... نى من الناس نفضت اليدا
وكأني آه في قمقم ... وعلي الباب قد وصدا
يا اخي تلك الشجون تعي ... ش وتحيا بيننا ابدا
قد تحداني الزمان وما ... يصنع العاجز طول المدى

وفجأة يعاوده الامل الذي كان قد افتقده — على ما يبدو — في زحام الايام والليالي ، فتنفرج اسارير وجهه ، ويزايله العبوس فيقول :

ربما تأتي الليالي بما ... بهر الحلم به الامدا
ليس في الدنيا محال وما ... يعجز الساعة قد يأتي غدا

هكذا يطوف بنا الشاعر في آفاق نفسه المبهمة ، ويسري بنا في اغوارها الملتوية ، ويضرب على كل وتر آس حزين ، ويطيف بأذهاننا صورا شتى من الهموم الثقال ، والمآسي العظام ، ثم يفجؤنا في النهاية بتلك النبرة الآملة ، والهمسة الحلوة الواعدة ، فخفف عنا كثيرا وقع الهموم ، وازال عنا ركاما هائلا من الاحزان .

ويلفت نظرنا في الديوان قصائده الكثيرة التي كانت تقوم عنده مقام الرسائل الاخوانية ، او الهدايا الغالية السنية ، يزجيها في امتنان عظيم الى اصدقائه وخلانه في مصر ، وفي غيرها من بلاد العروبة والاسلام ، وهي وان اتسمت بطابع الشاعر الشخصي ، لانها في الحقيقة قطعة من حياته ، ونبضة قوية من نبضاته ، الا انها لم تخل من لمسة شاعرة في كثير من الاحيان ففي قصيدته (بقايا حلم) التي اهداها الى الاديب السعودي الكبير عبد العزيز الرفاعي نطالع له هذه الابيات التي توج بها قصيدته :

امسيات الخميس طبت وطابت ... في الليالي ليلاتك الخالدات
وكأن الشتاء منك ربيع ... والربيع الزهور والبسمات
انا لي فيك ساعة من صفاء ... يعذب السعي بعدها والسبات
واقول الغداة : لا قدم الصـ ... ـيف ولا جاءتنا له ليلات
انقل الخطو فيه على الشو ... ك وشمل الاحباب فيه شتات
وغدى آه كله لفح صيف ... فاتني الحب والاحباء فاتوا
وستبقى لهم على الدهر ذكرى ... اين منها الافراح والذكريات ؟

الى ان قال :

ايها القلب يا فؤادي المعنى ... حسبك الشجر المر والعبرات
وجفاء الاحباب والقيل والقا ... ل وعذال في الهوى ووشاة
فعلى ايام الوصال صلاة ... وعلى ايام الهوى الرحمات
هي في قلبي سلوة وحنين ... وهي في سمعي اللحن والنغمات

وهذا الوفاء الذي يتغلغل في مسارب تلك الابيات ، وينبث بين ارجائها يجعلنا نشد على يديه ، ونطلب منه المزيد من القصائد والاشعار التي نرجو لها ان تتحول الى رافد جديد يصب في نهر العربية الخالد ، فيزداد بذلك للعربية خيرها وعطاؤها في المستقبل الواعد القريب .

جامعة الازهر — اسيوط ... محمد سعد حسن نشوان

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ ــ صلاة بدائية

للشاعر محفوظ داود سلمان ــ منشورات وزارة الاعلام العراقية
٩٦ صفحة ــ دار الحرية للطباعة ــ بغداد

دأبت وزارة الاعلام العراقية على نشر المزيد من دواوين الشعراء في العراق والبلاد العربية على حد سواء فكان جهدا مشكورا وعملا مباركا وفر على اكثرهم تكاليف الطبع والتوزيع الى جانب اغناء المكتبة العربية بالدواوين الشعرية الحديثة ، ومن هذه الاصدارات في سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث ديوان الشاعر محفوظ داود سلمان والموسوم بـ « صلاة بدائية » .

يتالف الديوان من ثلاثين قصيدة كتبت خلال الستينات الا قصيدة واحدة « الرؤيا » فانها كتبت عام ١٩٧٥ .. كل القصائد عمودية الايقاع تظهر في بعضها انفاس الياس ابو شبكة في « افاعي الفردوس » استمع اليه يقول في قصيدته « حواء في حانة » :

لم تزل حواء فيها وهج ... من دم الاثم وجرح في الضمير
لم يزل في دمها نبع اللظى ... يتجلى افعوانا في سرير
وبعينيها جذى شيطانها ... يلهب النيران في الطين الحقير

وسدوم تبقى قاسما مشتركا بين الشاعرين الا ان شاعرنا يغرق في اعماق مأساوية تلون قصائده باصباغ حزينة كانها ترانيم صوفية تتجرد عن كل معطيات العصر ولعلها انعكاسات الواقع الذي مر به الشاعر آنذاك .. وللشاعر قصائد قومية ووطنية امثال : الفجر العربي . وصوت من قبر عربي في فلسطين . وصوت من عدن .

٢ ــ صفحات من كتاب الحياة

شعر صالح مهدي عماش ــ منشورات وزارة الاعلام العراقية
١٦٠ صفحة ــ دار الحرية للطباعة ــ بغداد

يضم الديوان اثنتين وعشرين قصيدة تتسم بحرارة الايمان في سبيل تحقيق الاهداف القومية في المستقبل الزاهر وصدق التجربة والانفعال الذاتي والحماس المتدفق على غرار قصائد محمود سامي البارودي لان كلا الرجلين كان ضابطا تتغلب عليه الروح الحربية والنزعة العسكرية يؤمن ايمانا مطلقا بالجحفل الجرار والمدفع الهدار والطعن والاقدام يقول :

آمنت بالجحفل الجرار يلهبه ... عزم اطاح باهل الغدر والكذب
آمنت بالمدفع الهدار آيته ... صوت يفرق بين الجد واللعب
آمنت بالمدفع المغوار يسنده ... نسر يصول وكم في النسر من رهب
آمنت بالشعب في نيل الحقوق كما ... آمنت بالطعن والاقدام والحرب

ويثور الشاعر على واقع التجزئة والاستلاب :

هل المنى ثوى والسيف ممتنع ... وهل علي هوى في كوفة الغدر
لا ذو الفقار يرد الجيش منكسرا ... ولا البويب يناجيها بنو مضر

وشاعرنا ابو هدى يحدوه الوفاء الى توديع عميد السلك الدبلوماسي فيقول :

أتدري ان ذكرك سوف يبقى
وان الشوق اليك لن يوقى
فاني لن احاول ما تبقى
من الايام ان انساك حقا

ويتذكر الشاعر فتاة (سلوفتسكي دوم) في براغ فتزول عنه نزعته العسكرية ويتحول الى ملاك رحمة .

وينتهي الديوان فشكرا لوزارة الاعلام العراقية ومن الله التوفيق .

الكوت ــ العراق — كاظم محمد حسين



الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ٢٥ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ١٠٠ ل.ل.

في الخارج العربي : ٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
١٠٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

سائر الاقطار : ٢٥ دولارا بالبريد العادي
٥٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية : ٥٠ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج ١٠٠ ل.ل. او ٥٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

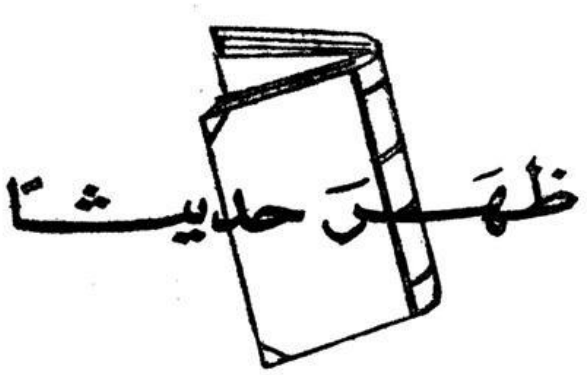
الادارة : ٢٢٣٨١٩ Dir. 223819
المنزل : ٢٢٥١٣٩ Dle. 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ــ صندوق البريد رقم ٨٧٨ــ١١
بيروت ــ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



● تاريخ القضاء الاداري ونظام مجلس الدولة في سورية ، نصوص دستورية وادارية غير منشورة — تاليف الدكتور عدنان الخطيب — ٢٧٢ صفحة — حجم كبير — مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة — دار نافع للطباعة (القاهرة) .

● ترنيمة الامل — شعر — سعيد الصقلاوي — الرسوم الداخلية والغلاف بريشة الشاعر — ١٦٠ صفحة — منشورات وزارة الاعلام والثقافة بمسقط سلطنة عمان — المطبعة الحكومية بمسقط .

● العالم يبدأ من هنا — مجموعة قصص — تاليف مالك عزام — مصمم الغلاف عزيز اسماعيل — ٩٦ صفحة — مطبعة الرازي (دمشق) .

● عودة الفيضان — شعر — عبد السلام هاشم حافظ — ١٣٦ صفحة — مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة .

● ستائر الهودج — نثر وشعر — تاليف شفيق معلوف — خطوط العناوين لجان نخله — ١٤٤ صفحة — (صدر في سان باولو بالبرازيل) .

● عنب من اليمن — مجموعة شعرية — علي محمد لقمان — ١٤٤ صفحة — دار القومية العربية للطباعة بالقاهرة .

● ١٧ قصة قصيرة لابراهيم العبسي وابراهيم الخطيب واحمد عبد الحق واحمد عودة وانور ابو مغلي وحسن ابو لبه وخليل السواحري وسالم النحاس وسعادة ابو عراق وعدنان علي خالد ومحمد ابو صوفه ومحمد خروب ومصطفى صالح ووليم هلسه ويوسف الغزو ويوسف حمزه ويوسف يوسف — مصمم الغلاف يوسف الحوراني — ١١٢ صفحة — منشورات رابطة الكتاب الاردنيين — المطبعة الاقتصادية في عمان .

● قصائد دامية الحرف بيضاء الامل : من اجل لبنان — شعر — عبدالله العلايلي نائب رئيس الاكاديمية اللبنانية — ٧٢ صفحة — حجم كبير — مؤسسة ا. بدران وشركاه — مطابع ا. بدران وشركاه ببيروت .

● هل تذكرين ؟ — شعر — الدكتور باقر سماكة — ١٠٤ صفحات — خط هذا الديوان الفنان كريم حسين — مطبعة اوفست الوسام ببغداد .

● الينابيع — شعر — محمد بن علي السنوسي — ١١٢ صفحة — حجم كبير — مطبوعات نادي جيزان الادبي — شركة المدينة للطباعة والنشر في جدة السعودية .

● على الهامش — تاليف هلال ناجي — ٢٧٢ صفحة — منشورات اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين — دار الحرية للطباعة ببغداد .

● وجه في مرآة الشمس — شعر — خالد الخزرجي — مصمم الغلاف صباح التميمي — ٨٠ صفحة — ساعدت نقابة المعلمين العراقية على طبعه — مطبعة الاجيال (بغداد) .

● شعر ابن طباطبا العلوي — تحقيق وتقديم جابر الخاقاني — ١٨٢ صفحة — منشورات اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين — دار الحرية للطباعة ببغداد .

● الخلافة في العصر الاموي : القابها . عقدها . شروطها . طرقها علاماتها . خططها الدينية . وظائفها : ولاتها ، دواوينها ، جندها ، راتبها وبذخها ، آراء الفرق فيها — تاليف ثريا ملحس — ٦٨ صفحة — حجم كبير — صدر في بيروت — (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الخلفاء الامويون : اعمالهم ، اهم الحوادث ، اهم الوفيات ، ولاتهم — تاليف ثريا ملحس — ٢٨ صفحة — حجم كبير — صدر في بيروت — (لم يذكر اسم المطبعة) .

● ايليا ابو ماضي : دراسات عنه واشعاره المجهولة — تاليف جورج ديمتري سليم — ٣٠٨ صفحات — حجم كبير — منشورات دار المعارف بمصر — سلسلة مكتبة الدراسات الادبية رقم ٧٠ — مطابع دار المعارف بالقاهرة .

● زينة — رواية — تاليف مهدي النجار — ٦٤ صفحة — منشورات مجلة الثقافة ببغداد — مطبعة التضامن ببغداد .

● مواقف مع الصحافة العربية — تاليف ياسر الفهد — صمم الغلاف ابو المهند جهاد عساف — ٨٤ صفحة — حجم كبير — مطبعة خالد بن الوليد (؟) — (صدر في سورية) .

● جعفر الخليلي والقصة العراقية الحديثة — كتبها بالانجليزية جون توماس هامل ونال بها درجة الدكتوراه من جامعة مشيغن — قام بترجمتها : وديع فلسطين والدكتور صفاء خلوصي — قدم لها محمد عبد الغني حسن — ٣٢٠ صفحة — حجم كبير — الدار العربية للطباعة ببغداد .

● الآثار الخطية في المكتبة القادرية في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني — تاليف الدكتور عماد عبد السلام رؤوف — الجزء الثاني — ٥٦٤ صفحة — حجم كبير — دار الرسالة للطباعة ببغداد .

● ابو هريرة وكوجكا — قصة مدينتين — تاليف ذو النون ايوب — ١٧٨ صفحة — كتب بخط اليد — صدر في فيينا النمسا .

● انا .. وانت وقوس قزح — مجموعة شعرية — نهاد رضا — الرسوم لسحر ارناؤوط — ١١٢ صفحة — مطبعة دار الحياة بدمشق .

● البعد اللامنظور — مجموعة شعرية — نهاد رضا — الرسوم لسحر ارناؤوط — ١١٠ صفحات — مطبعة دار الحياة بدمشق .

● الباهرة — رواية — تاليف املي نصرالله — الغلاف لرضوان الشهال — الرسوم الداخلية لمنى نصرالله — ١٩٢ صفحة — منشورات مؤسسة نوفل ببيروت — طبع في دار غندور (بيروت) .

● الابيض والاسود وقصص اخرى — تاليف جمعه محمد جمعه — ١٢٨ صفحة — مطبعة الجبلاوي (القاهرة) .

● ديوجين الحكيم — مسرحية شعرية في اربعة فصول — تاليف عدنان مردم بك — ١٤٠ صفحة — منشورات مؤسسة الرسالة في بيروت (لم يذكر اسم المطبعة) .

● احمد بن الجزار — تاليف رشيد الذوادي — ٤٠ صفحة — سلسلة عظماء بلادي — منشورات دار النجاح للطباعة والنشر والتوزيع في تونس — (لم يذكر اسم المطبعة) .

● محمد العربي زروق — تاليف رشيد الذوادي — ٤٠ صفحة — سلسلة عظماء بلادي — منشورات دار النجاح للطباعة والنشر والتوزيع في تونس — (لم يذكر اسم المطبعة) .

● السقوط في الليل — مجموعة شعرية — حسين علي محمد — الغلاف والرسوم ليوسف غراب — ٤٠ صفحة — ساعد اتحاد الكتاب العرب بدمشق على طبعها بمطابع روتا برنت للطباعة بالقاهرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com